

النَّيْسَبُ فِي النَّفْسِ

الجزء الخامس

الحاج - التَّوَم

تأليف

العالم الرباني الكبير فقيها القرآن

السيد / بدر الدين بن أمير الدين الحوثي الحسني

رضوان الله عليه

تحقيق

محمد بدر الدين الحوثي

عبدالله بن محمود القزبي



مؤسسة المصطفى ﷺ الثقافية

التفسير في التفسير

تأليف العالم الرباني الكبير فقيه القرآن السيد/ بدر الدين بن أمير الدين الحوثي رضوان الله عليه
تحقيق: السيد/ عبد الله بن حمود العزي ، السيد/ محمد بدر الدين الحوثي

الطبعة: الأولى ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م

جميع الحقوق محفوظة ©

قياس القطع: (٢٤×١٦,٥)

عدد المجلدات: (٧)

الصف والإخراج: مؤسسة المصطفى ﷺ الثقافية

إخراج وتنسيق / علي بن حمود العزي

رقم الإيداع بدار الكتب اليمنية: (٢٠١٣/٣٢٥م)



مؤسسة المصطفى ﷺ الثقافية

جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة المصطفى ﷺ الثقافية

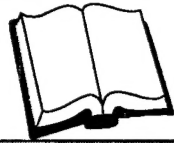
اليمن — صعدة

جوال: (٠٠٩٦٧-٧١١٦٦٤٧٥٩) - (٠٠٩٦٧-٣٣٩١٢٧٧٧) - (٠٠٩٦٧١١٣٧٦٧٦٢)

بريد: hbbhd@gmail.com - almostafa.ye@gmail.com



التيسير في التفسير



سُورَةُ الْحَجِّ



يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقْوَى رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿٦٠﴾
تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ

والراجع: أن بعضها (مكي) وبعضها (مدني)

وفي (مصاييح الشرفي): «مكية غير ست آيات ﴿هَذَانِ خَصْمَانٌ﴾ إلى ﴿صِرَاطُ الْحَمِيدِ﴾» انتهى. قلت: ومن قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ مدنية، ويترجع: أن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَعَفَوْ غَفُورٌ﴾ والآيتين الأخيرتين في السورة كل ذلك مدني، وقد قيل: إن السورة (مدنية).

[illegible]

﴿وَزَلْزَلَةَ السَّاعَةِ﴾ إن حمل على الحقيقة فهي ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤] ولكن حمله على المجاز قريب وهو أن المراد بزلزلة الساعة: أهوالها التي تكون قبل البعث وأهوالها التي تكون بعده، كما قال تعالى في (الأحزاب): ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [آية: ١١] فقال تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ والمعنى في الفرع من اجتماع الأحزاب ضدهم لا برجفة الأرض.

وقوله تعالى: ﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ يدل على أنها أهوال لا تحتمل والفرع فوق ما يتصور فينبغي لكل عاقل أن يستعد لها بتقوى الله.

حَمَلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٦١﴾

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمَلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ سواء كان الضمير للساعة أم لزلزلتها؛ لأن الفزع من الساعة باعتبار زلزلتها وعذاب الله؛ ولأن الفزع من زلزلتها من أجل ما يكون من أهوال القيامة، أعم من رجفة الأرض وتحطم الجبال ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمَلَهَا﴾ تذهل: تنسى من شدة الهول ما أرضعته كأنها ليس لها ولد، وتضع كل ذات حمل في بطنها حملها من الفزع، وهذا في أول أهوال القيامة قبل هلاك الناس من الصيحة الأولى، فأما جعله مجرد تمثيل لا حقيقة فهو بعيد لأن أسلوب الكلام لا يناسبه، وعلى هذا فزلزلة الساعة أهوالها، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ﴾ أي في أول أهوال القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ﴾ يراهم الرائي سكارى رؤية البصر، فهم في شكل السكارى في حركاتهم بلا شعور ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ﴾ لأن أذهانهم باقية، ولكنها متجهة إلى شيء واحد هو عذاب الله كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فالخوف منه هو الذي جعل الناس سكارى، وهذا في غير المتقين، لأن الله تعالى أمر بالتقوى؛ لأن التقوى تنجيهم من الفزع الأكبر ومن العذاب، بدليل قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ فِدْلَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ﴾ عَلَى التَّعْلِيلِ، وَبَدِيلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] وغيرها.

كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١﴾ يَأْتِيهَا
النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَكُم مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ

﴿١﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ
مَّرِيدٍ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ ﴿٣﴾ عَظَفَ عَلَى الْأَمْرِ بِالتَّقْوَىٰ، وَذَكَرَ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ
وَعَذَابَ اللَّهِ الشَّدِيدِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: وَمَعَ أَنَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ مِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ
فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لَا يَسْتَعِدُّ لِلْآخِرَةِ وَلَا يَتَّقِي رَبَّهُ ﴿٤﴾ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ
كَانُوا يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ بِمُجَادَلِهِمْ فِي قُدْرَتِهِ وَقِيَاسِهِمْ لِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ قُدْرَةِ
الْمَخْلُوقِ ﴿٥﴾ قَالَتْ مَن يُخَيِّ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٦﴾ [يس: ٧٨] ﴿٧﴾ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا
وَرَفَآئِنَا أَتِنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٨﴾ [الاسراء: ٤٩].

وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لا يجادل بحجة يحصلها العلم إنما يجادل
بالجهل، ومجرد الاستبعاد الذي لا يعتمد على علم ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ﴾
فأي شيطان دعاه إلى الباطل اتبعه سواء كان من شياطين الإنس أم من
شياطين الجن، فيتبعه بلا حجة بل لهوى نفسه، وقوله: ﴿مَرِيدٍ﴾ قال الشرفي
في (المصابيح): «أي عاتٍ خارج عن طاعة الله تعالى عارٍ عن الخير من
قولهم: شجرة مرداء» انتهى.

وفي (الصحيح): «والمارد: العاتي، وقد مرَّد الرجل بالضم مرادة فهو مارد
ومريد» انتهى، وفي (مفردات الراغب): «والمارد والمريد من شياطين الجن
والإنس المتعري من الخيرات من قولهم: شجر مرد إذا تعرى من الورق»
انتهى.

﴿١﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ
﴿٢﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ ﴿٣﴾ أي على الشيطان المذكور كتب عليه، حَكِمَ عليه حتى لا

ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّينَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ ﴿٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ

ينفك عنه وصفه الذي هو ﴿أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ﴾ الشيطان هذا أو كتب عليه جعل عليه سمة يعرف بها ولا تنفك عنه ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ ومعنى تولاه الشيطان: استحوذ عليه وسيطر عليه ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ عن سبيل الله ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ بدلاً من هداية الله له إلى الجنة فالتعبير بالهداية مشاكلة تقديرية مع لطف الجمع بين يضل ويهدي.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّينَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ خطاب للبشر كلهم لضرورة أن يعلموا بالبعث ويعرفوا دلائل قدرة الله تعالى على كل شيء ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ﴾ في شك وقلق من أن البعث سيكون، فهذه الآيات تفيد العلم اليقين بقدرة الله تعالى على البعث الذي هو إحياء الموتى وإخراجهم من القبور، وتدفع استبعاد ذلك ﴿فَإِنَّا﴾ أي فإن الله ﴿خَلَقْنَاهُ مِنْ تَرَابٍ﴾ وذلك إما خلق آدم الذي

هو أبو البشر، وإما خلق آدم وذريته؛ لأن المني من الغذاء والغذاء أصله من الشجرة والشجر تنشأ من الماء والتراب، فهذا دليل قدرة خارقة لا تقاس على قدرة المخلوقين أن يتحول التراب إلى إنسان يسمع ويبصر، فكيف لا يقدر على النشأة الآخرة.

﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ وكذلك خلق الإنسان من النطفة التي هي المني السائل وتحويل النطفة إلى إنسان له صورة ومفاصل وأعصاب وعروق وغير ذلك ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ وهي الدم الجامد تحولت النطفة دماً جامداً ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ والمضغة كقطعة لحم ممضوغة مخلقة ببعض صورة الإنسان قبل تحولها إلى عظام، وغير مخلقة لم تتخلق إلا عند استحالتها إلى عظام فتصير إنساناً مجهزاً بأعضائه ومفاصل وصور أعضائه المختلفة وقلبه وكبدته وغير ذلك مما فيه من دلائل قدرة خالقه ومصوره ومحياه، فهذا هو الدليل الأول.

وقوله تعالى: ﴿لَبَيِّنَ لَكُمْ﴾ يحتمل أنه تعليل لخلق الإنسان من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة، أي أنه خلقه من هذا ليكون دليلاً على قدرة خالقه وعلمه ولو شاء لخلقه اختراعاً أو من شيء واحد من غير تطوير لخلقته، وهذا أظهر الاحتمالين، والاحتمال الثاني: أنه تعليل لإخبار الله تعالى بذلك، وذكره للناس ليبين لهم حتى يذهب عنهم الريب من البعث.

والدليل الثاني على قدرة الله تعالى على البعث وعلمه: قوله تعالى: ﴿وَنُقَرِّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يبقى الله في أرحام النساء ما شاء من الحمل من ذكر أو أنثى ﴿إِلَى أَجَلٍ﴾ هو نهاية مدة الحمل ﴿مُّسَمًّى﴾ محدود بمحد مسمى، إما مسمى في الكتاب، وإما مسمى يعرفه الناس ويسمونه،

وهو في الغالب (تسعة أشهر) تضع في التاسع أو تزيد قليلاً، فإقرار الحمل في الرحم آية بينة لأن النطفة سائلة من شأنها أن تسقط من الرحم لولا أن الله تعالى أبقاها لتكون إنساناً، فحفظه في البطن آية تدل على قدرة الله وعلمه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ أي نخرجكم من الأرحام حال كونكم طفلاً قد كمل خلقكم وتصويركم واستغنيتم عن البقاء في أرحام النساء، وصلحتكم للعيش بعد الخروج منها، فإقرار الحمل في حال كونه نطفة أو علقة آية عظيمة، ثم إخراجها وقد كبر وتمكن في البطن بكبره وضيق مخرجه، آية عظيمة تدل على قدرته تعالى وعلمه ولطف تدبيره وقدرته على البعث.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ﴾ نخرجكم طفلاً لتبلغوا أشدكم أي لتنمو أجسادكم وقواكم حتى تبلغوا أشدكم أي كمال قواكم ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَتَوَفَّى﴾ قبل بلوغ أشده أو بعده ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ﴾ يبقى و﴿يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْضِ الْوَعْرِ﴾ إلى حال الضعف الشديد وزوال العقل ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ فتصريف حالات الإنسان من حمل إلى طفولة إلى شباب إلى هرم إلى مصيره خرفاً لا يعلم شيئاً بعد أن كان ذا علم، دلائل على مصرفه ومدبر أحواله، ودليل على أنه كما صرفه في الدنيا في حالاته المذكورة قادر على أن يصرفه من الموات إلى حي بعد الموت.

وقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ أي يرد إلى أرض العمر وأفسله، لكي تذهب عنه قوة العلم ويصير كالطفل الصغير لا يعلم شيئاً، فتكون في ذلك آية تدل على الفعل لما يريد الذي وقت حمله، ووقت طفولته، ووقت شبابه، ووقت علمه.

ولو كان صانعه ما يتوهم من الطبيعة لكان على حالة واحدة لا يتحول عنها، ولو كان نموه وقوته للطبع في المأكول ونحوه لما زال ينمو ولما رجع إلى الضعف بعد القوة وإلى الجهل بعد العلم، ولكن صانعه الفعال لما يريد دبره لحياته على ما يريد وصرف أحواله كما يريد، وكذلك يحيه بعد الموت ويعيده كما بدأه.

والدليل الثالث: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ فترى الأرض إذا أبطأ عنها الماء هامدة كأنها ميتة؛ لأنها لا تصلح لإنبات نبات ونباتها يابس ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا﴾ أنزل الله ﴿عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ قال سيد قطب: «وهي حركة عجيبة سجلها القرآن قبل أن تسجلها الملاحظة العلمية بمئات الأعوام، فالتربة الجافة حين ينزل عليها الماء تتحرك حركة اهتزاز وهي تشرب الماء وتتفخخ» انتهى.

وفي (مصابيح الشرفي) رحمه الله: «أي تحركت بالنبات واهتز نباتها، واهتزازه شدة حركته...» إلى أن قال: «...ومعنى قوله: ﴿وَرَبَتْ﴾ أي انتفخت» انتهى، ويحتمل ﴿أَهْتَزَّتْ﴾: أنه اهتزت من وقع المطر؛ لأنها مُعَدَّة لشرب الماء، والله أعلم، وقوله: ﴿وَرَبَتْ﴾ صارت لتداخل الماء بين أجزائها وارتفاعها كأنها متفخخة.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ فهو يحقق أن حالة الأرض تحولت من كونها هامدة إلى كونها مُنْبِتة فكانها صارت لها حياة بعد موت، فذلك دليل على قدرة الله تعالى على بعث الموتى.

وأما قوله: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ فهو يذكر بتمام حيوية الأرض حيث صلح؛ لأنها صلحت لإنبات أنواع النبات المختلفة لم تقتصر على نوع من الأنواع ولا على زوج من الأنواع.

الْمَوْتِ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿١٣﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ تَجَدَّلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا

وهو كذلك يذكر بقدرة الله تعالى حيث خلق الأزواج كلها على اختلافها الواسع الذي يدل على سعة قدرته تعالى وسعة علمه مما يدل على قدرته على البعث، وهو كذلك يذكر بنعمة الله على الإنسان بما خلق له ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ جميل المنظر، وبعض النبات يكون قوتاً وبعضه فاكهة وبعضها يجمع بين الأمرين، وبعض الفواكه يجمع لوناً يلتذ به الناظر ورائحة لذيذة للشم وطعماً لذيذاً وشكلاً جميلاً، مع نفعها في التغذية، فسبحان القادر على كل شيء العليم بكل شيء، وما أكفر الإنسان، يحدد قدرة الله على إعادته وهو يرى هذه الآيات! وتذكره بها الآيات القرآنية وتذكره بنعم الله عليه فيأبى إلا العناد!.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتِ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..بِهَيْجٍ﴾ ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ وقع ذلك بسبب أن الله هو الحق، فلو لا الله لم يكن شيء من ذلك، فذلك دليل على الله يعرف به أن الله هو الحق، وأن الكفر به هو الباطل؛ وبسبب ﴿أَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتِ﴾ ولذلك أحيانا الإنسان بعد أن كان تراباً... الخ وأحيانا الأرض بعد أن كانت هامدة؛ وبسبب ﴿أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلقدرته على كل شيء خلق الإنسان والنبات؛ وبسبب ﴿أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي القيامة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾.

هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ

﴿٨﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ عِطْفٌ عَلَى ذِكْرِ الدَّلَائِلِ وَمَدْلُولُهَا، فَكَأَنَّهُ تَعَالَى قَال: وَمَعَ ذَلِكَ ﴿٩﴾ مِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ ﴿٩﴾ اسْتِنَاداً إِلَى جَهْلِهِ أَوْ تَجَاهُلِهِ، لَا بِحُجَّةٍ مِنْ عَقْلِ حَصَلَ لَهُ بِهَا الْعِلْمُ، وَلَا بِهُدًى إِلَى الْحَقِّ حَصَلَ لَهُ مِنْ مَصْدَرِ هِدَايَةِ مُحَقِّقٍ مِثْل: النَّبِيِّ وَالْوَصِيِّ، وَلَا بِكِتَابٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى مُنِيرٍ لِلْبَصِيرَةِ تَبْصُرُ بِهِ الْحَقَّ كَمَا يَرَى الْبَصَرُ بِالنُّورِ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ إِشَارَةٌ إِلَى مَا يَحْتَجُّ بِهِ أَوْ يَعْمَلُ بِهِ. ﴿٩﴾ ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ فِي (تَفْسِيرِ الْإِمَامِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): «ثَانِي عِطْفِهِ ﴿٩﴾ مَعْنَاهُ: مُتَكَبِّرٌ مُتَجَبِّرٌ» انْتَهَى.

وَهَذَا لِأَنَّهُ يُقَالُ فِي الْمَعْرُضِ: ثَنَى عِطْفَهُ، وَإِعْرَاضَ الْكَافِرِ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ تَكَبَّرَ وَتَجَبَّرَ، وَالْعِطْفُ: قَالَ الرَّاعِبُ: «عِطْفَا الْإِنْسَانِ جَانِبَاهُ مِنْ لَدُنْ رَأْسِهِ إِلَى وَرَكَهٍ» وَمِثْلُهُ فِي (الصَّحَاحِ).

وَتُنْيَاهُ: تَحْوِيلُهُ عَنْ مُوَاجَهَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَسَائِرِ الدَّعَاةِ إِلَى اللَّهِ ﴿٩﴾ لِيُضِلَّ ﴿٩﴾ مَنْ يَتَّبِعُهُ ﴿٩﴾ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٩﴾ أَيَّ لِيَتَّبِعُوهُ فِي بَاطِلِهِ وَيَقْتَدُوا بِهِ فِي الْإِعْرَاضِ وَالتَّكَبُّرِ ﴿٩﴾ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ﴿٩﴾ عِقَابٌ عَاجِلٌ بِإِهَانَتِهِ وَفَضْحِهِ ﴿٩﴾ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ أَيَّ نَدْخَلُهُ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا، وَذَكَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَنَّ الْحُكْمَ عَلَيْهِ وَإِدْخَالَهُ النَّارِ يَكُونُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ذَلِكَ ﴿١٠﴾ الْعَذَابُ وَالْخِزْيُ ﴿١٠﴾ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ ﴿١٠﴾ أَيَّ يُقَالُ لَهُ ذَلِكَ.

فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ أَطْمَأَنَّ بِهِ ^ط وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ أَنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَيْرٌ
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ﴾ فالعذاب بسبب ما قدمت يداه، وبسبب أن الله ليس بظلام ﴿لِلْعَبِيدِ﴾ فلم يخل في الدنيا الظالمين والمفسدين إلا لأنه يجزيهم في الآخرة، فالتعذيب في الآخرة عدل وإنصاف للمظلومين الذين أغواهم الجبارون والذين كانوا يعذبونهم لأنهم أسلموا وليرجعوا إلى الكفر والشرك.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ^ط فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ أَطْمَأَنَّ بِهِ ^ط وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ أَنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَيْرٌ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ معناه: على شك» انتهى، وأصل الحرف الطرف فجعل الشاك كأنه على حرف معرض للسقوط لأنه غير ثابت في دينه ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ أَطْمَأَنَّ بِهِ﴾ سكنت نفسه على ما هو عليه من الدين رغبة في الخير الذي ناله ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ ضر من الكفار أو أذى أو تخويف ابتلي بذلك واختبر بتخلية الظالم أو الفتنة بمعنى التعذيب وهو أظهر هنا؛ لأن الكفار كانوا يعذبون بعض من أسلم ليرجع إلى الشرك والكفر ﴿أَنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ أي ارتد إلى الكفر ليتخلص من فتنة الناس، كأنه سقط على وجهه، وهذا يناسب تشبيهه أنه في عبادته على حرف.

﴿خَيْرٌ الدُّنْيَا﴾ لأن حياته صارت وبالاً عليه؛ لأنه كلما عاش زاد في أسباب عذابه في الآخرة، فقد فاتته الحياة الدنيا التي يتمتع فيها المؤمن ويعمل لآخرته وهي الحياة الطيبة، وأيضاً الكافر في معيشة ضنك لحرصه على الدنيا وتأسفه على ما فات من مطالبها ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ لأنه اجتمع عليه ﴿خَيْرٌ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ حيث فاتته الجنة وصار من أهل النار.

يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لِمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ۚ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ

﴿١٢﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٣﴾ ﴿يَدْعُوا﴾ هذا المنقلب ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ما يتخذها إلهاً وهو لا ينفعه فلا يفيد دعاءه شيئاً، ومعبوده لا يضره فلا يحتاج إلى أن يدعوه ليأمن ضره ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدعاء الذي هو الشرك ﴿هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ لأنه بُعد عن سبيل الحق وغواية صيرته بعيداً عن الحق كمن ضل عن الطريق وصار بينه وبين الطريق مسافة بعيدة لغير فائدة من المعبود ولا ملجأ من ضرر يناله إن لم يعبد، لا ذا ولا ذاك.

﴿١٣﴾ يَدْعُوا لِمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ۚ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٤﴾ الرّاجح أن ﴿يَدْعُوا﴾ إعادة للأولى ليرتب عليها قوله: ﴿لِمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ﴾ كما أعاد في (سورة التوبة) ﴿كَيْفَ﴾ ورتب عليه ﴿وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ [آية: ٨]: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ [آية: ٦].

وقوله تعالى: ﴿لِمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ مبتدأ خبره ما دل عليه قوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ أما قوله تعالى: ﴿لِمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ فهو إسناد مجازي والمراد: الضرر الحاصل بسببه أقرب من نفعه لمن يدعوه ففي الدنيا يخافه ولا فائدة له في خوفه، ويتلف له مالاً بلا فائدة، وبعضهم قتل ولده تقريباً وذلك ضرر عظيم، وأما في الآخرة فضرر الشرك عذاب شديد دائم ولا يشفعون للمشرك بل يكونون له أعداء ويكفرون بعبادته.

وأما قوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ﴾ فهو جواب قسم مقدر، أي أقسم لبئس المولى هو، وسماه مولى تهكماً بالمشرك الذي اتخذها إلهاً مالكاً له.

ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ كذلك فالعشير الصاحب الذي تعاشره وتجالسه وهذه الأصنام لا تسمع معاشرها ولا تراه ولا تدري ما يقول لها، ولا تعلم أنه عاكف عليها.

وإعراب قوله تعالى: ﴿لَمَنْ ضُرُّهُ﴾ اللام (لام الإبتداء) مؤكدة للجمله، و(مَنْ) اسم موصول مبتدأ، وقوله: ﴿ضُرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ مبتدأ وخبر، وهما صلة الموصول، والعائد الضمير في ضره، و﴿مِنْ نَفْعِهِ﴾ جار ومجرور متعلق بأقرب، وهو (اسم تفضيل).

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ﴾ (اللام) جواب القسم، و(بئس) كلمة ذم فاعله المولى والعشير، والمخصوص بالذم ضمير مقدر أي هو، أي الصنم الذي يدعوه المشرك، وخبر المبتدأ الذي هو الموصول قد دل عليه جواب القسم وأغنى عنه لقيامه مقامه.

وحاصل قوله تعالى: ﴿لَمَنْ ضُرُّهُ﴾ إلى آخر الآية الذم للصنم والتهكم بمن اتخذ مولى وعشيراً وهو لا ينفع ولا يضر وهو يسبب الضر لا النفع.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ مقابلة بين المؤمن والمشرك، فالمؤمن ينفعه إيمانه وعمله نفعاً دائماً في الجنات في الآخرة في دار رحمة الله وكرامته، والمشرك عكسه، والجنات هنا بسايتين عظيمة متعددة مذكورة في (سورة الرحمن) وتشتمل عليها جنة الخلد التي وعد المتقون، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ تأكيد للوعد المذكور.

بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لَيَقْطَعَ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾
وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ

﴿١٥﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ
بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لَيَقْطَعَ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٦﴾ مَن
كَانَ ﴿١٧﴾ مِنَ الْكُفَّارِ يَرْجُو أَن يُبْطَلَ أَمْرُ الرَّسُولِ ﷺ بِكَيْدِهِ وَيُظَنُّ أَن لَّنْ
يَنْصُرَهُ اللَّهُ رُسُولَهُ ﴿١٨﴾ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ﴿١٩﴾ بِعَلَاقَةٍ وَوَسِيلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ
﴿٢٠﴾ ثُمَّ لَيَقْطَعَ ﴿٢١﴾ مَن هُنَاكَ مَا يَنْزِلُ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ بِوَاسِطَةِ الْمَلَائِكَةِ إِنْ قَدَرَ
عَلَى ذَلِكَ.

﴿٢٢﴾ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿٢٣﴾ يَغِيظُ الْكُفَّارَ الْحَاسِدِينَ لِلرَّسُولِ
ﷺ وَهُوَ الْوَحْيُ، فَهَذَا أَشَدُّ الْكَيْدِ إِنْ قَدَرَ عَلَيْهِ، قَطَعَ الْوَحْيَ النَّازِلَ مِنَ
السَّمَاءِ بِوَاسِطَةِ الْمَلَائِكَةِ بَأَن يَتَّفَقَ هُوَ مَعَ الْمَلَائِكَةِ عَلَى أَن لَا يَنْزِلُوا بِوَحْيِ اللَّهِ
عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَحَاشَاهُمْ، لَكِنَّهُ لَوْ وَقَعَ ذَلِكَ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ
أَمْرَ الرَّسُولِ ﷺ وَإِرْسَالَ اللَّهِ لَهُ وَوَحْيِهِ إِلَيْهِ؟ وَالْجَوَابُ: لَا يَذْهَبُهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ
غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ، فَلَا بَدَّ أَن يُرْسَلَ رَسُولُهُ بِرِسَالَاتِهِ وَيُوحَى إِلَيْهِ مَا أَرَادَ، وَلَوْ
انْقَطَعَ الْوَحْيُ مِنَ السَّمَاءِ بِأَيِّ طَرِيقَةٍ شَاءَهَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ.

وهذا التفسير مبني على أن الضمير في ﴿يَنْصُرُهُ﴾ لِلرَّسُولِ ﷺ وَهُوَ
ظَاهِرٌ كَمَا عَادَ عَلَيْهِ فِي ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ [البقرة: ١] ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾
[الإخلاص: ١] لِأَنَّ الْقُرْآنَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ وَالْأَذْهَانَ حِينَ يَبْلُغُهُ مَوْجَهَةً إِلَى الْمُبْلَغِ
وَالْخَوْضُ فِيهِ فِي ذَلِكَ الظَّرْفِ كَالْخَوْضِ فِي الْقُرْآنِ، وَقَدْ عَادَ الضَّمِيرُ إِلَى
الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وَهَذَا فِي الرَّسُولِ الْمُبْلَغِ
لِلْقُرْآنِ.

ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَرَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ

والمعنى: أن الله تعالى ينصره ويظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون، وهذا موافق لتفسير الإمام الهادي عليه السلام الذي حكاه الشريفي، ولولا ما في النسخة من الغلط من بعض النساخ لنقلته هنا، وكذلك تفسير الحسين بن القاسم عليه السلام الذي حكاه الشريفي في (المصابيح) وعلى هذا فمفعول (يقطع) مقدر يدل عليه ﴿مَا يَغِیْظُ﴾ أي فليقطع ما يغيظه.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الذي مضى من هذه السورة ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي القرآن ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي حال كونه آيات بينات، أي دلائل واضحات؛ ولأن ﴿اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ أنزلناه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَرَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الإيمان الكامل الذي منه الإيمان بما أنزل على محمد والذي هو الإيمان الباعث على الطاعة لله ولرسوله ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ اليهود ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ فرقة خرجت من دين إلى دين قيل إن أصلهم من النصارى وعبدوا النجوم - والله أعلم.

وقال في (الكشاف): «جعل الصابون مع النصارى لأنهم نوع منهم» انتهى، وقد مر تفسير أكثر من هذا ﴿وَالنَّصَرَى﴾ المنتمين إلى دين عيسى ﴿وَالْمَجُوسَ﴾ أهل ملة مخالفة للإسلام أظن من دينهم عبادة النار، ومن دينهم نكاح البنت والأخت والأم وسائر القرائب.

أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ
الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ *

﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ اختصوا بهذا الإسم مع أن في غيرهم من الملل
مشركين لكن المشركين من العرب ليس لهم دين يجمعهم إلا الشرك ﴿إِنَّ اللَّهَ
يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ بين المذكورين من أول الآية يحكم بينهم ويميز بينهم ﴿يَوْمَ
الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فهو شهيد على أعمال أهل الملل كلهم
وعقائدهم وأقوالهم لا يغيب عنه شيء من ذلك، فهو حاكم عليهم وشهيد
على ما عملوا لا يغيب عنه شيء منه.

قال الإمام علي عليه السلام، فيما رواه في (نهج البلاغة): «اتقوا معاصي الله في
الخلوات، فإن الحاكم هو الشاهد» أو كما قال.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ
وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ
وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ
﴿١٩﴾﴾ ﴿يَسْجُدُ لَهُ﴾ ينقاد له على ما سخره له ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي
الْأَرْضِ﴾ لا يمتنع من قضاء الله فيه، ألا ترى أن الشباب يهرم فلا يستطيع
دفع الهرم، وكذلك يمرض فلا يستطيع دفع المرض بالقوة، ولكن قد يستطيع
بما جعل الله من الدواء أو نحوه من الأسباب التي جعلها الله أسباباً،
فالإنسان خاضع لتصرف الله فيه وتصريف الله لأحواله.

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ على ما سخرهما الله تعالى تجريان، وكذلك
﴿النُّجُومُ﴾ وأرسى ﴿الْجِبَالُ﴾ فاستقرت في أماكنها، وصرف حال

هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿٦٨﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٦٩﴾ وَلَهُمْ مَقَمِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ﴿٧٠﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ تَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ

﴿الشَّجَرُ﴾ كما صرف حال الإنسان ﴿وَالدَّوَابُّ﴾ ومن ذلك سيرها في وظائفها كالديك يسبح والهر يصطاد وغير ذلك ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ ينقاد ويخضع لله اختياراً ﴿وَكَثِيرٌ﴾ أي من الناس ﴿حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ وهو لا يستطيع أن يخالف إلا في الأمور الاختيارية دون الاضطرارية.

قال الشرفي في (المصاييح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معنى سجود الناس فهو خضوعهم بالاتضاع، ومعنى سجود هذه الجمادات وغيرها من الحيوانات فهو بالطباع، فكلها ذليل مقهور خاضع بقدرة الله مجبور، قال الشاعر:

بجيش تظل الخيل في حجراته ترى الأكم منها سجداً للحوافر»

انتهى.

﴿وَمَنْ يُّهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ ومن استحق العذاب بتكبره عن السجود الاختياري فلا يستطيع أحد أن ينقذه من عذاب الهون، وإن ظن المشركون أن شركاءهم سيشفعون لهم فهو أمل خائب؛ لأن الله يفعل ما يشاء.

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ ﴿هَذَانِ﴾ إشارة إلى فريقين: فريق مؤمن يدعو إلى الله، وفريق كافر يجارب الدعوة إلى الله.

وقد روى المحدثون أن هذه الآية نزلت في ثلاثة من المؤمنين وهم: علي عليه السلام، وحمزة، وعبيدة بن الحارث، وثلاثة من المشركين: الوليد بن عتبة، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، برز الثلاثة من المشركين فبرز لهم الثلاثة من المؤمنين، وذلك في أول (وقعة بدر) ونزول الآية فيهم، رواه البخاري في جامعه المسمى (الصحيح) في [ج ٥/ ص ٧] من نسخة خالية عن الشروح في (كتاب المغازي) ومن ألفاظه بعد السند: «عن قيس سمعت أبا ذرّ يقسم قسماً: إن هذه الآية ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ نزلت في الذين برزوا يوم بدر: حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث، وعتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة» انتهى.

وروى أبو داود في (سننه) في [المجلد الثاني ص ٥٢-٥٣] عن علي عليه السلام قال: تقدم - يعني عتبة بن ربيعة - وتبعه ابنه وأخوه فنادى من يبارز؟ فانتدب له شباب من الأنصار، فقال: من أنتم؟ فأخبروه، فقال: لا حاجة لنا فيكم إنما أردنا بني عمنا، فقال رسول الله ﷺ: «يا حمزة قم، يا علي قم، يا عبيدة بن الحارث» فأقبل حمزة إلى عتبة، وأقبلت إلى شيبة، واختلف بين عبيدة والوليد ضربتان فأئخذ كل واحد منهما صاحبه، ثم ملنا على الوليد فقتلناه واحتملنا عبيدة، انتهى.

قال الشرفي في (المصاييح): «وقال في (البرهان): هذه الآية نزلت في ثلاثة من المسلمين قتلوا ثلاثة من المشركين يوم بدر، ومنهم أمير المؤمنين علي عليه السلام، قتل الوليد بن عتبة، وحمزة بن عبد المطلب قتل عتبة بن ربيعة، وعبيدة بن الحارث قتل شيبة بن ربيعة» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿خَصَمَانٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أُنِثَّا أَنْتَا﴾ [ص: ٢١] في إطلاق الخصم على الجمع، وقوله تعالى: ﴿أَخْتَصِمُوا﴾ جاء ضمير الجمع على المعنى، وقوله تعالى: ﴿فِي رِيحٍ﴾ اختصم المؤمنون والكافرون في ربهم؛ لأن قتال المؤمنين للكافرين المقصود به إعلاء كلمة الله وإظهار دينه، والقتال من المشركين سببه التعصب للشرك والتكذيب للرسول ﷺ والتكذيب بالقرآن فهم رادون لأمر الله، وشاكون في قدرته على البعث، وقائلون: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الملك: ٩].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ﴾ تشبيهه بتفصيل القميص فمعناه أعدت لهم ثياب ﴿مِنْ نَارٍ﴾ شبهت بالثياب لاشتغالها عليهم كما تشتمل الثياب بل أشد، وقوله تعالى: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ يفيد نزوله عليهم من فوقهم، وبذلك يعظم وقعه على رؤوسهم. ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ ﴿يُصْهَرُ﴾ يذاب ﴿بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ ولذلك يقطع أمعاءهم، فقد خرق الرؤوس إلى البطون وأذيب به ما في البطون، وقوله تعالى: ﴿وَالْجُلُودُ﴾ لعله عند وقوعه على رؤوسهم، ينزل بعضه على خارج أبدانهم فيذيب الجلد، وهذا أظهر، وقد مر في (سورة الكهف): ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿وَهُمْ مَقْمَعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾ ﴿مَقْمَعٌ﴾ آلات ضرب يضربون بها، قال الراغب: «جمع مقمع وهو ما يضرب به ويدلل» انتهى.

وقال في (الصحيح): «المقمة: واحدة المقامع من حديد كالحجن يضرب بها رأس الفيل، وقد قمعته إذا ضربته بها» انتهى، وقال (صاحب القاموس): «المقمة كمكينة العمود من حديد، أو كالحجن يضرب بها رأس الفيل، وخشبة يضرب بها الإنسان على رأسه» انتهى المراد.

أَعِيدُوا فِيهَا وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿١٣﴾ وَهَدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ

فقد اتفق الراغب و(صاحب القاموس) على: أن كلمة (المقامع) تستعمل في الحديد والخشب وهو الراجح؛ لأن الله تعالى وصف المقامع بأنها من حديد، ولو كان الحديد من مفهوم المقامع لكان الوصف بأنها من حديد كالتكرار، والمعنى: أن الكفار المذكورين يضربون بمقامع من حديد فهو عذاب ثالث.

﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ تَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا﴾ كلما حاولوا بالتحرك من أماكنهم ﴿أُعِيدُوا﴾ ليبقوا ﴿فِيهَا﴾ والإعادة باعتبار ردّهم في أماكنهم التي ترحلوا منها في محاولتهم للخروج، وهذه المحاولة يؤدي إليها غم شديد لا تجوز منهم للخروج بعد قول مالك لهم: ﴿إِنَّكُمْ مَكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

ويحتمل: أن ينسوا ويجوزوا الخروج إذا لم تكن أبوابها في جهة فوق، والآية هذه إن كانت صفة للمقامع، فالمعنى أعيدوا في النار بها أي بالمقامع لكن ذلك يتوقف على قرينة، وإذا لم توجد فالظاهر استقلال هذه الآية، وأن المذكور تعذيب نفسي كقوله تعالى: ﴿وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي وقيل لهم: ذوقوا عذاب الحريق، وكآية (السجدة) ﴿الم﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ﴾ هنا الفعل مضارع، والآية التي في الكفار قطعت فعل ماضٍ.

الْقَوْلِ وَهَدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعِكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِن عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا

ولعل السر في ذلك: أن الذين كفروا قتلوا في هذه الخصومة فاستحقوا العذاب حتماً، والذين آمنوا بقي منهم اثنان يحتاجان إلى الاستمرار في الإيمان والعمل الصالح، فناسب حالهم ذكر وعد الله وحكمه في الذين آمنوا وعملوا الصالحات الماضين منهم والباقيين منهم جملة ليفهم الباقون أنهم يحتاجون إلى الثبات على الإيمان والعمل الصالح.

وقوله تعالى: ﴿تُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ السوار ملبوس للمعصم ويحتمل للعضد مع المعصم، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلُؤَاءُ﴾ معطوف على محل ﴿أَسَاوِرَ﴾ أو محل الجار والمجرور، أي ويحلون فيها لؤلؤاً، ويحتمل أن تطرز به ثيابهم أو يكون منه أسورة أو غير ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهَا فِيهَا حَرِيرٌ﴾ هذا اللباس الحقيقي يقابل لباس الكفار المجازي، وما تفيده الآية من النعيم يقابل ذلك العذاب لينظر الإنسان ويميز بين عاقبة الكفر وعاقبة الإيمان.

﴿وَهَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ ﴿وَهَدُوا﴾ أي أهل الإيمان والعمل الصالح ﴿هَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وهو زيادة في نعيمهم حيث لا يسمعون فيها لغواً ﴿وَهَدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ فهم يرغبون في العدل والإحسان ويرضون بقسمة الله بينهم لا حسد ولا غل فيهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعِكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِن عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ لعل هذه في الذين لم يقتلوا في يوم (بدر) والأولى في الذين قتلوا في (بدر) أو هذه عامة للفريقين إن كانت متقدمة في النزول.

وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي يمنعون عن دين الله بتعذيب من آمن مثلاً ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي ويصدون عن المسجد الحرام؛ لأنهم يضطرون المؤمنين بتعذيبهم يضطرونهم إلى الهجرة من مكة، فهاجروا أولاً إلى الحبشة وثنائياً إلى المدينة المنورة، والمسجد الحرام هو الكعبة المشرفة. قال الشرفي في (المصابيح): «وقيل: المراد بالمسجد الحرام (مكة) والأظهر أن المراد به: الكعبة» انتهى.

وأقول: يمكن الجمع بين القولين بأن المراد بالصد عن المسجد الحرام إخراج المؤمنين من مكة للهجرة، فهو كناية والقول بأن المراد به الكعبة فهو صحيح أن المراد بالمسجد الكعبة لكن الصد عنها وقع بإخراج أهلها من مكة، وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ يفيد تكرار الصد بطول مدته؛ لأن هذا الفعل المضارع هو فعل العادة المتكررة.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ﴾ بيان أن إخراج أهله منه ظلم لهم؛ لأن المسجد هذا جعله الله للناس كافة للعبادة فليس لأحد أن يختص به، فأما منع المشركين منه حين نزل قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] فهو ناسخ سببه العلة المذكورة وهو ناسخ في حقهم دون غيرهم، ويسمى تخصيصاً من العموم.

وقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ أَعْلَيْكَ فِيهِ﴾ أي في هذا المسجد ﴿وَالْبَادِ﴾ الذي ليس من أهل مكة، وأصله البادي، ولعل العاكف فيه الذي هو العاكف في الكعبة قد يظن أنه أولى من الوارد إليها لكن لعل ذلك كناية أريد فيها الحقيقة ليدل على ساكني مكة بالأولى، فهم سواء هم والبادي.

قال الشرفي: «والبادي: من كان من أهل البادية» انتهى، وهو موافق لما في (الصحيح).

لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ
وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٦﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ

وإن أريد به الساكن في البادية فاهل القرى البعيدة مثله، فالراجح: أنه كناية عن الوافد إلى مكة سواء كان بدوياً أم حضرياً، ولعل البدوي خص بالذكر لأنه يستضعف، وفي الآية رد على من يدعي من الشيعة في عصرنا أن البيت ميراث أهل البيت ولا يجوز عنده الحج إلا بإذنهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ﴾ أي في المسجد الحرام ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ أي بعدول عن الحق ﴿بِظُلْمٍ﴾ أعم من الشرك فيه فهو يعم كل معصية متعمدة ويعم الجور وسب أولياء الله ومدح الظلمة وغير ذلك، وهو يتناول المشركين الذين نصبوا أصنامهم على الكعبة.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ معناه: بعدول عن الحق» انتهى.

قال في (الكشاف): «وقوله ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ حالان مترادفتان ومفعول ﴿يُرِدْ﴾ متروك ليتناول كل متناول كأنه قال: ومن يرد فيه مراداً مآ عادلاً عن القصد ظالماً ﴿نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ قال: يعني أن الواجب على من كان فيه أن يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعدل في جميع ما يهم به ويقصده» انتهى المراد.

ولعل فائدة ﴿بِظُلْمٍ﴾ تحقيق المراد بالإلحاد؛ لأنه في أصل اللغة الميل أو العدول، قال في (لسان العرب): «ومعنى الإلحاد في اللغة: الميل عن القصد» انتهى.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ ﴿وَإِذْ﴾ واذكر ﴿إِذْ بَوَّأْنَا﴾ قال الراغب: «وبوأت له مكاناً: سويته له» انتهى.

رَجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ

وقال (صاحب الصحاح): «وبوأت للرجل منزلاً وبوآته منزلاً، بمعنى: أي هيأته ومكنت له فيه» انتهى، فالمعنى: هيأنا لإبراهيم مكان البيت لينيه فيه. وقوله تعالى: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ﴾ أن مفسرة لبوانا بمعنى أن تهيئة مكان البيت هي النهي عن الشرك وأمره بتطهير البيت.

قال في (الكشاف): «فإن قلت: كيف يكون النهي عن الشرك والأمر بتطهير البيت تفسيراً للتبوءة؟ قلت: كانت التبوءة مقصودة من أجل العبادة فكانه قيل تعبدنا إبراهيم قلنا له: ﴿لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرْ بَيْتِي﴾ من الأصنام والأوثان والأقذار أن تطرح حوله» انتهى.

ويحتمل: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا﴾ في بناء البيت ولا في غيره، فكانه قيل: أن ابن لي بيتاً خالصاً لي وأخلص العبادة لي، والمعنى: أن تهيئة مكان البيت كانت على أساس أن يبني إبراهيم بيتاً خالصاً لله، ويعبد الله وحده فيه، ولا يشرك به شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿وَطَهَّرْ بَيْتِي﴾ أي هذا البيت الذي بوأنا لك مكانه، البيت الخالص لي، طهره من كل رجس، أي لا يدخله رجس ولا يلحقه ولا يجاوره، طهره ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ به ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ للصلاة أو أي عبادة فيه أو حوله ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ المصلين، فهذه الآيات تفيد أن المشركين جعلوه على خلاف ما أسس له، فجعلوا عليه الأصنام وهو الله وحده ونجسوه بالشرك وغيره، وقد أمر الله بتطهيره لعبادته الخالصة له، ولعل المشركين كانوا ينجسونه بدماء ما يذبحونه للأصنام ويجعلون عليها من دمه - والله أعلم.

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ هذا من كلام الله تعالى لخليله إبراهيم عليه السلام، أمره أن

الْأَنْعَمِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ

يدعو الناس إلى الحج بدليل (واو العطف) في أول الآية، وقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ﴾ أي بينهم ليلبغ الشاهد الغائب.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ أي يأتوك وأنت بمكة، رجالاً أي مشاة ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي ركبانا على كل ضامر أي خفيف اللحم سريع في مشيه وهو يصلح للإبل والحيل، ولكن الراجح: أنه هنا للإبل إذ هي أوفق للسفر تحمل الزاد وترعى من الشجر كالطلح والأثل وتصدر من شرب الماء، أو هو عام للإبل والحيل، وقوله تعالى: ﴿يَأْتِينَ﴾ أي كل ضامر يأتينك أو نحو هذا.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ فَجٍ عَمِيقٍ﴾ قال الشريفي في (المصابيح): «والفج: الطريق بين الجبلين، ثم يستعمل في سائر الطرق اتساعاً، والفج - أيضاً - مكان واسع، والعميق البعيد، وقال الراغب: الفج شقة يكتنفها جبلان ويستعمل في الطريق الواسع» انتهى.

وفي الآية دلالة على قوة الرغبة في الحج بحيث يسافر له مشياً على الأقدام وبحيث يسافر إليه من بعيد، وعلى كثرة السفر إلى البيت؛ لأن الطرق لا تتسع إلا من كثرة المارة، فهي تدل على أن الله تعالى وعد خليله إذا دعا الناس أن يجعل في قلوب كثير من الناس الرغبة في إجابة دعوته، وهذا شيء باق إلى اليوم، حتى أن بعض من اعتاد الحج إذا تخلف يبكي حين يسمع الملبين في (الراديو) أو يشاهدهم في (التلفزيون) شوقاً إلى الحج.

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنَ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَمِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ﴾ ﴿لِيَشْهَدُوا﴾ تعليل لقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ وكانت المنافع التي يشهدونها في الحج

في عهد إبراهيم عليه السلام والله أعلم، منها: تعليمه لهم مناسك الحج وغيرها، وتذكيرهم بآيات الله ليعرفوا الله ويصح إيمانهم بالله وبالיום الآخر وغير ذلك - والله أعلم - ولعل منها: آراء اجتماعية، ونصب إسماعيل خليفة له مع كونه رسولاً وغير ذلك، وأما بعد إبراهيم عليه السلام، فلكل زمان منافع تناسبه، ففي عهد رسول الله محمد ﷺ شهدوا في (حجة الوداع) تعليمه لهم مناسكهم، و(خطبة عرفة) و(خطبة منى).. وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ﴾ ذكر الله هذا هو ذكره عند فخر البدن وذبح غيرها ﴿مِّنْ بِهِيمَةٍ أَتَّعِمِرُ﴾ والأنعام هي الأزواج الثمانية المذكورة في (سورة الأنعام) فحاصل المعنى: يذبحوا وينحروا لله وحده ذاكرين اسمه، وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ﴾ يشير إلى دليل واضح لإبطال ما كان يفعله المشركون من النحر لغير الله والذبح مع أن الله رزقهم الأنعام فاستعملوها لغيره كفرًا لنعمته.

وقوله تعالى: ﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ في (مجموع الإمام زيد بن علي عليه السلام): عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام من حديث: «...والأيام المعلومات أيام العشر» انتهى، يعني من ذي الحجة، وهذا يدل على فضل هذه الأيام حيث اختارها الله - عز وجل - لذكر اسمه على النحائر والذبائح مع أن النحر والذبح في الحج إنما يكون في اليوم العاشر منها، ولولا هذا الحديث عن علي عليه السلام لكان الراجح: أنها (أيام النحر) التي هي اليوم العاشر من ذي الحجة ويومان بعده.

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أي من الأنعام التي تذكرون اسم الله على نحرها وذبحها، وهي هدايا تهدي إلى البيت يهديها القارن وغيره فلا بأس أن يأكل منها من أهداها ﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ ﴿الْبَائِسَ﴾ صاحب البؤس أي شدة الحال من الإعدام و﴿الْفَقِيرَ﴾ المحتاج.

﴿ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾

﴿ثُمَّ﴾ بعد ذكر اسم الله على بهيمة الأنعام يوم النحر أي بعد النحر ومثله الذبح ﴿لَيَقْضُوا﴾ (اللام) لام الأمر، بمعنى قد حل لهم قضاء التفث الذي كان محظوراً لأجل الإحرام، ويفيد (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «أن معنى قضاء التفث: الأخذ من الشارب، وقص الأظفار، وحلق الرأس والعانة، ونف الإبط» انتهى.

قال في (الصحيح): «التفث في المناسك: ما كان من نحو قص الأظفار والشارب وحلق الرأس والعانة ورمي الجمار ونحر البدن وأشباه ذلك، قال أبو عبيدة: ولم يجمع فيه شعر يحتاج به» انتهى، وقوله: «ونحر البدن»؛ بعيد لأن الآية معطوفة على الآية التي تفيد نحر البدن بـ(ثم).

وقال الشرفي في (المصابيح): «قالوا: التفث في كلام العرب كل قاذورة تلحق الإنسان فيجب عليه نقصها، قال القفال: قال نفطويه سألت أعرابياً فصيحاً ما معنى قوله: ﴿ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قال: ما أقرأ القرآن ولكننا نقول للرجل: ما أتفثك وما أذربك والمراد: قضى إزالة التفث» انتهى.

وفي (القاموس): «التَفَثُ - محركة - في المناسك الشعث وما كان من نحو قص الأظفار والشارب وحلق العانة وغير ذلك» انتهى، ولم يذكر فيه الرمي ولا النحر.

وفي (مفردات الراغب): «﴿ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ أي أزالوا وسخهم يقال: قضى الشيء يقضي إذا قطعه وأزاله، وأصل التفث: وسخ الظفر وغير ذلك مما شأنه أن يزال عن البدن» انتهى، وهو موافق لما حكاه الشرفي.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ النذر هو الإيجاب على النفس لله ومثال هذا، الوفاء بهدي نذر به لله أو صدقة أو صلاة.

اللَّهُ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۖ وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَمَ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٢٦﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أي الطواف الضروري في الحج الذي لا يتم الحج بدونه، وهو يسمى طواف النساء؛ لأن الحاج إذا فعله حل له النساء، ونحن نسميه طواف الزيارة، ونسمي الأول طواف القدوم، والبيت العتيق: الكعبة شرفها الله، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: طواف النحر، وهو طواف الزيارة، وسمي البيت عتيقاً لأنه أعتق من الجبابة فلم يدعه جبار أنه له، و﴿الْعَتِيقِ﴾ الكريم» انتهى.

وفي (المصابيح): «وقال الحسين بن القاسم عليه السلام معنى: ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أي البيت الرفيع المجيد الكريم، وكل ما كان جيداً كريماً يسمى عتيقاً» انتهى المراد، وفي (الصحيح): «العتق: الكرم، يقال: ما أبين العتق في وجه فلان، يعني الكرم» انتهى.

وهذا أرجح في تفسير الآية؛ لأن العتق بالمعنى الأول أصله في ما كان مملوكاً ثم حرر، وكرم البيت: أنه بني للعبادة والطواف حوله، وأنه قبله لأهل الأرض لصلاتهم، وأن الصلاة فيه أفضل منها في غيره كما في الحديث الشريف، وقال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِبْلًا لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧].

﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظِمْ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۖ وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَمَ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ قال (صاحب الكشاف): «أي الأمر والشأن ذلك، كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال: هذا وقد كان كذا» انتهى.

والإشارة إلى ما ذكر من شأن البيت وما يتعلق به، وعطف عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ لِنُعْظَمْ حرمة الله في البيت والحرم ومواضع مناسك الحج وغيرها، فلا تغير عما جعلها الله، ولا يقتل فيها نفس، ولا تجعل فيها أصنام.

وقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أي ما ذكره الله في القرآن يتلى على الناس ويسمعونه، وقد كان نزل تحريم الميتة والدم وما أهل به لغير الله في (سورة الأنعام) ثم نزلت آية (المائدة) فأفادت تحريم المقتولة بالأسباب المذكورة فيها، ولعل قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ للحال والاستقبال فهو شامل لما في الآيتين ونحوهما.

وقوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ تفريع على قوله تعالى: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا﴾ والرجس النجاسة، قال الراغب: «الرجس: الشيء القذر» انتهى، وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ قالوا (من) للبيان، قال في (الكشاف): «بيان للرجس وتمييز له، كقولك: عندي عشرون من الدراهم؛ لأن الرجس مبهم يتناول غير شيء كأنه قيل: فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان» انتهى، ولم يترجح هذا، ولو قيل: فاجتنبوا الأوثان من الرجس لصح جعلها للبيان، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ﴾ [المائدة: ٩٠] فالراجح في (من) أنها للابتداء، ليفيد: أن ﴿الْأَوْثَانِ﴾ مصدر رجس وهو أعم من عبادتها والتبرك بها وعبادتها أعم من العكوف عليها والنذر لها والدعوة إليها والتعصب لها والقتال لحمايتها، وعلى الجملة كل باطل بسببها وجعلها سبياً، كقول إبراهيم عليه السلام الذي حكاه الله ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنِي كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وعلى جعل من للبيان لا يكون متاولاً إلا لقرب الأوثان والعكوف عليها ولمسها.

مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿١٨﴾ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ

وقوله تعالى: ﴿وَأَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ قال في (الصحيح): «الزور: الكذب» انتهى، ومثله أفاد الراغب وغيره، فإضافة قول إليه على معنى أن تقولوا الزور وهذا يعم زور المشركين وسائر الكفار وزور غيرهم وفي الكذب، عن النبي ﷺ: «إياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» أخرجه الإمام أبو طالب في (أماليه) ومحلّه (الباب الثاني والثلاثون) وعنه ﷺ: «الكذب بجانب للإيمان، وإن العبد ليهبط إلى أسفل درك في جهنم بالكذب» أخرجه المرشد بالله ﷺ في (الأمالي) [ج ١ ص ١٨].

﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ في (تفسير الإمام القاسم ﷺ) الذي حكاه الشرفي في (المصابيح) في تفسير (سورة لم يكن): «والحنيف: هو الطائع المستقيم الخاشع» انتهى، فالمعنى: واجتنبوا قول الزور مستقيمين خاشعين لله غير مشركين به، ولعله أعاد قوله: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿فاجتنبوا الرجس﴾ كقوله تعالى في إبراهيم ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥] وقول إبراهيم ﷺ: ﴿حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩] ولعله لدفع توهم العرب أن من حج واختن فهو حنيف وإن كان مشركاً ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ﴾ أي سقط وهوى من السماء ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ تأكله متخطفة له وهو يهوي في الهواء، قال الراغب: «الخطف والاختطاف: الاختلاس بالسرعة» انتهى، فالخطف أخذ بسرعة.

تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٦﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ
الْعَتِيقِ ﴿٣٧﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَهْوَىٰ بِهِ الرِّيحُ﴾ أي في حال هويه وخروره تعصف به
الريح حتى تصيره في مكان سحيق هوت به إليه، ومعنى سحيق: بعيد،
وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَهْوَىٰ﴾ عطف على (تخطفه) فالتشبيه بمن خر من السماء
فيعرض له أحد أمرين: أن تخطفه الطير ﴿أَوْ تَهْوَىٰ بِهِ الرِّيحُ﴾ في مكان
سحيق ﴿ولعل هذه خطاب للمسلمين، كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا
كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ الآية [آل عمران: ٨٦].

ووجه التشبيه: أن من أشرك بالله لا يبقى له وسيلة نجاة بل يخذل ويترك
للشياطين، فهو صائر إلى النار لا محالة كما أن الذي خر من السماء لا يبقى
له وسيلة نجاة من الهلكة بل تغلبه الطير، أو الريح التي تصيره في مكان
سحيق فلا يدفنه الناس بل تأكله السباع، سواء كان البعد في مهواة من الجبل
لا يستطيع الناس بلوغها، أو كان البعد في قفر لا يبلغه الناس، وقعت له
مهلكة الخور من السماء وأدته إلى إحدى المهلكتين، وكذلك من أشرك بالله
فتولاه الشيطان فأضله وهداه إلى عذاب السعير.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ﴿ذَلِكَ﴾
مثل الأولى أداة انتقال من موضوع إلى موضوع ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ﴾ قال
الشرفي في (المصابيح): «ومعنى ﴿يُعْظَمْ﴾ أي يُجَلَّ وَيَنْزَهُ معالم دين الله
انتهى، فشعائر الله: أعلام عبادته: كالكعبة، وعرفات، والمشعر الحرام،
ف﴿مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ احترامها وصيانتها عن الشرك وعن اتخاذها لغير
الدين وكذلك المساجد، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَجْلِسُوا شَعَائِرَ
اللَّهِ وَلَا الشُّهُرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَنَىٰ وَلَا الْقُلَائِدَ﴾.

وقال بعض المفسرين: «والشعائر: جمع شعيرة، وهي العلامة، وشعائر الله: الأعلام التي نصبها الله تعالى لطاعته، كما قال: ﴿إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] وقال: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ..﴾ الآية [الحج: ٣٦] والمراد بها [أي هنا] البدن التي تساق هدياً... إلخ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ إن كانت الشعائر هنا عامة لأعلام الدين فتعظيمها من تقوى القلوب وأنث الضمير كما في قول الشاعر:

وما حب الديار شغفن قلبي

وإن كانت الشعائر هنا هي هدايا الحجاج التي تهدى إلى البيت وتشعر بشق سنامها في الجانب الأيمن حتى يدمى ليعلم أنها هدي لتحترم فيصح عود الضمير إليها بمعنى أن إهداءها ونحرها من تقوى القلوب، أي تبعث عليه تقوى القلوب لطلب المغفرة والرحمة، ولا حاجة إلى تقدير مضاف أو أكثر لأنه قد رجع الضمير إليها باعتبارها من شعائر الله؛ على أن معنى من السببية أو الابتداء وهذا الوجه هو الراجح، أعني أن الشعائر هنا خاصة بالبدن ونحوها.

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ في (مجموع الإمام زيد بن علي عليه السلام): «عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام: في البدنة تَنْتَج؟ قال: لا يشرب من لبنها إلا فضلاً عن ولدها.. إلى قوله:.. فإن لم يجد ما يحمل عليه ولدها حمله على أمه التي ولدته وعدله غير باغ ولا عاد ولا متعد. حدثني زيد بن علي عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام: من اعتل ظهر عليه فليركب بدنته بالمعروف، ورأى رسول الله ﷺ رجالاً يمشون فأمرهم فركبوا هديه ولستم براكي سنة أهدى من سنة نبيكم ﷺ انتهى.

بِهَيْمَةٍ الْأَنْعَمِ ۖ فَلِلْهَكْمِ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۖ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِمِي الصَّلَاةِ

ففي هذا بيان المنافع في البدن، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «فالمنافع: شرب ألبانها، وجز أوبارها، وركوب ظهورها» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى حين نحرها إلى يوم النحر أو في اليومين ثانيه وثالثه ﴿ثُمَّ مَحَلَّهَا﴾ اعلم أن (محل) يصلح مصدراً واسم زمان واسم مكان، فجعل غايتها البيت يدل على أنه عبارة عن مكان حل نحر الهدايا، وأنه مجاور للبيت العتيق متباً إلى البيت العتيق إذ لا يصح جعل البيت غاية للمصدر ولا للزمان إلا بتأويل.

أما جعله غاية لمكان حلها فواضح ليفيد أنه الحرم وهذا هو مذهب الناصر عليه السلام وعلى هذا فالنحر في منى لأنه من الحرم والحجيج يصيرون إليه يوم النحر لرمي الجمرة ويحتمل تعينه لفعل النبي صلى الله عليه وآله ولصيانة مكة عن الدماء الكثيرة أن تراق حول الكعبة وإن كان الحرم كله مكاناً عند الضرورة كما هو كله مكان حل في العمرة مطلقاً ﴿الْعَتِيقُ﴾ قد مر تفسيره، ويحتمل: أنه القديم، كقوله تعالى: ﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَمِ ۖ فَلِلْهَكْمِ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۖ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ ﴿مَنْسَكًا﴾ موضع نسك كما جعل لنا الحرم ومنى موضع نسك ننحر أو نذبح فيه لله وحده ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَمِ﴾ جعل لكل أمة منسكاً ليتقربوا إلى الله بذكر اسمه على ما ينحرون أو يذبحون أي بالنحر والذبح له وحده، فهذا قد جعله الله لكل أمة.

وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢٥﴾ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا

وظاهره من عهد آدم عليه السلام لا يخص إبراهيم عليه السلام وذريته فالمشركون بنحرمهم لغير الله وذبحهم عدلوا عن الحق الذي شرعه الله للأمم كلها ﴿فَالِهَكُمْ﴾ أي إله الموجودين والأمم كلها ﴿إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ غير متعدد ولا مركب ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ بعبادته وحده بالنحر والذبح وكل عبادة اجعلوا وجوهكم وأنفسكم له وحده ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾.

قال الشرفي في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾: «المتواضعين لله من الخبت، وهو المطمئن من الأرض، يعني المطيعين الخاشعين» انتهى.

وقال الراغب: «ثم استعمل الإخبات استعمال اللين والتواضع». إلى قوله: «...» ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ أي المتواضعين نحو ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] انتهى، ثم فسر تعالى ﴿الْمُخْبِتِينَ﴾ فقال تعالى:

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ فهذه صفات المخبتين المتواضعين لله ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ﴾ أي خافت ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ لأنهم مؤمنون بالله واليوم الآخر فهم يخافون عذاب الله ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾ لأنهم يرضون بما ابتلاهم الله به فيصبرون أنفسهم عما ينافي الرضى به من قول أو فعل.

في الحديث النبوي: «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب» وفي حديث آخر: «ليس منا من حلق، ولا من سلق، ولا من خرق، ولا من دعى بالويل والثبور» انتهى، وسواء كانت المصيبة في النفس كالمرض أو في أهل أو نحو ذلك أو في المال أو كانت خوفاً أو جوعاً أو نحو ذلك، فالمخبتون صابرون على كل ما أصابهم.

وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا

﴿وَالْمُقِيمِ الصَّلَاةِ﴾ فهذه الخصلة العظمى من صفاتهم كما أنها من صفات كل مؤمن، وقوله تعالى: ﴿وَبِمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ كما قال تعالى في صفة الأبرار: ﴿وَأَتَى الْمَلَأَ عَلَىٰ حَبِيبٍ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧] وهذه صفات المختبين الباعث عليها الإيمان الصحيح الباعث على تقوى الله وعلى الرغبة في التقرب إليه.

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ قال الشريفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): ﴿وَالْبُدْنَ﴾ هي الإبل، وسمي بدناً لأنه مُبْدَنَةٌ بِالسِّمَنِ» انتهى، وفي (الصحيح): «والبدنة ناقة أو بقرة تنحر بمكة، سميت بذلك لأنهم كانوا يسمونها» انتهى، وكذا في (لسان العرب): «ناقة أو بقرة» انتهى.

وقال في (الكشاف): ﴿الْبُدْنَ﴾ جمع بدنة سميت لعظم بدنها وهي الإبل خاصة؛ ولأن رسول الله ﷺ ألحق البقر بالإبل حين قال: «البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة» فجعل البقر في حكم الإبل صارت البدنة في الشريعة متناولة للجنسين عند أبي حنيفة وأصحابه، وإلا فالبدن هي الإبل وعليه تدل الآية» انتهى.

وأفاد الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): «أن البدنة من الإبل فقط» انتهى. وأفاد في (مجموع الإمام زيد بن علي عليه السلام): «أن البدنة من الإبل؛ لأنه قال: «حدثني زيد بن علي عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ﴾ قال: معقولة على ثلاث ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي

فإذا نحرْتَ ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانَعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ قال: ﴿الْقَانِعَ﴾ الذي يسأل ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ الذي يتعرض ولا يسأل. حدثني زيد بن علي عن أبيه عن جده عن علي (عليه السلام) في رجل ضلت بدنته فأيس منها فاشتري مثلها مكانها أو خيراً منها قال: ثم وجد الأولى قال (عليه السلام): ينحرهما جميعاً، حدثني زيد بن علي عن أبيه عن جده عن علي (عليه السلام) في البدنة تُنتَج قال: لا يشرب من لبنها إلا فضلاً عن ولدها، فإذا بلغت نحرهما جميعاً، انتهى.

فقوله: «معقولة» يدل على: أنها من الإبل لأنها هي التي تُعَقَل، أي تُرَبَط يدها معطوفة على شكلها حين تكون باركة، وكذلك قوله: فإذا نحرْتَ، وقوله: ينحرهما، وقوله: نحرهما، كل ذلك يدل على أنها من الإبل لأن البقر تذبج ولا تنحر، وكذلك قوله: «حدثني زيد بن علي عن أبيه عن جده عن علي (عليه السلام): من اعتل ظهر عليه فليركب بدنته بالمعروف» انتهى، فالحاصل: أنها الإبل، والمراد: الإبل التي تهدي إلى البيت.

﴿جَعَلْنَاهَا لَكُمْ﴾ أوجدناها لكم وسخرناها لكم وشرعنا لكم إهداءها فبذلك جعلناها لكم؛ لأن الركوب إنما هو للإبل أما البقر فلا تركب في العادة، وقوله تعالى: ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ قال الشريفي: ومعنى «﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أي من أعلام الشريعة التي شرعها الله وأضافها إلى اسمه تعظيماً لها» انتهى.

﴿لَكُمْ فِيهَا حَيْرٌ﴾ يحتمل خير الدنيا بإصلاح الضمير ومعاونة الفقير وبمعاونته يصلح المجتمع وخير الآخرة الثواب، وأيضاً من الخير منافع أهلها بشرب لبنها وركوبها والأكل منها ويحتمل أن فيها من الخير ما لا نعلمه ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٌ﴾ فاذكروا الله عند نحرها وهي ﴿صَوَافٌ﴾ جمع (صافة) إن أريد صف قوائمها الثلاث في قيامها.

ويحتمل: جمع (صافات) إن أريد أن تصف الإبل صفاً مثل صف المصلين متجهة إلى القبلة فتنحر في حال صفها، وهذا أرجح وحكاة الشرفي عن (صاحب البرهان).

قال الشرفي في (المصاييح): وقال المفسرون: الذكر هو أن يقول عند النحر: (الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، اللهم منك وإليك) وقوله تعالى: ﴿فَادْكُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ كناية عن الأمر بنحرها لله وحده لا شريك له، والكناية يراد فيها المعنيان الحقيقي والمجازي، هذا الراجح عندي وإن قيل في الكناية تحتمل إرادة المعنيين.

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ سقطت جنوبها لأنها تنحر قائمة، وهذا دليل على أن البدن: هي الإبل، وهو ما عناه (صاحب الكشاف) فيما نقلته فيما مر. وفي كلام حكاة الشرفي عن محمد بن القاسم عليه السلام: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ يعني فإذا خرَّت سقوطاً إلى الأرض» انتهى، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ معناه: «سقطت» انتهى، وفي (الصحيح): «الوجبة: السقطة مع الهدة» انتهى المراد.

﴿فَكُلُّوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ اختلف تفسير (القانع) و(المعتر) قال (صاحب القاموس): «القنوع - بالضم - السؤال والتذلل والرضى بالقسم ضد» انتهى المراد.

وقال في (الصحيح): «القنوع: السؤال والتذلل في المسألة - ثم قال - : وقال الفراء: هو الذي يسألك فما أعطيته قبله - ثم قال - : وقال بعض أهل العلم: إن القنوع قد يكون بمعنى الرضى، والقانع بمعنى الراضي وهو من الأضداد» وأنشد: وقالوا قد زُهِيتَ قَلْتُ: كلاً ولكني أعزني القنوع»

انتهى المراد.

وفي (أساس البلاغة) للزخشي: «العز في القناعة، والذل في القنوع وهو السؤال، وفلان قنع بالمعيشة وقنع وقنوع وقانع، أنشد الكسائي: فإن ملكت كَفَاكَ قَوْطاً فكن به قنيعاً فإن المتقي الله قانع» انتهى المراد.

ولكونه من الأضداد وقع الاختلاف فيه من حيث هو في الآية الكريمة، ففي (مجموع الإمام زيد بن علي): عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام.. إلى قوله: «﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ قال: ﴿الْقَانِعَ﴾ الذي يسأل ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ الذي يتعرض ولا يسأل» انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): ف﴿الْقَانِعَ﴾ السائل، وقال: الجالس في بيته ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ الذي يأتيك ولا يسألك، وفي (أحكام الإمام الهادي عليه السلام): «﴿الْقَانِعَ﴾ المتعفف لا يسأل مع الحاجة، ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ السائل» ورواه فيها عن جده القاسم ومثله في (أمالي أحمد بن عيسى عليه السلام) عن القاسم عليه السلام.

وقد أفادت الآية الكريمة: الأمر بإطعامهما، سواء كان (القانع) السائل أم الذي يتعفف عن السؤال وهو محتاج، والمعتر الذي يتعرض ولا يسأل أم الذي يسأل، قال في (لسان العرب): «والمعتر الفقير..» إلى أن قال: «.. عراه واعتراه وعره يعرّه عراً واعتراه واعتّر به إذا أتاه فطلب معروفه..» إلى أن قال: «.. قال جماعة من أهل اللغة: القانع الذي يسأل، والمعتر الذي يطيف بك يطلب ما عندك سأل أو سكت عن السؤال» ثم قال: «وأصله من قولك: عررت عراً فأنا عار إذا أتيت تطلب معروفه، واعترته بمعناه» انتهى، فوجه تفسير الإمام القاسم عليه السلام: أنه قد فسّر (القانع) بالمتعفف الذي لا يسأل مع الحاجة، فاستلزم ذلك تفسير (المعتر) بالسائل لمقابلته بـ(القانع) مع صلاحية لفظ (المعتر) له.

لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْكُمْ ۖ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٢٨﴾ أَذِنَ لِلَّذِينَ

﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ كذلك التسخير للبدن المهداة سخرنا لكم الإبل ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي تشكرون نعمة الله عليكم إما مطلقاً وإما نعمته بالإبل.

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ ۚ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْكُمْ ۖ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا﴾ لأنه يطعم ولا يطعم ﴿وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ إشارة إلى ما يفعل المشركون بأصنامهم حين يضمخونها بدم ما يذبحون لها، ولأن الدم نفسه ليس المقرب إليه ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ والتقوى اجتناب معاصي الله والتوبة إلى الله.

فإن قيل: التقوى غير الهدايا أو الهدايا جزء من التقوى متى كانت واجبة فما علاقة التقوى هنا بالهدايا؟

فاجواب: إن التقوى أساس قبول العمل؛ لأن الله تعالى قال فيما حكاه مقررأ له: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] فالمعنى: يناله التقوى والهدايا متى كانت من التقوى، ونظير هذا قوله تعالى في الصلاة إلى بيت المقدس قبل النسخ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ﴾ مشاكلة لقوله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ﴾ والمعنى لن يتقبل ولكن يتقبل ﴿كَذَلِكَ﴾ التسخير ﴿سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْكُمْ﴾ قال في (الكشاف): «اختصر الكلام بأن ضمن التكبير معنى الشكر وعدّي تعديته» انتهى.

يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٦﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا
مِنْ دِيَرِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ

يعني: أنه عدي التكبير بـ ﴿عَلَىٰ﴾ لأجل تضمينه معنى الشكر، ثم قال
تعالى: ﴿وَنَبِّهِرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فافاد: أن نحر البدن لله من عمل المحسنين
وتفسير ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ مذكور في أول (سورة لقمان). انتهى موضوع
(الحج) وتوابعه ويأتي موضوع (الجهاد).

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ
كَفُورٍ ﴿يُدْفِعُ﴾ فعل مضارع يصلح للحال والاستقبال، والمدافعة عن
جملة المؤمنين لا يلزم منها الدفع عن كل شخص ولكن معناها يدل بالالتزام
على النصر متى كانوا جنداً متوحداً متمسكاً بشروط النصر ومنها الصبر،
نعم ومن النصر التاليف بينهم حتى يتوحدوا ويصبروا، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ
اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ تعليل للدفاع عنهم بأنه تعالى لا يحب
أعداءهم الخونة الكفرة.

قال بعض المفسرين: «ولما كانوا مكثرين في الخيانة والكفران، لأن الله
حملهم أمانة الدين الحق، وجعلها وديعة عند فطرتهم لينالوا بحفظه ورعايته
سعادة الدارين وعرفهم إياه من طريق الرسالة، فخانوه بالجحد والإنكار
وغمرهم بنعمه الظاهرة والباطنة فكفروا بها ولم يشكروه بالعبودية» انتهى.

قلت: ومن نعمة الله على قريش إنزال الكتاب فيهم وإرسال الرسول
منهم فكفروا هذه النعمة إلا من آمن وحاربوا رسول الله ﷺ بعد إخراجهم
من بلده وصدوه عن المسجد الحرام، فلعل الله سماهم ﴿كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾
لكفرهم هذه النعمة وكذلك خيانتهم بالمؤامرة ضد الرسول.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾
﴿أُذِنَ﴾ أذن الله للذين يقاتلهم الكفار أن يقاتلوا الكفار، وقد كان المؤمنون

بَعْضُهُمْ بَبَعْضٍ هُدِمَتْ صَوَامِعُ وَبِيعَ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٤﴾

قيل لهم: كفوا أيديكم، فلما كانوا في وقت وقعة بدر أذن لهم ووعدهم إحدى الطائفتين أنها لهم، وأشار إلى علة للأذن ﴿بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾ ظلمهم الكفار بإخراجهم من ديارهم وتعذيب بعضهم وغير ذلك ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ تشجيع لهم على الجهاد بأن يكونوا راجين للنصر وإن كانوا أذلة قليلي العدد والعدة كثيري الأعداء.

﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ هُدِمَتْ صَوَامِعُ وَبِيعَ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا﴾ من صفات الذين أذن لهم ﴿أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ اضطروا إلى الهجرة أولاً: إلى (الحبشة) وثانياً: إلى (طيبة) أخرجوا ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي بغير حق للكفار الذين أخرجوهم لم يكن لهم حق في أن يخرجوهم ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ استثناء منقطع والمعنى ليس لهم سبب لإخراجهم إنما أخرجوهم لثلاث يقولوا ربنا الله أي لثلاث يوحدها الله ويعبدوه وحده ويبرؤوا من الشرك؛ لأن ربهم الله أي المالك لنا هو الله وحده ونحن عباده وحده، فعبادة غيره باطل؛ لأن كل من سوى الله عبد مربوب.

﴿وَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي بالجهاد ﴿هُدِمَتْ صَوَامِعُ﴾ يعبد الله فيها حين كان الترهيب غير مذموم ﴿وَبِيعَ﴾ للعبادة يعبد الله فيها النصارى قبل نسخ شريعتهم ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ تركت خوفاً من الكفار، وبعض المفسرين فسر الصلوات بمواضع صلاة ﴿وَمَسَجِدُ﴾ هدمت كل ذلك لولا الجهاد لبطل دين الله بغلبة الكفار ومحاربتهم له، وهذا - أيضاً - تعليل لتشريع الجهاد يبين أنه ضروري لحماية دين الله وإحياء ذكر الله كثيراً.

الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿١١﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ

﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾ ﴿مَنْ﴾ عبارة عن الجند والحزب؛ لأن السياق في الذين يقاتلون الذين أذن لهم وكانوا جنداً، فهي كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ﴾ [الصف: ١٧٣] وقوله تعالى: ﴿فَلَنْ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦] وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ..﴾ الآية [الأنفال: ٦٥-٦٦].

وهذا في المجاهدين في سبيل الله، والنصر - أيضاً - يشرط فيه طاعتهم لقائدهم وترك التنازع والتوبة إلى الله واجتناب الغلول والتزام طاعة الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ تأكيد للوعد بالنصر ودلالة على أنه لا يستبعد نصر الأقلين المستضعفين؛ لأن الله تعالى إذا أراد نصرهم فهو قوي عزيز، وأكد ذلك بـ (إن) و(اللام) ليذهب استبعادهم للنصر، ويقوى رجاؤهم له.

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ ﴿الَّذِينَ﴾ من صفات الذين أذن لهم في القتال ﴿إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ بنصرهم على أعدائهم ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ وهذه من صفة المؤمنين الثابتين على الإيمان في حال أن قد تمكنوا في الأرض.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿١٦﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿١٧﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾

﴿وَأَمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ لأن مهمتهم إقامة دين الله ودفع الباطل ودفع الظالم ودفع الفساد في الدين فبهم يحى الحق ويحمل الباطل؛ ولذلك فهم أهل لأن يأذن الله لهم في القتال وينصرهم ويمكن لهم في الأرض ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ يقدر فيها ما يشاء ويهيئ لها ما يشاء، فمتى أراد أن تكون العاقبة النصر هيأ لها أسبابه.

قال سيد قطب في سياق تفسير هذه الآية: «هؤلاء هم الذين ينصرون الله، إذ ينصرون نهجه الذي أراده للناس في الحياة، معترزين بالله وحده دون سواه، وهؤلاء هم الذين يعدهم الله بالنصر على وجه التحقيق واليقين فهو النصر القائم على أسبابه ومقتضياته المشروط بتكاليفه وأعبائه والأمر بعد ذلك لله يصرفه كيف يشاء، فيبدل الهزيمة نصراً، والنصر هزيمة عندما تختل القوائم أو تهمل التكاليف ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾».

إلى قوله: «...وهو نصر له سببه وله ثمنه وله تكاليفه وله شروطه فلا يعطى لأحد جزافاً أو محاباة ولا يبقى لأحد لا يحقق غايته ومقتضاه» انتهى.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ يا محمد ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أمم كذبوا رسلهم وكذبوا بآيات الله التي جاءتهم بها رسلهم، وقد مرت قصصهم مفصلة في سور منها: (سورة الأعراف)، (سورة هود)، (سورة النحل).

عَلَىٰ غُرُوشِهَا وَيَبْرِ مَعْطَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ ﴿١٠﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ عدل به عن أسلوب المذكورين قبله هنا وفي (سورة الشعراء) ولعل شعيباً أرسل إلى قبيلتين إحداهما قومه والأخرى بينه وبينهم علاقة ومعرفة بسبب أنهم مثلاً أخواله أو صهوره فكان بعض أصحاب مدين قومه وبعضهم غير قومه - والله أعلم، وكذلك قال تعالى: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَى﴾ لأن موسى من بني إسرائيل وأرسل إلى فرعون وملكه وهم من القبط، ففي هذه الجملة تسلية لرسول الله ﷺ في تكذيب قومه له.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ تسلية أيضاً لرسول الله ﷺ في الإملاء لقومه حيث أمهلهم الله نحو ثلاث عشرة سنة بل أكثر، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ دلالة على أن الإمهال ليس معناه الإهمال وإنما هو لحكمة ثم يأخذهم، ولعله تعالى قد أخذ بعضهم في خلال المدة المذكورة لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْتَكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥] ثم أخذ منهم سبعين يوم بدر ثم عدداً منهم يوم أحد، ثم في بقية المعارك بينه وبينهم وبينه وبين اليهود ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي أنه كان شديداً على الكافرين، وفسره في الآية التي بعد هذه، وفي هذا فائدتان: التسلية لرسول الله ﷺ بأن لهم نهاية تكون فرجاً له، والإنذار للمكذبين.

قال الشرقي في تفسير هذه: «أي كيف إنكاري عليهم بالعذاب وتغييري» انتهى المراد، وقال (صاحب الصحاح): «والنكير والإنكار: تغيير المنكر» انتهى.

﴿فَكَأَيُّ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْرِ مَعْطَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾ ﴿فَكَأَيُّ﴾ أي فكم ﴿مِّنْ قَرْيَةٍ﴾ وهذا تكثير للقرى التي أهلكها.

تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَتَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن

وقوله تعالى: ﴿قَرِيَّةٌ﴾ كناية يريد فيها الحقيقة والمجاز فليس كقوله: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] فمن حيث أراد تعالى أهلها قال: ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ ومن حيث أراد الحقيقة، قال تعالى ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي ساقطة حيطانها على سقوفها ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ أي وكم من بئر معطلة أي متروكة لا يؤخذ من مائها؛ لأن أهلها قد هلكوا لم يبق منهم أحد ﴿وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾ أي وكم من قصر مشيد معطل غير مسكون.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: مزين بالشيد، وهو الجص والجيار» انتهى، أي معنى ﴿مَشِيدٍ﴾ وقال في (الصحيح): «والجيار: الصاروج، قال الأخطل يصف بيتاً: كأنها بُرجٌ روميٌّ يشيده لُزْبَطَيْنِ وَآجِرٌ وَجِيَارٌ

انتهى، وقال في (الصحيح): «الصاروج: النورة وأخلاطها فارسي معرب» انتهى، قال الشرفي في (المصابيح): «أي وكم من قصر مشيد أي أخليناه عن ساكنه فترك ذلك لدلالة ﴿مُعَطَّلَةٍ﴾ عليه» انتهى، ومثله في (الكشاف).

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ أي هؤلاء الكافرون الذين أذن الله لرسوله بقتالهم، والسؤال بمعنى النفي، مثل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ [الشرح: ١] و(الفاء) للتفريع على قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرِيَّةٍ﴾ أي قد ساروا في الأرض ورأوا آثار القرى أو بعضها التي أهلكها الله.

وقوله تعالى: ﴿فَتَكُونُ﴾ منصوب في جواب السؤال أي إن من شأنهم إذا ساروا في الأرض وشاهدوا آثار القرى المهلكة أن يعتبروا بهم ﴿فَتَكُونُ هُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ يفكرون في آيات الله الدالة على صدق رسول الله في إنذاره لهم وفي كل ما جاء به عن الله ﴿أَوْءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ آيات الله، سماع تفهّم وطلب لمعرفة الحق بأن مشاهدة آثار قرى المهلكين تثير الاعتبار في القلوب السليمة الباقية على فطرتها، أما إذا كانت القلوب لا يؤثر فيها ذلك لفسادها وتحولها عن فطرتها، فإنها لا يفيدها شيء، فكأن من لا يعتبر بشيء من تلك القرى كالأعمى الذي لا يبصر، بل هو أسوأ حالاً لأن أعمى البصر يستعين بمن يهديه من قائد أو غيره وبما يهديه من عصا ولمس وسمع، أما أعمى القلب فهو معرض عن يهديه ولا يتطلب الهدى بأي وسيلة.

ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِنِّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ قال (صاحب الكشاف): «فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار [أي مجازاً] احتاج هذا التصوير إلى زيادة وفضل تعريف ليتقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الأبصار كما تقول: ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذي بين فكيك تقرير لما ادعيته للسانه...» إلى قوله: «...وكأنك تقول: ما نفيت المضاء عن السيف وأثبتته للسانك فلتة ولا سهواً مني، ولكني تعمدت إياه بعينه تعمداً» انتهى.

قلت: وهذا يبطل القاعدة التي تقول: علامة المجاز صحة نفيه، ومثله قول الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميت	إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كثيراً	كاسفاً بأله قليل الرجاء

قَرْيَةٍ أُمْلِيَتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿٥٠﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

ومنه الحديث الشريف: «ليس المسكين هذا الطواف عليكم تردّه التمرة والتمرّتان واللّقمة واللّقمتان» قالوا: فمن المسكين يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يقطن له فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس» انتهى. ﴿٥١﴾ وَدَسْتَعِجْلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ تُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥٢﴾ وَدَسْتَعِجْلُونَكَ عَظَفَ عَلَى بَيَانِ أَنَّهُمْ عَمِيَ الْقُلُوبُ فَكَانَهُ تَعَالَى قَالَ: ومع ذلك يستعجلونك يا محمد ﴿بِالْعَذَابِ﴾ يطالبونك بتعجيل العذاب تكذيباً منهم بوقوعه أي عجله إن كان واقعاً ﴿وَلَنْ تُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ فالعذاب واقع بهم لا محالة سواء عجله الله أم أخره ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي في قدرته وعلمه ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ فلو شاء لعجل لهم العذاب.

قال الشريفي في (المصابيح): «وأما الهادي عليه السلام فقال: المعنى في ذلك أنه إخبار من الله سبحانه عن نفاذ قدرته وإمضاء مشيئته وسرعة فعله يخبر سبحانه أنه ينقذ في يوم واحد ما ينقذه جميع الخلق إذا اعتنوا عليه في ألف سنة... الخ، وقوله تعالى: ﴿مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ تحقيق للسنين المذكورة، بأنها هذه السنون التي هي اثنا عشر شهراً.

﴿٥٢﴾ وَكَأَيُّنَ مِّن قَرْيَةٍ أُمْلِيَتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿٥٣﴾ هذه من الرد على استعجالهم بالعذاب تفيد: أنهم متعرضون للعذاب العاجل كما عذب الله القرى قبلهم وتبين أن الإملاء ليس معناه أنه لا يعذب المكذبين، فعلى هؤلاء المكذبين أن يحذروا ولا يستعجلوا تكذيباً بالرسول فالماضي تجربة لهم إن عقلوا.

لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٣﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي

وقوله تعالى: ﴿وَالِىَ الْمَصِيرِ﴾ يذكر بالجزاء بالآخرة وأن هلاكهم العاجل لم يكن نهاية أمرهم، بل لا بد من مصيرهم إلى الله في موقف الحساب والجزاء، وتلك المهمة العظمى التي يقول عندها الشقي: ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٧].

﴿قُلْ يَتَّيْبُهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ * فالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله للناس كافة: ﴿يَتَّيْبُهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ليس علي إلا إنذاركم إنذاراً بيناً بالحجة الواضحة وليس علي أن أكرهكم على الإيمان ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بما جئت به من الآيات وبما أنذرتهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ كما بلغتهم ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ للذنوب الماضية قبل الإيمان، من الشرك وغيره ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فهم نفعوا أنفسهم والرزق الكريم في الجنة الباقية أبداً ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ بالجدال فيها كفراً بها فما ضرروا إلا أنفسهم ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ قال الشرفي: ﴿مُعْجِزِينَ﴾ أي مغالين» انتهى.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾ عطف على الكلام في المكذبين، أو على آخر آية فيهم التي هي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي من قبلك يا محمد فلك فيهم أسوة، وقوله تعالى: ﴿مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ يترجح أن فيه اختصاراً والمعنى: ولا نبأنا من نبي؛ لأن النبي الذي نبأ بالوحي إليه بشريعة، والرسول الذي يرسله الله إلى أمة بشريعة كما يفيد معنى الكلمتين في اللغة.

فالنبي إذا أرسل صار رسولاً لأن كل رسول نبي فيكون عطفه على رسول مشكلاً، فلذلك ترجح تقدير: نبأنا، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦] أي وأبعدنا من أبنائنا.

قال في (مغني اللبيب) في أقسام العطف: «والثاني عشر: عطف عامل، حذف وبقي معموله على عامل آخر مذكور، يجمعهما معنى واحد كقوله: وزججن الحواجب والعيونا

أي وكحلنا العيون، والجامع بينهما التحسين» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ قيل في تفسير ﴿تَمَنَّى﴾: قرأ، وقيل: تمنى على حقيقته فقوله تعالى: ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ الملقى محذوف، والمعروف من فعل الشيطان الوسوسة والتضليل، فالمعنى ألقى وسوسة في صدق ما قرأه النبي وإن كان تمنى، ذكر أمنية كتمني النصر للدين، فكذاك يوسوس الشيطان فيما ذكره أنه لن يكون، والتمني هنا إظهار الرغبة في تعجيل ما يرجوه لا تمني المستحيل، ومنه قول محمد بن عبد الله النفس الزكية عليه السلام:

متى ترى للعدل نوراً وقد أسلمني ظلم إلى ظلم
أمنية طال عذابي بها كأنني فيها أخو حلم

فالوسواس في مثل هذا وسوسة الشيطان في صدق رؤيا رسول الله ﷺ ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنِ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ..﴾ الآية [الفتح: ٢٧] وفي مثل ما يروى عنه ﷺ أنها ستفتح له كنوز كسرى وقصر.

فأما رواية (الغرانيق) فأكتفي فيها بكلام الإمام القاسم بن محمد عليه السلام نقله الشرفي في (المصابيح) فقال: «وما أحسن قول إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد عليه السلام بن رسول الله - رحمة الله عليه - جواباً لمن سألته ما صحة ما في (الكشاف) فقال عليه السلام ما هذا لفظه: اعلم أن التمني مصدر والأمنية واحدة الأمانى وهي اسم من التمني وهو مشترك، وكذلك الأمنية لأنها فرعها والمراد بهما في الآية الكريمة القراءة إذ هي أحد معانيها، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾ [البقرة: ٧٨] أي إلا قراءة من دون فهم ما أراد الله به، وقال كعب بن مالك:

تمنى كتاب الله أول ليلة
... البيت

أي قرأ [في الأم اقرأ وهو غلط. تمت منه] وبذلك فسّر كثير غير جار الله ومن وافقه [وبعضهم] فسروه بالتمني المعروف الذي هو محبة النفس لشيء غير حاصل والصحيح الأول وسأبين لك وجهه في أثناء جوابي إن شاء الله تعالى.

ثم اختلفوا في تأويل ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ فذهبت الحشوية وتابعهم جار الله إلى أن الشيطان لعنه الله ألقى على لسان رسول الله ﷺ وحاشاه عن ذلك بعد تلاوته في (سورة النجم) قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَتَلِّئَتَا الْأُخْرَىٰ﴾ [آية: ١٩-٢٠] ما اخترصوه زوراً وتجارياً على الله تعالى من قولهم: تلك الغرانيق العلى.. الخ، قالوا: كان ذلك في حال سهو من رسول الله ﷺ واعتذر جار الله بقوله: وكان تمكين الشيطان محنة من الله، عز وجل - وابتلاء زاد المنافقون به شكاً وظلمة والمؤمنون نوراً وإيقاناً [انتهى]

وذلك باطل؛ لأن الله سبحانه يقول: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وقال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢] ويقول: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩-١٠٠].

فإذا كان كما يفترون وقد تمكن إبليس - لعنه الله - من صرف قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ وَمَنْنَةُ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿ [النجم: ١٩-٢٠] عن إحكامها إلى أبطال الأباطيل لما جعله لعنه الله صدر مدح [بزعمهم لها] الأصنام على لسان نبيه سيد الأنام طهرهما [أي الآية والرسول ﷺ] الله عن ذلك، ومن أين لا سلطان له على المؤمنين وقد تمكن [بزعمهم] من رسول [الله] رأس المؤمنين وزعيمهم؟ ثم العجب من اعتذار جار الله حيث جعل كلام إبليس شبيهاً بسورة [من] القرآن حيث ازداد المنافقون شكاً وظلمة والمؤمنون نوراً وإيقاناً، ولا يعلم شيئاً كذلك إلا ما يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيْمَانًا فَلَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿ [التوبة: ١٢٤-١٢٥].

وإذا كان كلامه [لعنه الله] نوراً للمؤمنين فقد صار صديقاً لهم لما منحهم منه من اليقين الحاصل بسببه، وإذا كان صديقاً فما معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] فليس هو عدواً إلا لحزبه خاصة، ولو في وقتٍ ما فيآلله من أمة ضلت عن هدايتها.

وذهبت أئمة أهل البيت - صلوات الله عليهم وعلى جدهم - إلى أن معنى الآية غير ذلك؛ لأن الأنبياء - صلوات الله عليهم - لا يجوز عليهم السهو والغلط في مثل ذلك وإلا لم نأمن وقوعه في سائر الشرائع، وقد وقفت على تفسير لبعضهم (عليه السلام) مجملاً ولم أقف على تفسير حال رقمي هذا الجواب مفصلاً لأحد منهم... الخ.

وذكر الشرفي في (جواب للقاضي عياض) يذكر فيه أن رواية الغرائيق باطلة، وأنه لم يروها أحد من (أهل الصحاح) ورد عليه ابن حجر في (حاشية الكشف).

قلت: الرواية سواء كانت موضوعة بالنسبة إلى سندها أم كانت ضعيفة أم قوية عند من يقبل المرسل فهي باطلة لا تلجئ إلى التأويل الذي ذكره (صاحب الكشف) وإنما يحتاج إلى التأويل فيما كان ثابتاً، وفي القرآن كفاية لإبطال الرواية وغنية عن التأويل للتمكين المزعوم!

﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أي يبطله ويذهب مثل: نسخت الشمس الظل، فإن كان التشكيك في القراءة فهو مثل التشكيك في صدق الوعيد بـ ﴿سَقَرٌ...﴾ ﴿...عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدر: ٣٠] وأحكام الآيات مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ الآية [المدر: ٣١] وغير ذلك، وإن كان بالتشكيك في الأمانة التي هي مثل النصر على كسرى وقيصر ومثل دخول ﴿الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ...﴾ الآية [الفتح: ٢٧] فنسخ التشكيك بتكرار النصر بما فيه عبرة بحيث لا يستبعد نصر الله لرسوله، وإظهاره لدينه حتى يتنصر المسلمون ويدخلوا المسجد الحرام إن شاء الله آمين، ويغنموا كنوز كسرى وقيصر.

قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٦﴾
وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٧﴾ وَلَا يَزَالُ

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَحْكُمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ﴾ بجعلها واضحة لا سبيل للشيطان إلى التشكيك فيها، وهذا يشير إلى أن ما ألقى الشيطان فيه كان من المتشابه الذي يتبعه الذين في قلوبهم زيغ، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فجعل المتشابه وهو عليم بما يلقي الشيطان فيه وهو حكيم بذلك وفي كل شيء من أقواله وأفعاله سبحانه وتعالى.

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٦﴾ مكن الشيطان من إلقاء وسوسته في الأمانة أو في القراءة ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ من وسواسه ﴿فِتْنَةً﴾ واختباراً ﴿لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي شك في صدق الرسول ﷺ فيظهر به أمرهم.

﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ الذين لا تتأثر قلوبهم من سماع آيات الله تتلى عليهم وما فيها من الوعيد لا يفيدهم خوفاً، فيظهر منهم الجدل في آيات الله أو في صدق رسول الله في أمنيته لأن المتشابه يكون عندهم فرصة للجدال به ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ فبظلمهم لا يتخرجون من الشقاق لله ولرسوله بعيدين من الإيمان والطاعة بل يشاقون بالجدال في آيات الله والتشكيك في صدق القرآن وصدق الرسول ظلماً وانقياداً للشيطان.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٧﴾ ومكن

الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَّةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ
عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ أَلَمْ لِكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ تَحَكُّمٌ بَيْنَهُمْ فَأَلْزَمَ

الشیطان من إلقاء وسوسة في قراءة الرسول أو أمنيته ثم نسخه وأحكم آياته ﴿لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ الذين هداهم الله للنظر الصحيح فعلموا أن الرسول حق وأن القرآن حق، فقالوا: ﴿أَمَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] وعلموا أن وسواس الشيطان باطل وأن كلام الله وكلام رسوله هو الحق وما قرأه الرسول وما تمناه كله حق من رب الرسول الذي آناه القرآن وأرسله بالحق ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ بالقرآن أو بما قرأه وما تمناه ويرفضوا وسواس الشيطان ويدفعوه بالنظر الصحيح في دلائل صدق الرسول ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْاِذْنَ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤] ولذلك لا يرتابون عند عروض الأسباب التي يرتاب لأجلها الذين في قلوبهم مرض بل يزدادون إيماناً وتسليماً أن هدى الله هو الهدى.

وقوله تعالى: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ قال في (الصحيح): «والإخبات: الخشوع، يقال: أخبت لله وفيه خبته أي تواضع» انتهى.
وفي (مصاييح الشرفي): «أي تخشع وتواضع لذكر الله وتلين لا كالمشركين القاسية قلوبهم من ذكر الله» انتهى، وقوله تعالى: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ﴾ أي للذي يؤمنون به.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَّةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هنا كافرون معينون تمردوا وقست قلوبهم فخذلوا وبعُدُوا عن اليقين بالقرآن، وهذا يرجح أن الضمائر للقرآن في الآية الماضية في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ﴾ والمرية: الشك، والساعة البعث وما بعده، فهم يبعثون على ما ماتوا عليه.

ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ

فإذا شاهدوا أهوال القيامة أو إذا أتاهم عذاب يوم عقيم آمنوا حين لا ينفع الإيمان، فاليقين منهم يحصل بإتيان الساعة أو إتيان عذابهم، وليس في هذا تكرار؛ لأن الساعة أولها البعث، فإذا بعثوا فقد أتتهم الساعة، والعذاب عذاب جهنم وهو لا يقارن البعث.

قال الشرفي في (المصاييح): «وقال الحسين بن القاسم عليه السلام: العقيم: هو المعقوم الممنوع من رحمة الله الكريم» انتهى المراد. وهذا في حق أعداء الله يكون يوم الحساب والجزاء عقيماً عليهم لا يفيدهم خيراً قط، بل هو شر خالص دائم. ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ تَحَكُّمٌ بَيْنَهُمْ﴾ ٥٦-٥٧ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ تأتيهم الساعة ويأتيهم عذاب يوم عقيم، الملك ﴿لِلَّهِ﴾ وحده لا ينازعه أحد فالأمر لله وحده والحكم له وحده ﴿تَحَكُّمٌ بَيْنَهُمْ﴾ بين المؤمنين والمرتابين الكافرين ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذا بيان الحكم للمؤمنين والذين كفروا بيان الحكم عليهم فهو حكم يلزمه وقوع المحكوم به ماله من دافع؛ لأن الملك يومئذ لله وحده، أو هو نفس الحكم إثابة المؤمنين وتعذيب الكافرين وإهانتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يحتمل: كفر النعمة لأن كفر الجحود قد دل عليه التكذيب بالآيات، ويحتمل: الجحود لأنه مقابل الذين آمنوا، ولا ينافيه ذكر التكذيب بالآيات لأن الجحود باليوم الآخر وبالرسول استلزم التكذيب بآيات الله، كأنه قيل: جحدوا لأنهم كذبوا بآياتنا، وهذا أوفق للسياق من أول السورة فهو أرجح.

اللَّهُ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ
الْرَازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيَدْخِلْنَهُمْ مُدْخَلَ رِزْوَانِهِ ۖ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾
ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْنَهُ اللَّهُ ۚ إِنَّ
اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ

﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا
حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * لَيَدْخِلْنَهُمْ مُدْخَلَ رِزْوَانِهِ ۖ وَإِنَّ اللَّهَ
لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ هذا ترغيب في الهجرة لئلا يمنع المؤمن خوف القتل أو الموت،
فالقتل والموت ليس نهاية أمرهم بل يستقبلون رزقاً حسناً من الله ﴿وَإِنَّ اللَّهَ
لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ لأنه كريم لا يصعب عليه الكثير من الرزق لأنه على كل
شيء قدير وهو بكل شيء عليم، فلا يخفى عليه كيف يجعل الرزق حسناً.

﴿لَيَدْخِلْنَهُمْ مُدْخَلَ رِزْوَانِهِ﴾ وهو الجنة أو إدخال الجنة، وكيف لا
يرضونه وينسون به ما لحقهم في الدنيا من مشاق الهجرة والقتل أو الموت
﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ فهو يعلم ما يرضيهم ﴿حَلِيمٌ﴾ فهو يغفر لهم ما سبق
منهم فتابوا منه وما هو صغير لا ينقص من نعيمهم لأجله.

﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْنَهُ اللَّهُ
إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ ﴿٦٢﴾ مر الكلام فيها وحاصله أنها تقال لأن
ما بعدها كلام في موضوع خلاف موضوع ما قبلها، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ
عَاقَبَ ..﴾ إلى آخر الآية تشجيع على إعادة العقاب وتكراره كلما تكرر
العدوان إلا أن السياق في الذين هاجروا فالعطف بقوله تعالى ﴿وَمَنْ﴾
متعلق بالمهاجرين؛ لأن الكفار كانوا قد ظلموهم بمكة قبل الهجرة، وقوله
تعالى: ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ أي بمثل ما اعتدي عليه به.

فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٧﴾ أَلَمْ تَرَ

وقوله تعالى: ﴿عُوقِبَ﴾ مشاكلة أو سمي الكل من الابتداء وما تعقبه كله معاقبة؛ لأنه مداولة ومناوبة كالمعاقبة بين المسافرين يمشي أحدهم عقبته في المشي ويركب تارة وهكذا غيره، والأول أوضح فهو أرجح، فمن اعتدى عليه المشركون فعاقبهم بمثل عدوانهم ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرْتَهُ اللَّهُ﴾ وعد مؤكد بـ(اللام) و(نون التوكيد) فهذا كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩] في أنه ترغيب في الانتصار، ولعل ذلك ليحافظ المؤمن على عزته، فأما العفو فهو أفضل لكن عند قوة المظلوم وضعف الظالم فالانتقام حيثئذ سهل لكن العفو عند القدرة أفضل؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَلَجْزُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] فأما الطغاة الظالمين فلا يستحقون العفو عنهم؛ لكونهم مصرين على ظلمهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ تعليل للنصر فهو للمؤمن عفو ومغفرة، كما قال نوح عليه السلام: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: ٤١] لأن الله تعالى لو شاء منعه النصر لأجل زلاته كما أن الكبائر تمنع النصر.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿ذَلِكَ﴾ النصر بقدرة الله الذي ﴿يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ فيقلب الحالتين وهو تصرف عظيم لا يقدر عليه غيره وفيه إشارة إلى تبديل حالة المؤمنين من الضعف إلى القوة وحالة أعدائهم من القوة إلى الضعف بواسطة نصر المؤمنين والله أعلم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ فلا يخفى عليه حال المظلوم والظالم.

أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٢﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٣﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرَى

﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ ۚ إِبِلَاجُ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ وَإِبِلَاجُ النَّهَارِ فِي اللَّيْلِ بِسَبَبِ أَنَّ ﴿اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾؛ لِأَنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَيْهِ وَعَلَى قُدْرَةِ لَا تَمَاطِلُهَا قُدْرَةُ مَخْلُوقٍ فَهُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ وَأَنَّ مَا يَدْعُو الْمُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿هُوَ الْبَاطِلُ﴾ لِعَجْزِ شُرَكَائِهِمْ عَنِ النَّفْعِ وَالضَّرِّ وَكَوْنِهِمْ عِبَادًا مَمْلُوكِينَ لِلَّهِ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ لِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَلِذَلِكَ خَالَفَ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِمُقَادِيرٍ مَحْدُودَةٍ مُحْكَمَةٍ عَلَى نِظَامٍ دَقِيقٍ فِي الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ.

﴿١٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ وَفِي ذَلِكَ دَلَالٌ عَلَى قُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ وَإِنْعَامِهِ عَلَى عِبَادِهِ فَهُوَ رَبُّهُمْ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ أَيُّ بِالنَّبَاتِ دَلَالَةٌ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى كَمَا أَحْيَا الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ رَدٌّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِتَقْرِيرِ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْقَادِرُ الْعَالِمُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ وَبِتَقْرِيرِ إِمْكَانِ الْبَعْثِ وَأَنَّهُ غَيْرُ بَعِيدٍ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ لَمَّا يَشَاءُ يَكُونُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ الْمَخْلُوقُ ﴿خَبِيرٌ﴾ عَلِيمٌ بِخَبَرِ الْمَخْلُوقِينَ مِنْ صِلَاحٍ وَفَسَادٍ، فَلَا بَدَّ مِنَ الْبَعْثِ لِلْجِزَاءِ.

﴿١٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٤﴾ فَالْمَلَائِكَةُ لَهُ عِبَادٌ وَمَا فِي الْأَرْضِ كُلُّهُ لَهُ، فَأَصْنَامُ الْمُشْرِكِينَ

فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ

ومعبودوهم كلها عباد لله ليس لها شيء من الربوبية ولا الإلهية ولا الملك والله هو رب من في السموات ومن في الأرض فهو المستحق أن يعبدوه ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن عبادتهم ﴿الْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد لإسباغه النعم على عباده، سواء شكروا أم كفروا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ من دلائل قدرة الله تعالى وعلمه وإنعامه على الناس ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ من جبالها ونباتها وحيوانها لكل حيوان منفعة للإنسان وغير ذلك.

﴿وَالْفُلْكَ﴾ سخرها لنا ﴿تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ للرياح أن تسيرها ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ ولو أذن لهما لتصادمتا، وهكذا الأرض والنجوم ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ حيث يسر لهم المعيشة في الأرض بتيسير حاجاتهم في الأرض وتيسير سفرهم في البحر وسلامتهم من وقوع السماء عليهم فكل ذلك رأفة ورحمة، والرأفة أبلغ من الرحمة، وهو تعالى منزّه عن الرقة ولكنه يفعل بعباده ما هو رأفة ورحمة.

قائلة: قال بعض المفسرين: «وقد اختصت هذه الآيات بخصوصية لا توجد في جميع القرآن الكريم إلا فيها فهي ثمان آيات متوالية ختمت كل منها باسمين من أسماء الله الحسنى وراء لفظ الجلالة...» الخ.

إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَادَّعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِنْ

قلت: وهي أو آخر (سورة الحشر) لا تكاد تتوافق إلا في ﴿عَلِيمٌ﴾؛ لأنه في آية الحشر: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ [آية: ٢٢٢] وإلا في اسمه تعالى ﴿الرحيم﴾ فأما اسم الجلالة فهو في كل آية هنا وهناك، فالأسماء الواضحة في هذه الآيات خمسة عشر وفي آخر (الحشر) خمسة عشر، تكون تسعة وعشرين والجلالة توفيقها ثلاثين، وفي سائر القرآن أسماء مفرقة ففي أول (سورة الحديد) اختصت بخمسة و (سورة الصمد) اختصت باسمين، واختصت (آية الكرسي) بثلاثة، وأسماء الله تعالى في القرآن كله كثيرة، وقد جمعت منها في كتيب جملة مفسرة - والحمد لله.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَلَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] هذا رد على المشركين في شركهم وفي تكذيبهم بالبعث استبعاداً لقدرة الله تعالى عليه مع أنه قد أحياهم أول مرة، وهو المتصرف فيهم كيف يشاء بحياة أو موت لا دافع لأمره من شركائهم ولا من غيرهم فله الخلق وله الأمر، والإنسان كثير الكفر، لأن الآيات البينات كثيرة، آيات الكون وآيات القرآن المعجز، وذلك كله لا يمنع أكثر الناس من الكفر.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَادَّعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ ما أنت يا محمد بدعاً من الرسل ولا شريعتك بدعاً من الشرائع فقد جعلنا ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ ﴿مَنْسَكًا﴾ أي عبادة وشريعة وكلها دين واحد تحت عنوان (الإسلام) ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ عاملون

جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ

به فاعمل بمنسكنا الذي جعلنا لك فلا تترك للكفار فرصة ليجادلوك في الأمر الذي جاءك من الله ﴿وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ غير مبال بهم ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ لا ينحرف عن الحق أبداً.

﴿وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَإِنْ جَدَلُوكَ﴾ أي الكفار ﴿فَقُلِ﴾ لهم بدلاً من جدالهم ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فهو يحاسبكم ويمجازيكم.

﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ﴾ بينك وبينهم أو الله يحكم ﴿بَيْنَكُمْ﴾ أيها الناس كلكم ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ في الدنيا فيتجلى الحق لكم أجمعين ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ قد علمت ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو على كل شيء شهيد وهو يحكم بين عباده فيما قدموا لا ينسى شيئاً منه ولا يغلط وهذا معنى ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ مجاز، أي إنه محفوظ لا ينسى منه شيئاً ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لأنه واجب له العلم بكل شيء فلا يتكلف علماً ولا حفظاً.

دُونَ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ
 مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧٦﴾ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ
 كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتُلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا
 قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَُمُ النَّارُ وَعَذَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ
 الْمَصِيرُ ﴿٧٧﴾ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ

﴿٧٦﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ
 عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧٦﴾ ومع أن الله يحكم بين عباده يوم القيامة ومع أنه
 يعلم ما في السماء والأرض ولا ينسى شيئاً مع ذلك كله يعبد المشركون من
 دون الله ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ يحتجون به ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾
 يفيد هذا نظر صحيح فيما يعبدون أو في الكون لم يعتمدوا على سمع ولا عقل،
 فشرکهم ظلم عظيم؛ لأنهم يعلمون أن الله الذي خلقهم ورزقهم فتركوا
 موجب هذا بدون مستند فما لهم من نصير لا شركاؤهم تنصرهم ولا غيرها.

﴿٧٧﴾ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا
 الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتُلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قُلْ
 أَفَأَنْتُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَُمُ النَّارُ وَعَذَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٧﴾
 ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ مع جهلهم واعتمادهم على هوى أنفسهم
 وعبادة شركائهم بدون حجة فهم في أشد الحاجة إلى سماع آيات الله
 لتنقذهم من شر جهلهم ومن شفا حفرة من النار، فإذا تلى عليهم آيات
 القرآن الذي هو من الله آيات ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ الدلالة يفهمها السامع الذي يريد
 أن يفهم ويتنفع، إذا تلى عليهم استكبروا وغضبوا حتى يعرف في وجوههم
 الغضب والعداوة للقارئ عليهم ﴿يَكَادُونَ﴾ من الغيظ ﴿يَسْطُونَ﴾
 بِالَّذِينَ يَتُلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴿لأنهم يجدون الآيات الكريمة تبين بطلان
 شركهم ويخافون أن يتبعها الناس ويتركوا الشرك الذي يتعصبون له.

تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٧﴾ مَا قَدَرُوا

قال في (الصحيح): «السطوة: القهر بالبطش» انتهى، وعلى هذا فهم يكادون يبطشون ليقهروا القارئ حتى يسكت عن النكير عليهم والدعوة إلى الله.

﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿أَفَأُنَبِّئُكُمْ﴾ إذا كرهتم هذا القرآن وشق عليكم ما تسمعون منه أنبئكم ﴿بِشَرِّ مِّنْ ذَٰلِكُمْ﴾ تصيرون إليه إن بقيتم على كفركم ﴿النَّارُ﴾ هو النار ﴿وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِيْنَ كَفَرُوا﴾ وبئس المصير لمن صار إليه، هي أي تلك النار.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلُ مَا سَمِعُوا لَهُ﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿كثر في القرآن الحكيم نسبة الضرب إلى المثل، قال الراغب: «وضرب المثل هو من ضرب الدراهم» انتهى، فمعنى ﴿ضَرْبٌ مِّثْلٌ﴾ صنع وصيغ دلالة على إحكام المثل، قال الراغب: «وهو أي المثل ذكر شيء أثره يظهر في غيره» انتهى.

والحاصل: من تتبع الآيات القرآنية أن المثل يعم ما فيه دلالة أو عبرة وما يحتج به احتجاجاً صحيحاً أو غير صحيح أو تشبيه يحتج به ولعله الأصل في اسم المثل، ولأهمية المضروب مثلاً باعتبار أنه يكون حجة أو عبرة أو نحو ذلك فرع تعالى عليه قوله: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿أي الأصنام التي يدعوها أهل مكة ومن حولهم من العرب﴾ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴿ليتعاونوا على خلقه ويخلقوه، وهذا مثل واضح للمشركين وغيرهم فيه عبرة لهم لدلالته على ضعفهم عن الخلق على الإطلاق.

﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا﴾ مما جعل لهم المشركون من الطعام أو نحوه فأخذة الذباب على ضعفه ﴿لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ لا يحاولون إنقاذه ما يسلبه الذباب لعجزهم عن المحاولة فضلاً عن الإنقاذ، والمثل هذا مناسب لضعف الأصنام وحقارتها، لأن الناس في عاداتهم يطلبون بئار قتيل أو مال مسروق أو مغصوب.

فأما قوله تعالى: ﴿ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ فهو يفسر المثل أنه بيان لضعف شركائهم فإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يطلبون إنقاذه من الذباب ضعف الطالب حيثذ وهو طالب الإنقاذ والمطلوب الذي هو الذباب ليسترجع منه ما سلب وهذا على فرض أنهم طلبوا الذباب ليستنقذوا ما سلبهم.

فقوله تعالى: ﴿ضَعْفَ الطَّالِبِ﴾ متصل تمام الإتصال بقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ فهو من تمام جواب الشرط داخل في حيز فرض ما يكشف ضعف الأصنام، وقيل ضعف الطالب الذباب والمطلوب الصنم وهو قول ضعيف لأن الذباب لا يطلب الصنم حقيقة ولا حكماً إنما يطلب ما يأكله.

وقال الشرفي في (المصابيح): «عن الهادي عليه السلام قال [الله]: ﴿ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ يريد تعالى ضعف وسخف فلم يعقل من طلب من غير الله تعالى طلباً وأشرك مع الله غيره في العبادة، وقوله: ﴿ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ فمعناه: ضعف المطلوب إليه والمرغوب إليه والمعبود دون الله على أن يعطي سائله أو يجازي بخير عابده أو يقضي له حاجة لعجزه عن ذلك وقِلَّتِهِ أن يكون كذلك» انتهى.

﴿٧٦﴾ اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٧﴾ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٨﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

وما ذكره عليه السلام هو ما سبق لإفادته الكلام وهو موافق جواباً لما حكى الله عنهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ لأنهم كانوا يعبدونهم بدعائهم أي بطلبهم أن يقضوا لهم بعض حاجاتهم مثل شفاء مريض أو بركة في أنعام أو حفظ للمسافر أو غير ذلك، فمعنى دعائهم لهم طلبهم لبعض الحاجات منهم.

﴿٧٦﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٧﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ أَيَّ الْمَشْرُوكِ مَا قَدَرُوا اللَّهَ ﴿حَقَّ قَدْرِهِ﴾ حيث جعلوا أصنامهم العاجزة الذليلة شركاء لله القوي العزيز، قال الشرفي: «يعني ما عظموه حق تعظيمه ولا عرفوه حق معرفته» انتهى المراد.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ معناه: ما عظموه حق عظمتهم ولا عرفوه حق معرفته ولا وصفوه حق وصفه» انتهى.

﴿٧٧﴾ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٨﴾ يَصْطَفِي يختار صفوة وخيرة ﴿مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ مثل جبريل عليه السلام، اصطفاه الله رسولاً إلى محمد ﷺ ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ ولذلك اصطفى محمداً رسولاً ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ تعليل للاصطفاء للرسول يتضمن أن الله تعالى يسمع ما يقول الناس من الحق والباطل والخلاف بينهم والتنازع على أغراض الدنيا ومطالبها وكذلك يرى ما يفعلون من طلب الحاجات والخلاف عليها والحروب، فيصطفى رسلاً

وَمَا خَلَفَهُمْ^{٦٦} وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ^{٦٧} يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا^{٦٨} وَأَسْجُدُوا^{٦٩} وَأَعْبُدُوا رَبَّكُمْ^{٧٠} وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ^{٧١}

ليعلموهم حسن التعامل بينهم ويوقفوهم على الحق وكذلك يردوهم عن طاعة الشيطان إلى طاعة ربهم وينذروهم ويبشروا المتقين محتجين عليهم بالمعجزات وما أنزل الله من آياته.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ^{٦٦} وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ^{٦٧}﴾ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ^{٦٨} الضمير للرسول المصطفين من الملائكة ومن الناس فهو سبحانه وتعالى اصطفاهم؛ لأنه تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ^{٦٦}﴾ ما بين أيديهم مستقبلهم من أعمالهم وشكرهم للنعمة وتبليغهم للرسالة وما يلاقون من مشقة في التبليغ أو تكذيب من الناس أو نحو ذلك، وما خلفهم ماضيهم الذي يدل المخلوقين على أنهم أهل للإصطفاء عند من يستعمل عقله ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ^{٦٧}﴾ فهو أحكم الحاكمين وهو أعلم حيث يعمل رسالاته، فإليه يرد الحكم في اختيار الرسول وفي اختيار زمانه ومكانه وغير ذلك، وكذلك إليه ترجع أمور الخلائق كلهم فهو ربهم ومدبر أحوالهم؛ ولذلك فعليه يتوكل المتوكلون.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا^{٦٨} وَأَسْجُدُوا^{٦٩} وَأَعْبُدُوا رَبَّكُمْ^{٧٠} وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ^{٧١}﴾ أَرْكَعُوا^{٦٨} وَالرَّاجِحُ أَنَّهُ كُنَايَةٌ عَنِ الصَّلَاةِ مُرَادٌّ فِيهِ الْمَعْنَى الْحَقِيقِيَّةُ ﴿وَأَعْبُدُوا رَبَّكُمْ^{٧٠}﴾ أَعْمَ مِنَ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ؛ لِأَنَّهُ يَعْمُ كُلَّ طَاعَةٍ خَالِصَةٍ لِلَّهِ، وَالرَّاجِحُ أَنَّ مَعْنَاهُ عِبَادَتُهُ وَحْدَهُ لَا تَشْرِكُوا بِهِ ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ^{٧١}﴾ الرَّاجِحُ: أَنَّهُ هُنَا نَفْعُ الْمَخْلُوقِينَ.

قال الشرفي في (المصابيح): «ابن عباس الخير صلة الأرحام ومكارم الأخلاق» انتهى.

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ افعلوا هذه الأربع لعلكم تفلحون رجاء أن تفلحوا في الآخرة بالنجاة من النار والفوز بالجنة، وفعل الخير ظاهره عموم الواجب والمندوب، فالأمر به دلالة على سبب التوفيق للفلاح كما في حديث: «أربع تحول الشقاء سعادة، وتقي مصارع السوء...» وحديث: «من يضمن لي واحدة أضمن له أربعاً...» أحد الأربع: يدخل جنة ربه.

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ ﴿٧٨﴾ «وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ» قال في (لسان العرب): «وجاهد العدو مجاهدة وجهاً قاتله - ثم قال -: الجهاد محاربة الأعداء وهو المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل» انتهى.

فالمراد غالبوا العدو؛ لأن الجهاد صيغة مفاعلة مثل القتال والضراب وسواء كان من الجهد بضم الجيم بمعنى المغالبة في الجهد والمشقة مثل المغالبة في الصبر أم من الجهد بالفتح بمعنى الطاقة بمعنى المغالبة في القدرة فهو يفيد قتال العدو.

وقوله تعالى: ﴿فِي اللَّهِ﴾ أي لنصره وإعلاء كلمته؛ لأن ﴿فِي﴾ تفيد السببية كقول الشاعر:

يلوموني في اشتراء النخيل — ليل أهلي فكلهم ألوم

أي بسبب اشتراء النخيل.

قال في (مغني اللبيب) في معاني (في): «والثالث التعليل نحو ﴿فَذَلِكُنَّ﴾ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ» [يوسف: ٣٢] ﴿لَمَسْكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ [النور: ١٤] وفي الحديث: أن امرأة دخلت النار في هرة حبستها» انتهى.

فتحصل: أن ﴿جَاهِدُوا فِي اللَّهِ﴾ قاتلوا في الله من أجل الله، فأما استعمال الجهاد في مدافعة هوى النفس فالراجح: أنه مجاز وإن صح المعنى لكن لا يقصر عليه الجهاد في الله؛ لأن القتال هو الحقيقة وهو مصرح به في آيات عديدة.

وقوله تعالى: ﴿حَقَّ جِهَادِهِ﴾ ما استطعتم؛ لأنه يحق لله بذل النفس لأنها له وبذل المال لأنه له من قبل أن يشتريهما من المؤمن، ثم قد اشتراهما من المؤمن بأن له الجنة وتلك تجارة راجحة توجب إبلاغ الطاقة فيه.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَجْتَبَاكُمْ﴾ هياكم وأكملكم لهذا الشأن للجهاد في الله؛ فلهذا جعل الرسول منكم وأنزل القرآن فيكم؛ لأنكم تجاهدون في الله ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ الحرج: الضيق، والمراد الحرج الزائد على الدين من حيث هو تكليف واختبار ومنه الجهاد كما هو مصرح به في أول الآية، لكنه لم يكلفنا قتل أنفسنا إذا تبنا ليغفر لنا ووضع عنا الإصر الذي كلف به بنوا إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وكذلك يسره لهم أي للمخاطبين بأن القرآن أنزله الله بلسانهم والرسول أرسله منهم، كما قال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥١].

وأيضاً قال تعالى: ﴿مَلَّةٌ أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ فهو دين تركه لكم أبوكم إبراهيم لم نكلفكم اتباع دين لم نكلفه أباكم إبراهيم الخليل فلكم فيه أسوة حسنة فاجتمع لكم تيسير هذا الدين، والخطاب للأمة المسلمة التي دعا الله بها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٨-١٢٩].

قال الشرفي في (المصاييح): «والحق الذي عليه أئمة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم عليهم السلام أن المراد بهذه الآية أهل البيت عليهم السلام» انتهى.

قلت: لا بد من الجواز إما يجعل الخطاب خاصاً في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وإما يجعل ﴿أَيْبِكُمْ﴾ مجازاً عن المتبوع، لكن قوله تعالى: ﴿هُوَ أَجْتَبَلَكُمْ﴾ يوافق قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢] و(حديث الاصطفاء) فيه زيادة توضيح، ويناسبه الواقع حيث كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عليه السلام وحزرة، وجعفر، وعبيدة، مفضلين في الجهاد، وفي شجاعتهم وبذلهم أنفسهم لله، كما لا يخفى على من عرف جهادهم فهم أحق بقوله تعالى: ﴿هُوَ أَجْتَبَلَكُمْ﴾ فهذه قرينة ترجح أن أباكم هو أب حقيقي أبو النسب وذلك أبلغ في التأسي المعلق على أبوته عليه السلام أبوة النسب.

وعلى هذا: فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خاص بهم كما نزل قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾ فيهم وفي عدوهم، إلا أن جعفر كان في الحبشة يوم بدر، فلم يذكر في الرواية التي مر ذكرها.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّنَكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ أي الله تعالى الذي أمركم بقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ﴾ هو سماكم المسلمين من قبل أي من قبل نزول القرآن، ولعل ذلك في بشارة سبقت لأبيهم إبراهيم، أو أحد الأنبياء من بعده - والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي هَذَا﴾ أي سماكم المسلمين في هذا القرآن أي المسلمين أنفسهم لله بعبادتهم له وحده لا شريك له إسلاماً صادقاً مقبولاً، فطبقوا هذا بالجهاد في الله ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ﴾ يوم القيامة ويشهد بما شاهدته منكم من الجهاد في الله كما هو شهيد على من شاهدتم في عصره كلهم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ [النساء: ٤١] وغيرها ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بما شاهدتم منهم من طاعة أو معصية، وهذا لا ينافي شهادة الرسول عليهم، فإذا جاهدتم في الله كتتم الخيرة من الناس الموجودين فكنتم شهداء عليهم، فقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ﴾ تعليل لقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا﴾ أو للجهاد المأمور به.

وقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْوْا﴾ تفريع على قوله تعالى: ﴿هُوَ أَجْتَبَاكُمْ﴾ وما بعدها إما باعتبار أنه شكر للنعمة المذكورة وإما للاستعانة على القيام للجهاد ودعوة الناس إليه كما يؤيده قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللهِ﴾ إلى آخرها وإما للأمرين معاً.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللهِ﴾ أي اجعلوه عاصماً لكم في استعمال أسباب ذلك من التوكل عليه والإخلاص له وصدق النية، وهذا للقيام بالواجب والسلامة من العصيان ومن غلبة العدو؛ ولذلك قال تعالى: ﴿هُوَ مَوْلَانَكُمْ﴾ فهو متولي أموركم ومحسن رعايتكم، فاعتصموا به ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى﴾ لأنه العليم بكل شيء القدير على كل شيء الكريم الرحيم فاعتصموا به لذلك ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ لأنه الغالب على أمره فاعتصموا به لينصركم على عدوكم، وهذا الختام لهذه الآية المبدوءة بقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا﴾ يرجح أن ما بينهما راجع إلى الحث على الجهاد في الله.

وبالله التوفيق

التفسير في التفسير



سورة المؤمنون



سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ
اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ

بدء تفسیر سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾

وهي (مكية) كما يظهر من مواضعها

﴿١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٢﴾ ﴿قَدْ﴾ تؤكد تحقق
الفلاح لهم، والفلاح الظفر بالخير الدائم، وقال في (الصحيح): «الفلاح:
الفوز والنجاة والبقاء» انتهى المراد.

وفي (أساس البلاغة): «هو البقاء في الخير» انتهى، وهذا المعنى هو
المناسب للآية، وقد يستعمل الفلاح في الظفر بالبغية، كقول الشاعر:

أفْلَحَ مَنْ كَانَتْ لَهُ قَوْصَرَةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ يَوْمٍ مَرَّةً

ويستعمل في الخلود كما قال الشاعر:

لَوْ أَنَّ حَيًّا مَدْرَكَ الْفَلَاحَ أَدْرَكَهُ مَلَاعِبُ الرِّمَاحِ

وتحقيق الفلاح للمؤمنين إما مجاز مثل: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [الكهف: ٩٩]
وإما لأنهم صاروا بالإيمان والتقوى في أول الفلاح من حيث أن حياتهم
الدنيا طيبة نافعة لهم بما يعملون فيها للآخرة، وطيبة بما يرزقون فيها من
القناعة، وطيبة لسلامتها من مفسد المعاصي، فعاشوا حياة طيبة وعاقبتهم في
الآخرة الجنة، ويرجح أن المراد: أفلحوا في الآخرة، تعقيب صفاتهم بقوله
تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ.. الآية؛ لأنها تبين
فلاحهم.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ هذه صفة من صفات المؤمنين لأن الخشوع الذي هو ذلة المصلي لله هو من إقامة الصلاة وإقامة الصلاة من صفات المؤمنين كما في آية التوبة.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ وهذه الصفة الثانية، اللغو من الكلام: هو الذي ينبغي أن يترك من فضول الكلام كالسب والكذب والغيبة والنميمة، وإعراضهم عن اللغو نوعان: أحدهما: إعراضهم عن التكلم به عند عروض سبب له، والثاني: إعراضهم عنه إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه لا يكافئون سفيهاً ولا يدخلون مع الخايض في الباطل بل يعرضون عنه بمرورهم] عن صاحبه، قال تعالى في صفة الجنة: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ [مريم: ٦٢].

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ وهذه الصفة الثالثة، قال الشريفي في (المصاييح): «أي مؤدون للتركية التي هي فعل المزكي؛ لأن الزكاة اسم مشترك بين ما يخرج من النصاب وبين فعل المزكي وهو المراد هنا. قال الشريفي: وقيل ﴿فَاعِلُونَ﴾ للتركية، وهو ما يكونون به زاكين عند الله من أفعال الخير عند الله» انتهى المراد.

ويرجح هذا القول: أن الزكاة هنا لم تقرر بالصلاة كما قرن إيتاء المال، بل فصل بينهما بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ وأيضاً أسند إلى الزكاة هنا ﴿فَاعِلُونَ﴾ وفي غيره ﴿يُؤْتُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] وأيضاً السورة (مكية) قالوا: ولم تشرع الزكاة من الأنصباء إلا في المدينة، ولذلك يترجح: أن هذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩] وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤].

حَافِظُونَ ﴿٦﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٧﴾ فَمَنْ آتَنَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَسَاتِهِمْ

وعلى هذا: فتعم إنفاق المال وغيره من مكارم الأخلاق، ويؤكد ذلك أن بقية الآيات في هذا السياق لا تفيد هذا المعنى وهو من صفات المؤمنين لأن أول الصفات المذكورة وآخرها في الصلاة وما بينهما هذه الآية والآيات في حفظ الفروج ورعاية الأمانة والعهد، وذلك مما يؤكد أن معناه: تزكية النفس، الذي أفادت الآيتان في (سورة الشمس) و(سورة الأعلى) أنه سبب الفلاح، وهذه الآية واقعة في سياق: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وسياق صفاتهم، وهذه الزكاة هي غير الطهارة، بدليل قوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] لأن العطف يقتضي التغاير، فهي الطيب والصالح المعبر عنه بكرم الأخلاق فهو معنى إيجابي.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ آتَنَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ هذه من صفات المؤمنين أنهم حافظون حفظاً مستمراً لفروجهم كما تدل عليه الجملة الاسمية ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ وحقيقة الزوجة في اللغة: ما ملّكها الرجل لتكون قرينة حياته تمليك العلاقة المعبر عنها بالزواج لا ملك المال؛ ولذلك جعل لهما اسم النوعين المتقابلين من المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥] وهذا الذي قد ثبت في اللغة ولم يثبت غيره، وكلام الرغخشري في تسمية المتعة زواجاً عند تفسيره لهذه الآية غير مسلم، ولعله ذهب إلى أن اسمه (نكاح) أما اسم (الزواج) فلا نسلم له إن كان عناه.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي الجواري المملوكات إذا ملك الرجل الجارية كلها حلت له كما تحل له الزوجة، وفي ذلك فائدتان:
الأولى: إغناؤها وتحصينها من الحرام.

الثانية: أن ذلك قد يؤديها إلى الحرية إذا علقت من سيدها وكان لها منه ولد، فإذا مات سيدها صارت حرة على الخلاف بين أهل الفقه في اشتراط بقاء الولد بعد أبيه وعدم الاشتراط.

وقوله تعالى: ﴿فَأَيُّهُمْ غَيْرُ مَلُومٍ﴾ تفسير للاستثناء أي غير ملومين في مجامعتهم ونحوها لا الزوج ولا الزوجة، ومن فوائد هذا التفسير: ألا يخرج الكلام مخرج الحث على ترك حفظ الفروج على الأزواج، لو قيل: إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم لا يحفظون فروجهم، مع أن الإكثار المؤدي إلى الضرر مذموم والاقتصاد ممدوح لحفظ الصحة وحفظ القوة للحاجة إلى القوة في الجهاد وغيره وفي الأعمال النافعة.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أي غير ذلك المستثنى وهو يعم الزنى واللواط والاستمتاع في غير الفرج الحلال ونكاح اليد والمتعة عندنا؛ لأنها مبنية على عقد إجارة وليس من الزواج عندنا، وهو عند الإمامية من الزواج.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْتَغَىٰ﴾ أي طلب ﴿وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ قال الشريفي في (المصاييح): «المتناهون في العدوان، وقال (صاحب الصحاح): والعدوان: الظلم الصراح، وقد عدى عليه وتعدى عليه واعتدى كله بمعنى انتهى، وقال قبل هذا: «والعداء - أيضاً - تجاوز الحد والظلم يقال: عدا عليه عدواً...» إلى قوله: «...ومنه قوله تعالى: ﴿فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا﴾ [الأنعام: ١٠٨]» انتهى.

وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَئِكَ هُمُ
الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا

ومنه قول الله تعالى: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا﴾ [يونس: ٩٠] وقوله
تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَدُوٍّ﴾ [البقرة: ١٧٣] فظهر: أن العدو تجاوز الحد
ظلماً، وفي الآية تأكيد حيث أفاد التحذير من الابتغاء الذي هو مقدمة
المعصية.

﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٩﴾ رعاية العهد والأمانة
المحافظة على الوفاء بالعهد واجتناب النكث للعهد، والمحافظة على ترك
الخيانة في الأمانة، وهذه من صفات المؤمنين.

﴿٩﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٠﴾ وهذه من صفات المؤمنين
يحافظون على صلواتهم كلها في أوقاتها، فمن لا يحافظ على كل الصلوات
المفروضة فليس منهم، والراجح: أن الذي يتلهى في الليل ويؤخر النوم حتى
يسبب ذلك لفوت صلاة الفجر وهو يعلم أن ذلك يؤدي إلى فوت صلاة
الفجر وقد جربه مراراً ثم لا ينتهي عن تأخير النوم ولا يحاول سبباً للقيام
من النوم في وقت صلاة الفجر فليس من الذين هم على صلواتهم
يحافظون؛ لأن الشمس تطلع وهو لم يصل الفجر، وأعظم منه من يضيع
المغرب والعشاء في لوه حتى يصبح أو يتلهى أكثر الليل ثم ينام وهو لم
يصل المغرب والعشاء فيرقد إلى الصباح عمداً؛ لأنه مكلف في حال يقضته
بالمحافظة على الصلاة ولم يرخص له في التحيل لترك الصلاة بالنوم.

﴿١٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾
﴿أُولَئِكَ﴾ المؤمنون المتصفون بالصفات المذكورة ﴿هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ لأنهم

أخذوا ما أعد لغيرهم لو آمنوا واطقوا، فلم يدخلوا الجنة لأنهم لم يكونوا لها أهلاً، فأخذ المؤمنون المتقون ما كان لمن فاتته الجنة لسوء اختياره، أو هو مجاز لأنهم استحقوها كما يستحق الميراث - والله أعلم.

قال في (الكشاف): «ثم ترجم (الوارثين) بقوله: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ فجاء بفخامة وجزالة لإرثهم لا تخفى على الناظر» انتهى، ولعله يعني ما في الأولى من الحصر والإبهام وفي الثانية من التفصيل والبيان لما أبهم.

قال (صاحب الصحاح): «الفردوس: البستان، قال الفراء: هو عربي والفردوس حديقة في الجنة، ثم قال: وكرم مفردس أي معرّش» انتهى، وقال الشرقي في (المصابيح): «وفي (البرهان) الفردوس حضائر العنب» انتهى المراد، وفي (أساس البلاغة): «هو البستان الواسع الحسن» انتهى، ولعله أخذ اعتبار الحسن من قوله: كرم مفردس.

وفي (لسان العرب): «الفردوس: البستان، قال الفراء: هو عربي، قال ابن سيده: الفردوس: الوادي الخصيب عند العرب كالبستان، ثم قال: والفردوس الروضة عن السراي: والفردوس خضرة الأعتاب، ثم قال: والعرب تسمي الموضع الذي فيه كرم فردوساً، وقال أهل اللغة: الفردوس مذكّر، وإنما أنث في قوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لأنه عنى به الجنة» انتهى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧] يقوي أن الفردوس: العنب وغيره، لأن الجنات فيها من كل فاكهة زوجان.

الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ

﴿١٢﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ آية عظيمة تدل على قدرته على إعادة المؤمنين وإعطائهم الفردوس؛ لأن الإنسان محكم الصنعة فيه أعضاء محكمة الصنع لما يراد بها كالسمع والبصر والفؤاد واليدين والرجلين واللسان والشفيتين، ومن عجائب صنعه قدرة الكلام والنطق بالحروف، والسلالة: هي المني فكيف تحولت إنساناً سميعاً بصيراً إن في ذلك لدليلاً على الخالق القدير على كل شيء العليم بكل شيء، وقوله تعالى: ﴿مِّن طِينٍ﴾ يترجح في معناه: أن السلالة أصلها الغذاء والغذاء أصله النبات أو ما أصله النبات والنبات أصله من طين تمتصه أصوله مع الماء.

﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ وهذه آية عظمى تدل على الخالق المدبر حيث دبر للنطفة وهي المني، قراراً تستقر فيه مكيناً ثابتاً يتحمل وجود النطفة فيه وكبرها حتى يكمل خلق الإنسان ولا يضعف عنه.

﴿١٤﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ تصرف الخالق في النطفة وهي في سبيل أن تكون عظماً فحولها علقه دماً جامداً، ثم حول العلقه مضغاً لحمياً كقطعة لحم، ثم جعل المضغ عظاماً مصورة صوراً مختلفة محكمة الصنع.

فالجمجمة فيها فتحات للسمع والبصر ومكان لمواصلة العنق، وكذلك العنق فيه مفصل للإلتفات، وهو عظام متواصلة متصلة بسلسلة الظهر

﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٢﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ

وفيها مفصل للإلتفات، وتنتهي إلى الحوض المصنوع صنعة عجيبة وفيها محل لمفصل إحدى الفخذين من جهة ومحل لمفصل الأخرى من جهة، وطريق بينهما لمخرج البول والغائط، ثم عظام الرجلين واليدين وفيها مفاصل تدل على الخالق المدبر، فلولا مفاصل الرجلين ما استطاع الإنسان القعود والقيام، ولولا مفاصل اليدين ما استطاع الأكل والشرب بهما.

وقوله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَمَ لَحْمًا﴾ في هذا اللحم مع تجميله للإنسان آيات، في شبكة العروق المقسمة إلى ضاربة يحركها ضخ الدم وساكنة وفي الأعصاب من الرأس إلى الظهر، ثم الرجلين واليدين، وفي كل عضو آية تدل على الخالق المدبر الحكيم، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ بقلبٍ وسمع وبصر وورثتين ومعدة وأمعاء منفوخ فيه الروح ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾ فجعل جلاله وعظم شأنه ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ لإتقانه صنعه وإبقاء مصنوعه لأجله.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٣﴾ فالخالق تصرف في الإنسان من أول وجوده إلى نهايته وأحياء وأماته لأجله، ثم يعيده يوم القيامة كما بدأه في هذه الدنيا، فالنشأة دليل على قدرته على الإعادة، وأنه غير بعيد في قدرته البعث كما بدأ خلقه من طين، وبذلك يتضح فلاح المؤمنين الذين أعدوا للآخرة أسباب الفلاح.

﴿١٤﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٥﴾ سَبْعَ طَرَائِقَ المتبادر منه سبع سموات كما صرح بها في آيات من القرآن، فأما تسميتها طرائق، فيحتمل: أنها من أجل أنها متطابقة، بعضها فوق بعض فكانت كل واحدة طريقة.

لَقَدْ رِزُونًا ۖ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاقِهِ
كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٦﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبَّغِ

قال الراغب: «وجمع طريقة: طرائق، قال: ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِلْدًا﴾ [الجن: ١١] إشارة إلى اختلافهم في درجاتهم، كقوله: ﴿هُمْ فَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٣] وأطباق السماء يقال لها طرائق، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ انتهى.

وفي (لسان العرب): «وكل ما وضع بعضه على بعض فقد طورق - ثم قال - : وقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ قال الزجاج: أراد السموات السبع، وإنما سميت بذلك لتركبها، ثم قال: وقال الفراء: ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ يعني: السموات السبع كل سماء طريقة» انتهى، وفي (مصباح الشرفي) نحو هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١] فلا يخفى عليه كيف يخلق في إعادة الخلق كما لم يخفَ عليه الخلق في المرة الأولى، ولا تجوز عليه الغفلة لأنها نسيان وفقدان علم، وهو سبحانه واجب له العلم.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ في هذا دلالة على قدرته تعالى وعلمه وعلى إنعامه على عباده، والماء من أعظم النعم بل هو ضروري للحياة، وقوله تعالى: ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي بتحديد لنزوله على قدر الحاجة بغير ضرر فهو ينزل كأنه ينزل من غربال متتابعاً حتى يحصل الكفاية، ولو أنزله دفعة لهدم البيوت والأموال.

وقوله تعالى: ﴿مَاءٌ﴾ أي ماء معروفاً أنه عذب يروي الناس والأنعام والشجر والزرع وقوله تعالى: ﴿فَأَسْكَنَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ جعله باقياً في الأرض في الأنهار والآبار يجري إليها من مجاري بطن الأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ تنبيه على النعمة في إسكانه في الأرض أن ذلك لأنه لم يرد ذهابه ولو شاء لذهب به بأي سبب أو بغير سبب، وأسباب ذهابه متعددة مثل تكثير مجاريه بحيث يتشر في بطن الأرض، ومثل سد المجاري بحيث يحتبس في بطن الأرض حتى تبلعه، والله على كل شيء قدير، ومن شأن الأرض أن تبلع الماء ويذهب في بطنها متفرقاً لكن الله أراد نفع الإنسان بإسكانه فيه فهياً السبب لبقائه نعمة للإنسان.

﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاحٍ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ﴾ أي بالماء الذي أسكنه في الأرض ﴿جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ لولا الماء ما وجدت، وجمع الأعناب لتعدد أنواع العنب، والنخيل يكون أنواعاً من الرطب والتمر.

وقوله تعالى: ﴿لَّكُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنات ﴿فَوَاحٍ كَثِيرَةٌ﴾ من أنواع العنب والزبيب وأنواع الرطب والتمر، ويحتمل فيها فواكه أخرى، وهي تدل على قدرته تعالى وعلمه وعلى إنعامه على عباده وهم يغفلون عن هذه الآيات من حيث هي آيات، ومن حيث هي نعم.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وهذه آية عظيمة؛ لأن ذلك تابع للتناسب بينها وبين الإنسان بحيث صلحت له واستلذها وتغذى بها، مع أنها مخلوقة من الماء والتراب ومع أنها أنواع كثيرة، فالذي خلق أعضاء الإنسان أدوات الأكل،

لِلْأَكْلِينَ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٣﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَكِ نَّحْمَلُونَ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ

وأدوات الهضم، وأدوات التغذية، وجعله معداً لأكل ما ينتفع به من الفواكه والتغذي به من جهة.

وجعل الفواكه معدة للإنسان صالحة لأن يأكلها صالحة لأن يلتذ بها وتنهضم له وتغذيه من الجهة الأخرى، إن في ذلك لدليلاً على الخالق الرازق القادر العالم المدبر لشأن الإنسان، وذلك دليل على أنه قادر على البعث.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِلْأَكْلِينَ﴾ ﴿وَشَجَرَةً﴾ عطف على جنات، أي وأنشأنا لكم به شجرة ﴿تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ أي تخرج من الجبل الذي كلم الله موسى من جانبه فهي شجرة مباركة وهي شجرة الزيتون ﴿تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ﴾ الذي هو (زيت الزيتون) يعتصر من الزيتون الذي هو ثمر هذه الشجرة، والإنسان يحتاج إلى الدهن لجلده وشعره، وفي (تذكرة داود) في زيت الزيتون: «والإدهان به كل يوم يمنع الشيب، ويصلح الشعر ويمنع سقوطه، ويقطع العفن، ويشد الأعضاء» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَصَبْغٍ لِلْأَكْلِينَ﴾ يصبغ الأكل لقمته من هذا الزيت فيكون إداماً جيداً مشهياً للأكل، وفيه منافع كثيرة قال في كتاب (الغذاء لا الدواء) في زيت الزيتون: «فهذا الزيت يمتاز عن غيره من الأدهان والزيوت بصفات كثيرة تعود على الإنسان بالصحة والعافية فهو أسهل هضماً من جميع الزيوت الأخرى.. إلى قوله.. فإن امتصاصه وهضمه أسهل على الجسم من امتصاص وهضم أي مادة أخرى.. الخ، وذكر من فوائده زيادة القدرة على التفكير والذكاء وأنه من خير الأدوية الكبدية» انتهى.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿لَعِبْرَةً﴾ دلالة تعرفون بها سعة نعم الله عليكم وفضله وقدرته وعلمه، والأنعام: الإبل هنا، مع أن في البقر والغنم نعماً كثيرة ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ وذلك اللبن النافع الخالص الذي لم يؤثر فيه شيء مما في بطونها من الفرث والدم الجاري في جدران المعدة والأمعاء ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ وهي مفصلة في (سورة النحل) فارجع إليها.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فهي نعمة عظيمة على الإنسان حيث أحل له أكلها وهي حيوان مثله تحب الحياة وتنفر من أسباب الموت ولكنه سبحانه سيجعل لها في الآخرة عوضاً مما لحقها في الدنيا من مشاق تسخيرها للإنسان.

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ وفي هذا تذكير للإنسان بنعمة الله عليه ودعوة إلى شكر نعمة الله بعبادته وحده والإيمان برسوله وكتابه، وفيه دلالة على حسن تدبيره لحاجات الإنسان وعلى قدرة الله تعالى على ما يشاء وعلى علمه بكل شيء، فقد صنع الإبل صنعة تناسب تسخيرها لنفع الإنسان فالجمل يركب حتى يحمله الإنسان أثقاله ويركب عليه ثم يقوم الجمل ويسافر المسافة البعيدة بحمله وراكبه.

وكذلك ﴿الْفُلْكِ﴾ التي هي السفائن في البحر، يحمل عليها الإنسان وتساfer به المسافة البعيدة أياماً كثيرة تسوقها الرياح وهي من الخشب المؤلف بالمسامير، والله صانع الخشب وصانع الحديد ومجري الرياح ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ [الشورى: ٣٣] وهو سبحانه علم الإنسان صنعتها لتصلح لذلك، فهذه كلها آية تدل على قدرة الله تعالى على كل شيء وعلمه بكل شيء، وأنه قادر على البعث بعد الموت وأن وعده الحق.

أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَكًا مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَرِيصُوا بِهِ حَتَّىٰ

﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٣﴾ هذا ابتداء ذكر آيات وعبر للمكذبين الآخرين ليحذروا أن يصيبهم مثل ما أصاب المكذبين الأولين، وقوله: ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ أي غير الله ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله وقد أشركتم به بغير حق ولا حجة من الله إنما هو هوى أنفسكم دعاكم إلى الظلم العظيم.

﴿١٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَكًا مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿١٤﴾ مِّنْ قَوْمِهِ ﴿١٥﴾ أي من قوم نوح ﴿مَا هَذَا﴾ أي ما نوح ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ ليس ملكاً، بناءً منهم على أن لا يصلح أن يرسل الله رسولاً من البشر بدون حجة لهم في ذلك ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَكًا﴾ أي لو شاء الإرسال إلينا لأنزل ملائكة، وهذه دعوى بلا حجة.

وقولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ أي ما سمعنا بإرسال بشر في آبائنا الأولين، ولعل سبب ذلك أن آباءهم الأولين لم يشركوا وكانوا على دين آدم، أما آدم فكان موجوداً وعنده الهدى من الله فيعلم أولاده ويربيهم عليه، لم يكن بشكل رسول بعث إلى قومه لينهاهم عن الشرك ويدعوهم إلى الله، فمضى آدم والأولون من ذريته على التوحيد؛ فلذلك لم يسمع قوم نوح برسول بعث إلى قومه، وهذا على فرض أن نوحاً أول الرسل بعد آدم - والله أعلم.

حِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ
الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَّوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ
كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطِبْنِي
فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى

أما (صاحب الكشف) فقد جوز أنهم تعمدوا الكذب، وهذا إنما يستقيم
لو كان الخبر بالرسول السابق خفياً يمكن جحده تغريراً على من لم يسمع؛
لأنه إذا كان معلوماً عندهم كلهم فلا فائدة في نفيه فيما بينهم، كما يفيد
سياق الكلام أنهم يقول ذلك بعضهم لبعض.

﴿٢٥﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فترَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ ﴿إِنْ﴾ أي ما
﴿هُوَ إِلَّا رَجُلٌ﴾ مجنون أو دخلت ﴿بِهِ جِنَّةٌ﴾ فحولته عن حالته الأصلية
فادعى أن الله أرسله إليكم ولم يرسله مبالغة منهم في الكفر، وقولهم:
﴿فترَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ أي لا تعجلوا على تصديقه وانتظروا حتى
يذهب عنه الجنون ويرجع إلى حالته الأصلية، ومثل هذا لا ينطلي على من
يريد الهدى لأنه يميز بين السليم من الجنون والمجنون بسهولة، وأوضح رد
عليهم أنه جاء بالحق وغاية الجنون خلاف ذلك.

﴿٢٦﴾ ﴿قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ﴾ ﴿أَنْصُرْنِي﴾ على قومي بسب
تكذيبهم لي أي أهلكهم، وهذا إجمال لما فصل الله في (سورة نوح).

﴿٢٧﴾ ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَّوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ
التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ
الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾
إلى نوح إجابة لدعائه ﴿أَنْ اصْنَعْ الْفُلَّكَ﴾ أي السفينة لتنجو فيها أنت

أَلْفَلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلِ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا

ومن معك من الغرق ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ برعايتنا لك ﴿وَوَحَيْنَا﴾ تعليمنا لك لتصنعها صالحة، مثلاً كيف تأخذ الواحاً من الشجر المناسب للغرض المطلوب ، وكيف تبنيها من الألواح وتضم بعضها إلى بعض بالمسامير، وتجعل اتساعها بقدر الحاجة، وتجعل ارتفاعها بقدر الحاجة، وتجعلها طبقات لتتسع للحيوان من كل زوجين اثنين.. إلى غير ذلك من التعليم.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بعد إكمال صنعتها ﴿وَفَارَ التَّنُورُ﴾ بالماء ليكون علامة لجميئ أمر الله الذي هو إنزال العذاب بالغرق ﴿فَاسْلُكْ﴾ فأدخل ﴿فِيهَا﴾ أي في السفينة ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾ نوعين ذكراً وأنثى ﴿اثنَيْنِ﴾ فردين مثل زوجين من الإبل وزوجين من البقر وزوجين من الضأن وهكذا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي واسلك في السفينة أهلك ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ الحكم من الله بغرقه وهم الذين ظلموا ﴿مِنْهُمْ وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ لا تطالب بنجاة أحد منهم أو تسأل لماذا عذبتهم ﴿إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ فلا تنازع في غرقهم؛ لأنه أمر محتوم.

﴿فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ﴾ ركبتم على حال الاستواء مثلاً قاعدين غير مائلين إلى جهة ولا منكوسين فذلك علامة أن قد هلك قومك ونجوت أنت ومن معك ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فاشكر نعمة الله عليكم بحمده.

لَمُبْتَلِينَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٢١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ؕ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ

﴿٢٠﴾ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٢١﴾ وَقُلْ عَطْفَ عَلَى: ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ﴿رَبِّ أَنْزِلْنِي﴾ من السفينة ﴿مُنْزَلًا مُبَارَكًا﴾ فيه خير كثير يجيى فيه الدين ويتيسر فيه الرزق وتصلح الحالة ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ المنزل للأضياف الذي يعطيهم النزل أي الضيافة ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ لسعة فضلك وأنت الأكرم الذي لا ينقصه البذل والجود، فهو عند نزوله من السفينة وخروجه إلى الأرض يكون كالضيف النازل، لكنه نازل هو ومن معه يرجون من ربهم الرزق وتيسير أمرهم؛ وهو خير المنزلين لأنه خير الرازقين، ولعل نوحاً أمر بهذا الدعاء ليرتبط به أصحابه وبنوه عند خروجهم من السفينة، ويعتقدوا أن الله أحسن نزلهم بسبب دعاء نبيهم صلى الله عليه وسلم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائل تدل على قدرة الله تعالى وعلمه، وأنه لا يهمل عباده بل يحسن تدبير أمورهم بإرسال الرسل وإظهار دلائل صدقهم ونصرهم ونصر من معهم وإهلاك أعدائهم، وفي السفينة نفسها آيات تدل على قدرة الله تعالى وعلمه وفضله ونعمته حيث نجى فيها رسوله والمؤمنين به ويسر نزولها على جبل مستوية ثابتة في مكان نزولها حتى يخرجوا منها آمنين وما معهم فيها من الأنعام وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أي وإن كنا مبتلين نبتلي عبادنا بما يميز بينهم فيظهر بالابتلاء المؤمن وغيره والثابت على الإيمان وغيره لتجزى كل نفس بما تسعى، ابتلى قوم نوح بنيتهم فما آمن معه إلا قليل، وابتلاه بقومه فصبر على البلوى حتى جاء الفرج له ولمن صبر معه بنجاتهم وهلاك عدوهم.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ۖ آخَرِينَ﴾ ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ثُمَّ
أَنْشَأَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴿قَرْنًا ۖ آخَرِينَ﴾ بَعْدَ زَمَانٍ تَنَاسَلَ فِيهِ ذُرِّيَّةٌ بَعْدَهُمْ
حَتَّى كَثُرُوا.

﴿٣٦﴾ ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿فِيهِمْ﴾ أي في القرن المذكور ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ يعرفونه فلا ينكرونه ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ إلى آخر الآية تفسير لإرسال الرسول، فقد أمر الرسول أن يقول لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي أفلا تتقون عذاب الله وأنتم على الشرك فتتوبوا إلى الله وتعبدوه وحده؟.

﴿٣٦﴾ وَقَالَ أَلَمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتَرَفْنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ أَلَمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ أَكْبَرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ تُوْحِدُ رَأْيَهُمْ ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالرَّسُولِ وَآيَاتِهِ ﴿٣٩﴾ وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ ﴿٤٠﴾ فَلَمْ يَخَافُوا اللَّهَ بَلْ تَجَرَّأُوا عَلَىٰ تَكْذِيبِ الرَّسُولِ وَجَادَلُوا فِي رِسَالَتِهِ، وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ: اللِّقَاءُ فِي الْآخِرَةِ أَيْ لِقَاءَ اللَّهِ فِي يَوْمِ الْحِسَابِ.

أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنْ كُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿١٦﴾ أَيْعِدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِثْمٌ وَكُنْتُمْ تَرَابًا وَعَظْمًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ﴿١٧﴾ هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿١٨﴾

﴿وَأَتَرَفْنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي وسعنا لهم في الرزق وشهواتهم فجعلوا النعمة سبباً للكفر؛ لأنهم بسببها استكبروا عن اتباع الرسول واستحقروه حيث لم يكن معدوداً من عظمائهم الذين يعظمونهم لأجل كثرة مالهم، فأنفوا من اتباعه وقالوا: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلَكُمْ﴾ فلا يصح أن يكون رسولاً من الله إليكم، وكأنهم نسوا أن الله أرسل نوحاً وهو بشر مثل قومه فقالوا ما هذا إلا بشر مثلكم في أنه بشر وحققوا أنه بشر مثلهم بقولهم: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ وهو لم يدع أنه من جنس آخر غير البشر وإنما ادعى أن الله أرسله إليهم وجاءهم بالبينه.

﴿وَلَيْنَ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنْ كُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ ﴿أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾ فتركتم الشرك من أجله ﴿إِنْ كُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ تخسرون أصنامكم ودينكم.

﴿أَيْعِدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِثْمٌ وَكُنْتُمْ تَرَابًا وَعَظْمًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ﴾ هذا منهم جدال في صدقه في دعواه الرسالة ينكرون عليه الوعد بالبعث بعد أن صاروا تراباً وعظاماً، ويجعلون هذا الوعد حجة لهم على أنه غير رسول، وليست حجة صحيحة إنما هي مجرد استبعاد والاستبعاد لا تبطل به حجة الرسول الدالة على صدقه أعني المعجزة التي جعلها الله دليلاً على صدقه.

﴿هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ ﴿هَيَّاتَ﴾ أرادوا بُعداً ما توعدون وكرروها تأكيداً، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: ما أبعد ذلك» انتهى. وهذا من جدالهم في الرسالة.

هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٢٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ ﴿٢٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٣٠﴾ فَأَخَذَهُمُ

﴿٢٧﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أنكروا الوعد بالبعث ثم استبعدوه ثم جزموا بأنه غير واقع، كل ذلك جادلوا به تكذيباً للرسول ونفياً للرسالة، وقولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي الجنس يموت بعضه ويحيى بعض آخر، وهذا جهل منهم بالله أحكم الحاكمين، المنزه عن العبث وعن الإهمال جعلوه يحى أمة ثم يميتها، ثم يحيى أخرى ثم يميتها، وهكذا من غير فائدة أو حكمة في الإمامة وتعاقب الأمم في الحياة والموت، من غير نظر إلى أنه يكون فيهم الظالم والمظلوم، والمحسن والمسيء، وأن قولهم هذا يؤدي إلى أن الله مكن الظالم من ظلم المظلوم ثم أماتهم، وأمات المحسن والمسيء بلا جزاء ولا إنصاف للمظلوم سبحانه الله وتعالى عما يصفون.

﴿٢٨﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ لما احتجوا بدعواهم واستبعادهم للبعث عقبوا ذلك بتصريحهم بتكذيب الرسول وإصرارهم على ترك الإيمان به وترك التصديق له جاعلين هذا التكذيب كالنتيجة لاحتجاجهم بنفي البعث الذي يعدهم به، وقالوا: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ﴾ أي لا رسول، استمراراً في زعمهم أن البشر لا يصلح للرسالة فقد جادلوا في الرسالة بأنه بشر وبأنه وعد بالبعث عناداً وأعلنوا أنهم لن يؤمنوا له.

﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ﴾ ﴿قَالَ﴾ رسولهم الذي جادلوا في رسالته ﴿رَبِّ انصُرْنِي﴾ لأنه لم يبق أمل في إيمانهم فانصرتني بسبب تكذيبهم لي.

﴿٤١﴾ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَهُمْ غُثَاءً ﴿٤٢﴾ فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخِرِينَ ﴿٤٤﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلٌّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رُسُوهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ

﴿٤٦﴾ ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ فيكشف ندمهم على ترك الإيمان أنهم كانوا يعلمون أنك رسول من الله صادق، وأنهم إنما كذبوك معاندين للحق متمردين على ربهم.

﴿٤٧﴾ ﴿فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿الصَّيْحَةُ﴾ العذاب المهلك، قال في (الصحاح): «العذاب وأصله من الأول» انتهى، يعني: أصله من الصوت، ومثله في (لسان العرب)، وقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أخذاً بالحق أي اقتضاه الحق.

﴿فَجَعَلْنَهُمْ غُثَاءً﴾ قال (صاحب الكشاف): «شبههم في دمارهم بالغشاء وهو حميل السيل مما بلي واسود من العيدان والورق» انتهى، ولعله يشير إلى تغيرهم بما يقع عليهم من الشمس والأمطار والرياح حتى بليت أجسادهم كما يبل الغشاء ﴿فَبُعْدًا﴾ تعبير عن بغضهم والغضب عليهم مثل: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ [البرج: ٤] لأجل ظلمهم بالتكذيب والجدال بالباطل وغيره.

﴿٤٨﴾ ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخِرِينَ﴾ من بعد القوم المهلكين أنشأ الله قروناً أئماً يرسل إليهم رسلاً فيكذبونهم فتكون النهاية هلاكهم بالعذاب.

﴿٤٩﴾ ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ﴾ ﴿أَجْلَهَا﴾ أجل هلاكها لأن الله تعالى لا يعاجلها بالعذاب قبل أن يمهلها مدة محدودة فيها تبلغها فيها حجة الرسول وتدعى إلى التوبة، ويتلى بها الرسل والمؤمنون، وتترادف الحجج على أمته حتى تبلغ أجلها المحدود فتهلك بما كذبت بآيات الله وجادلت بالباطل وهمت برسولها لتأخذه وبظلمها كله.

بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ
وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبينٍ ﴿١٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا

﴿١٤﴾ ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ
بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال في (الكشاف):
«﴿تَتْرًا﴾ فعلى الألف للتأنيث لأن الرسل جماعة» انتهى، والمعنى: متواترين
يتبع بعضهم بعضاً مع فاصل زمني محدود، قال الشرفي في (المصاييح): «قال
في (البرهان): يعني متواترين يتبع بعضهم بعضاً بين كل اثنين [دهر] وهو
[كذا في المصاييح] طويل» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا﴾ عطف على ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا﴾ لأن الله ينشئ القرن
ثم يرسل إليهم رسولاً لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴿كُلًّا مَا
جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ اغتراراً بالحياة العاجلة وانقياداً للكبر والحسد
واتباعاً للهوى ﴿فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾ أي أهلكناهم كما أهلكنا من قبلهم
أتبعناهم في الهلاك.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه:
يُتمثل بهم في الشر ولا يقال ذلك في الخير، وفي (مفردات الراغب): أي
أخباراً يُتمثل بهم» انتهى، ولعل حاصل هذا المعنى: جعلناهم مثلاً يُعتبر
بهم، كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦] ﴿فَبُعْدًا
لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تعبير عن السخط والغضب عليهم وأصله دعاء عليهم
بالهلاك قال تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِثْتُ نُوحًا﴾ [هود: ٩٥].

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبينٍ﴾ ﴿بِآيَاتِنَا﴾
مصحوبين بآياتنا التسع ﴿وَسُلْطَانٍ﴾ هيبة ونصر ﴿مُبينٍ﴾ كما قال تعالى:

وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنْتُمْ لِبَشَرِينَ مِثْلَنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَبِيدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنْ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص: ٣٥] وكقوله تعالى: ﴿وَمَا أَفَلَهُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ [الحشر: ٦].

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ أي أرسلناهما إلى فرعون ﴿وَمَلَأْنَاهُ﴾ كبراء قومه أو وزرائه ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ أنفوا عن قبول الحق واستحقروا موسى وهارون واستعظموا أنفسهم.

﴿وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ قال الشريفي في (المصابيح): «﴿وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ متناولين على [في المصابيح: عن، وهو غلط تصحيف] الناس، قاهرين لهم بالبغي والظلم» انتهى.

وقد وُصِفَ فرعون بالعلو المذموم في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَلَّ فِي الْأَرْضِ أَنْفُسَهُمْ ظِلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] و(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ هي واو تسميها النحاة واو الاعتراض ولكنها تأتي في خلال الكلام وفي أول الكلام الأخير.

﴿فَقَالُوا أَنْتُمْ لِبَشَرِينَ مِثْلَنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَبِيدُونَ﴾ ﴿فَقَالُوا﴾ أي فرعون وملئه ﴿أَنْتُمْ لِبَشَرِينَ مِثْلَنَا﴾ أي لو كانا رسولين ما كانا بشرين، كما قال فرعون: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جِلَّةٌ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣] ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ أي بنو إسرائيل ﴿لَنَا عَبِيدُونَ﴾ أي مطيعون خاضعون مسخرون.

لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَءَاوَيْنَهُمَا إِلَى رُبُوعٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿١٢﴾ يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا

قال الشرفي في (المصاييح): «قال في (البرهان): لأن بني إسرائيل كانت تعبد فرعون وفرعون كان يعبد الأصنام» انتهى، أي وموسى وهارون من بني إسرائيل فكيف نؤمن لهما، بل لنا الفضل عليهما كما لنا الفضل على قومهما.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ فكذب فرعون وملؤه الرسولين موسى وهارون ﴿فَكَانُوا مِنَ﴾ جملة الأمم ﴿الْمُهْلَكِينَ﴾ بسبب تكذيبهم لرسولهم؛ لأنه تعالى أغرق فرعون وقومه كبراءهم وأتباعهم وأنجى موسى وهارون ومن معهما من المؤمنين.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ لعل بني إسرائيل الذين هم قوم موسى وهارون ﴿يَهْتَدُونَ﴾ بما في الكتاب من الهدى، والكتاب هو (التوراة).

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَءَاوَيْنَهُمَا إِلَى رُبُوعٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ ﴿ابْنَ مَرْيَمَ﴾ أي عيسى عليه السلام، وكل منهما آية تدل على قدرة الله تعالى وعلمه، قال الشرفي في (المصاييح): «قال في (البرهان): فأيته أنه خلق من غير ذكر، وآيتها أنها حملت من غير فعل، ثم تكلم في المهد فكان كلامه آية له وبراءة لها» انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿وَأَوَيْنَهُمَا إِلَى رُبُوعٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ معناه: ضممناهما، أي عيسى وأمه عليه السلام و﴿رُبُوعٍ﴾ مكان مرتفع، ويقال: ربوة بالفتح، والمعين: الماء الظاهر» انتهى المراد.

تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿١٠٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿١٠٣﴾ فَذَرَهُمْ فِي

أي جعلنا لهما مأوى ربوة موضع من الأرض مرتفع ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ صالحة للقرار فيها بالأمن وتيسر الرزق ﴿وَمَعِينٍ﴾ للشرب والطهور وسائر ما يحتاجان له الماء، وفي (الصحيح): «وماء معين: أي جان» انتهى، فهي بلدة طيبة يفرغان فيها للذكر والعبادة ولا تضرهما بوخامة لارتفاعها.

﴿يَتَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ أحل الله لهم الطيبات لم يحرم عليهم ما حرم على الذين هادوا بظلمهم ولا ما حرم المشركون على أنفسهم بغير حق ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ عملاً صالحاً فهم بشر لا تنافي رسالتهم أكلهم من الطيبات، وهم مكلفون بعبادة ربهم ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فلا أضيع عمل عامل منكم.

﴿وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ ﴿وَإِنَّ﴾ بكسر الهمزة استئناف، وأما بفتح الهمزة فعلى تقدير لام التعليل أي فاتقون لأن هذه الملة ملتكم حق وصواب ليس فيها باطل ﴿وَاحِدَةً﴾ لا تفرق بينكم ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ الخالق لكم الرازق.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال محمد بن القاسم عليه السلام: الأمة في (لسان العرب) القصد [أم] يؤم [قصد] يقول الله سبحانه: إن قصدكم الذي تقصدون وأمتكم التي تؤمون واحدة، يعني سبحانه طريقاً واحداً غير اثنين إذ كلهم [أي الرسل] مأمور بعبادة الله وحده والسلوك في سبيله وقصده وخلع الأنداد من دونه والشهادة له بوحدانيته وأنه لا إله ولا رب غيره فربهم الله..» الخ.

غَمَرْتَهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٠١﴾ أَتَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَيْنٍ ﴿١٠٢﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِن خَشْيَةِ رَبِّهِم

وقال الشرفي في (المصاييح) أيضاً: «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: يقول عز وجل: إن دينكم دين واحد وهو التوحيد والعدل [أي توحيد الله وإثبات عدله] وإثبات الوعد والوعد [أي التصديق والإقرار بوعد الله ووعيده] والنبوة والإمامة، فهذا دين واحد ليس فيه اختلاف بين أحد من الأنبياء صلوات الله عليهم وغيرهم من المسلمين، والأمة هاهنا هي الدين والملة والمذهب» انتهى.

﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ ﴿فَتَقَطَّعُوا﴾ الفاء للتفريع أي أن الله أرسل رسله بجملة واحدة هي عبادته وحده وأمرهم أن يتقوه لأنه ربهم فاقطع الناس أمر الرسل الذي كانوا عليه أو الذي أمرهم به تقطعوه بينهم ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ أخذ قطعة اقتطعها لنفسه ﴿زُبُرًا﴾ إما كتباً وإما قطعاً كقطع الذهب والفضة ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ أي كل قوم ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ لاختصاصهم به وانتمائهم إليه تعصباً له؛ لأنه دينهم والمعنى أنهم لم يتبعوا الرسل اتباعاً كاملاً ليتقوا الله بل اكتفى كل حزب منهم ببعض منه في حين لا يكفي ولا يقبل منهم.

﴿فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ﴿فَذَرَهُمْ﴾ يا رسول الله اترك هذه الفرق التي تقطت أديانها ﴿فِي غَمَرَتِهِمْ﴾ في جهلهم وغفلتهم واشتغالهم بدينيهم تشبيهاً لهم بمن غمره ماء.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إما ذرهم حتى حين الجهاد في سبيل الله، وإما حتى حين تنتهي دنياهم التي هي متاع قليل، ويمكن الجمع بين الأمرين لأن الجهاد مستقبل وهلاكهم به وبغيره مستقبل، وهذا هو الراجح، وهذه الآية تشبه قوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة: ١٠٩].

مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِعَاقِبَتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا تَنْكَلِفُوا

﴿٥٧-٥٨﴾ «أَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُعَذِّبُهُمْ بِهٖ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ» ﴿٥٩﴾ «أَحْسِبُونَ» سؤال توبيخ على هذا الحساب أنما يمدهم الله به أي يعطيهم ﴿٦٠﴾ «مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ» يحسبون أن ذلك مسارعة من الله لهم ﴿٦١﴾ «فِي الْخَيْرَاتِ» والمؤجل منها مثلها، والخيرات الخير، فهذا الحساب غلط ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أن هذا المعجل فتنة والمؤجل عذاب بكفرهم وإجرامهم.

﴿٥٧-٥٨﴾ «إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِعَاقِبَتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ» ﴿٦٠﴾ «مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ» قال في (لسان العرب): «وإذا قلت: أشفقت منه، فإنما تعني حذرته» انتهى.

وعلى هذا: فالمعنى: أن الخشية بعثتهم على الحذر من عذاب الله، هذا إذا كان المعنى مشفقون منه، فإن كان المعنى: مشفقون على أنفسهم، فقال في (لسان العرب): «ابن سيده: وأشفق عليه حذر» انتهى، وفي (الصحاح): «وإذا قلت: أشفقت منه فإنما تعني حذرته» انتهى، وفي (القاموس): «وأشفق حاذر أو لا يقال إلا أشفق» انتهى، والحذر هنا هو التقوى.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِعَاقِبَتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يصدقون بها وبما دلت عليه تصديقاً باعثاً على العمل بها واتباعها وذلك لأنهم لا يعرضون عنها ولا يجادلون فيها بل ينظرون فيها نظراً صحيحاً فيعلمون صحتها ويعرفون ما تدل عليه.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ فلا يتبعون حكماً مخالفاً لحكمه، ولا يجعلون لغيره حكماً، ولا يعبدون غيره؛ لأنهم مؤمنون بأن ربهم الله وحده فلا حكم فيهم إلا له وحده، ومن حكمه طاعة رسوله واتباعه وطاعة أولي الأمر في الحق الذي لا يخالف طاعة ربهم.

﴿يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا﴾ قال الراغب: «الإيتاء: الإعطاء» انتهى، قال تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مِلِّ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣] أي أعطوهم واستعماله في القرآن كثير، روى الناصر الحسن بن علي الأطروش عليه السلام في (البساط) [ص/٧٨]: قال: حدثنا وكيع، قال: حدثنا مالك بن مغول، عن عبد الرحمن بن سعيد بن وهب، عن عائشة، قالت: قلت لرسول الله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ هو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر؟ فقال: «لا يا ابنة أبي بكر، ولكن هو الرجل يصوم ويصلي ويتصدق وهو يخاف ألا يقبل منه» انتهى.

فمعنى: ﴿يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا﴾ يتصدقون ويؤتون الزكاة وغيرها من الحقوق ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ خائفة، وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أي قلوبهم خائفة من أنهم إلى ربهم راجعون، أو لأنهم إلى ربهم راجعون، وفي تكرار كلمة ﴿رَبِّهِمْ﴾ دلالة على كثرة ذكرهم لله من حيث هو ربهم المالك لهم، وقوة تعبدهم لله.

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي أهل هذه الصفات الأربع يسارعون في كسب الخيرات لأن تقواهم وإيمانهم وأعمالهم وإنفاقهم كلها حسنات مضاعفة لهم في الآخرة، فمسارعتهم في أسباب الثواب مسارعة في الثواب وهو الخير الكبير ﴿وَهُمْ لَهَا﴾ أي الخيرات ﴿سَاقُونَ﴾ لأنهم يسبقون الجنة وتفوت غيرهم.

نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ ۖ وَهُمْ لَا يُظَاهَمُونَ ﴿١٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ
فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا ۖ وَهُمْ أَعْمَلُ مِّنْ دُونِ ذَٰلِكَ ۖ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ ﴿١٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا

وحاصل المعنى: يسارعون في خيرات الآخرة بمسارعتهم في الطاعة
﴿وَهُمْ لَهَا سَبِقُونَ﴾ لأنهم هم الذين يفوزون بالخيرات في الآخرة فسبقوها
بسبقهم إلى طاعة الله.

﴿١٢﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ ۖ وَهُمْ لَا
يُظَاهَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴿١٤﴾ لا نكلفها ما تضيق عنه ولا
تتحمله؛ ولذلك فالجنة تنال بأسباب ممكنة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ لعله ما يكتبه الحفظة، كقوله
تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾
[الجن: ٢٩] وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظَاهَمُونَ﴾ لا ينقص عليهم شيء من
حسناتهم، وهذا ترغيب في العمل للخيرات بأنه في وسع الإنسان وبأنه لا
يضيع منه شيء.

﴿١٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا ۖ وَهُمْ أَعْمَلُ مِّنْ دُونِ ذَٰلِكَ ۖ هُمْ لَهَا
عَمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ أي الكفار ﴿فِي غَمْرَةٍ﴾ في غفلة شاملة للقلوب كأنها في
غمرة من الماء ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ إما من هذا الوعد والوعيد، وإما من هذا المذكور
في الآيات الماضية، فهم غافلون عن الآخرة وعن الجنة والعمل لها لأنها غارقة
في التوجه إلى الدنيا وإلى الأغراض الدنيوية والأهواء ﴿وَهُمْ أَعْمَلُ﴾ تحول
بينهم وبين الطاعة والمسارة في الخيرات لأنها ذنوب تفسد القلوب وشواغل
دنيوية يؤثرونها على الطاعة لإيثارهم الحياة الدنيا على الآخرة؛ ولذلك قال
تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ﴾ كلمة إضراب عن الترغيب لهم في المسارة في الخيرات.

أَخَذْنَا مَثَرَهُمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَحْجُرُونَ ﴿١٤﴾ لَا تَحْجُرُوا أَلْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿١٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿١٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿١٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ

﴿١٤﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مَثَرَهُمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَحْجُرُونَ ﴿حَتَّىٰ﴾ غَايَةً لِّأَعْمَالِهِم الَّتِي تَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمَسَارَعَةِ فِي الْخَيْرَاتِ ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مَثَرَهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ فَهُمْ لَا يَنْفَكُونَ مُعْرِضِينَ عَنِ الْحَقِّ مُصْرِينَ عَلَى الْبَاطِلِ حَتَّى يَأْخُذَ اللَّهُ مَثَرَهُمْ بِالْعَذَابِ.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «يعني بالمترف: الموسع عليه في الدنيا حتى بغوا وكفروا، والعذاب بالسيف يوم بدر، وقوله: ﴿يَحْجُرُونَ﴾ معناه: يرفعون أصواتهم» انتهى.

فعبيد الدنيا الذين توفرت لهم الأرزاق ووسعت لهم النعمة هم الطغاة المجادلون في آيات الله الدعاة إلى عصيان الله ورسوله فكانوا أحق بتعجيل العذاب لدفع فسادهم، ويحتمل: أن المراد بالعذاب عذاب الآخرة؛ وخصهم بالذكر لأنهم مقدمون إلى النار قبل الضعفاء.

﴿١٥﴾ لَا تَحْجُرُوا أَلْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿لَا تَحْجُرُوا﴾ أَي لَا يَفِيدُكُمْ الْجَوَارِ لِأَنَّهُ لَا نَاصِرَ لَكُمْ يَنْصَرُكُمْ حِينَ يَسْمَعُ جَوَارِكُمْ ﴿إِنَّكُمْ مِّنَّا﴾ أَي مِنْ اللَّهِ ﴿لَا تُنصَرُونَ﴾ لِأَنَّ اللَّهَ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ، وَأَنَا أَفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِ ﴿أَلْيَوْمَ﴾ أَنَّهُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ.

﴿١٦﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿قَدْ كَانَتْ﴾ حِينَ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ ﴿ءَايَتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وَهَذَا مِمَّا يَرْجَحُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْعَذَابِ: عَذَابُ الْآخِرَةِ، فَقَدْ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ ﴿فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾.

قال الراغب: «النكوص: الإحجام عن الشيء» انتهى، يعني: التأخر عن الشيء فراراً منه، فالمعنى: أنهم كانوا يتجنبون اتباع الآيات أو استماعها فراراً من الحق، فهم ظلموا أنفسهم بامتناعهم من تصديق النذير.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ حال من ﴿تَنكِصُونَ﴾ مستكبرين بالنكوص كأنكم تتأخرون عما القرب منه عار عليكم ودناءة ﴿سَمِرًا﴾ تتحدثون الليل فيما بينكم ﴿تَهْجُرُونَ﴾ أي حديث هجر على قراءة ﴿تَهْجُرُونَ﴾ بفتح (التاء) وضم (الجيم) أو حديث إهجار على قراءة ﴿تَهْجُرُونَ﴾ بضم (التاء) وكسر (الجيم).

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: السامر هم الذين يسمرون ويتحدثون في أمر القرآن بالليل خاصة لأن السمر عند العرب وفي لغتهم لا يكون إلا بالليل، قال الشاعر:

وباتوا بشعب لهم سامراً إذا ما خبت نارهم أوقدوا»

انتهى، وقال في (الصحيح): «والسامر أيضاً السُّمَار وهم القوم يسمرون كما يقال للحُجَّاج حاج» انتهى، وفي (لسان العرب) مثله، وفي (أساس البلاغة): «وباتوا سُمَّاراً وسامراً» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ أما على قراءة فتح التاء وضم الجيم، فمعناه: أنهم يتكلمون بكلام يشبه الهذيان؛ لأنهم يسترسلون في القول الباطل بغير تثبت ولا تورع كأنهم لا عقول لهم، وأما على قراءة ضم (التاء) فمعناه: أنهم يتكلمون بالكلام الفاحش.

قال الشرفي في (المصابيح): «وكانوا يجتمعون في الليل حول البيت يسمرون وعامة سمرهم ذكر القرآن والطعن فيه بأنه شعر وسحر، وسب الرسول ﷺ».

جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿١٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ

﴿١٨﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴿٢٠﴾ أي القرآن الذي سمعوه ووجدوه حكيماً محكماً يعجزون عن الإتيان بمثله، بل قد تدبروه حتى علموا عجزهم عن الإتيان بمثله ولكن منهم الكبر عن الإيمان به ﴿٢١﴾ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٢﴾ بل قد جاء آباءهم الأولين الرسول والكتاب، كما قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ..﴾ الآية [البقرة: ٢١٣] وهذه الجملة كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ الرُّسُلِ﴾.

﴿٢٣﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٢٤﴾ بل قد عرفوه وعاش بينهم قبل الرسالة أربعين عاماً فما أنكروه، وهذا من نعمة الله عليهم ومن تمام الحجة عليهم أنهم يعرفون رسولهم فلا تنكروه أنفسهم.

﴿٢٥﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٢٦﴾ قال في (الصحيح): «والجنة: الجن - ثم قال - : والجنة: الجنون» انتهى، ومثله في (مفردات الراغب) والمعنى واحد، أي يقولون: به جن يخلونه فهو مجنون بسبب دخولهم فيه على قلوبهم، أو ﴿يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي جنون ﴿بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ﴾ وهم زعموا أن به جنة من أجل أنه جاءهم بدعوى الرسالة والقرآن وذلك حق لا يدل على أنه مجنون، وقد رد الله عليهم بقوله: ﴿بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ﴾ هنا وفي (سورة الصافات) أو لأن المجنون يخلط في كلامه الحق والباطل بما يظهر أنه به مجنون ﴿وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ فلذلك تقولوا فيه الأقاويل الباطلة مجنون، شاعر، ساحر..

فِيهِمْ ۚ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَّاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ

﴿٧٦﴾ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٧﴾ ﴿أَهْوَاءُهُمْ﴾ أهواء المشركين الذين يهون أن يبقى الشرك والكفر باليوم الآخر وأن يموت الرسول ويبطل الإسلام ويكون الحكم لهم يحكمون في عباد الله كيف شاءوا ويكون الملائكة أرباباً لهم وشفعاء إلى غير ذلك من أهوائهم، فلو اتبعها الحق وجعل أمره تبعاً لها لما كان في بقاء العالم حكمة تقتضي بقاءه بل كانت الحكمة تقتضي إعدامه؛ لأنه حينئذ يكون قد فسد ولم يبق فيه مجال للحق أن يحكم هو وأن يكون هو المتبوع لا التابع لأن الحكم قد صار لأهوائهم، فأهمل العالم وفسد أهله كلهم.

﴿بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ بشرفهم الذي به يذكرون في العالم؛ لأن الذكر والشرف والعز هو في اتباع القرآن والتمسك به وهو الحق الذي به قامت السموات والأرض من حيث أنه حكم الله في عبادته ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ وهذا غاية السفه أن يعرضوا عما فيه صلاح أحوالهم وعزتهم وشرفهم لأجل هوى أنفسهم، وقد شهدت بذلك تجربة أحوال العرب في الماضي والحال فقد كان لهم العز والقوة حين أسلموا، وكان اعتماد الجمهور على القرآن والحكم للقرآن حتى غلبوا كسرى وقيصر، وحين أعرضوا عن القرآن في هذا الزمان اختل نظامهم وذهبت عزتهم وقهرهم الكفار، ولن تعود لهم قوتهم إلا إذا رجعوا إلى الله.

﴿٧٧﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَّاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٨﴾ ﴿خَرْجًا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: غلة» انتهى، وفسره في (الصحيح) بالإتاوة، وذكر قول الشاعر:

إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَبُّونَ ﴿٧٧﴾ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُودُ فِي طُغْيَانِهِمْ

أفي كل أسواق العراق إتاوة وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم

وحاصل المعنى: أم تسألهم مالاً أجراً على الرسالة ﴿فَخَرَّاجٌ رَبِّكَ﴾ أي رزقه ﴿حَيْرٌ﴾ من خراج منهم، وقوله: ﴿فَخَرَّاجٌ رَبِّكَ﴾ مشاكلة، وقول الشاعر:

اعطوه خرجاً واتقوا بضريبة فعل الذليل ويبعة لم تربح

يفيد: أن الضريبة تسمى خرجاً، وفي (لسان العرب): «والخرج والخراج واحد: وهو شيء يخرج القوم في السنة من مالهم بقدر معلوم ثم قال الأزهري: والخرج أن يؤدي إليك العبد خراجاً أي غلته، والرعية تؤدي الخرج إلى الولاية» انتهى المراد.

﴿فَخَرَّاجٌ رَبِّكَ حَيْرٌ﴾ أي إن الله يرزقك خيراً من خراجهم، ومعنى ﴿أَمَرْتَسْأَلُهُمْ﴾ أي إنك لا تسألهم خرجاً حتى يعتذروا بخوف المغرم لأن معنى بل وهمزة السؤال الذي معناه النفي، مثل: ﴿أَلَمْ تَشْرَحْ﴾ [الشرح: ١].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ لأنه يتبدى عباده بالإحسان ولا يطلب منهم مكافأة ويستمر فضله لعباده طول حياتهم مع عصيان أكثرهم له.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا رسول الله ﴿لَتَدْعُوهُمْ﴾ لتدعوا قومك ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ إلى الحق الذي لا غواية فيه، بل هو أشبه بالطريق الواضح المستقيم الذي لا عوج فيه ولا انقطاع فهم في عصيانك فوتوا رشدهم.

يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾

﴿٧٥﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ ﴿٧٦﴾ النشأة الآخرة وما فيها من الحساب والجزاء هي وعد الله الذي لا يتخلف؛ لأنه أصدق القائلين، فالطريق إلى إثباتها طريق واضح والإنسان بأهوائه وطمع الشيطان في إغوائه لا يصلحه إلا الإيمان بالآخرة وما فيها من الحساب والثواب والعقاب ليردع الإنسان عن الظلم وعن اتباع الباطل خوفاً من النار ويحمّله على الإحسان رغبته في الثواب.

فإذا لم يؤمن بالآخرة فقد الوازع عن الظلم والباطل، وفقد الباعث على الإحسان إلى من لا يرجو منه نفعاً ولا يخاف منه ضرراً، ولذا قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ [الماعون: ١-٣] فهو ناكب عن الصراط عادل عن طريق الحق والصواب، يقال: نكب عن الطريق أي مشى جانباً خارجاً عن الطريق.

في (أمالي أبي طالب) في (فضائل الحسن والحسين): قال سعد [بن أبي وقاص] للحسن عليه السلام يا أبا محمد إن المشي قد ثقل على جماعة ممن معك والناس إذا رأوكما تمشيان لم تطب أنفسهم بأن يركبوا فلو ركبتما، فقال الحسن عليه السلام: «لا نركب قد جعلت على نفسي أن أمشي ولكن أتنكب الطريق فأخذ جانباً».

﴿٧٥﴾ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٦﴾ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ ﴿٧٧﴾ في هذه الدنيا ﴿وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾ أي ما بقومك الذين لا يؤمنون بالآخرة من ضرر وهذا يدل على أنهم في ضرر.

قال الشرفي في (المصابيح): ﴿وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِّنْ ضُرٍّ﴾ أي الهزال والجوع والقحط الذي أستتهم وسائر مضار الدنيا ﴿لَلْجَوِّ فِي طَعْنِهِمْ﴾ أي أكثروا وبالغوا في ظلمهم بعداوة رسول الله ﷺ. ثم قال الشرفي: وفي (البرهان): قيل إن النبي ﷺ دعا عليهم فقال «اللهم اجعل عليهم سنين كسني [في نسخة (المصابيح): كسنين وهو غلط من الناسخ. تمت] يوسف عليه السلام» انتهى. ولفظ الحديث في (الكشاف) في تفسير (سورة الدخان): «اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف» انتهى.

والعمه: قال فيه الراغب: «العمه: التردد في الأمر من التحير» انتهى. ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم﴾ هو القتل والأسر في بدر انتهى، قال (صاحب الصحاح): «والاستكانة: الخضوع» انتهى، وقوله تعالى: ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ أي لم يخضعوا راجعين إلى ربهم منقادين له ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ وما يدعون الله دعاء تذلل لله.

قال في (الصحاح): «وتضرع إلى الله: أي ابتهل، قال الفراء: جاء فلان يتضرع ويتعرض بمعنى إذا جاء يطلب إليك حاجة» انتهى.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ ﴿حَتَّىٰ﴾ غاية لقسوتهم وإصرارهم بانتقالهم إلى الإبلas ﴿إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ لعله الصحو المستمر وعدم المطر بحيث تجف بلادهم وتبيس مراعيهم وأشجارهم ويفقدون الزرع وحتى يشتد عليهم حالهم بالجوع المميت للأنعام وبعض الناس فمثل هذه الحالة يدعو إلى التضرع، ولكن هؤلاء القوم لا يتضرعون بل يسكتون سكوت حيرة ويأس من الفرج. قال في (الصحاح): «والإبلas - أيضاً - الانكسار والحزن، يقال: أبلs فلان، إذا سكت غمًا» انتهى.

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾
 وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾. وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ
 وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ

﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٩﴾
 ﴿السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ آيات تدل على قدرة الله تعالى وعلمه ونعمه وتوجب شكر العبد لربه الذي أنعم عليه بهذه النعم العظيمة، وفضله بالعقل على البهائم، والله تعالى هو المنعم بها علينا ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أنعمه عليكم، وأين الشكر من عبد غيره وكذب رسوله وجادل في آياته؟ أما شركاؤهم فلم ينعموا عليهم بهذه النعم وهم يعلمون، والأفئدة جمع فؤاد وهو القلب أو باطن القلب والمراد ما فيه من العقل.

﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٨٠﴾ قال الراغب: «يقال: ذرأ الله الخلق، أي أوجد أشخاصهم» انتهى، فالله تعالى هو الذي أوجدكم في الأرض التي مهّدها لكم دون شركاء المشركين، وهم مقرون بذلك ﴿وَإِلَيْهِ﴾ وحده ﴿تُحْشَرُونَ﴾ من القبور إلى موقف السؤال والحساب والحكم بين العباد فالله وحده هو الذي يسألكم ويحكم فيكم وبينكم لا شريك له ولا معقب لحكمه، وذرة الخلق أولاً دليل على حشرهم.

﴿٨٠﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨١﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴿٨٢﴾ لا يقدر على الإحياء إلا هو ﴿وَيُمِيتُ﴾ لا يقدر أحد على تأخير الموت إذا قضاه ﴿وَلَهُ﴾ وحده ﴿اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ كل منهما يخلف الآخر بتدبير الله وتقديره لمدة كل منهما، ولا يقدر على ذلك إلا الله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتؤمنوا بأنه قادر على أن يحييكم بعد موتكم وتحذروا مما أنذركم.

﴿الْأَوَّلُونَ﴾ ﴿١١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٢﴾ لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ قُلْ لِمَنْ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ

﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ * قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * ما عقلوا ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ * إنكار البعث بعد أن يموتوا ويكونوا تراباً وعظاماً، ثم قالوا: ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا﴾ فغالطوا مع أن الوعد حجة عليهم وعلى آبائهم، ثم جحدوا فقالوا: ﴿إِنْ هَذَا﴾ القرآن الذي أنذرهم بالآخرة ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ * وأساطير: جمع أسطورة.

قال في (أساس البلاغة): «وهذه أسطورة من أساطير الأولين مما كتبوا من أعاجيب أحاديثهم» انتهى، وقد علم الكافرون أنهم عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله في الحكمة والإحكام أفلا أتوا بأسطورة من مثله إن كان أساطير، لقد علموا الحق، ولكنهم عاندوا لأنهم عرب جاءهم القرآن بلسان عربي مبين.

﴿قُلْ لِمَنْ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥﴾ أفلا تتذكرون أنه ربكم فتعبدوه وحده، وتركوا شركاءكم الذين ليس لهم شيء منكم ولا من رزقكم، وإنما هم مملوكون عباد أمثالكم.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦﴾ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٧﴾ الذي له الملك العظيم ﴿سَيَقُولُونَ﴾ السموات والملك العظيم ﴿لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله الذي له الملك وله السموات السبع فتؤمنوا بكتابه ورسوله وتطيعوه وتعبدوه وحده.

مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا آتَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُلْ رَبِّ إِمَّا

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ﴾.

قال الشريفي في (المصاييح): «﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي ملكه وملك التصرف فيه، وزيادة (التاء) و(الواو) للمبالغة» انتهى، وقال الراغب: «والمملوك مختص بملك الله تعالى، وهو مصدر ملك أدخلت فيه التاء نحو رحمت ورحبوت» انتهى.

﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ من شاء ممن شاء فلا ينال من أجاره الله بل من أجاره الله فهو محفوظ ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ بل من شاء الله أن يعذبه أو يهلكه أو يصيبه فلن يجيره من الله أحد ولا ملجأ له من الله ﴿سَيَقُولُونَ﴾ هذه الغلبة والقهر كلها ﴿لِلَّهِ﴾ وحده ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿فَأَنِّي تُسْحَرُونَ﴾ فمن أين تسحرون من أين تخدعون عن عبادة الله وحده وعن توحيده؟ إنه من اتباع الظن وما تهوى الأنفس وهو أيضاً طاعة الشيطان، فمن هنا اتخذتم كأنكم مسحورون لا تميزون بين الحق والباطل والرشد والغواية.

﴿بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * مَا آتَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ وهو توحيد الله ونفي الشريك وتقييح الشرك،

تُرِيَّتِي مَا يُوعَدُونَ ﴿١٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿١٥﴾ أَدْفَعْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ

وكذلك أنهم يبعثون يوم القيامة وغير ذلك مما جاء به الرسول والقرآن ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ في زعمهم إثبات الشركاء لله وزعمهم إثبات الولد ﴿لَكَذِبُونَ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ نفي مؤكد بـ (ما) وبـ (من) ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ فحقق بهذا كذبهم في دعوى اتخاذ ولد، وأضاف الاحتجاج على نفي الشريك.

فقال تعالى: ﴿إِذَا﴾ أي لو كان معه إله ﴿لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ لأنه لا يكون إله إلا لو كان رباً مالكاً، ولا يكون رباً مالكاً إلا لو كان خالقاً ففرض تعدد الآلهة يستلزم فرض تعدد الخالقين حتى يكون لكل إله مخلوقين يختص بهم وذلك يؤدي إلى أن يذهب كل إله ناحية بما خلق ليمتاز بما خلق ويعبدوه وحده ولا يعبدوا غيره، فلما كان لا يوجد من يدعي بعض المخلوقين أنه هو خالقهم دون الله تبين أنه لا يوجد خالق غير الله، وتبين أنه لا رب إلا الله، فتبين أنه لا إله مع الله ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ من دعواهم عليه اتخاذ الولد وهو الغني ودعواهم الرضى بشريك والله هو العزيز الحكيم.

وقوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ يبين أنه هو الذي يعلم من عبده ومن لم يعبد، وتنفع عبادته العابدين ﴿فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الذين قال تعالى فيهم: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] فتعالى عنهم أن يكونوا له أنداداً أو يقرنوا به سبحانه وتعالى.

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَّتِي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله

﴿١٧﴾ وَاعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ تَحْضُرُونِ ﴿١٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ
 نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿١٩﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ

داعياً لربك ﴿رَبِّ إِمَّا تُرِيتَنِي﴾ أي إن أرئتني ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ من فتح باب
 ذي عذاب شديد أو غيره من العذاب ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلَنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾
 أخرجني من بينهم كما أخرجت لوطاً وغيره حتى لا ينالني ما نالهم من العذاب
 ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ﴾ بأن نعجله في حياتك إن كان
 العذاب المعجل، فإن كان عذاب الآخرة فكذلك هو تعالى قادر على بعثهم
 وبعث الرسول وإراءته العذاب الذي يعذبون به؛ لأنه على كل شيء قدير.

﴿٢٠﴾ أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ ﴿٢١﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾
 يا رسول الله سيئة الكافرين بك وغيرهم ادفعها بالكلمة التي هي
 أحسن أو الصنيعة التي هي أحسن أو الفعلة التي هي أحسن، والتي هي
 أحسن يعم ذلك على سبيل البدل. والدفع ﴿بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أبلغ من
 دفع الإساءة بالإحسان؛ لأن التي هي أحسن مفضلة على الحسنه ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ
 بِمَا يَصِفُونَ﴾ كقولهم شاعر وساحر ونحو ذلك من كلامهم الباطل،
 فاجعل أمرهم إلى الله؛ لأنه أعلم بما يقولون، وكذلك قولهم الباطل على الله
 كل أمرهم إلى الله فيه وفي كل ما يصفون من الباطل؛ لأن الله أعلم بما
 يصفون، وهو يجازيهم عليه.

قال الشرفي في (المصابيح): «وهذا وإن كان خطاباً للنبي ﷺ فالمراد به
 جميع الأمة» انتهى.

﴿٢٢﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ
 تَحْضُرُونِ ﴿٢٣﴾ أَعُوذُ بِكَ﴾ ألقا إليك ﴿مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ قال الشرفي في

رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١١﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا

(المصاييح): «وهمزاتهم اغواؤهم بالمعاصي وحثهم عليها من همز الرائض الدابة إذا فحسها بالمهمزة [كذا] حثاً لها» انتهى المراد.

وهذا معطوف على قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ﴾ فالراجع أنه تعود من إغواء الشياطين وخطراتهم الداعية إلى الظلم ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ تَحْضُرُونِ﴾ أي من أن يحضروني، فظاهره أن حضورهم شرّ يدعو الإنسان إلى الباطل، فهو حجة للهادي ﷺ في طريقة إغواء الشيطان للإنسان.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿حَتَّىٰ﴾ راجع إلى ما تفيد الآيات من قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِأَيْمَنِ﴾ أحسن من متاركة الكفار.

كانه قيل: تاركهم فغاييتهم الندامة عند الموت ﴿إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ أنت وملائكتك الحاضرون لقبض روعي ارجعوني إلى حالتي التي كنت فيها حالة العيش بسلام ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا﴾ أي ارجعوني لهذا الغرض ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ من أهل ومال فأصلح أهلي بدعوتهم إلى الإيمان وأنفق على ضعفاء المؤمنين وفي معاونة الإسلام ﴿كَلَّا﴾ زجر عن هذا الطلب ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ طلب الرجعة للغرض المذكور ﴿هُوَ قَائِلُهَا﴾ في حال أن ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ﴾ هو وأمثاله ﴿بَرْزَخٌ﴾ حاجز عن العودة إلى الحياة والعيش ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ليرجعوا إلى الله فيسألهم ويحكم فيهم ويعذبهم.

﴿١٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَكَفَّرتُ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا

﴿١٤﴾ ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمْ النَّارُ﴾ معناه: تشويه حتى تقلص شفته العليا وتبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى» انتهى.

وفي (أساس البلاغة): «لفحته النار: أحرقت بشرته» انتهى، وفي (الصاحح): «لفحته النار والسموم: أحرقته» انتهى، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ مكشرون أسنانهم مكشوفة، قال في (الصاحح): «الكلوح: تكشر في عبوس» انتهى.

﴿١٥﴾ ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَكَفَّرتُ بِهَا تَكْذِبُونَ﴾ ﴿أَلَمْ تَكُنْ﴾ أي قد كانت ﴿ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ والسؤال سؤال تقرير على قيام الحجة عليهم وعلى تكذيبهم بآيات الله.

﴿١٦﴾ ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ لم يحددوا جميع آيات الله تتلى عليهم ولا أنهم كانوا بها يكذبون واعترفوا أنها غلبت عليهم شقوتهم، ولعل المراد غلبت عليهم أسباب شقوتهم من هوى أنفسهم وحسدكم وكبرهم ونحو ذلك، فهي التي حملتهم على التكذيب بآيات الله فشقوا بسببها، ونظيره في الاعتذار قول قوم موسى: ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا﴾ [طه: ٨٧].

ويحتمل: أنهم أرادوا أن حظهم كان هو الشقاء أمراً طبيعياً كما يزعم الجاهلون كما يجعلون الغنى من حسن الحظ ولكن هذا لا يستقيم؛ لأنهم يعترفون كما في قولهم ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ فلا يستقيم إلا أن يكونوا أرادوا أن شقوتهم بعثتهم على التكذيب بآيات الله وغيرها من أسباب النار،

عُدْنَا فَإِنَّا ظَلِمُونَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَحْسَعُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿٢٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ ﴿٢١﴾

فيعود إلى الإقرار وكان كالمعنى الأول، وهو الموافق لما في (سورة الملك): ﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [آية: ٩] وقولهم: ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ أي غاوين عن طريق الحق.

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَلِمُونَ﴾ ﴿أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ من النار ﴿فَإِنَّا ظَلِمْنَا﴾ إلى التكذيب ﴿فَإِنَّا ظَلِمُونَ﴾ نستحق التعذيب.

﴿قَالَ أَحْسَعُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾ * إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴿أَحْسَعُوا﴾ زجر لهم عن طلب الخروج وإهانة لهم.

قال الشرفي في (المصاييح): «وهذه كلمة تستعملها العرب للكلاب خاصة، ثم يستعيرونها للناس» انتهى، وقال الراغب: «خسأت الكلب فخسأ، أي زجرته مستهيناً به فانزجر، وذلك إذا قلت له: اخسأ» انتهى.

﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ﴾ تعليل لهذا الزجر بأنهم كانوا يسخرون من أولياء الله ويضحكون بسبب أنهم ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ فالسخرية منهم من أجل هذا محاربة لدين الله ومحاولة للصد عن سبيل الله، وكذلك الضحك منهم.

قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١٢١﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِينَ ﴿١٢٢﴾ قُلْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾

فعظمت الجريمة من حيث هي ظلم لأولياء الله من أجله نسوا ذكر الله وخذلوا وعظمت من حيث هي استخفاف بدين الله، وعظمت من حيث هي محاربة لدين الله فاستحق أعداء الله أن يقول لهم: ﴿أَخْسَؤْا فِيهَا﴾ أي في النار ﴿وَلَا تُكَلِّمُون﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ﴾ أي المؤمنين ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ على الإيمان والتقوى، وتحملوا أذى الكفار في سبيل الثبات على دين الله ﴿جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ﴾ ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَازُونَ﴾ لأنهم هم الذين يزحزون عن النار ويدخلون الجنة دونكم، قال الراغب: «الفوز: الظفر بالخير مع حصول السلامة» انتهى.

﴿قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِينَ * قُلْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٢١﴾ قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴿١٢٢﴾ قال الله لأهل النار: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ في الحياة الأولى ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ فالسؤال عن عدد المدة من السنين ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ إما أنهم قد نسوا، وإما أرادوا تقليل المدة؛ لأن المدة الطويلة إذا مضت كانت كأنها قليل، ويحتمل: كم لبثتم في بطن الأرض بعد الموت.

والأول أظهر لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بمعنى: أنهم اغتروا بالحياة الدنيا وما كانت ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ لأنهم يرون الأموات منهم ويعلمون أنهم يموتون، فلو كانوا يعلمون ما اغتروا بها لكنهم يأبون أن يسمعوا أو يعقلوا، ففاتهم العلم الذي كان ينقذهم من الاغترار بالدنيا.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ التفات من خطاب أهل النار إلى خطاب من وعظهم الله تعالى بالموعظة الماضية، وهي تأكيد للإنذار وتبكيث على حسابان أنما خلقهم الله عبثاً لغير حكمة قال في (الصحيح): «العبث: اللعب» انتهى.

وقال الراغب: «العبث: أن يخلط بعمله لعباً - ثم قال - : ويقال لما ليس له غرض صحيح عبث» انتهى.

﴿وَأَنَّكُمْ﴾ وحسبتم أنكم ﴿إِلَيْنَا﴾ إلى ملك يوم الدين ﴿لَا تُرْجَعُونَ﴾ بالبعث والسوق إلى موقف الحساب حيث يسألهم رب العالمين الذي يرجعون إليه وحده لا شريك له.

﴿فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ ﴿فَتَعَلَىٰ﴾ تفريع على ما مر في السورة من الاحتجاج والرد على المشركين والمكذبين للرسول والمكذبين بيوم الدين (تعالى): ترفع وتنزه عن كل ضعف وعن كل نقص وعن كل عيب ﴿الْمَلِكُ﴾ الذي له الأمر والتصرف في عباده ﴿الْحَقُّ﴾ لأنه المالك لكل شيء، فولايته على كل شيء هي الحق، ولا شريك له في الملك؛ لأن كل من سواه مخلوق مربوب غير خالق.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ لا إله إلا هو كما دل عليه ما مر من الاحتجاج؛ لأن هذه الآية كالنتيجة لما مر، رب العرش الكريم مالك الملك الكريم، ووصف الملك بأنه كريم يفيد: أنه مُلك عدلٍ وتفضلٍ ورحمةٍ وإحسانٍ وإنعامٍ وكلٌ معاني الكرم.

إِلَهًا ءَاخِرَ لَا بُرْهَنَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الْكَافِرُونَ ﴿١٧٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٧٨﴾

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخِرَ لَا بُرْهَنَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ
رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿وَمَنْ يَدْعُ﴾ عطف على (آية التوحيد)
الذي ثبت بالحجج الماضية ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخِرَ لَا بُرْهَنَ لَهُ بِهِ﴾
يبين دليلاً آخر على بطلان الشرك وهو أنه ﴿لَا بُرْهَنَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا
حِسَابُهُ﴾ يوم القيامة ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾ المالك له الذي استحق عليه أن يعبد
ولا يشرك به، ولا حساب له عند معبوده الذي دعاه مع الله ولا يفيد شيئاً
بل يكفر بعبادته ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ لأنعم الله بعبادة غيره
وباستعمال نعمه في معصيته، فلا يظفر بما رجا في عبادة غير الله من النصر
أو الشفاعة أو أي نفع أو دفع بل يخيب رجاؤه وتحقق خسارته.

﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿وَقُلْ﴾ عطف أي
﴿ادْفَعْ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ﴿وَقُلْ رَبُّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ
بِكَ رَبُّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ عبادة
لربك وشكراً لنعمته عليك بما نزل لك من الهدى والنصر بالحجة على
الأعداء، وفي هذا الدعاء مشابهة لقول نوح عليه السلام: ﴿إِنْ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
[هود: ٤١] في أنه تذلل لله تعالى وابتعاد من العجب.

والحمد لله رب العالمين،،،

التَّيْسِيرُ فِي التَّفْسِيرِ



سُورَةُ النُّورِ



سُورَةُ النُّورِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾
الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرَكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا

مبتدأ تفسیر (سورة النور) وهي (مدنية)

﴿١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ هذه الآية تدل على أهمية استماع المخاطبين لهذه السورة واتباعها وتنفيذ أحكام الله تعالى فيها؛ لأن الله جل جلاله أنزلها وهو أحكم الحاكمين ومالك العالمين يحكم ما يريد ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ إما فرضنا أحكامها وأوجبناها، كقوله تعالى: ﴿وَنُرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ [مريم: ٨٠].

قال الشرفي في (المصابيح): «وأصل الفرض القطع، أي جعلناها واجبة مقطوعاً بها، أو فرضنا عليك تبليغها وعليك قبولها وتصديقها» انتهى.

وقال الشرفي في تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ [القصص: ٨٥]: «أي أوجب عليك تلاوته والعمل بما فيه وحملك تأديته وتبليغه» انتهى.

وإما فرضنا السورة أوجبنا تعلمها وتبليغها وحفظها، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ آيات هي آيات السورة كلها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ مفهومات بسهولة واضحة الدلالة ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ حين تفهمونها فلا تغفلوا عن التمسك بها.

﴿٢﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ عَذَابُهُمَا

طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿الزَّانِيَةُ﴾ المرأة الزانية التي جامعها أجنبي عنها ليس بينهما زواج ولا هو مالك لها ﴿وَالزَّانِي﴾ الرجل الذي واقعها ﴿فَأَجْلَدُوا﴾ هذا أمر موجه إلى المسلمين، فعليهم أن يعينوا من يقيم أمر الله في هذه الآية وفي سائر آيات الحدود ﴿كُلٌّ وَاحِدٌ مِّنْهُمَا﴾ من الزانية والزاني ﴿مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ فالزاني يجلد مائة جلدة، والزانية تجلد مائة جلدة.

﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ لا تأخذكم لا تغلبكم رافة بهما ﴿فِي دِينِ اللَّهِ﴾ لا تأخذكم في دين الله في طاعته وامتناله أمره، والرأفة رحمة ورقة فلا يجوز التقصير في طاعة الله لأجل الرحمة لهما بل على المسلمين إقامة الحد كاملاً كما أمر الله، والجلد: ضرب يؤلم الجلد ولا يكسر عظماً ولا يتجاوز الجلد إلى الجرح في اللحم خلف الجلد، وقد قدر بأن تكون العصي التي يجلد بها في غلظ الإبهام ويضرب الضارب ملصقاً عضده بضلعه.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ تأكيد للحكم وأن لا تأخذ المسلمين بهما رافة إن كانوا يؤمنون، والمعنى الحث على امتثال أمر الله في هذا الحد والدلالة على أن من تغلبهم الرافة بهما ليسوا مؤمنين؛ لأن الإيمان بالله يبعث على طاعته، والإيمان باليوم الآخر يبعث على الحذر من النار وطلب الجنة.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ﴾ دلالة على أنه لا يجوز أن يقام الحد في السر؛ وذلك ليجتمع على الحدود العذاب البدني والعذاب النفسي، وقوله: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ليعتبروا بعذابهما، ولعله أيضاً لأن افتضاحهما عند المؤمنين أشد عليهما من حضور الفساق والله أعلم وأحكم، وهذا الحكم عام للبكر والمحصن.

يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٢١﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ

﴿٢٠﴾ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾ وهذا أدب للزاني والزانية وتنزيه للمؤمنين من تزوج أهل هذه الرذيلة، فلا تحل الزانية لمؤمن ما لم تتب إلى الله، ولا يحل الزاني لمؤمنة ما لم يتب إلى الله.

﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَرْمُونَ ﴿٢٤﴾ يَقْدِفُونَ ﴿٢٥﴾ الْمُحْصَنَاتِ ﴿٢٦﴾ أي يقولون فيهن إنهن زنين، شبه هذا الكلام فيهن برميهن بحجر أو نحوها؛ لأنه موجه، والمحصنات المصونات المحفوظات والعفيفات اللاتي يحصن فروجهن بالعفة واجتناب مواقع التهم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ يشهدون عليهن بالزنا، وهذا يدل على أن المراد في قوله تعالى: ﴿يَرْمُونَ﴾ الرمي بالزنا؛ لأن الزنى هو الذي لا يحكم به إلا بشهادة أربعة أو إقرار أربع مرات.

وقد سبق في القرآن اشتراط الأربعة في قوله تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَأْتِيَنَّ الْفَلَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ..﴾ الآية [النساء: ١٥] وأيضاً هذه الآية معطوفة على حكم الزانين فالعطف قرينة تعين أن المراد بالرمي الرمي بالزنا.

وقوله تعالى: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ فحد القاذف ثمانين جلدة، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ زجر عن القذف كما أن الحد زجر، فلا تقبل شهادة القاذف ولو ظن صدقه؛ لأن الله تعالى سلب أهليته لقبول شهادته ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخبثة الفاجرون؛ لأن القذف ظلم من حيث أنه موجه للمقذوفة، ومن حيث أنه يجر عليها محاولة الزناة لأن يزنوا بها، ولذلك فالقذف مفسدة عظيمة، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ فقد خرجوا من الفسق بالتوبة.

قال الشريفي في (المصاييح): «ومذهب أهل البيت (عليهم السلام) أن رد شهادة القاذف معلق بنفس القذف، والتأييد ينصرف إلى كونه قاذفاً، فإذا تاب عن القذف قبلت شهادته» انتهى.

وقد يقال: في هذا نظر؛ لأن في (مجموع الإمام زيد بن علي) عن أبيه عن جده عن علي (عليه السلام) قال: «لا تجوز شهادة متهم، ولا ظنين، ولا محدود في قذف، ولا مجرب في كذب...» إلخ، والمحدود في القذف لا تخرجه التوبة عن كونه محدوداً في قذف؛ لأن المراد بالمحدود الذي قد حد في قذف.

ويؤكد هذا أن الآية فيها تأييد بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ ولو كان مثل غيره من الفساق ما كان للتأييد فائدة، ولا كان في ذكره في الآية مزيد زجر؛ لأن القاذف يرجو التوبة فتعود له مكانته في قبول الشهادة، فأما الاستثناء بقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ فليس راجعاً إلى النهي عن قبول شهادته، بدليل أن الله تعالى فسر الاستثناء بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ والرحمة والمغفرة تخرجه من اسم الفسق وعذابه، ولا يلزم أن تعود له المكانة في المجتمع كما كان قبل القذف.

وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدُوا أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَمْسَةُ أَنْ لَعْنَتْ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ

ألا ترى أن القاتل عمداً لا يرث ولو تاب، أو لا ترى أن آدم عليه السلام تاب وقبل الله توبته ولم يلزم من ذلك أن لا يخرج من الجنة مع أن الله تعالى قد غفر له ورحمه، وأيضاً يمكن أن يظهر التوبة وهو غير تائب، فلو شرع الله قبول شهادته لأدى إلى قبول شهادة من لم يتب؛ لأن الأحكام تتبع الظاهر، وهو ضرر عظيم لإمكان أن يشهد بالزنى كما قذف أولاً - والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ من الإصلاح أن يبرئ المذنوبة ويعلن ببرئتها عند كل من بلغه القذف.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدُوا أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ أي والرجال الذين يرمون أزواجهم أي الزوجات بالزنا فيقول إن زوجته زنت ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ﴾ ﴿شُهَدَاءُ﴾ أي الأربعة الشهداء على الزنا ﴿إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ أي يشهد الزوج لنفسه.

﴿فَشَهَدُوا أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ﴾ أي يقول: أشهد بالله إنني لمن الصادقين ﴿وَالْخَمْسَةُ﴾ أي والشهادة الخامسة لفظها: ﴿أَنْ لَعْنَتْ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ أي هذه الشهادة تجزي عن أربعة شهداء، إلا أن من شرط قبولها في حد المرأة أن تنكل عن الإيمان على أنها بريئة، وأما سقوط حد القذف عن الزوج فقد سقط بإيمانه.

الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَمِيسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا

قال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): «فإن نكل الزوج [أي عن الشهادات الخمس أو الأربع] ضرب ثمانين وخلفي، وذاك حد القاذف، وإن نكلت هي [أي زوجته نكلت عن الأيمان أنه كاذب] رجعت» انتهى المراد. ﴿٨﴾ وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَمِيسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَيَذَرُوا يدفع ﴿عَنْهَا﴾ عن المرأة المقدوفة ﴿الْعَذَابَ﴾ الحد المحكوم به على الزانية ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ﴾ فنقول هي: أشهد بالله ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في رميه لي بالزنا ﴿وَالْخَمِيسَةَ﴾ الشهادة الخامسة ﴿أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ إن كان زوجها من الصادقين في قذفه لها بالزنا، أي دعت على نفسها بغضب الله إن كان زوجها صادقاً في رميه لها بالزنا.

﴿١٠﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ فضل الله ورحمته بما أنزل لكم من الحكمة والهدى، وحذف جواب ﴿لَوْلَا﴾ لفهمه من السياق فقد شرع الله حد الزانين لتطهير المجتمع من هذه الرذيلة، وشرع حد القاذف بلا بينة له على ما رمى به المقدوفة.

وكان أمر الزوجين مهماً، إن شرط على الزوج أربعة شهداء فكيف يستطيع أن يصبر عند عدم الشهداء لا يقتل ولا يقذف، وإن حكم بتصديق دعواه عليها بدون شهداء فقد يكون كاذباً، فكان اللعان حلاً للمشكلة؛ لأن الزوج يشتفي به حيث قد دعت على نفسها بغضب الله وعرضت نفسها لعذاب الآخرة على كذبها إن كانت كاذبة أو يشتفي بالحد إن نكلت عن الأيمان، وهي تشتفي إن كان كاذباً عليها بأنه قد دعى على نفسه بلعنة الله وهو كاذب، وهي مباهلة عظيمة يتوقع فيها على الكاذب عذاب شديد.

بِالْإِفْكَ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ أي ولولا أن الله تواب حكيم فكان من حكمته تعريض العصاة للتوبة فأمهلهم ولم يعاجلهم بعذاب من عنده وأحالمهم على العقوبة المشروطة بالبينّة أو بالإقرار، وجعل القاذف كاذباً إذا لم تكن له بينة، كل ذلك تعريض على التوبة بالإمهال فضلاً ورحمة؛ ولأنه سبحانه ﴿تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ ومن حكمته هذا التشريع الخاص بالزوجين المناسب لما بينهما من الحق الخاص.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكَ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكَ﴾ الإفك قال فيه في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: الكذب والبهتان» انتهى.

﴿عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ جماعة منكم أو خاص بالجماعة المتعاضدة، قال الراغب: «والعصبة: جماعة متعصبة متعاضدة» انتهى، وفي (الصحيح): «والعصبة من الرجال ما بين العشرة إلى الأربعين» انتهى.

﴿لَا تَحْسَبُوهُ﴾ أيها المؤمنون البريئون ﴿شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لعواقبه الحميدة التي جاءت بسببه من تعظيم الإفك والتشنيع على أهله وتبرئة من نسب إليه، والزجر عن العودة إلى الإفك وغير ذلك ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ﴾ أي من الذين جاءوا بالإفك ﴿مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ بقدر ما اكتسب يلحقه الإثم.

﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ معظمه من حيث ابتدأه وأكده وأغرى به الآخرين ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ولم يسم القرآن من قيل فيه، ولا كلفنا معرفته

لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي

فلا حاجة إلى اعتماد رواية الزهري وأتباعه في قولهم: إنها (عائشة) وإن كانت هذه الرواية قد اشتهرت، ولم يشتهر أنها (مارية القبطية) فإن سبب الشهرة ليست كثرة الأسانيد إلى من يوثق به إنما سببها نشر الرواية في الكتب الكثيرة، وقد يحتمل أن لبني أمية غرضاً في جعلها عائشة - والله أعلم - بالحقيقة فلنقف ولا نتكلف ما لا نعلم.

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ قال (صاحب مغني اللبيب) في ﴿لَوْلَا﴾: «الثالث أن تكون للتوبيخ والتنديد فتختص بالماضي» انتهى المراد.

﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ حين سمعتم الإفك ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ فكان على المؤمنين حين سمعوا الإفك أن لا يظنوا صدقه ولا يشكوا بل يرجحوا كذبه لظنهم الخير فيمن قيل فيه الإفك لإيمانه؛ لأن على المؤمنين أن يظن بعضهم في بعض خيراً فضلاً عن أن يظن سوءاً.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ عطف على ﴿ظَنَّ﴾ أي لولا قالوا إذ سمعتموه ﴿هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ فجزمتم بكذب قائله وحكمتم أنه إفك مبين استناداً إلى ما تعرفونه من إيمان المقول فيه الإفك، فكان هذا هو واجبكم إذ سمعتموه، وقوله: ﴿مُبِينٌ﴾ أي بين أنه إفك.

﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾ يترجح أن هذه الآية من حكاية مقول: ﴿قَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٢﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ

أي حكموا بأنه إفك، واحتجوا لذلك بأن (أهل الإفك) لم يأتوا بالشهداء، وبدءوا بقولهم: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ يريدون: أنه لو كان صدقاً لجاءوا عليه بأربعة شهداء يشهدون أنهم رأوا ما زعموه، فإن كان صدقاً فهلاً جاءوا عليه بأربعة شهداء ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ﴾ إنما تناقلوا الكلام بينهم بدون بينة ﴿فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي في حكمه ﴿هُمْ الْكَذِبُونَ﴾ تزيتها للمؤمنين من التهمة فضلاً عن تصديق قول الزور.

﴿وَلَوْلَا فَضَّلُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ بالإمهال والتعريض على التوبة والرحمة في الآخرة لمن تاب والفضل له ﴿لِمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ أفضتم: خضتم بغير قيد ولا تحرز من الإثم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ عذاب عظيم عاجل صيانة للمجتمع الإسلامي من ذلك الخوض.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿فِي مَا أَفَضْتُمْ﴾ معناه: خضتم فيه» انتهى، وقال (صاحب الصحاح): «وأفاضوا في الحديث، أي اندفعوا فيه» انتهى.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ ﴿إِذْ﴾ إما متعلق بقوله تعالى: ﴿لِمَسَّكُمْ﴾ أي لمسكم عذاب عظيم حين تلقون الإفك بالستكم، وإما متعلق بقوله تعالى: ﴿أَفَضْتُمْ﴾ فيه تفصيل لمعنى الإفاضة.

بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾

وقوله تعالى ﴿تَلَقَّوْنَهُ﴾ أي الإفك ﴿بِالْأَسْنَتِكُمْ﴾ أصل تلقي الكلام أن يكون بالسمع والقلب، ولكن المخاطبين يتلقونه ليحدثوا به فكانه لم يصل إلى أسماعهم إنما انتقل من لسان تكلم به إلى لسان حكاه من غير نظر في صحته أو أنه غير صحيح.

وقوله تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ بأفواهكم وحدها ليس للقلب به علم، وقوله تعالى: ﴿مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ أي الإفك ما ليس لكم به علم، أي القول الذي ليس لكم به أي بمعناه علم ﴿وَتَحْسِبُونَهُ﴾ ذلك القول ﴿هَيِّنًا﴾ سهلاً لا بأس به ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ لما فيه من المفساد:

فمنها: أن تقبله وحكايته يعطي المنافق وسيلة لسوء القول في المسلمين وبالتالي لسوء القول في الإسلام بناء على صدق الخبر، فمتى شاء المنافق قذف امرأة فشاع كلامه بين المسلمين، وإذا تكرر ذلك وظن الناس أن الإفك صدق عابوا على المسلمين وظنوا أن لو كان الإسلام حقاً ما كان أهله بهذه الحالة.

ومنها: ظلم المقدوفة والإغراء بها.

ومنها: تهوين الزنا في نفوس ضعفاء الإسلام إذا اعتقدوا انتشاره بين المسلمين فيجربهم ذلك على الزنا، فكان تطهير المجتمع عن القذف وسيلة لتطهيره عن الزنا أو تقليله كما أن حد الزاني وسيلة لذلك.

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ مر الكلام في لولا أنها تنديم وتوبيخ

﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ هَلَّا قُلْتُمْ حِينَ سَمِعْتُمُ الْإِفْكَ: ﴿مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ لَأَنْ قُبِحه معروف من قبل نزول هذا الزجر من حيث أنه ظلم للمقول فيه من حيث أنه تسرع إلى هتك عرض مؤمن.

فقد كان اللائق بالسامعين أن يقولوا لمن كلمهم به، ما يكون لنا أن نتكلم بهذا بدلاً من أن تسارعوا إلى نقله ﴿مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ نفي بالغ؛ لأن معناه أنه لا يليق بحالنا كأنه لا يتصور وقوعه منا، وهو أبلغ مما لو قالوا: لن نتكلم بهذا، وللفرق بينهما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ فجمع بين نفي الوقوع وما هو قريب من نفي الإمكان.

﴿سُبْحَانَكَ﴾ قال (صاحب الصحاح): «والعرب تقول: سبحان من كذا إذا تعجبت منه، قال الأعشى:

أقول لما جاءني فخره سُبْحَانَ مِنْ عِلْمَةِ الْفَاجِرِ

يقول العجب منه إذ يفخر» انتهى.

وحكى الشرفي في [المصابيح] عن بعضهم أن سبحانك تحتل التعجب والتنزيه، قلت: فيحتمل التعجب من حلم الله تعالى حين لم يعاجل أهل الإفك، ويحتمل: التعجب من جرأتهم على هذا البهتان العظيم.

قال الراغب: «يُهْت أي دَهِشَ وَتَحَيَّرَ، ثم قال: ﴿هَذَا يُهْتُنْ عَظِيمٌ﴾ أي كذب يُهْت سامعه لفضاعته» انتهى، وقوله: ﴿عَظِيمٌ﴾ يدل على زيادة قبحه على قبح بعض البهتان.

﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿يَعْظُمُ﴾

يَحْذَرُكُمْ وَيَزَجْرُكُمْ، قال الراغب: «الوعظ زجر مقترن بتخويف» انتهى.

إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٨﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ

﴿أَنْ تَعُودُوا﴾ أي يعظكم من أن تعودوا أو لئلا تعودوا ﴿لِمِثْلِهِ﴾ لمثل هذا الإفك الذي قد وقع ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي أنكم إن عدتم لمثله فلستم بمؤمنين.

﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ فهي حجة عليكم ونعمة.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عليم بكل شيء ومنه الحكمة في التكاليف، ومنه علمه تعالى بمن يمثّل ومن يخالف، حكيم فقوله حق وصواب ليس فيه شيء خارج عن الحكمة، وكذلك حكيم في إمهال بعض العصاة ثم تعذيبهم وغير ذلك، فكل قوله وحكمه وفعله مطابق للحكمة، ومن ذلك زجره وتحذيره من الإفك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾ مثل الزنا يحبون أن يشيع ويتعدد وقوعه ويكثر فاعلوه ممن هم في الأصل من الذين آمنوا، وهذا الحب سببه عداوة أهله للإيمان ورغبتهم في أن تسوء سمعة المؤمنين ليزهد الناس في الدخول في الإسلام، فهؤلاء هم الكفار والمنافقون ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا﴾ بمثل حد القذف إن قذفوا وغيره مما ينال المنافقين ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ عذاب النار ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يترجع: أن (الواو) في ﴿وَأَنْتُمْ﴾ للحال أي أن الله يعلم الشيء في حال أنكم لا تعلمونه، فهو يعلم من الذين يحبون أن تشيع الفاحشة؛ لأنه ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾.

عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦﴾ * يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا

﴿٦﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴿لَوْلَا﴾

جوابها محذوف يدل عليه السياق فالله سبحانه يعلم أسرار العباد كلها ومعاصيهم الكثيرة ومنها الزنا والقذف وعبة أن تشيع الفاحشة، فلولا فضل الله على المؤمنين بفتح باب التوبة والإمهال والدعوة إليها ورحمته بذلك وبالتعليم والمواظ.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ معطوف على ﴿فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ لولا ذلك ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ بالعباد، والرافة رحمة عظيمة، والله تعالى منزّه عن الرقة ولكن يفعل لعباده فعل الرؤوف الرحيم بالدعوة إلى ما ينجيهم من عذابه والتحذير من أسباب عقابه، قال تعالى: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رُءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠] وكذلك بنعم من الحلال تغني عن الحرام وغير ذلك.

﴿٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٨﴾ الخطوة: اسم مصدر خطأ يخطو ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ المعاصي التي يتبعها فيها العصاة واحدة بعد واحدة، كأن الشيطان يمشي في طريقه خطوة فيتبعه العاصي فيزيد خطوة وهكذا حتى يصير بعيداً من الحق.

الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ

وعلى هذا: تفيد الآية وجوب المسارعة إلى التوبة عند كل زلة، وأن لا يؤخر التوبة حتى تقع زلة ثانية، بل وأن يحذر الذين آمنوا من الوقوع في الزلة الأولى لأنها أول خطوة من خطوات الشيطان ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ﴾ أي الشيطان ﴿يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ فاتباعه يؤدي إلى الفحشاء والمنكر وهما من المعاصي إلا أن الفحشاء يفهم منها مثل: الزنا واللواط، والمنكر مثل: عقوق الوالدين، وظلم اليتيم... ونحوه مما تنكره قلوب الناس.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بإرسال الرسول وإنزال القرآن وغير ذلك من أسباب الهدى وبالألطف ﴿مَا زَكَّيْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ لأن الإنسان يجتمع عليه الجهل وحب العاجلة وهوى النفس والشيطان فيكون أقرب إلى الخبث ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ بالهداية إلى التعلم وإلى استعمال العقل وغير ذلك وعلى هذا فينبغي الاعتصام بالله بالعزم على طاعته وتقواه والجد في طاعته ومدافعة هوى النفس والإخلاص لله والدعاء بطلب التوفيق والتسديد والثبات على الطاعة وحسن الخاتمة.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع من يتبع خطوات الشيطان ويعلم ما يصنع وما يخفي وما يعلن، وكذلك يسمع من يذكر الله ويدعوه ويقول الحق ويحتمل القول الباطل ويعلم توبته وصلاح نيته.

﴿وَلَا يَأْتِلْ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿يَأْتِلْ﴾ يستعمل بمعنى يقصر كقول امرئ القيس:

ألا رب خصم فيك ألوى رددته نصيح على تعذاله غير مؤتلي

أي غير مقصر في النصيح والعدل، ويستعمل بمعنى: يحلف، والسياق يترجح فيه الأول؛ لأن الأغنياء مظنة التقصير في إيتاء أولى القربى واليتامى والمساكين وليسوا مظنة أن يحلف الواحد منهم أن لا يؤتي المذكورين كلهم لبعد أن يغضب عليهم كلهم إذا كان سليماً من النفاق، فالحث على ترك التقصير في الإنفاق هو المتوقع.

فإن قيل: ما المانع أن الخطاب للأغنياء المنافقين وهم مظنة أن يحلف الواحد منهم لبغضهم للمؤمنين كلهم؟ قلنا: إن قوله تعالى: ﴿أَلَا تَحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وكذا قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ دليل على أن الخطاب للذين آمنوا كما هو في أول الآية.

﴿أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ الواجدون لما يفضل عن حاجتهم وحاجة من ينفقون عليه ﴿وَالسَّعَةِ﴾ أي الواجدون للرزق الواسع الذين لم تضيق عليهم الحال ﴿أَنْ يُؤْتُوا﴾ أي يعطوا، وفي كلام الراغب: أن الإيتاء أخص من الإعطاء؛ لأنه قال: «الإيتان: مجيء بسهولة» انتهى.

﴿أُولَى الْقُرْبَى﴾ أعم من الأقربين قالوا: هم من ولده جداً أبويه ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ كانوا محتاجين وكان إعطاؤهم من الإنفاق في سبيل الله؛ لأنه معاونته لهم على الثبات على الهجرة في سبيل الله، كما أن منعهم مما دعا إليه المنافقون لينفضوا من عند رسول الله ﷺ وهو يعم المهاجرين في سبيل الله في أي عصر كانوا.

﴿وَلْيَعْفُوا﴾ عمن آذاهم ﴿وَلْيَصْفَحُوا﴾ يستعملوا الحلم ويعرضوا عما وقع ممن آذاهم كأنه لم يقع، قال في (الصحيح): «وصفحت عن فلان، إذا أعرضت عن ذنبه» انتهى.

لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٢﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿١٤﴾ أَخْبِثْتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ أَولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿١٥﴾

﴿أَلَا تَحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال الشري في (المصباح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه: أليس تحبون أن يغفر الله لكم، فإذا كنتم تحبون ذلك فتقربوا إليه بالعفو عن أساء إليكم» انتهى المراد.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فتعرضوا لمغفرته ورحمته.

﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ * أَخْبِثْتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ أَولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ المحفوظات من الزنا بصيانتهم وعفتهم ﴿الْغَافِلَاتِ﴾ عن وسائل خداع الرجال وحيل ميلهم إلى الزنا ﴿لُعِنُوا﴾ طردوا من رحمة الله ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ ومن لعنهم في الدنيا جلدتهم ثمانين، ولعل منه سلب التوفيق للتوبة؛ لأن هذا فيمن يعتاد القذف لا فيمن فرطت منه مرة قبل نزول القرآن بالزجر العظيم عن القذف، لأن قوله تعالى: ﴿يَرْمُونَ﴾ ظاهره فيمن يكرر ذلك ﴿وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

يُؤْتَا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ الراجح: أن الجملة متعلقة بقوله: ﴿وَهُمْ عَذَابٌ﴾ أي يعذبون يوم تشهد عليهم ﴿أَلَسْتَهُمْ﴾ بالقذف، وهذا خاص بهم والله أعلم ﴿وَأَيْدِيهِمْ﴾ تشهد عليهم ﴿وَأَرْجُلُهُمْ﴾ تشهد عليهم، الثلاثة الشهود ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من القذف وسائر معاصيهم.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم تشهد عليهم الثلاثة أي يوم القيامة ﴿يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمْ﴾ أي جزاءهم ﴿الْحَقُّ﴾ الذي يستحقونه بجرائمهم ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ يومئذ ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ لذلك يلجأون إليه حين تقطعت بهم الأسباب، فيقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا﴾ [السجدة: ١٢] ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقَوتُنَا﴾ [المؤمنون: ١٠٦] ﴿الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ الحق البين؛ لأنه حاسبهم وحكم عليهم ووجدوا ما وعدهم حقاً، فعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾.

﴿الْخَيْثُوتُ﴾ من الكلمات ﴿لِلْخَيْثِيِّينَ﴾ فهم المستحقون لها ﴿وَالْخَيْثُوتُ﴾ أهل ﴿لِلْخَيْثِيتِ﴾ ﴿وَالطَّيِّبَتِ﴾ الكلمات الطيبات ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ فهم المستحقون لها ﴿وَالطَّيِّبُونَ﴾ أهل ﴿لِلطَّيِّبَتِ﴾ ألا ترى أن الفاجر يستحق أن يقال له: فاجر، وخبيث، وفاسق، وأشباه ذلك من الذم الصادق، والمؤمن يصلح أن يقال له: طيب، زكي، تقي، صالح.. ونحو ذلك.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الطيبون ﴿مُبرَّءُونَ﴾ مما يقول القاذفون الخيثيون ﴿لَهُمْ﴾ أي للطيبين ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي ينجون من النار بمغفرة ذنوبهم ويدخلون الجنة يرزقون فيها رزقاً كريماً، رزقاً مصحوباً بالتكريمة لهم فيه وبه كما يكرم الأضياف.

لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ

﴿٢٧﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٨﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴿٢٧﴾ ابتداء موضوع يناسب الموضوع الماضي؛ لأنه يعين على العفة وعلى السلامة من التهمة ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا﴾ تطلبوا الأئس فتأمنوا من أن يكون صاحب البيت غير آذن، وتأمنوا من التهمة في الدخول، وتأمنوا من الوقوع في الفاحشة، وتأمنوا من الخلوة بالأجنبية.

﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ أي تقولوا لأهلها: «السلام عليكم» ليأنسوا بدخولكم عليهم؛ لأن السلام إعلان أمان، ولئلا تبغثوهم بالدخول فجأة ﴿ذَلِكُمْ﴾ الأدب ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي أن لا تدخلوا حتى تستأذنوا وتسلموا على أهلها أي على أهل البيوت خير لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتبهنون لفائدة هذا الأدب إذا عملتم به فالعمل به يبين لكم فوائده - والله أعلم.

﴿٢٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا ﴿٢٨﴾ لم يأذنوا لكم في الدخول بل قالوا لكم: ارجعوا ﴿فَارْجِعُوا﴾ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴿٢٩﴾ أطيب لكم فلا تأنفوا من الرجوع حين يقال لكم ارجعوا ولا تراجعوا في ذلك ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فإن رجعتم علم وإن عصيتم هذا الأمر علم؛ لأنه بكل ما تعملون عليم.

فِيهَا مَتَّعَ لَكُمْ^١ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿١٤﴾ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ^٢ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ^٣ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿١٥﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ

﴿١٤﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَّعَ لَكُمْ^١ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿١٥﴾ ﴿جُنَاحٌ﴾ قَالَ فِي (الصَّحَاحِ): «وَالْجُنَاحُ: الْإِثْمُ» انْتَهَى ﴿أَنْ تَدْخُلُوا﴾ أَيِ فِي أَنْ تَدْخُلُوا؛ أَوْ لِأَنْ تَدْخُلُوا أَوْ لِحُذَلِكَ ﴿فِيهَا مَتَّعَ لَكُمْ﴾ ظَاهِرُهُ أَنْ يَكُونَ الْمَتَاعُ فِيهَا قَبْلَ الدَّخُولِ، وَذَلِكَ مِثْلُ أَنْ يَكُونَ فِي الْبَيْتِ بَضَاعَةٌ أَوْ عِلْفٌ أَوْ يَكُونَ الْبَيْتُ مَخْزَنًا لِلدَّخْلِ، هَذَا الظَّاهِرُ.

قَالَ الشَّرْفِيُّ فِي (المصَابِيحِ): «وَمَعْنَى ﴿فِيهَا مَتَّعَ لَكُمْ﴾ أَيِ مَنْفَعَةٍ كَالِاسْتِكْنَانِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَإِيَّاءِ الرِّجَالِ وَالسَّلْعِ وَالْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ، وَفِي [الْبَرْهَانِ] مَتَاعٌ لَكُمْ يَعْنِي عُرُوضُ الْأَمْوَالِ الَّتِي هِيَ مَتَاعُ التِّجَارَةِ» انْتَهَى. وَالْأَوَّلَى أَنْ الْآيَةَ تَصَدِّقُ عَلَى كُلِّ مَتَاعٍ حَتَّى الظِّلِّ، فَأَمَّا الْمَتَاعُ الْحَاصِلُ بِالْدَّخُولِ كَرَاخَةِ الْمَسَافِرِ فَيَدْخُلُ بِالْقِيَاسِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مَجَازٌ، فَأَمَّا الْمَسَاجِدَ فَقَدْ دَلَّ عَلَى دَخُولِهَا لِلصَّلَاةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي بُيُوتٍ إِذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ﴾ الْآيَةُ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ [النُّبُة: ١٠٨] وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَأَمَّا الْقَبَابُ الَّتِي فِيهَا الصَّالِحُونَ فَالزِّيَارَةُ فِيهَا بِمَنْزِلَةِ الْإِسْتِظْلَالِ؛ لِأَنَّ الزِّيَارَةَ مَنْفَعَةٌ لِلزَّائِرِ.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ الْمَقَاصِدُ الصَّالِحَةُ فِي الدَّخُولِ وَالْمَقَاصِدُ الْفَاسِدَةُ وَهُوَ يَجْزِي كَلَامًا بِمَا عَمِلَ.

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ^٢ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ^٣ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَبْلَغُهُمْ هَذَا الْأَمْرَ

وَحَفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ
خُمُرَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ
ءَابَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ
إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَى إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَى أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ
يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ
زِينَتِهِنَّ ۖ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٥﴾

﴿يَغْضُوا﴾ الراجع: أنه جزم؛ لأنه في معنى الأمر، كأنه قيل: قل لهم غضوا،
أو قيل ليغضوا، وعلى قول بعض النحاة: إن تقل يغضوا وهو مستقيم هنا
لأن المؤمنين يطيعون الله ورسوله ﴿يَغْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ﴾ ﴿مِنْ﴾ للتبعض
والمعنى مفهوم من السياق.

وفي الحديث: «يا علي إن لك كنزاً في الجنة وإنك ذو قرنيها فلا تتبع
النظرة النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الأخرى» أخرجه الطحاوي في
(شرح معاني الآثار) [ج ٣/ ص ١٥] وأخرجه ابن أبي شيبة في (المصنف)
[ج ١٢/ ص ٦٤] وأحمد بن حنبل في (المسند) [ج ١/ ص ١٥٩] وأفاد في حاشية
(المصنف) أنه أخرجه الحاكم [ج ٣/ ص ١٢٣] والمفهوم من الآية غض البصر عن
النظر لشهوة وعن النظر الذي هو مظنة إثارة الشهوة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ تحذير من الإشارة بالعين ومن
النظر كليهما لغرض فاسد.

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَحَفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا
يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ

زَيْنَتُهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ
أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ
مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ
الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضُرُّنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ
مِنْ زَيْنَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾

﴿يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ﴾ قال الشري في (المصاييح): «وفي معنى هذه الآية
من أولها يقول الهادي عليه السلام ما لفظه: «الغض من البصر: هو أن لا ترفع
بصرها إلى من لا يجوز لها النظر إليه، وحفظ الفرج فهو حفظها عما حرم الله
عليها، وما ظهر من الزينة فهو ما لا بد منه من الكحل والخاتم، فهذا ما لا
يقدر [ن] أن يستره، والضرب بالخمرة على الجيوب فهو إرخاء الخمر على
الوجوه حتى تبلغ الصدور وتستر الوجوه كلها، والخمر: فهي المقانع.

وأما قوله: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ فيقول: أهل ملتهن من النساء المسلمات لا من
الذميات والمشركات، وهذه الآية تحرّم على المسلمة إظهار زينتها والتبذل
للذمية ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ فهن الذميات المملوكات فيقول لا جناح
عليها أن تبديها للذمية إذا كانت مملوكتها دون الحرية منهن ﴿أَوِ التَّابِعِينَ
غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ﴾ فقد قيل: إنهن العنانة الذين لا يأتون النساء ولا يقدر
عليهن ولا يرغبون فيهن ولا بهن أرب [لهم] في مجامعتهن، والطفل فهو
الصغير من الغلمان أبناء الخمس والست والسبع.

﴿الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ فهم الذين لا يعلمون [ن] ما
يكون بين الرجال والنساء ولم يفهموا ذلك ولم يقفوا عليه بعد، والضرب
بالأرجل الذي نهين عنه كان المتبرجات في الجاهلية يفعلنه حتى يتحشش
[كذا] الحلي ويصلصل الخلخال في أرجلهن فيسمع الرجال فيعلمون لا [كذا]
أن في أرجلهن حلياً، فأمر الله سبحانه أن لا يفعلن من ذلك شيئاً انتهى.

قوله: (والخُمر: فهي المقانع) أي ما تلبسه المرأة على رأسها تغطي به، والخمار: ثوب يصلح لإرساله من على الرأس إلى فوق الجيب بحيث يكون بعضه على الرأس وبعضه على الجيب [الجيب: هو ما يسمى في لهجتنا: الفقرة - تمت].

وقوله تعالى: ﴿أَوِ التَّابِعِينَ﴾ الراجح: أنهم الضعفاء في البدن والفكر فهم محتاجون إلى من يقوم بأمرهم؛ ولذلك فهم تابعون لمن يقوم بحاجاتهم يوجههم كيف شاء فيتبعون توجيهه فيما فهموا أو أطاقوا، وهم ثلاثة أصناف: صنف معاتيه ما بين المجانين والعقلاء وهم مع ذلك ضعفاء من أصل خلقهم، وصنف مجانين ضعفاء كذلك، وصنف شيوخ في أرذل العمر.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ لضعف أبدانهم وأفكارهم وعدم الشهوة للنساء فيهم كلهم؛ ولذلك فهم كالأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء لم يعرفوا عورات النساء ولم يطلعوا عليها، والراجح في معنى عورات النساء هنا أنها مثل عورات البيوت وعورة الفارس أي جهات ضعفهن التي يدخل من طريقها عليهن من آرائهن، ويعبر عنها بنقاط الضعف، فهؤلاء غافلون عن ذلك معرضون عنه كما لا يخفى من إعراض الطفل الصغير.

وفي تفسير الإمام الهادي عليه السلام جعلهم أبناء سبع سنين فما دون وهو أحوط، وقوله: يتحشش لعله غلط، ولعل الأصل: يتحسحس بدون (تاء) بعد السين وبـ (سين) مهملة مكررة من الحسيس الصوت - والله أعلم.

وهذا الحجاب صيانة للنساء والرجال، وإبعاد لهم عن الفاحشة، كما أن تركه يسبب كثرة اغتصاب النساء، وهو أمر شنيع يجعل الناس كالحمير.

وَأَنْكِحُوا الْأَيِّمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَلَيْسَتَعَفِيفِ الَّذِينَ لَا

﴿١١﴾ وَأَنْكِحُوا الْأَيِّمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَنْكِحُوا﴾ لعله يصدق على الزواج والملك الذي يحصل به النكاح، و﴿الْأَيِّمَى﴾: غير المزوجات من النساء وغير المزوجين من الرجال.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيِّمَى﴾ وهن النساء اللاتي لا أزواج لهن، والأيامى من الرجال أيضاً» انتهى، يعني: الرجال الذين لا نساء لهم. وفي الصحاح: «الأيامى: الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء» انتهى.

وظاهره الوجوب على أولياء النساء الأيامى أن يزواجهن، وعلى من خطب إليه الكفو المرضي خلقه ودينه أن يزوجه إذا كان أيماً، وكذلك الوجوب على الإمام أن يزوج الأيِّم المعسر من بيت المال، فالأمر للجميع يتوجه إلى الإمام مثل آيات الحدود، وإنما خصصت للولي حيث يخطب عنده المستطيع؛ لأنه لا يتكلف كلفة تحوج إلى السلطة، والأمر الموجه إلى الكل يتوجه إلى من يختص به، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ٢٢١] ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ٢٢١] ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١] وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ الراجح: أن المراد به: الصالحين للإنكاح وهو الصلاح المتعلق بالنكاح ببلوغهما سن النكاح وسلامتهما من الموانع عن النكاح من المرض والعيوب التي يفسخ بها النكاح، وكون كل منهما مأموناً على الآخر إن لم يرغب فيه وفي حال الغضب ونحو ذلك من وجوه الصلاح للنكاح للعبيد والإماء من القيام بالحقوق الزوجية ونحوها.

يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ^٤ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا
مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ
الَّذِي ءَاتَاكُمْ وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتَغُوا
عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ
﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا لِمَنِ الْإِيمَانُ مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ﴾ أي إن يكن الخاطب فقيراً فلا
يتركوا إنكاحه لفقره، وقد روي عن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام، أنه قال:
«من ترك التزويج مخافة الفاقة أساء بربه الظن، إن الله - عز وجل - يقول: ﴿إِنْ
يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾» رواه محمد بن منصور المرادي في (أماله)
أحمد بن عيسى عليه السلام (بإسناده)، وكم من غني ينقلب فقيراً وكم من فقير
يستغني، فحبس البنت عن الفقير انتظاراً للغني غلط، ومخالفة للآية الكريمة.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ واسع الرحمة واسع النعمة، علیم
بأحوال عباده وبالطبع منهم والعاصي وبكل شيء، وتزويج الأيامي من
أسباب الصيانة عن الزنا.

﴿وَلَيْسَتَغْفِفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ^٤﴾
وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا
وَءَاتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ
تَحَصُّنًا لِيَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ
غَفُورٌ رَحِيمٌ.

﴿وَلَيْسَتَغْفِفَ﴾ (اللام) للأمر، والعفة: الكف عما يعاب، وفي قصيدة
عنتره إحدى (المعلقات السبع):

يخبرك من شهد الواقعة أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم

وروي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام بعد قتله لعمر بن ود:

وعففت عن أثوابه ولو أنني كنت المقطر بزني أثوابي

وأما في الآية الكريمة فالمراد - والله أعلم - العفة عن الزنا ونحوه، قال الشرفي في (المصابيح): «والسين للطلب، كان المستعفف [في نسخة المصابيح: كان المستضعف وهو غلط وما أثبتته يرشد إليه السياق] طالب من نفسه العفاف وحاملها عليه» انتهى.

فيطلب العفاف من نفسه بالتخويف لها من عذاب الله واجتناب جلساء السوء وشغل الأوقات بعمل أو مطالعة أو كتابة واجتناب ما يثير الشهوة من مأكول أو نظر أو رائحة أو سماع أو تفكير ويعمل لتقريب الزواج بالدعاء وتلاوة يس في كل ليلة وتحصيل المال ولو قرضاً ويحافظ على رجاء الزواج قريباً ويحذر القنوط ويصمم على الصبر؛ لأن العزم الصادق يعين على العفاف وإذا خطب مراراً ولم يرضوا فليخطب في امرأة من أهل بلده وعند من يرغب فيه لعقيدة أو مذهب أو غير ذلك كحسن الخلق.

فإن كان السبب فقره خطب عند أهل الدين، وإن كان السبب عيباً في بعض أخلاقه أصلح نفسه، وإن كان السبب حبسه لقريبته عن الزواج زوجها ولا يسكها لتصنع له الطعام، أو كان السبب حبسها عن زوجها أرسلها لزوجها، ولا يظلمها لثلاث يعاقب بتأخير زواجه، ويستعين بالله بتقواه وبالدعاء.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي يصبروا على حاجة النكاح فيثبتوا على العفة حتى يغنيهم الله بزواج أو ملك من فضله فيرجوا فضله؛ لأن فضله واسع.

﴿وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ الكتاب المكتابة بين العبد ومولاه على قدر من المال معلوم يدفعه العبد لسيده على أنه حرّ متى أوفى بالمال المذكور، وقوله تعالى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ شرط في وجوب الكتاب، والخير الدين والعقل الراجح والنية الصالحة، ولكن العلم إنما يتعلق بالمشاهد كالصلاة والصدق وطاعة السيد ونحو ذلك مما يدل على الخير الباطن فيحمل الخير عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَعَاثُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَيْنَاكُمْ﴾ ظاهر الخطاب بهذا الأمر أنه للسيد المكاتب لعبده فيعيّنه ولو بالإنفاق عليه، وفي (مجموع الإمام زيد بن علي): عن أبيه عن جده عن علي (عليه السلام): أنه كان يستحب أن يحط من المكاتب ربع الكتابة، ويتلو ﴿وَعَاثُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَيْنَاكُمْ﴾ انتهى.

وهذا يدل على أن الأمر موجّه إلى السيد المكاتب كما يفيد السياق، وقوله تعالى: ﴿مِنْ مَالِ اللَّهِ﴾ إشارة إلى الترغيب بأن الله أعطاكم وأنتم عباده فاعطوهم كما أعطاكم ربكم، ونظير: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي ءَاتَيْنَاكُمْ﴾ دليل على أن معنى مال الله هو ما رزق السادة؛ لأنه مال الله آتاه المكاتب لعبد، فأما تفسيره بمال الله من الغنائم أعني سهمه فيبيّده قوله تعالى: ﴿الَّذِي ءَاتَيْنَاكُمْ﴾ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ و﴿فَتِيَّتَكُمْ﴾ يعم الإماء المملوكات، والبغاء: الزنا من المرأة، يقال للزانية: بغية، وفي القرآن الكريم: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمْلَكُ بِغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨].

وفيه أيضاً: ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُنْ بِغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠] والفتاة: الشابة، ولا يبعد أنه يعم الجواري المملوكات والبنات؛ لأن بنت الرجل تضاف إليه كما تضاف المملوكة.

وقد حكى الشرفي في (المصابيح): «عن الحسن بن أحمد الناصر بن يحيى الهادي (عليه السلام) أنه قال: ومعنى هذا أن يقول الرجل: لا أزوج حرمي إلا من ذي شرف ومال ويسار وحسن حال، فيدعوها المنع من التزويج إلى ما حرم الله عليها فنهاء عن تعريضها للفتنة وأمره بتزويجها، والفتاة المرأة التي لم تزوج، الحدة، والإحسان إليهن والتأديب بآداب الله خير من حمية الجاهلية، والبغاء: الزنا المشتهر بعلامة تكون لصاحبه» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدَنْ تَحْصُنًا﴾ فيه تشنيع بالمكره لهن لأن من حقه أن ينهاهن عن البغاء فضلاً عن أن يأذن به لهن فضلاً عن أن يكرههن عليه، فإذا أكرههن عليه وهن يردن التحصن كان ذلك دليلاً على لؤم شنيع.

وقال الشرفي في (المصابيح): «وإنما أدخل ﴿إِنْ أَرَدَنْ تَحْصُنًا﴾ لأن الإكراه لا يتأتى إلا مع إرادة التحصن» انتهى، ونظيره قولك: إن لقيت فلاناً فأبلغه السلام، أي: إنه لترتيب الطلب عليه لا أنه شرط.

وقال الشرفي - أيضاً - : وكان لعبد الله بن أبي - رأس المنافقين - ست جوار يكرههن على البغاء وضرب عليهن ضرائب فشكت منهن معاذة ومسكة إلى رسول الله ﷺ فتزلت» انتهى، يعني نزلت الآية، وفيها: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ﴾ أو نزلت هذه الجملة، وقوله: وضرب عليهن ضرائب، أي على جواريه كلفهن أن يدفعن له الضريبة لأنهن يأخذن من الزناة أجراً على الزنا، وقوله: ومسكة في (الكشاف): ومسكة.

وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ * اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ
 كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ
 يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ
 وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ

وقوله تعالى: ﴿لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي لا تكرهوهن لهذا
 الغرض الدنيء عرض الحياة الدنيا، وليس شرطاً وإنما هو لمنع الإكراه على
 كل حال، ولو كان لهذا الغرض، وبالأولى إذا لم يكن إلا لمجرد السفاهة أو
 للتوصل إلى الزنا عوضاً عن الزنا وذلك أقبح ﴿وَمَن يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن
 بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر للمكرهات إذا لم يفعلن البغاء إلا للإكراه،
 وقوله تعالى: ﴿مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ﴾ تأكيد وتحقيق لهذا الشرط في الغفران
 للمكرهات والرحمة.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ
 وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿ءَايَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ هي آيات القرآن ومنها ما سبق في
 هذه السورة من الآيات فهي بينات قاطعات لعله الراجعين إلى أعمال
 الجاهلية ورجسها والباقيين على الجهل بما أنزل الله من الدين ﴿وَمَثَلًا﴾ هي
 صفة ثانية للقرآن باعتبار ما فيه من العبر، أو هي بمعنى: أنزلنا مثلاً، أي في
 القرآن.

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ كذلك صفة للقرآن، أو بمعنى في القرآن، والموعظة:
 الزجر والتخويف، وقوله تعالى: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ خصهم تعالى لأنهم هم الذين
 يتنفعون بالموعظة فيتركون أسباب العذاب، فالحجة بينة بالغة على من أبى
 والنفع عظيم لمن اتبع.

اللَّهُ الْأَمْتَلُ لِلنَّاسِ ۖ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٥﴾ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ
وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٦٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ

﴿٦٥﴾ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ
الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ
زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۖ نُورٌ عَلَى نُورٍ
يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ ۖ مَنْ يَشَاءُ ۖ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ ۖ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ ﴿٦٦﴾ هذه الآية الكريمة كالتعليل للآية التي قبلها.

فقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كقوله تعالى في نبئه:
﴿وَمِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦] إنها استنارت ببيانه وإلهامه وبما جعل من
العقول والبصائر والحاصل بهداه لأهل السموات وأهل الأرض، ألا ترى
أنه تعالى سمى القرآن نوراً، فقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا يَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ
مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] فالبصائر نور، والرسل نور، والكتب نور، وكل ذلك
من الله تعالى.

وقد نبّه على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ وقوله: ﴿يَهْدِي اللَّهُ
لِنُورِهِ﴾ والشيء لا يضاف إلى نفسه، فتبين أن المراد: أنه منور السموات
والأرض، والمراد: النور الذي ترى به البصائر، ولذلك شبهه بنور المصباح
ليدل على ما نعقله بما نحسه، أما نور الأبصار فهو من الشمس وغيرها، فهو
لا يمثل بنور المصباح، والمصباح: نار يستضاء بها في الظلمة، والمشكاة: كوة
غير نافذة وهي تجمع الضوء ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ تحفظه لا يطفأ وتجمع
نوره وتقويه ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي يشع منها نور ينضاف إلى
نور المصباح، والدري: من الكواكب.

قال في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿كَانَهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ وهي من النجوم التي تجري، والدري: المضيء» انتهى المراد، والمعنى: المضيء بالنسبة إلى الكواكب أي أن ضوءه أقوى، ولعله سمي درياً على التشبيه؛ لأن الدر يرى في الظلام كأنه ينير، وفي (معلقة لبيد):
وتضيئ في وجه الظلام منيرة كجمانة البحري سل نظامها

يعني كالدرة، وفي (صحاح الجوهري): «والكواكب الدري: الثاقب المضيء، نسب إلى الدر لبياضه، وقد يكسر (البدال) فيقال: دري، مثل سُخري وسُخري» انتهى المراد.

﴿يُوقَدُ﴾ المصباح ﴿من﴾ زيت ﴿شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ﴾ برك الله فيها، فكان من بركتها الزيت الذي فيه فوائد، منها: أنه يوقد به المصباح، ومنها: أنه دهن نافع، ومنها: أنه صبغ للأكلين، وقد مر في (سورة المؤمنون): ﴿تَنْبُتُ بِاللِّغَنِ﴾ الآية [آية: ٢٠].

﴿زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ مواجهة للشمس في النهار كله فثمرها الزيتون صالح ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي أنه قوي الصلاحية للإنارة به في المصباح حتى يكاد ينير ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ يوقد بها.

﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ لأنه اجتمع نور المصباح ونور الزجاجة كما مر، واجتمع النور في الزجاجة في المشكاة، وهذا يدل على أن نور الله عظيم، وإنما تعمى عنه قلوب الجاهلين والغافلين لإعراضهم عنه.

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ فيهدون به ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْآمَثَلِ لِلنَّاسِ﴾ ليفهموا فهماً كاملاً كما في هذه الآية الكريمة ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فضربه للمثل وتمثيله هو الصواب، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَضُرُّوهُ لَللَّهِ الْأَمْثَلُ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤].

فإن سأل سائل فقال: لماذا شبه نور الله سبحانه بهذا النور المذكور ولو شبه بضوء الشمس كان أدل على قوة نور الله؟

قلنا: إن مركز نور الله ضمائر أوليائه، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ..﴾ [الحديد: ٢٨] وقال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَتَّلَهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا..﴾ [الأنعام: ١٢٢] فالتشبيه بهذا الاعتبار يناسبه المثل المذكور في الآية الكريمة، ويؤكد هذا تعقيب الآية بذكر المساجد وعمارها للدلالة على مواقع هذا النور في الأرض، وعلى هذا فمن أعظم مواقع هذا النور رسول الله ﷺ وعلي والحسن وفاطمة صلى الله عليهم وعلى آلهم وسلم.

وقد روى الطبراني في (الكبير) [ج ١٢/ ص ٣١٧] بإسناده: عن عبد الله بن عمر في قوله: ﴿كَمَشْكُورَةٍ﴾ قال: جوف محمد، والزجاجة: قلبه، والمصباح: النور الذي في قلبه.. إلى آخره. ومن شعر الإمام الناصر الحسن بن علي الأطروش، رواه الإمام المنصور بالله في (الشافي):

فاجهد لكل الذي يرضى إليه	وحبل عمرك بالإمهال موصول
فأنت من دَوْحَةِ زَيْتُونَةٍ وَقَدْتَ	فيها لنور إله الخلق تمثيل
نور إذا غشي الأنوار مشرقه	أضحى لها فيه تغسيق وتأفيل
نور يقل بهذا الناس عارفه	له لدى علماء الحق تأويل
أتى بشعيانه في سفره وأتى	بذكر أوصافه موسى وحز قيل
محمد وعلي والبتول ومن	قد كان يأتيهم وبالوحي جبريل
وعترة المصطفى بالرسِّ عنصرنا	الطاهرين المقاديس البهاليل

انتهى المراد، ولعله سقط من القصيدة بيت قبل هذا البيت أو أبيات.

تَجَرَّةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ^١ سَخَّافُونَ يَوْمًا
تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٧﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ

وقوله تعالى: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ يرغب في طلب الهدى لنوره،
وقوله: ﴿مَن يَشَاءُ﴾ أي من هو أهل لأن يهديه الله بزهده في الدنيا وورعه
وتقواه وتفرغه لعبادته، وقوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ﴾ أي
ليفهموا المعاني بضرب الأمثال، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا
لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [النكبوت: ٤٣].

﴿٧﴾ ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا
بِالْغَدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ
وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ سَخَّافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾.

﴿فِي بُيُوتٍ﴾ إما متعلق بما قبله أي هذا النور في بيوت، أو يهدي الله لنوره
في بيوت، فأما تعلقه بمشكاة فبعيد؛ لأن المثل قد انتهى وعقب بقوله تعالى:
﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ﴾ وإما خبر مقدم والمبتدأ مؤخر، وهو قوله
تعالى: ﴿رِجَالٌ﴾ وهو غير خارج عن السياق؛ لأنه يبين رجالاً جعل الله لهم
نوراً هو المعرفة الكاملة المؤدية إلى الإيمان القوي.

﴿فِي بُيُوتٍ﴾ وحقيقة البيت هو ما يصلح لأن يبات فيه، والمساجد بيوت
فيها العاكفون والمسافر الذي لم يجد مأوى.

وقوله تعالى: ﴿أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ أي يرفع شأنها باحترامها وتطويبها
واجتتاب إدخال ما ينفر فيها كرائحة الثوم وتجنبها النجاسات، وقد فسرهما
الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) بالمساجد في باب الاعتكاف أعني ﴿فِي
بُيُوتٍ﴾ وذكر الآية هذه والتي بعدها مما يفهم منه ارتباطهما.

وقول الله تعالى: ﴿وَيُذَكِّرْ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ يرشد إلى إكثار الذكر في المساجد لفضله على الذكر في غيرها، والذكر النافع ما توافق عليه القلب واللسان؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَلِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ..﴾ يشعر حيث قال تعالى: ﴿رِجَالٌ﴾ ولم يقل أناس أن المحمود هو ملازمة الرجال للمساجد دون النساء، وكذلك قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ [التوبة: ١٠٨] حيث خصهم بالذكر، ولم يقل: مصلون أو أناس - والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَا تُلْهِيمُ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا﴾ التجارة مبايعة في طلب الربح، وقوله تعالى: ﴿وَلَا بَيْعًا﴾ لعله خصه بالذكر؛ لأنه قد يكون ليس لغرض التجارة بل للحاجة إلى بيع السلعة، ولأن المتجر يحرص على البيع أكثر إذا وجد المشتري، فهؤلاء الذين حبب الله إليهم الذكر والتسبيح لا يصرفهم عنهما تجارة ولا بيع.

وقال تعالى: ﴿لَا تُلْهِيمُ﴾ إشارة إلى أن الاشتغال بالأغراض الدنيوية يعتبر لهواً وشغلاً يضيع به الوقت لغير فائدة تستحق إضاعة الوقت عند عمار المساجد الذين يحيونها بالذكر والتسبيح، وإشارة إلى أن المهم اجتناب ما يلهي القلب عن إحضاره للذكر؛ لأن التجارة والبيع يمكن أن يصحبهما في أكثر الوقت الذكر والتسبيح باللسان لا بالقلب؛ لأنه ينصرف إلى التجارة والبيع. وقوله تعالى: ﴿وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾ يفهم منه: أنه لا يصرفهم عن إقامتها تجارة ولا بيع فما هي الإقامة؟!

الراجح: أنها الجماعة في أفضل الوقت، وإحضار الذهن والإخلاص والذلة لله مع إتمام أذكارها وأركانها، فهذا إقامة للصلاة مثل إقامة السوق إذا كثر فيه الناس وتحرك البيع والشراء.

مِّن فَضْلِهِ ۖ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ تَحْسَبُهُ الظَّمْءَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ

وقوله تعالى: ﴿وَإِتْيَاءَ الزَّكَاةِ﴾ يفيد أنهم يؤتون الزكاة ولا يشغلهم عن إيتائها تجارة ولا بيع، وأن ذلك لا ينافي لتفرغهم للعبادة؛ لأن إيتاء الزكاة من العبادة.

وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ فالخوف: هو المحرك لهم خوف اليوم العبوس القمطير، الذي تتقلب لهوله القلوب والأبصار.

قال الشريفي في (المصابيح): «أي تَغْيَر فتضطرب فيه القلوب من الهول، وتشخص فيه الأبصار فلا تقرر في أماكنها من الفرع» انتهى المراد، وهذا موافق لقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢] ولو فسر تغير القلوب: بفراغها من العقول، لكان موافقاً لقول الله تعالى: ﴿وَأَفْثَدَتْهُمْ هَوَاءً﴾ [إبراهيم: ٤٣] وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ الآية [الحج: ٢].

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿لِيَجْزِيَهُمُ﴾ يسبح له ولا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة كل ذلك يفعلونه ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ وأحسن ما عملوا هو القرب؛ لأن من الأعمال ما هو مباح أو مكروه ومنها الزلات التي يتوبون منها، والمعاصي إن كانت قد سبقت منهم قبل صلاحهم وتابوا منها فلا يجزونها، ولكن يجزون أحسن أعمالهم أي يشيهم الله على أحسن ما عملوا.

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ زيادة على جزائهم تفضلاً، وهذا يدل على رغبة في الثواب مع الخوف من هول يوم القيامة وسوء الحساب ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾ رزق الدنيا ورزق الآخرة ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ على الرزق، وفيه إشارة إلى أن الله يرزقهم لتفرغهم لعبادته واشتغالهم بها عن كسب الرزق إلا أنه قد يقدر في الدنيا عليهم رزقهم لحكمة في ذلك.

اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابُهُ ۖ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٦٦﴾ أَوْ كَظُلُمْتِ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ

﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابُهُ ۖ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٦٧﴾ أَعْمَلُوهُمْ ﴿٦٨﴾ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴿٦٩﴾ أَي لَا يَجْزُونَهَا فِي الْآخِرَةِ، بَلْ هِيَ يَوْمئِذٍ كَسَرَابٍ، وَالسَّرَابُ: شَيْءٌ يَرَى فِي النَّهَارِ فِي الْحَرِّ يَرَى مِنْ بَعِيدٍ كَأَنَّهُ مَاءٌ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِقِيعَةٍ﴾ أَي بَقِيعَانِ إِنْ كَانَ جَمْعًا مِثْلَ جَارٍ وَجِيرَةٍ، وَإِلَّا فَهُوَ: الْقَاعُ الْمُسْتَوِي مِنَ الْأَرْضِ، كَمَا قَالَ فِي (الصَّحَاحِ) وَ(مَفْرَدَاتِ الرَّائِغِ).

﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ الظَّمْآنُ الْعَطْشَانُ، أَي يَحْسَبُ السَّرَابَ مَاءً ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ﴾ أَي جَاءَ الظَّمْآنُ السَّرَابَ ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَرَى مِنْ بَعِيدٍ، وَهَكَذَا أَعْمَالُ الْكَافِرِ كَعِمَارَةِ الْمُشْرِكِينَ لِلْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَكَذَا مَا عَمِلَ الْإِنْسَانُ وَلَوْ لَمْ يَكُن كَافِرًا فِي حَالِ الْعَمَلِ ثُمَّ كَفَرَ بَعْدَهُ فَقَدْ حَبِطَ بِالْكَفْرِ، فَهُوَ وَإِنْ زَعَمُوا أَنَّهُ قَرِيبَةٌ لَهُمْ لَا يَفِيدُهُمْ فِي الْآخِرَةِ شَيْئًا.

﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ﴾ عِنْدَهُ حَيْثُ صَارَ فِي الْمَفَازَةِ، وَهَذَا مِنَ الْمَثَلِ، وَإِنْ طَابَقَ الْمَثَلُ فِي إِثْبَاتِ جَزَاءِ كُفْرِهِ وَتَوْفِيقِهِ حِسَابَهُ اللَّائِقَ بِهِ، فَهُوَ أَبْلَغُ فِي التَّمْثِيلِ، وَمَعْنَى أَيقِنَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ فَوَاتِ الْأَوَانِ وَذَلِكَ عِنْدَ الْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

قَالَ سَيِّدُ قُطْبٍ فِي (تَفْسِيرِهِ): «وَالْتَعْبِيرُ يَرَسُمُ لِحَالِ الْكَافِرِينَ وَمِثَالَهُمْ مُشَاهِدِينَ عَجَبِينَ حَافِلِينَ بِالْحُرُوكَةِ وَالْحَيَاةِ، فِي الْمَشْهَدِ الْأَوَّلِ يَرَسُمُ أَعْمَالَهُمْ كَسَرَابٍ فِي أَرْضٍ مَكْشُوفَةٍ مَبْسُوطَةٍ يَلْتَمِعُ التَّمَاعُ كَاذِبًا فَيَتَّبِعُهُ صَاحِبُهُ الظَّامِئُ

وهو يتوقع الريّ غافلاً عما ينتظره هناك، وفجأة يتحرك المشهد حركة عنيفة فهذا السائر وراء السراب الظامئ الذي يتوقع الشراب الغافل عما ينتظره هناك يصل فلا يجد ماء يرويه، إنما يجد المفاجأة المذهلة التي لم تخطر له ببال المرعبة التي تقطع الأوصال وتورث الخبال ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ﴾ الله الذي كفر به وجحده وخاصمه وعاداه وجده هنالك ينتظره، ولو وجد في هذه المفاجأة خصماً له من بني البشر لرّوّه وهو ذاهل غافل على غير استعداد، فكيف وهو يجد الله القوي المنتقم الجبار ﴿فَوَفَّيْنَاهُ حِسَابَهُ﴾ هكذا في سرعة عاجلة تتناسق مع البغته والفجأة» انتهى.

ولا يقال: يلزم من هذا تشبيه الخالق أي من قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ﴾ لأنه لم يذكر له مكاناً محيطاً أو مقلاً، ولا قال إنه وجده بالرؤية أو بجاسة، والوجدان لا يتوقف على ذلك، وأيضاً التشبيه لا يستلزم أن يكون المثل واقعاً بل قد يكون مفروضاً مقدراً متخيلاً، كما قال الشاعر:

فَكَأَنَّ عَمَرَ الشَّقِيقِ إِذَا تَصَوَّبَ أَوْ تَصَعَّدَ
أَعْلَامَ يَأْقُوتِ نُشِيرَ نَ عَلَى رِمَاحٍ مِّنْ زَبْرِجَدٍ

وأما قوله تعالى: ﴿عِنْدَهُ﴾ فهو كقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ﴾ الآية [المجادلة: ٧] وفي كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «ومع كل شيء لا بمقارنة» انتهى.

ويمكن اعتبار المعية والعندية من حيث أنه لا مسافة بينه تعالى وبين عبادته؛ لأنه ليس له مكان، والبعد يتوقف على كونه في مكان بعيد.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَرِيعٌ الْحِسَابِ﴾ إما بمعنى إحاطة علمه بكل شيء جملة وتفصيلاً من غير نظر ولا تأمل، وإما بمعنى ﴿سَرِيعٌ الْحِسَابِ﴾ الآتي يوم القيامة أي حسابه للكافرين؛ لأن كل آت قريب، والأول أرجح.

بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرْنَهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿١٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ

وتقدم قولي: أعمالهم إما حسنة.. الخ، فاقول: وإما قبيحة كالشرك وواد البنات وغير ذلك، وفيه المثل بقول الله - عز وجل -:

﴿أَوْ كَظُلُمْتَ فِي يَمْرِ يُجَنَّى يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرْنَهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ فأعمال الذين كفروا توقع في قلوبهم الظلمات المتراكمة لأنها تعمي بصائرهم وتبعدهم عن معرفة الحق، ومع كثرة القبائح والاستمرار عليها تتراكم ظلماتها في قلوبهم، فهي كما لو اجتمع وتراكم طبقات من الأمواج، والأمواج: هي ما يجتمع بقوة الرياح عليه إذا تموج البحر طلعت الأمواج على ظهره، والبحر اللجي، قال فيه الإمام زيد بن علي عليه السلام: «بحر لجي مضاف [أي منسوب] إلى اللجة، وهي معظم البحر» انتهى.

فهذه الظلمات في البحر اللجي من قبل أن يطلع موج فوقه، فإذا طلع تضاعفت الظلمة؛ لأن الماء البعيد القعر في أسفله ظلمة، فإذا علاه موج اشتدت الظلمة وتضاعفت، فإذا علا الموج موج آخر زاد تضاعف الظلمة، فإذا كان فوق هذه الأمواج سحب تضاعفت هناك الظلمة، كما قال تعالى: ﴿ظُلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ﴾ مَنْ فِي تِلْكَ الظُّلْمَةِ ﴿لَمْ يَكِدْ يَرْنَهَا﴾ لشدة الظلمة، فبين الكافر وبين نور الهدى مثل ما بين من في هذه الظلمات وبين ضوء النهار في النهار وما بينه وبين ضوء النجوم والقمر في الليل.

قال الشرفي في (المصابيح): «﴿لَمْ يَكِدْ يَرْنَهَا﴾ أي لم يقارب أن يرى يده، فضلاً أن يراها لشدة سواد الظلمة» انتهى.

صَفَّتْ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ^١ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿١١﴾
وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي

ويحتمل: أنها كقوله تعالى: ﴿فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] أي كادوا أن لا يفعلوا، وفائدة ذلك: الإشارة إلى أنه إنما فقد النور الذي يعطيه الله أوليائه، فأما البصيرة فقد بقي له منها ما تقوم به عليه الحجة والله أعلم، ولا نعلم من المثل أنه يفيد: عدم الضوء بالكلية في النهار ولم يذكر فيه الليل. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ معناه: أن الله تعالى هو واهب النور لأوليائه ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا﴾ هو الكافر ﴿فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣]. قال الشريفي في (المصابيح): «قال الهادي عليه السلام: النور هاهنا فهو زيادة الله للمهتدين هدى في هداهم وما يؤتيهم الله سبحانه من تقواهم فأخبر الله سبحانه أن من لم يقبل الهدى المبتدأ لم يجعل له نوراً بزيادة في الهدى، فالذين لم يجعل لهم نوراً فهم الذين لم يقبلوا هدى الله ودينه وهم المستوجبون للخذلان المتكهمون في الضلال، وهم الذين ذكر الله - عز وجل - أنه لم يجعل لهم نوراً» انتهى.

وقال الشريفي - أيضاً - حاكياً عن (البرهان): «فالظلمات: ظلمة الشرك، وظلمة الشك، وظلمة المعاصي» انتهى المراد.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّتْ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ^٢ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ كلمة تعجيب مما يذكر بعدها ﴿أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ﴾ ﴿مَنْ﴾ كلمة تستعمل فيمن يعلم، فأما الملائكة والجن فظاهر.

وأما الطير فنزلت منزلة من يعلم لما عندها من معرفة الله تعالى؛ ولذلك تسبحه ولا مانع من ذلك، لأن (الهدهد) قد أفاده بقوله فيما حكى الله عنه: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿[النمل: ٢٥-٢٦] وخاطبه نبي الله سليمان عليه السلام خطاباً للعقلاء: ﴿قَالَ سَتَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧] فقال: ﴿مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وهو جمع عقلاء، فدل ذلك على أنه ممكن غير بعيد في سائر الطير، فحملة على الحقيقة هو الظاهر.

وقوله تعالى: ﴿صَفَّيْتِ﴾ حال أي تسبح حال كونها صافات لأجنحتهن فهي آية عظيمة قدرتهن على صف الأجنحة في الهواء أي بسطها لتطير ﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرُّحْمَنُ﴾ [الملك: ١٩].

﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ كل من في السموات والأرض والطير قد علم بما وهبه الله من النور ﴿صَلَاتَهُ﴾ أي دعاءه أي أنهم يدعونه وهو الذي علمهم الدعاء وعلمهم التسبيح ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أعم من الدعاء والتسبيح؛ لأنه ﴿يَكُلُّ شَيْءٌ عِلْمٌ﴾ [البقرة: ٢٩] فخبّره عنهم أنهم يسبحونه صدق وحق.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ الملك: ولاية الأمر والنهي، والتصرف في عباده كيف يشاء من إعزاز وإذلال ورفع ووضع وتكريم وإهانة وغير ذلك ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد في السموات والأرض إلا أنه كرم أهل السموات لأنهم مطيعون ﴿لَا يَسْقُوتُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ يَلْمُوهَ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ ليحكم بين عباده وفيهم بما يشاء وله الملك يومئذ وحده ولذلك إليه المصير وحده، والعطف في أول الآية على ذكر التسبيح له.

سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلَّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ تَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ
وَيُنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ
عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿١٦﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ أَلِيلَ

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلَّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى
الْوَدْقَ تَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ
بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾ ﴿أَلَمْ
تَرَ﴾ من دلائل ملكه ومن تصرفه في مملكته ﴿أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ يدفعه
ليجتمع ﴿ثُمَّ يُؤَلَّفُ بَيْنَهُ﴾ يضم بعضه إلى بعض ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا﴾ متراماً
بعضه فوق بعض.

﴿فَتَرَى الْوَدْقَ تَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ الودق: في (تفسير الإمام زيد بن
علي عليه السلام): «(الْوَدْقُ) المطر وخلاله بين السحاب» انتهى ﴿وَيُنَزَّلُ مِنَ
السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ أي ينزل من برد أي قليلاً بالنسبة إلى قدرته
على أكثر منه بكثير ينزله ﴿مِنْ جِبَالٍ فِيهَا﴾ أي في السماء، قيل: الجبال:
السحاب على التشبيه.

قال الشرفي في (المصابيح): «وقال محمد بن القاسم عليه السلام: السماء هنا
السحاب، والجبال - والله أعلم - ما كثف من السحاب وعظم، وقد زعم
بعض من يقول من العامة أن في السماء جبلاً من برد، والتأويل الأول -
والله أعلم - أشبه بالصواب والقصد، قال الشرفي: ومثل هذا ذكر الحسين
بن القاسم عليه السلام» انتهى المراد.

وقال سيد قطب في (تفسيره): «إن يد الله تزجي السحاب وتدفعه من
مكان إلى مكان، ثم تؤلف بينه وتجمعه فإذا هو ركام بعضه فوق بعض،

فإذا ثقل خرج منه الماء والوبل الهاطل وهو في هيئة الجبال الضخمة الكثيفة فيها قطع البرد الثلجية الصغيرة، ومشهد السحب كالجبال لا يبدو كما يبدو لراكب الطائرة وهي تعلو فوق السحب أو تسير بينها، فإذا المشهد مشهد الجبال حقاً بضخامتها ومساقطها وارتفاعاتها وانخفاضاتها، وإنه لتعبير مصور للحقيقة التي لم يرها الناس إلا بعد ما ركبوا الطائرات» انتهى.

ولو قال: إن قدرة الله تزجي لكان أفضل وأسلم، وفي جمع السحاب بالتأليف بينه آية عظيمة؛ لأن الرياح لا تكفي لو استرسلت من جهة واحدة إلى جهة واحدة بل كانت تجري به مفرقاً أو تلاشيه فضلاً عن أن يجتمع وتسوقه إلى بلد ثم يبقى حتى يمطر ما يغيث أهل البلد.

وما اختاره محمد بن القاسم رحمته الله قبل سيد قطب هو الراجح؛ لأن قوله تعالى: ﴿مِنْ بَرْدٍ﴾ راجع إلى قوله: ﴿وَيُنْزَلُ﴾ ولو كان بياناً لجبال ما بقي ذكر للمنزل.

وقوله تعالى: ﴿فَيَصِيبُ بِهِ﴾ أي بالبرد المنزل ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ لا يمنعه مانع؛ لأن الملك له في عباده وبلاده والله غالب على أمره: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤] ﴿وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ﴾ رحمة لهم ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ﴾ أي ضوءه حين يلمع ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾ لقوته وسرعته.

قال الراغب في (المفردات): «السنا: الضوء الساطع» انتهى، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي رحمته الله): «معناه: ضوء برقه» انتهى، كقوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرَقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٠] وفي ذلك دليل على قدرته تعالى وعلمه وجعله ذلك من مصدر الماء ومركزه مثل جعله النار من الشجر الأخضر.

وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ تَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا ءَايَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٨﴾

﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٦﴾ ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ وهذا من تصرف الملك في مملكته فهو من دلائل ملكه، فالليل والنهار كل منهما تتقلب أحواله بالطول بارة والقصر تارة، والحر والبرد جاربان مجرى الصفة لهما، وكذلك تختلف بالإقبال ثم الإدبار كل ذلك دلائل على مقلب الأحوال ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ ومن عبرتها أنها تدل على تقلب أحوال الإنسان بين العز والذل، والغنى والفقر، والصحة والسقم وغير ذلك، وقوله تعالى: ﴿لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي البصائر تشبيه بالأبصار التي ترى بها المرئيات.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ تَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا من تصرف الملك في مملكته ﴿خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ الراجح: أنه المني وهو ماء متشابه فيخلق منه دواب مختلفة، منها ما يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ﴿كالخنش يمشي على بطنه بسرعة عجيبة.

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ كالطير والإنسان ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ كالأنعام، وهذا كالمثل للأنواع المختلفة لا حصر لأقسام المختلفات، فمن الحيوان ما يمشي على أكثر من أربع ﴿تَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ولعل هذا إشارة إلى ما لم يذكر من أنواع الدواب.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا ءَايَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿ءَايَاتٍ﴾ من القرآن ﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾ ولذلك يفهما العرب ومن تعلم العربية.

وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ هُمْ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ

ففي هذه الآيات الدلالة على الآيات الكونية الدالة على الله تعالى كما مر ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ من عباده، وقد فسرهم سبحانه بقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨] فهو تعالى يهديهم بهذا القرآن ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عطف على ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا﴾ أي ومع هذه الآيات المبينات يقولون أي بعض من حول الرسول الذي يتلوها عليهم يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ﴾ وما جاء به من الله ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى﴾ عن الرسول وعما أمر به يتولى ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ أي من هؤلاء الذين يقولون: ﴿ءَامَنَّا﴾ ﴿مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ من بعد أن قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ وأطعنا فأخلفوا ما وعدوا وانكشف للمؤمنين كذبهم في دعوى الإيمان ﴿وَمَا أُولَئِكَ﴾ الكاذبون المخلفون لما وعدوا ما هم ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ نفى مؤكد يبين كذبهم في دعوى الإيمان، فقابلوا الآيات البينات بخلاف ما هو الواجب.

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ إن الإيمان يدعو المؤمن إلى طلب حكم الله في المتنازع فيه؛ لأن حكم الله ورسوله هو الحق لكن هؤلاء المدعون للإيمان إذا ﴿دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ لا يريدون حكم الله ورسوله فأين دعواهم الإيمان.

﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ تَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ^ع بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾

﴿٤٩﴾ وَإِنْ يَكُنْ هُمْ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٥٠﴾ يَأْتُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ مُذْعِنِينَ ﴿٥١﴾ منقادين لحكم الله ورسوله لا لأنهم مؤمنون بل لأنهم قد عرفوا أن الحكم لهم، فالحاكمة إلى الرسول يحصل بها غرضهم الدنيوي، يدل على ذلك إعراضهم حين لا يكون الحق لهم.

﴿٥٢﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ تَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ^ع بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٣﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴿٥٤﴾ تَغْيِيرٌ عَمَّا تَقْتَضِيهِ فِطْرَتُهَا ﴿٥٥﴾ أَمْ ارْتَابُوا ﴿٥٦﴾ شكوا فيما قد ادعوا أنهم آمنوا به ﴿٥٧﴾ أَمْ يَخَافُونَ أَنْ تَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴿٥٨﴾ أي يجوز في الحكم ﴿٥٩﴾ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٠﴾ لأنهم لم يؤمنوا وزعموا كذباً أنهم آمنوا ووعدوا بالطاعة وأخلفوا الوعد وأعرضوا عن حكم الله ورسوله وهو الحق وهربوا من الحق فهم الظالمون لا المؤمنون، ومثل هؤلاء أكثر أهل زماننا، ولعلها ضربت عليهم الذلة والمسكنة من أجل ذلك، فلن تعود لهم العزة إلا برجوعهم إلى الله.

﴿٦١﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦٢﴾ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦٣﴾ الظافرون بالجنة الناجون من النار؛ لأنهم أهل الإيمان الصحيح الصادق؛ ولذلك يريدون الحق من الله ورسوله سواء كان لهم أم عليهم في الدنيا، فهم المفلحون لا المدعون للإيمان كذباً.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ أُمِرَ بِهِمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ﴾ يشير إلى أن ذلك قول المؤمنين فيما مضى وفي الحال وعلى الاستمرار المتجدد كلما ﴿دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ﴾ فيما أمر وما نهى عنه ويطع رسوله فيما أمر به وما نهى عنه ﴿وَيَخْشَى اللَّهَ﴾ يخفه مع تعظيم كما مر عن الراغب ﴿وَيَتَّقِهِ﴾ وقد مر تفسير المتقين في (سورة آل عمران) في قول الله تعالى: ﴿..أَعِدْتُ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آية: ١٣٣-١٣٥].

﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ قال الشرفي في (المصاييح): «الفائز: هو المبعد من عذاب الله والصائر إلى رحمته» انتهى المراد، وفي (الصحيح): «الفوز: النجاة والظفر بالخير» انتهى.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَوَقَّاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضلاً مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الدخان: ٥١-٥٧] وقال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُخِلَّ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] فدل ذلك على استعمال الفوز في الظفر بمجموع الأمرين كما ذكره الشرفي.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ أُمِرَ بِهِمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَأَقْسَمُوا﴾ عطف على الكلام في المعرضين عن حكم الله تعالى.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ أَلْمِينِ ﴿٥١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ

ومعنى ﴿أَقْسَمُوا﴾ حلفوا ﴿جَهَدَ أَيْمَنِهِمْ﴾ قال الراغب: «أي حلفوا واجتهدوا في الحلف أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم» انتهى.

وقال الشرفي في (المصاييح): «أي حلفوا أشد قسمهم وأكبره» انتهى المراد، وقد حقق في (الكشاف) معناه بالنسبة للعربية، ولكن حاصله ما ذكره الشرفي.

قوله: ﴿لَيْنَ أَمْرِهِمْ لِيَخْرُجُنَّ﴾ هذا جواب القسم، وهو كقولهم: ﴿أَطَعْنَا﴾ إلا أن هذا تأكيد ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا﴾ لأنه لا معنى للقسم ولأنه كذب وفجور. ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ الراجح: أن معناه: قسمكم طاعة معروفة أي معروفة حقيقتها، وأنها قول بلا عمل ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بكل ما تعملون ومنه هذا القسم وما يؤول إليه من إخلاف.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ أَلْمِينِ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله عن الله ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فإن توليتم عن طاعة الله ورسوله ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ أي على الرسول ﴿مَا حُمِّلَ﴾ أي ما كلف من التبليغ ونحوه ومن التكاليف الخاصة به ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ ليس مسؤولاً عما حملتم وأنتم المسؤولون الجزيون بعقوبة التولي عن طاعته ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ للصراط المستقيم ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ أَلْمِينِ﴾ ليس عليه أن يطاع بل يكفي منه من حيث هو رسول تبليغ الرسالة تبليغاً مبيناً موضعاً لما أرسل به.

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٧٣﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا

﴿١٧٣﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٧٣﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ﴾ أيها المتممون إلى الإسلام فالوعد خاص بالذين آمنوا منكم، وقد مرت صفات المؤمنين الصادقين في إيمانهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وهي طاعة الله وعبادته المشروعة المتقبلة كما مر ﴿لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ تفسير للموعد به ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ بتمكين دولتهم.

﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ بني إسرائيل أو كل من آمنوا برسولهم فأنجاهم الله مع الرسل، وهذا أظهر لعموم ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي المؤمنين العاملين الصالحات من قبلهم، فالأمم المكذبون يهلكون وينجي الله رسله والذين آمنوا ﴿وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ يجعل الحكم حكم الله ورسوله والحرية لمن تمسك بالدين الذي ارتضى لهم الله ﴿وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ من بعد خوفهم من بعد أن قد خافوا من الكفار، فحين تكون الدولة دولة الإسلام يذهب ذلك الخوف ويدلون به أمتاً.

﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ في ذلك الأمن ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ أي يخلصون لي العبادة ﴿لَا يُشْرِكُونَ﴾ لا شرك الحكم لغير الله ولا غيره من أنواع الشرك، وهم في ذلك آمنون يعبدون الله عبادة ظاهرة لا يتقون الكفار بترك شيء منها.

الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ ﴿٥١﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا أَوْلَهُمْ أَلْتَارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٢﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ التمكين وسائر الموعود به في الآية ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخبثة الفجار؛ لأنهم كفروا نعمة الاستخلاف والتمكين المذكور واختاروا الكفر بدون ملجئ إليه بل لجرد الخبث واتباع الهوى المردى في حال أن الإيمان والعمل الصالح أسهل من الكفر بالنسبة إلى المجتمع؛ ولعل هذا الإستخلاف والتمكين أوله في السنة التاسعة التي هي عام الوفود؛ ولذلك حج رسول الله ﷺ ومعه الألوف الكثيرة من المسلمين - والله أعلم - وفي (المصايح) يرجح: أنها في (المهدي المنتظر) ويمكن الجمع بينهما.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ ﴿وَأَقِيمُوا﴾ إما عطف على معنى ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ لأنه في معنى النهي عن الكفر فكأنه قال: لا تكفروا بعد ذلك ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقْلَمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [الحج: ٤١].

﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في كل شيء حتى في الأمور السياسية فلا يخصص ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ فيبقى لكم التمكين في الأرض وترحمون في الآخرة، وإما عطف على الكلام في الذين يعرضون عن حكم الله تعالى، كما عطف قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ..﴾ من قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيكون من مقول القول، أي من المأمور به في قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ وهذه الآيات من قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ﴾ تؤكد وجوب طاعة الرسول في كل شيء.

لِيَسْتَعِذَّكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَفُوتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَعِذُّوْا كَمَا

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ هذا مما يؤكد أن وعد الله بالنصر والتمكين وقع مصداقه لنبى محمد ﷺ فقلوه: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ بمعنى اعلم أنهم سيغلبون، كما في (سورة آل عمران) ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ النَّصْرَةِ﴾ الآية (١٢-١٣) فأفاد أنه سينصر نبيه ﷺ كما نصره يوم بدر.

﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ﴾ فليس غلبهم الذي هو عذاب عاجل ليس دافعاً عنهم العذاب في النار ﴿وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ جهنم فهم صائرون فيها بكفرهم وجرائمهم كلها.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعِذَّكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَفُوتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

هذه الآية الكريمة فيها تأديب للذين آمنوا وصيانة لهم من مفاجأة المماليك لهم والغلمان وهم في حال يستحي المؤمن من أن يرى عليها، فقال تعالى:

﴿لَيْسَتْ ذُنُكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ أي من العبيد والجواري علموهم ومروهم أن يستأذنوكم إذا أرادوا الدخول إليكم في أحد الثلاثة الأوقات، وكذلك ﴿الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾ أي من الأحرار مروهم أن يستأذنوا فلا يدخلوا حتى يؤذن لهم دفعاً لهم عن المفاجأة لكم في حالكم الخاص بين الزوجين، والاستئذان هذا يكون ثلاث مرات:

المرّة الأولى ﴿مَنْ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾ أي في بقية من الليل يمكن أن يكونا فيها مختلطين ليغتسلا عند التأهب لصلاة الفجر، بل وفي أول جزء من النهار في حق من لم يرق إلى صلاة الفجر قبل الفجر، المرّة الثانية: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ﴾ هذا الحين ﴿مِنْ الظُّهْرِ﴾ يضعون ثيابهم بسبب الحر؛ ولأنهم وحدهم أي الزوجان والوقت هذا قبل صلاة الظهر يمكن فيه أن يختلطوا ليغتسلا عند القيام لصلاة الظهر.

قال الراغب: «والظهير: وقت الظهر» وفي (الصحيح): «الظهر بالضم بعد الزوال، ومنه صلاة الظهر، والظهير: الهاجرة، يقال: أتيتك هداً الظهير» وحين قام قائم الظهير» انتهى.

وعلى هذا: فالظهير من قبل الظهر في وقت الحر، قيل: وليس في الشتاء ظهير. والمرّة الثالثة: ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ فهذه الثلاثة الأوقات فيها ﴿ثَلَاثُ عَوَرَاتٍ﴾ للذين آمنوا لأن الزوجين فيها يكونان خاليين غير متحفظين من اطلاع غيرهما إذا لم يلزما المماليك والأطفال الاستئذان واعتبرت حالتهما في هذه الأوقات عورة لأنها مظنة كشف العورة ومظنة اختلاط الزوجين.

أَسْتَعِذُّنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٦﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرَجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ

قال في (الصحيح): «العورة: سواة الإنسان، وكل ما يُستحى منه، ثم قال: والعورة كل خلل يتخوف منه في ثغر أو حرب» انتهى المراد، ولعل هذا الثاني استعمل في الآية مجازاً أو هي من الأول، فكل ذلك صحيح في المعنى - والله أعلم.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ أي بعد الثلاثة الأوقات، وهذا يفيد أن قوله تعالى: ﴿لَيْسَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أمر للأحرار وعبيدهم وإمائهم، فاما الأطفال فالجناح عليهم من الأولياء، وليس معناه الإثم ﴿طَوَفُونَ عَلَيْكُمْ﴾ تعليل للترخيص فيما بعد الثلاثة الأوقات يطوفون عليكم لحاجتكم وحاجاتهم ﴿بَعْضُكُمْ﴾ طواف ﴿عَلَى بَعْضٍ﴾ لأنهم يخدمونكم وتنفقون عليهم وتقومون بحاجاتهم التي تلزم السادة لعبيدهم وإمائهم وتلزم الوالدين لأولادهم ونحوهم.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ أي كذلك البيان في هذه الآية يبين الله لكم الآيات إما آيات القرآن، وإما آياته، والآيات الكونية التي يحتاجها العبد لمعرفة الله سبحانه، فكل ذلك سنة الله تعالى أن يبينه ليهتدي به من يهتدي ويكون حجة على من أبى، وكما قال تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] وفي هذا رد على الباطنية، وكل من زعم أن القرآن رموز يختص بمعرفتها الإمام ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فلعلمه وحكمته يبين الآيات للذين آمنوا فالخطاب لهم.

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَعِذُّوْا كَمَا أَسْتَعِذُّنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي الأحرار، بلوغ ﴿الْحُلُمِ﴾ بلوغ الاحتلام والإمضاء

جُنَاحٌ أَنْ يَضَعَنَّ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ ۖ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦١﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ

﴿فَلْيَسْتَعِذْنَ كَمَا اسْتَعِذَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وذلك في الثلاثة الأوقات وسائر الأوقات؛ لأنهم أمروا بالاستئذان أمراً مطلقاً.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أضاف آياته إليه لينبه على أنه هو الذي جعلها آيات كما أنه بيّنها وذلك رحمة للمؤمنين ونعمة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكل شيء ومنه سرائرهم وغرايزهم وما يصلحهم من التكليف ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرع وحكم به وفي كل أفعاله وفي كل شيء منه.

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ ۖ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿وَالْقَوَاعِدُ﴾ العجائز قعدن عن الحيض والحمل وعن العمل لكبرهن وضعفهن بسبب كبر السن ﴿الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ لعدم رغبة الرجال فيهن لنكسهن في الخلق فهن غير راجيات للنكاح بل قد أيسن منه ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ حرج في ﴿أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ اللاتي أمر الله بها المؤمنات في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّبِعُنَّ زِينَتَهُنَّ﴾ فرخص الله للقواعد إذا لم يكشفنها عن زينة تستميل الرجل؛ لأن وضعهن للثياب أبعد لهن عن ميل الرجل، ولأن ضعفهن يناسبه الترخيص لهن، وقد يغتر الرجل بالتستر، كما قال الشاعر:

عجوز ترجى أن تكون فتية وقد سقط الثديان والنحذب الظهر

إلى قوله:

وما غرني إلا خضاب بكفها وكحل بعينها وأثوابها الصفر

حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ
أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَالِكُمْ أَوْ
بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ
عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا
عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا

﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَتٍ بِزِينَةٍ قَالَ
فِي (الصَّحَاحِ): «والتبرج إظهار المرأة زينتها ومحاسنها للرجال» انتهى ﴿وَأَنْ
يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ﴾ لعل معنى ﴿يَسْتَعْفِفْنَ﴾ يتركن ما يستميل
الرجال طلباً لعفتهم عنهن وذلك ببعض التستر، فالترخيص لهن لضعفهن،
وليس المراد به أن يبدن زينتهن، ولا أن يتعرضن للرجال، وليس ترخيصاً
في غيره من نظرها إلى الرجال أو الخلوة بالأجنبي أو ملامستها لجسمه أو نحو
ذلك، فهي باقية فيه على الأصل من حكم المرأة، لأنها مع كبر سنها تستطيع
الجماع وتلتذ به.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فهو يسمع كلامها ويعلم ما تسره في نفسها.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ
حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ
صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا

دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَرَكَةٌ طَيِّبَةٌ
كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٨٠﴾

رخص الله تعالى للأعمى والأعرج والمريض في ترك الجهاد ولذلك لا
ينفرون مع المؤمنين للجهاد بل يتخلف في بلده فإذا أعطي طعاماً من أحد
هذه البيوت فلا يتخرج منه لأن صاحب البيت غائب، ليس عليه جناح أن
يأكل منه، والخرج: الضيق، والعم هو أخو الأب سواء لأبويه أو لأحدهما،
والخال أخو الأم.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ وذلك بيت العبد إذا أعطي
سيده منه طعاماً فليأكل وإن كان لا يدري من أين حصل للعبد أو
لأهل العبد.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ فإذا أعطي الإنسان طعاماً من بيت
صديقه سواء كان أعمى أو أعرج أو مريضاً أو صحيحاً سوياً؛ لأن الله تعالى
قال: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ فالرخصة للكل في الطعام من البيوت
المذكورة؛ ولعل السبب أن الظاهر: رضا صاحب البيت في الأرحام
والصديق وأن الطعام أصله من مال السيد إذا أعطي من بيت عبده، ولم
يذكر الولد، وإذا كان باراً محباً لأبيه فهو مقيس على الصديق بطريق الأولى،
وإن كان عاقاً نافرماً من أبيه فلا يأكل من طعام أعطيه من بيته.

وكذلك الرخصة في الأكل لا تسري إلى غير الأكل من النقل إلى محل آخر
أو ادخار الطعام أو أخذ غير المطعوم أو الأكل من الطعام المخبو الذي لم
يعطه، فكل ذلك لم يدخل في الرخصة لأنه لم يدخل فيها إلا الطعام الآتي
من البيوت المذكورة.

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين على الطعام ﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾ متفرقين يأكل هذا الأعمى وحده وهذا الصديق وحده ونحو ذلك، وهذا الاجتماع فيمن يجمعهم سبب للرخصة، كأن يكون أحدهم ابنه، والثاني أخوه، والثالث عمه، وإلا تفرقوا بتفرق الأسباب إلا أن يعرفوا الأذن لهم في جمع طعام والاجتماع على أكله فلا بأس، وهذا كله في الطعام الصادر من البيت إلى غيره، فأما الدخول للأكل في البيت فلا ينبغي للأجنبي أن يدخل على نساء صديقه أو أخيه أو نحوه إذا لم يكن له قريبات محارم، فقلوه تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا﴾ ليس ترخيصاً في الدخول على الإطلاق إنما هو حيث لا يستلزم خلوة بأجنبية ولا لحوق تهمة وصاحب البيت آذن فلا مانع من الدخول.

﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي قولوا لهم: «السلام عليكم» وقوله تعالى: ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ اعتباراً لهم شيئاً واحداً كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ..﴾ [البقرة: ٨٤] ﴿تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ الله هو شرعها لكم فهي تحية ﴿مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ تدعو إلى حسن استقبالكم وصلاح ذات بينكم، ولعل فيها من البركة والطيب أكثر من ذلك لأنها من حسن الخلق؛ ولأنها من عند الله اختارها للمؤمنين ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ أي مثل هذا التبيين يبين الله للذين آمنوا، يبين لهم الآيات ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تفهمون وتعلمون ما تدل عليه الآيات فهي نعمة يجب شكرها وحجة لله على عباده.

إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَعِذُّونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ فَإِذَا أَسْتَعِذُّوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ

﴿٧﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَعِذُّوهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَعِذُّونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا أَسْتَعِذُّوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾

﴿٧﴾ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿٧﴾ محمد أنه رسول الله إلى الناس جميعاً، فأما إذا لم يؤمنوا به فليسوا بمؤمنين، وكذلك ليسوا مؤمنين إلا إذا كانوا منقادين لأمره ودعوته لا يخالفونه، فإذا ﴿٧﴾ كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ ﴿٧﴾ على مشاورة في مهمة مثلاً أو أمر جمعهم له الرسول ﷺ ﴿٧﴾ لَمْ يَذْهَبُوا ﴿٧﴾ من عند الرسول ﷺ بل يبقون حتى تنتهي المهمة إلا أن تعرض لهم مهمة تستدعي الذهاب فلا يذهبون من عنده ﷺ ﴿٧﴾ حَتَّى يَسْتَعِذُّوهُ ﴿٧﴾ دون أن يتسللوا ليذهبوا بدون إذن ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَعِذُّونَكَ ﴿٧﴾ ولا يتسللون.

﴿٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿٧﴾ لأنها بعثتهم الخشية من الله والخوف من عذابه على طاعة الرسول ﷺ وأن لا يذهبوا حتى يستأذنوه؛ لأنهم مؤمنون أنه رسول الله إيماناً صادقاً أوجب الله تعالى طاعته واتباعه ﴿٧﴾ فَإِذَا أَسْتَعِذُّوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ ﴿٧﴾ فقد أذن الله له أن يأذن، فإذا أذن كان الذهاب جائزاً وكان الذهاب على بصيرة من أمره ﴿٧﴾ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ ﴿٧﴾ للذين استأذنوا أسأل الله أن يغفر لهم ﴿٧﴾ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ ولعل استغفاره لهم ليطمئنون ولا يرتابوا في الاستئذان لخشية الغلط وتجوز أن الباعث على الاستئذان لا يستدعيه في الواقع وأن اعتقاده أنه يستحق الاستئذان اعتقاد غلط فاستغفار الرسول ﷺ يحو الشكوك - والله أعلم.

بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ أَلَا إِنَّ

﴿٢٢﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِأَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ لَا تَجْعَلُوهُ ﴿بَيْنَكُمْ﴾ بِاتِّفَاقِكُمْ وَتَوَافُقِ رَأْيِكُمْ أَنْ تَجْعَلُوهُ ﴿كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ يَكُونُ الْمَدْعُو مِنْ بَعْضِكُمْ غَيْرًا وَإِنْ بَعَثَهُ الْإِحْتِرَامُ لَهُ عَلَى الْإِجَابَةِ فَهُوَ إِذَا شَغَلَهُ أَمْرٌ مِنْ أَغْرَاضِ الدُّنْيَا يَعْتَذِرُ عَنِ الْإِجَابَةِ، فَلَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ هَكَذَا، فَتَعْتَبِرُوا الْمَدْعُو إِنْ شَاءَ أَجَابَ وَإِنْ شَاءَ اعْتَذَرَ، بَلِ اعْتَبِرُوا الْمَخَالَفَ عَاصِيًا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَاعْتَبِرُوهُ عَلَى مَنْكَرٍ يَجِبُ نَهْيُهُ عَنْهُ.

وقد ظهر أنهم كانوا متهاونين أعني الأكثر ولذلك شاركوا في معصية المخالفين من الرماة يوم أحد، وإنما ذلك بترك النهي وعدم الكراهية لما وقع منهم من بعض والرضى من بعض، وكذلك تنازعهم يوم الخميس بعد ما قال لهم ﷺ: «ائتوني بدواة وبيضاء أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده...» أو كما قال.

ففي الرواية أنهم انقسموا فريقين فريق مع الرسول ﷺ وفريق مع عمر في قوله: «حسبنا كتاب الله» وتنازعوا حتى نهاهم، وقال: «لا ينبغي عندي تنازع» أو كما قال، فكانت حالتهم تستدعي الزجر المذكور هنا، وفي (سورة الأنفال): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ..﴾ الآية [آية: ٢٤].

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾ يتسللون يخرجون من بين المجتمعين بخفية ﴿لِوَاذًا﴾ استتاراً مما يلزم الحاضرين عند الرسول ﷺ وذلك من المتسللين تهاون بدعاء الرسول لهم للاجتماع مثلاً لئلا يبلغهم شيئاً مما أرسل به أو يأمرهم بجهاد أو يشاورهم في أمر فيتسللون لئلا يسمعوا ما يأمرهم به حتى يتهاون لهم الاعتذار بأنهم لم يعلموا ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ﴾ قد تكررت منهم المخالفة ﴿عَنْ أَمْرِهِ﴾ عن أمر الرسول ﷺ وهي تعم مخالفة ما أمر به ومخالفة ما دعا إليه ومخالفة ما يريده ويرتضيه، هذا إذا كان أمره بمعنى الأمر الذي يدعو إليه أو يرتضيه فإن كان أمره ضد نهيه فالمعنى يخالفون عما أمر به أي لا يفعلونه مخالفين للذين يفعلونه.

وقال في (الكشاف): «ومعنى ﴿الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ الذين يصدون عن أمره دون المؤمنين وهم المنافقون، فحذف المفعول، لأن الغرض ذكر المخالف والمخالف عنه» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ من مضلات الفتن، أي ليحذروا أن تصيبهم عقوبة على مخالفة النبي ﷺ، وهي إما فتنة لأن الفتنة قد تصيب العاصين عقوبة كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣] وعلى هذا: فالذين يخالفون ليسوا هم المنافقين، لأن المنافقين قد أصابتهم الفتنة، كما قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠] وإنما هم الذين يخالفون تساهلاً وتهاوناً بخلاف الرسول كأنهم يُدُلُّون بأنهم قد أسلموا وهاجروا مثلاً وأنهم في سبيل الطاعة وإنما الخلاف عارض نادر تساهلاً بموضوع الخلاف كتخلف بعضهم عن حفر الخندق اكتفاء بمن يعمل فيه - والله أعلم.

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَنَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ
يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٦﴾

﴿أَوْ يُصِيبُهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عاجل أو آجل فليحذروا التهاون بدعاء
الرسول ﷺ.

﴿إِنَّا لِلَّهِ مَا فِي السَّمَنَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ
يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ هذه الآية الكريمة
خاتمة السورة يظهر أنها تؤكد أحكامها ونحث على العمل بها وبكل أحكام
الله تعالى، فقوله تعالى: ﴿إِنَّا﴾ حرف تنبيه يناسب غفلة الناس وقلة جدتهم
في طاعة الله وكثرة المعرضين عن أحكام الله وكذا التأكيد بقوله تعالى:
﴿إِنَّا لِلَّهِ مَا فِي السَّمَنَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يبين أن أحكامه فيهم هي الحق؛ لأن
المالك له أن يحكم في ملكه كيف يشاء من التكليف بما تقتضيه الحكمة وإن
شق على العباد كالحدود واللعان.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ من طاعة المطيع ومعصية العاصي
ومن كل أحوال المخاطبين ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ كما يعلم ما أنتم عليه
في الحال يعلم يوم يرجعوا إليه أهل السموات والأرض ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا
عَمِلُوا﴾ فهو يعلم شقيهم وسعيدهم، وينبئهم يومئذ بما عملوا من خير أو شر
لا ينسى مثقال ذرة ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فعلينا أن نراقبه ونتقيه ونطيعه
فيما أمر ونهى؛ لأنه يجزي كل نفس بما تسعى.

والحمد لله رب العالمين،
وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم

التفسير في التفسير



سورة الفرقان



سُورَةُ الْفُرْقَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾
الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ

ابتداء تفسير (سورة الفرقان)

قال الشريفي في (المصاييح): «مكية إلا ثلاث آيات» انتهى المراد

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ حكى الشريفي رحمه الله في (المصاييح): «عن الهادي عليه السلام أنه قال في تفسيره لـ (سورة الملك): معنى ﴿تَبَارَكَ﴾ هو تعالى وتقدس وجل وعظم من كل ما يقول فيه المشركون وينسب إليه الملحدون» انتهى، وفي (لسان العرب): «وتبارك الله: تقدس وتنزه وتعالى وتعظم» انتهى المراد.

والمناسبة في هذا المطلع واضحة؛ لأن المشركين يكذبون بآيات الله ويكذبون الرسل كما يأتي في هذه السورة، وهو سبحانه لم يترك عباده هملاً ونسبة ذلك إليه نفى لحكمته ولم يتركهم بلا نذير ينذرهم عذاب الآخرة والعذاب العاجل، وهو يتعالى عن تركهم بلا نذير بل قد أرسل الرسل ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] ومن ذلك إنزاله لهذا القرآن على عبده محمد ﴿لِيَكُونَ لِلْعَلَمِينَ نَذِيرًا﴾ فسبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

و﴿الْفُرْقَانُ﴾ هو الحجة القاطعة الفارقة بين الحق والباطل وهي هذا القرآن الذي عجز فصحاء العرب عن الإتيان بسورة من مثله، أنزله ﴿عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَلَمِينَ نَذِيرًا﴾ من حيث أنه دليل على صدقه، ومن حيث أن فيه الإنذار الكامل في سورته وآياته، مثل: (سورة القارعة) و(سورة الغاشية) و(سورة الحاقة) و(سورة الواقعة) و(سورة ق) و(سورة ق) وآيات الوعيد في القرآن كثيرة.

فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا تَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوَةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ

﴿٢﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٣﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿٤﴾ فله التصرف فيهما كيف يشاء، وله الأمر والنهي والحكم على أهلها بما يريد، وإنزال القرآن وإرسال الرسول حق له على عباده لملكه عليهم ﴿٥﴾ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴿٦﴾ كما زعم المشركون، فكان إعلام عباده بالحق وإخراجهم من الباطل وبيان تنزهه وتعالیه عن اتخاذ الولد وعن الشريك من أسباب إنزال هذا القرآن.

﴿٧﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴿٨﴾ فليس لأحد أن يحكم بخلاف حكمه بل الحكم لله وحده؛ لأن ﴿الْمُلْكِ﴾ - بضم الميم - له وحده ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ كما يشاء فهو المالك لكل شيء وكل من في السموات ومن في الأرض عباد له وحده لا شريك له.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ جعل لكل مخلوق مقداراً حسناً محكماً وذلك يدل على قدرته وعلمه ومملكه ومملكه؛ لأن في ذلك دلائل القدرة والعلم والدلالة على الملك من حيث خضوعها لتقديره، والملك من حيث دلت على أنه المالك فله الحكم والأمر والنهي.

﴿٩﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا تَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوَةً وَلَا نُشُورًا ﴿١٠﴾ وَاتَّخَذُوا ﴿١١﴾ عطف على الآية التي قبل هذه، فالمعنى: أنهم خالفوا مقتضى كونه تعالى ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآية، وصاروا في ذلك إلى الباطل،

هَذَا إِلَّا إِفْكَ أَفْتَرْنَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا
وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿١٩١﴾

فاتخاذهم للآلهة باطل من حيث أن الاتخاذ تحكم في ملك الله ومملوكه مع أنهم عباد ليس لهم أن يحكموا بشيء ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠] وأبطلوا من حيث جعلوا ما ليس إلهاً جعلوه إلهاً، وأبطلوا حيث جعلوا لأهتهم شركاً في أنفسهم مع أنهم عبيد الله وحده؛ لأنه الذي خلقهم ورزقهم، وما أشركوا به لم يخلقوا شيئاً لا عابديهم ولا غيرهم، بل معبودهم ﴿يُخَلِّقُونَ﴾ - بضم (الياء) وفتح (اللام) - سواء كان معناه: أنهم عباد الله كسائر خلقه؛ لأن الله هو الذي خلق الحجارة التي يعبدونها مثلاً، أو كان معناه: أنهم أي المشركون هم يصنعون لهم آلهة ينحتونها حتى تكون تماثيل أو يصوغونها من النحاس أو غيره كذلك، وهي بعد أن صنعوها لا تصير آلهة، وإنما هي أسماء سموها بلا حقيقة ولا حجة، فهي كما لو لم يصنعوها لا تزال عاجزة لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر.

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ﴾ فضلاً عن أن يملكوا للعابدين لا يملكون لأنفسهم ﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا﴾ لحي ﴿وَلَا حَيَوَةً﴾ لجماد ﴿وَلَا نُشُورًا﴾ إحياء لميت فلا وجه لاتخاذهم آلهة بل هو باطل من جهات عديدة ومخالف لمقتضى أنهم عباد الله الذي خلق السموات والأرض الذي له وحده ملكهما ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً، فالواجب عليهم أن يعبدوه وحده ويشكروه على نعمه كلها ولا ينسبوا شيئاً منها لشركائهم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكَ أَفْتَرْنَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ ﴿وَقَالَ﴾ عطف إما على قوله تعالى:

﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿٦﴾ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ﴾ فمقتضى ملكه أن ينقادوا لأمره ويصدقوا رسله، وإما على ﴿الَّذِي نَزَلَ الْفُرْقَانُ..﴾ الآية، فخالفوا مقتضى هذه الآية لأنهم في أمس الحاجة إلى نذير فلما جاءهم كذبوه، وكذبوا الفرقان الذي نزل الله عليه فقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ﴾ أي كذب وتغريب ﴿أَفْتَرَنَهُ﴾ محمد بزعمهم ﴿فَقَدْ جَاءُوا﴾ بقولهم هذا ﴿ظُلْمًا﴾ للرسول بقولهم: ﴿أَفْتَرَنَهُ﴾ ﴿وَزُورًا﴾ بقولهم: ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «فالإفك: البهتان، وافتراه: اختلقه» انتهى، قال في (الصحيح): «الزور: الكذب» انتهى، وكيف لا يكون صدقاً وقد عجزهم أن يأتوا بسورة من مثله وهم جمع كبير لو كانوا يستطيعون التعاون على ذلك لفعلوا، وهيهات ﴿قُلْ لَّيْسَ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

﴿وَقَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿وهذا منهم ظلم وزور كالذي قبله، ومعنى ﴿أَكْتَتَبَهَا﴾ اتخذ كاتباً يكتبها له؛ لأنه لا يكتب ﴿فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ﴾ ليحفظها ﴿بُكْرَةً﴾ في أول الصبح ﴿وَأَصِيلًا﴾ في آخر النهار، قال في (الصحيح): «والأصيل: الوقت بعد العصر إلى المغرب» انتهى، إن كان صدقاً فلماذا لا يستعملون نفس الطريقة ليأتوا بمثله؟! وقد عجزهم ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ [ق: ٥].

الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا

﴿٩﴾ ﴿قُلْ أُنْزِلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرِّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿السِّرِّ﴾ الخفي المكتوم فهو أعلم حيث يجعل رسالاته ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ولذلك يدعوكم ليغفر لكم وأرسل رسوله رحمة للعالمين.

﴿١٠﴾ ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ كقولهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ..﴾ [المؤمنون: ٣٣] فقولهم: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ﴾ تهكم به.

وقولهم: ﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ إشارة إلى أنه يحتاج ما يحتاج البشر؛ ولذلك يمشي في الأسواق، فقولهم: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ تنازل من اشتراط أن يكون الرسول ملكاً إلى أن يكون مصحوباً بملك، وقولهم: ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ﴾ انتقال إلى أنه يصح أن يكون الرسول بشراً وحده إلى أن يكون ذا ثروة بأن يلقي إليه كنز عند إرساله حتى لا يكون رسولاً فقيراً وحتى يستغني عن المشي في الأسواق باتخاذ خدم يمشون في الأسواق ويأتونه بحاجته منها.

وقولهم: ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ تنازل من اشتراط الكنز إلى اشتراط جنة يأكل منها، فهي ثروة خاصة بالأكل بخلاف الكنز؛ لأنه هنا من ذهب أو فضة أو منهما معاً، ثم انتقل المكذبون الظالمون، فقال

يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿١٦﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿١٧﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ

﴿الْظَّالِمُونَ﴾ لأنهم ظالمون لا يتخرجون من الكذب ولا من التكذيب بآيات الله والتكذيب لرسوله: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ غلب عليه السحر فهو يتوهم أن جبريل يأتيه ويتلو عليه قرآنًا، وهذا منهم باطل واضح البطلان يبطله أنه عجزهم أن يأتوا بسورة من مثله فإذا عجزوا وهم غير مسحورين فالمسحور أضعف وأعجز عن أن يأتي بمثل هذا القرآن، وهذا واضح، وإنما قالوا إنه مسحور عناداً منهم وظلماً.

﴿١٦﴾ ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ ﴿أَنْظُرْ﴾ يا رسول الله ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ التي جادلوا بها في الحق، وهي قولهم: ﴿مِلْ هَذَا الرَّسُولِ﴾ إلى قولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ﴾ إلى قولهم: ﴿مَسْحُورًا﴾ سميت أمثالاً؛ لأنها جعلت لتكون منتشرة انتشار الأمثال ليُظَلَّوا بها الناس ﴿فَضَلُّوا﴾ عن الحق وخذلوا عن طلب الحق ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ لأن الهداية إلى السبيل تتوقف على النظر الصحيح في دليل الحق وهم أعرضوا وجادلوا فلم يستطيعوا سبيلاً إلى الحق ولا يستطيعون سبيلاً؛ لأنهم خذلوا عقوبة لهم.

﴿١٧﴾ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيجْعَلُ لَكَ قُصُورًا﴾ ﴿تَبَارَكَ﴾ وتعالى وتقدس فهو لم يرسلك فقيراً إلا ابتلاء لهم ولم يكن ذلك لأنه لا يريد إكرام رسوله ولا لأن رسوله أرسل فقيراً غلطاً كما يزعمون سبحانه الله وتعالى، إنما حكمته قضت بإرساله بشراً فقيراً مع أنه أهل للكرامة في الآخرة، فأما هذه الدنيا فتكرمه فيها بأنها زويت عنه، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكَ﴾ معطوف على ﴿جَعَلَ لَكَ﴾.

وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقْرِنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾

﴿قُصُورًا﴾ أي دوراً عالية البناء، فهو تعالى قادر على ذلك غير غافل عنه ولكنه اختار لرسوله في هذه الحياة الدنيا ما هو خير له.

﴿١١﴾ ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقْرِنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا * لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ ليس الأمر كما اقترح المكذبون وكما جادلوا ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ أي بالقيامة فتجرؤوا على التكذيب والعناد مع وضوح الحق؛ لأنهم لا يخافون الآخرة.

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أعددنا وهيأنا ﴿لِمَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ ناراً تلتهب؛ لأن التكذيب بالساعة جريمة عظيمة وتترتب عليه جرائم ويقترن به التكذيب بقدرة الله والجهل بالله ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ﴾ النار ﴿مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ عنهم ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ صوتاً شديداً يدل على تغيط عليهم ﴿وَزَفِيرًا﴾ صوتاً لقوة التهابها، ووصفها بالغيط يدل على حياتها فلا مانع أن ترى أهلها وتنطق فتنادي: إلهي بأهلي.

ويدل على نطقها قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١] وكما تنطق الجلود بغير لسان يصح أن تنطق النار بغير لسان وترى بغير عيين، ولا مانع إلا قياسها على نار الدنيا وهو قياس ضعيف؛ لأن نار الدنيا لم تعد الحياة لجرد أنها نار، بل لو شاء الله لأحيائها؛

لأنه على كل شيء قدير هو يحيي ويميت، وقد وصف الله النار بأنها: ﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨] وخبره صدق، وأمور الآخرة تخالف أمور الدنيا بدليل أن الجوارح تشهد على العصاة، وليست في الدنيا تنطق، قال تعالى: ﴿وَتَكَلَّمْنَا أَيْدِيَهُمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥] ولا موجب للتأويل، فكذلك النار ترى العصاة وتتغيظ عليهم فيسمعون لها دليل التغيظ هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَزَفِيرًا﴾ أي وسمعوا لها زفيراً، قال في (لسان العرب): «وقال الزجاج: الزفر من شدة الأنين وقبحه» انتهى، وقال في (لسان العرب): «الزفر والزفير: أن يملأ الرجل صدره غماً ثم هو يزفر به» انتهى، وقوله: ثم هو يزفر به، يعني: يثن أنيناً يعبر عنه، ومن كلام الإمام علي عليه السلام: «في نار لها كلب ولجب ولهب ساطع وقصيف هائل» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ ألقوا: رمي بهم في النار وقذفوا فيها، والإلقاء إسقاط الشيء في مكان، وكان أبواب جهنم نعوذ بالله منها هي في جهة فوق فيلقى أهلها فيها من فوق - والله أعلم - وقوله: ﴿مِنْهَا﴾ أي من السعير المذكورة وهو بيان لما يلحقون فيه بأنه منها ﴿مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ ولعل ضيقه بوقوعه في زحمة أهلها، أو بوقوعه بين صخور منها.

وقوله تعالى: ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ إما أن يقرن بشيطانه مثلاً فيكونا في قيد واحد، وإما أن يقرن رأسه إلى قدميه في قيد واحد، والأول عذاب نفسي وجسدي، والثاني تضيق شديد - والله أعلم.

وقال الشرفي في (المصابيح): «تقرن أيديهم إلى أعناقهم: أي تربط» انتهى، والأظهر بالنسبة إلى اللغة العربية: أن المقرنين قرن بعضهم إلى بعض؛ لأن قرن الأيدي والأعناق ينسب إليهم على الحقيقة أعني إلى الأعضاء، وكذا قرن الرأس إلى القدمين.

قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءٌ
وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا
مَسْئُولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ

والحاصل: أن قرن الأعضاء ينسب إليها في الحقيقة، وإن نسب إلى الجملة مجازاً كما يقال قطع السارق، أي قطع يده، فالظاهر الحقيقة وأن قرن المكذبين بالساعة أن يقرن بعضهم إلى بعض.

وقوله تعالى: ﴿دَعُوا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ قالوا: يا ثبوره، كما يقال: يا ويلاه، والثبور: الهلاك؛ لأنهم شاهدوا هنالك العذاب الشديد وقعوا فيه، وقوله تعالى: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا﴾ لأن أسباب هذا الدعاء كثيرة، فالويل والثبور يقع عليهم من جهات عديدة بتعدد أنواع العذاب وتكرره على الدوام ﴿وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ فأنتم واقعون فيه، وأنتم في أوان الدعاء للثبور الكثير الذي لا نهاية له، وهذا بيان لوقوعهم في أنواع العذاب الشديد، ولا يفيدهم الدعاء شيئاً.

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءٌ
وَمَصِيرًا * هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾
﴿قُلْ﴾ يا رسول الله للمكذبين الذين استحقوا ذلك العذاب بسوء اختيارهم
﴿أَذَلِكَ﴾ العذاب ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ وهذا توبيخ
لأعداء الله وبيان لعظم خسرانهم؛ لأنهم خسروا الجنة وفاتهم كل خير مع
ذلك العذاب الشديد، ولو اتقوا ربهم وتابوا فازوا بما يفوز به المتقون، وجنة
الخلد جنة البقاء التي لا ينالهم فيها مكروه ولا موت، جمعت لهم الخلد بمعنى
السلامة من الآفات والخلد بمعنى السلامة من الموت.

أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ
يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَآبَاءَهُمْ حَتَّى
نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا
تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِم مِّنْكُمْ نُدِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا
﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ

وقوله تعالى: ﴿الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾ التي وعدوها لأجل التقوى فمن
اتقى الله فقد وعدا وهي جنة النعيم التي عرضها السموات والأرض
﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً﴾ على التقوى والطاعة والأعمال الصالحات، ﴿و﴾ كانت
لهم ﴿مَصِيرًا﴾ في الآخرة يصيرون فيها.

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ وهذا عام لكل ما تشتهيه الأنفس وما تلذ
العين ولكل غرض مراد ﴿خَالِدِينَ﴾ حال كونهم خالدين، فالنعيم خالص
لا يعارضه منغص والسعادة دائمة أبداً ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مُّسْتَوْلاً﴾
تأكيد للوعد وجعل للموعود به بمنزلة الواجب الذي تستحق المطالبة به،
وهو تأكيد للوعد ليرغب من يؤمن بوعد الله.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ
عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ * قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ
نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ
وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا * فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا
وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِم مِّنْكُمْ نُدِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ
سَعِيرًا﴾ فهو وعيد عليهم بما يلاقون يوم الحشر من الاحتجاج والتوبيخ

وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۖ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۚ

﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ يحشر معهم ﴿فَيَقُولُ﴾ الله لمعبوديهـم: ﴿ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي﴾ فصرفتهم عن سواء السبيل الذي هو عبادة ربهم ﴿هَتُؤَلَاءِ﴾ المشركين المحضرين مع شركائهم ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ من دون أن تضلّوهم أنتم؟

﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ﴾ تنزيه لله وتعجب من قول المشركين ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا﴾ لا يليق بحالنا ولا نستطيع لفرط بغضنا للشرك ﴿أَنْ نَّتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ يتولون رعايتنا ونكل إليهم أمرنا فضلاً عن أن ندعو المشركين إلى عبادتنا، فما نحن أضللناهم ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتُهُمْ﴾ بالنعـم ﴿وَوَآبَاءَهُمْ﴾ الذين أشركوا من قبلهم ﴿حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ الذي أنزلته على الرسل ذكراً لعبادك ليعبدوك ولا يشركوا بك فأقبلوا على ما متعتهم به وتركوا الذكر حتى كأنهم نسوه لفرط إعراضهم عنه واشتغالهم بالنعـم من المال والبنين ونحوهما ﴿حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ هالكين بالشرك وغيره من جرائمهم.

﴿فَقَدْ كَذَّبُواكُمْ﴾ أيها المشركون كذبكم من كنتم تعبدون واعترف أنه عبد لله ما ينبغي له أن يتخذ من دونه ولياً ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ ما يستطيع المعبودون ﴿صَرَفًا﴾ للعذاب عنكم ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ لكم ﴿وَمَنْ يَظْلِم مِّنْكُمْ نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ والراجع عندي أنه الالتفات عام للمخاطبين بالقرآن لأن الوعيد قبله خاص فيمن كذب بالساعة، فقال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَبَ يَالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ فجاء الالتفات إلى المخاطبين إنذاراً بالعذاب لكل من يظلم أي ظلم كان - والله أعلم.

وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَتِيكَةُ أَوْ تَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا

﴿٢٠٠﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ يَا مُحَمَّد ﴿٢٠٢﴾ مِنَ الْمُرْسَلِينَ أَحَدًا ﴿٢٠٣﴾ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴿٢٠٤﴾ فَبَطَلَ قَوْلُ الْمَكْذِبِينَ: ﴿٢٠٥﴾ مَلِ هَذَا الرُّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴿٢٠٦﴾ فالرسل كلهم كذلك.

﴿٢٠٧﴾ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴿٢٠٨﴾ اخْتِبَارًا ﴿٢٠٩﴾ أَتَصْبِرُونَ ﴿٢١٠﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «وفي تفسير هذه الآية الكريمة يقول محمد بن القاسم عليه السلام: يعني سبحانه أنه جعل المرسلين والمرسل إليهم أجمعين فتنة بعضهم لبعض، والفتنة هاهنا: اختبار ومحنة، فامتنح صبر المؤمنين وطاعتهم بأداء الرسالة وتبليغها، وامتنح الذين أرسل إليهم بالإيمان والتصديق برسالته وما جاؤوا به من الحجج البينة الدالة على النبوة وبما امتحنهم مع رسله وعلى أيديهم من فرائض دينه وطاعته والانتهاه عما نهى عنه من معصيته» انتهى المراد.

فالحاصل: أن الله تعالى ابتلى بعض عباده ببعض من ذلك ابتلاء الرسل بأمرهم وابتلاء الأمم برسولهم، فالرسول يحتاج إلى الصبر على أمته ليبلغهم الرسالة ويقيم عليهم الحجة وإن كذبوه وآذوه، والأمم تحتاج إلى الصبر على طاعة رسولهم، ومن ذلك ابتلاء الرسل بالجهاد حيث أمروا به، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤] ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ في اختبار عباده وجزاء كل عامل بما هو أهله وفي كل شيء.

﴿١٦﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا ﴿١٧﴾ وَقَدْ مَنَّآ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿١٨﴾

﴿١٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿١٧﴾ وَقَالَ عِطْفُ إِمَّا عَلَى قَوْلِهِمُ السَّابِقِ، وَإِمَّا عَلَى ذِكْرِ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَنَحْوِهِ ﴿الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ الْكُفْرَةُ الْفَجْرَةُ الْمَعْرُضُونَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَا يَتَّقُونَ فَلَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ رَجَاءٌ فِي لِقَاءِ اللَّهِ كَمَا يَلْقَاهُ أَوْلِيَائِهِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا وَلَمْ يَتَّقُوا فَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ سَبَبٌ يَرْجُونَ مِنْ أَجَلِهِ ﴿بَلِ إِذَا دُكِّمْتُمْ فِي الْأَخِيرَةِ بَلٌ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلٌ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦] قَالُوا: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ رِسَالًا مِنْ اللَّهِ إِلَيْنَا إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُرْسِلَ إِلَيْنَا، وَمَعْنَى ذَلِكَ نَفِي رِسَالَةِ الْبَشَرِ ﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ فَيَأْمُرُنَا بِمَا يُرِيدُ مِنْ دُونِ رَسُولٍ فَلَا حَاجَةَ إِلَيْنَا إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِمُحَمَّدٍ بَزْعَمِهِمْ.

﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أَضْمَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ كِبْرًا مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ﴿وَعَتَوْا﴾ عَنِ الْحَقِّ وَتَمَرَّدُوا ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ قَالَ الشَّرْفِيُّ فِي (الْمَصَابِيحِ): «قَالَ فِي (الْبَرْهَانِ): وَالْعَتُو: السَّرْفُ فِي الظُّلْمِ وَالتَّجْبِيرُ وَالْعَصْيَانُ وَالنَّفُورُ عَنِ الْهَدْيِ» أَنْتَهَى الْمُرَادُ.

﴿١٨﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا ﴿١٩﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ أَيُّ لَا بُشْرَى لَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ مُجْرِمُونَ تَسَوَّقُهُمُ الْمَلَائِكَةُ إِلَى مَوْقِفِ الْحِسَابِ، ثُمَّ تَسَوَّقُهُمْ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ، فَلَيْسَ لَهُمْ خَيْرٌ فِي أَنْزَالِ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمْ.

وقد فاتتهم البشرى التي تنزل بها الملائكة على أولياء الله، كما قال تعالى: ﴿تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [نصك: ٢٠٠] فالمكذوبون تفوتهم البشارة عند نزول الملائكة ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ أي حراماً محرماً، وهي كلمة إما يقولها المجرمون تعوداً على ما عهدوا في الدنيا أن يتعوزوا بها إذا خافوا عدواً يقول قائلهم: حجراً محجوراً أي حجرت عني حجراً وحرمت عليك حراماً، وإما يقولها الملائكة بدلاً من البشرى أي حراماً محرماً عليكم ما يبشر به المتقون.

قال في (الصحيح): «والحجر: الحرام - ثم قال - : ويقول المشركون يوم القيامة إذا رأوا ملائكة العذاب: ﴿حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ أي حراماً محرماً يظنون أن ذلك ينفعهم كما كانوا يقولونه في الدار الدنيا لمن يخافونه في الشهر الحرام» انتهى، ومثله في (مفردات الراغب) فعلى هذا يتعوزون من ملائكة العذاب بعد أن قالوا في الدنيا: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ والله أعلم.

﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ أي أحبطنا يوم القيامة ﴿مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ ظنوه نافعاً كإغاثة لهفان أو عمارة المسجد الحرام، فلا ينفعهم؛ لأن العمل إنما يتقبله الله من المتقين، وإحباطه يوم القيامة الحكم ببطلانه وعدم نفعه، وهذه الآية الكريمة تصور إبطاله بصورة إتلاف جسم مزق وتبددت أجزاؤه حتى صار ﴿هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ في الهواء كما مثل في (سورة النور) بالسراب.

قال الراغب: «والهباء: دقاق التراب وما نبت في الهواء، فلا يبدو إلا أثناء ضوء الشمس في الكوة» انتهى، وقوله: ما نبت، الراجح أنه غلط، وأن الأصل: ما انبت، وقال الراغب: «نثر الشيء: نشره وتفريقه» انتهى.

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَنُزِلَ الْمَلَكُوتُ تَنْزِيلًا ﴿٢٢﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٣﴾ وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ

﴿٢١﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم يرون الملائكة وكان على أعداء الله ما ذكره، يقابله يومئذ أن أصحاب الجنة ﴿خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ لأن الجنة خير من النار ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ ولعل مقيلهم عقيب وصولهم الجنة فهم في ظلال على الأرائك متكئون فهو مقيلهم إذا كان مقيلًا اسم المكان الذي يقلون فيه، فإن كان المصدر أي القيلولة فقلولتهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِئُونَ﴾ [يس: ٥٥-٥٦] والله أعلم، أما مقيل المجرمين ففي جهنم نعوذ بالله منها، أو في موقف الحساب، وليس ذلك لهم مقيلًا حقيقياً، ولكن على المشاكلة التقديرية.

﴿٢٢﴾ وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَنُزِلَ الْمَلَكُوتُ تَنْزِيلًا * الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿وَيَوْمَ﴾ عطف على ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ وإما على الكلام في أهل النار وأهل الجنة جملة، فعلى الأول ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ﴾ لا بشرى يومئذ للمجرمين، وعلى الثاني فيه وجهان: الأول: واذكر يوم تشقق، الثاني: الملك يوم تشقق السماء، فالظرف متعلق بالملك وأعيد يومئذ تأكيداً، وتشقق السماء تمزقها عند فنائها.

وقوله: ﴿بِالْغَمَمِ﴾ كأنها تنحل مع تمزقها إلى غمام ﴿وَنُزِلَ الْمَلَكُوتُ﴾ من السماء إلى موقف العرض والحساب ﴿تَنْزِيلًا﴾ تحقيقاً لتنزيلهم ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ الملك الحق لله لأنه المالك ولأنه يومئذ يحكم بين عباده بالحق،

يَقُولُ يَلِيَّتِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَوَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ

ويحكم فيهم بالحق، ويشيب ويعاقب بالحق، وقوله: ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾ يبين: أن أصل قضائه الرحمة، وإنما يؤتى المجرمون من جهة أنفسهم ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ العسر: ضد اليسر وعسره عليهم شدته من أوله عليهم حتى يدخلوا جهنم ويستقروا فيها، فالسوق إلى المحشر عسير والحساب عسير وسوقهم إلى جهنم عسير وإلقاؤهم فيها عسير.

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلِيَّتِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ * يَوَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ﴾ إما عطف على ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ يبين ما يكون في ذلك اليوم، وإما عطف على ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ﴾ وإما عطف على كل الكلام في الآخرة ﴿يَعَضُّ الظَّالِمُ﴾ بأضراسه ﴿عَلَى يَدَيْهِ﴾ من الندم.

فقوله تعالى: ﴿يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ كناية أريد فيها المعنيان، أي عبر به عن المعنى الحقيقي للعض وعن الندم ﴿يَقُولُ﴾ من الندم: ﴿يَلِيَّتِي أَخَذْتُ﴾ إلى ربي ﴿مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ لأنجو من العذاب ﴿يَوَيْلَتِي﴾ كدعاء الثبور ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ أي أني لو لم اتخذه خليلًا لأمنت واتقيت فلم أعذب.

﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ عن القرآن الذي هو الآية النافعة المنقذة من النار لمن اهتدى به ﴿أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ حين جاء به الرسول

مَهْجُورًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۖ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٢١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٢٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا

ومن يتلوه من بعده ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ فقد خذله شيطانه الذي اتخذ في الدنيا خليلاً؛ لأنه في الآخرة انقلب عدواً له وهي عادة كل شيطان من شياطين الإنس والجن أن يخذلوا من أضلوه حين يحيط به سوء عمله.

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ أي يوم القيامة يشهد عليهم الرسول ﷺ فيقول: ﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ أي جعلوه أمراً يجب هجرانه والابتعاد عنه كما فعل الملحدون الذين قالوا: إن القرآن حجر عثرة في طريق التقدم، فقد سبقهم المشركون، فاتخاذهم له ﴿مَهْجُورًا﴾ ليس مجرد أنهم هجروه، بل هو أنهم اجتنبوه وحذروا منه واستمروا على ذلك، وهنالك يحكم الله عليهم ويجزيهم بما قدموه.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۖ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كما أن هؤلاء الكفار الذين قالوا: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ أعداء لرسول الله ﷺ خلاهم الله ومكنهم وأرسل عليهم الشياطين فأضلّتهم وحرّضتهم على معاداة الرسول ﷺ كذلك كل نبي من أنبياء الله جعل له عدواً من المجرمين بالتمكين والتخلية والترف وسعة الحال حتى عادوا نبيهم ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ يا رسول الله ﴿هَادِيًا﴾ فلا يضلّك الأعداء ﴿وَنَصِيرًا﴾ فلا يقهرك الأعداء فلا تُبالِ بعداوتهم.

جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ

﴿٣٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٧﴾ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ﴿٣٦﴾ أَيُّ مُحَمَّدٍ ﴿الْقُرْآنُ﴾ وهذا استهزاء منهم؛ لأنهم لم يؤمنوا بنزوله عليه مفرقاً، وأرادوا أنه إن كان من الله فهلا نزل ﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ غير مفروق أجاب الله تعالى عليهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي على الوجه الذي ينزل عليك أي مفرقاً مع تفرق الأسباب لنزله عليك ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ وثبات القلب ثباته على الحق واطمئنانه به، فهو يثبت بتجدد الوحي عند كل سبب ويرسخ فيه ما نزل لفظاً ومعنى لوجوده عند الحاجة إليه فيطمئن به القلب أكثر.

﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ قال الشرفي في (المصاييح): «وأصل الترتيل في الأسنان وهو تباعدها، فمعنى الترتيل في الكلام: أن يأتي بعضه على إثر بعض على تودة وتمهل» انتهى، فنبه الله على ما هو الأهم من تنزيله جملة وهو نزوله على ما تدعو إليه الأسباب، ومفروقاً يتجدد بنزوله تعهد الرسول ﷺ بالوحي متعدداً مكرراً. ثانياً أنه مرتل مفصل يسهل فهمه على السامعين ترتيلاً كاملاً وذلك بنزوله مرتلاً وأمر الرسول ﷺ بترتيله فأكملت به الحجة البالغة.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ ﴿بِمَثَلٍ﴾ كلام يحتاجون به، كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] وهذا تأنيس للرسول ﷺ لئلا يهمه جدالهم بالباطل،

وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٢٠٦﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَرْنَهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٢٠٧﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ

فالله تعالى يكفيه مؤونة الرد عليهم، كما رد على قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ وعلى قولهم: ﴿مَنْ يُخَيِّ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] رد عليهم وجاء رسوله ﷺ ﴿بِالْحَقِّ﴾ في معناه، ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ في التعبير وحل شبهتهم. قال في (أساس البلاغة): «كل ما ترجم عن حال شيء فهو تفسرته» انتهى.

﴿الَّذِينَ تَحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «ومعنى ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ من مكان محمد عندكم، وذلك أنهم كانوا يضللون سبيله ويحتقرون مكانه، ف قيل: لو علمتم أنكم تسحبون على وجوهكم لعلمتم أنكم شر مكانًا وسيلكم أضل» انتهى.

فهم ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ لأنهم أسوأ حالا؛ لأن مكانهم جهنم ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ لأن سبيلهم أداهم إلى جهنم أي طريقتهم التي كانوا عليها في الدنيا أدتهم إلى عذاب جهنم، وفي حشرهم على الوجوه إهانة لهم قبل إهانتهم بالعذاب في جهنم، ويرجح أن هذه الآية من الجواب على قولهم: ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ لما تشير إلى دعواهم أنه فقير - والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَرْنَهُمْ تَدْمِيرًا﴾

﴿الْكِتَابَ﴾ التوراة كما آتيناك القرآن فلست بدعا من الرسل ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ رَسُولًا﴾ ﴿أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ معينا ﴿فَقُلْنَا أَذْهَبَا﴾ أمر لموسى وهارون أن يذهبا ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [يونس: ٧٥] ﴿إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ

أَغْرَقْنَهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٧٧﴾
وَعَادًا وَثُمُودًا وَأَصْحَبَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٧٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا

كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا ۖ حِينَ جَاءَهُمْ بِهَا مُوسَى ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ أَهْلَكْنَاهُمْ
إِهْلَاكَاً بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بِآيَاتِنَا.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ﴾ أي أرسلناه معه ﴿إِلَى
فِرْعَوْنَ وَمَلَأُوهُ﴾ [يونس: ٧٥] ﴿فَقُلْنَا أَذْهَبًا﴾ فقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا﴾ تفریع على
قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ﴾ لا على إيتاء موسى الكتاب، فالسياق
ليبين سنة الله تعالى في إنزال الكتب وإرسال الرسل وسنة الله تعالى في
تعذيب المكذبين، فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ في الموضوع
الأول وما بعده في الموضوع الثاني.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ
وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ هذه الآية جمعت الكلام في الموضوعين:
الإرسال للرسل، والتعذيب للمكذبين باختصار، وقوله تعالى: ﴿لَمَّا
كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ إما أنهم كذبوا بالرسالة للبشر فكان معناه أنهم كذبوا
الرسل كلهم لأنهم بشر، وإما أنهم قالوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾
[المؤمنون: ٢٤] وكانت قد خلت من قبلهم رسل إن كان كذلك الأمر والله
أعلم، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ كان إهلاكهم بالإغراق آية
للناس تدل على أن الله تعالى لم يهمل عباده بل إنه يجازي كلأ بعمله كما
أنها كانت من دلائل قدرة الله تعالى وعلمه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ﴾ إما أقيم الظاهر مقام المضمر أي
أعدنا لهم، وفائدته التعليق على الظلم كله لا مجرد التكذيب، وإما أعدنا
للظالمين كلهم قوم نوح وغيرهم فهم داخلون في العموم دخولاً أولياً والكل
معذبون على التكذيب وسائر ظلمهم.

لَهُ الْأَمْثَلُ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٢٠٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرَتْ
مَطَرًا سَوِيًّا ۖ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٢١٠﴾

﴿٢٠٩﴾ وَعَادًا وَثُمُودًا وَأَصْحَبَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا
ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَلُ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٢١٠﴾ قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَبَ الرَّسِّ﴾ قال
فيه الشريفي (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه: أصحاب
البئر الذين قتلوا نبيهم - صلوات الله عليه - في الرس وهي البئر القليلة الماء
إذا حفرت ولم تطوَّ فهي الرس، قال زهير:

بكرن بكوراً واستحرن بسُحرة فهن وواد الرس كاليد في الفم

انتهى، والبيت في (المعلقات السبع) بلفظ: «كاليد للفم» وفي (أساس
البلاغة): «ووقع في الرس في البئر التي لم تطو» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ قال الراغب: «القرن: القوم
المقترنون في زمن واحد، وجمعه: قرون» انتهى، فهم أمم سبيلها سبيل عاد
وثمود، وقوله: ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي بين المذكورين ﴿كَثِيرًا﴾ ولعلمهم من بعد
ثمود، وقبل فرعون وقومه ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَلُ﴾ هديناهم للحق
بالكتب والرسال التي بينا بها الحق ﴿وَكُلًّا تَبَرْنَا﴾ أهلكنا ﴿تَتْبِيرًا﴾ إهلاكاً،
قال في (لسان العرب): «والتبار: الهلاك وتبره تتبيراً أي كسره وأهلكه» انتهى.

﴿٢١٠﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرَتْ مَطَرًا سَوِيًّا ۖ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا
بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٢١١﴾ الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرَتْ﴾ هي قرية قوم
لوط، قال الشريفي في (المصابيح): «هي سدوم» انتهى ﴿مَطَرًا سَوِيًّا﴾ مطر
الأحجار الذي عذبوا به، فقريش قد أتوا على هذه القرية في سفرهم كما
قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُفُّ لَكُمْ لَتْمُهُمْ عَلَيْهِمْ مُصْهِجِينَ * وَيَا لَيْلٍ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿١١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَن أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ بل قد كانوا يرونها وفيها عبرة لهم ولكنهم غافلون ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ لا يرجون حياة بعد الموت فلا يخافون النار ولا يرغبون في الجنة؛ ولذلك فهم منهمكون في طلب حاجات دنياهم، قال الشرفي في (المصابيح) في تفسير ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾: «أي لا يأملون ولا يظنون النشور» انتهى المراد.

والحاصل: أنهم لا يخافون الآخرة، ويمكن إبقاء الرجاء على حقيقته لأن الذي يخاف الآخرة هو الذي يرجو رحمة ربه، وهو صاحب الضمير الحي والفطرة السليمة، فيكون قوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ﴾ كناية عن فسادهم بنفي صلاحهم.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا * إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَن أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾ أي الذين مر ذكرهم من أول السورة واتخذوا من دونه آلهة، وإذا رأوك يا رسول الله ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ ما يتخذونك ﴿إِلَّا هُزُوءًا﴾ كفرأ منهم ومعاندة للحق، فيقولون: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ تحقيراً له وادعاء أنه ليس أهلاً لذلك ﴿إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ وهم يتظاهرون بالإنصاف وعدم التعصب والعناد ﴿لَوْلَا أَن صَبَرْنَا﴾ أي حبسنا أنفسنا على آلهتنا لنبقى على عبادتها، وهم في هذا يوهمون أنه قد اتضح لهم أنه ليس رسولاً فيقال لهم: لماذا؟ ما الذي أوجب هذا الكلام؟

أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿١٢﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿١٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ

هل تخلف عن صفة الرسالة؟ أم نزل عليكم وحي؟ أم ماذا؟ بل هو العناد والتضليل والكذب لا غير، ولذلك فمصيبرهم العذاب ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ وهم هم أضل سبيلاً؛ لأنهم عدلوا عن سبيل الله ولو آمنوا بالرسول واتبعوه لنجوا من العذاب.

﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ﴿اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ عبد هوى نفسه؛ لأنه اتخذ إلهه ما يهواه لأنه يهواه لا لحجة ولا شبهة بل لمجرد هواه ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ لترده عن باطله وتهديه إلى الصواب، مع أنه لا يتقيد بحجة ولا يلتفت إلى طريق حق؛ لأنه لا يلتزم بشيء إلا هواه، فلا سبيل لهدايته فلا تكون عليه وكيلاً لتهديه.

﴿أَمْ﴾ بل اتحسب ﴿أَنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أكثر هؤلاء الكفار ﴿يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ أي أكثرهم لا يسمعون؛ لأنهم يكرهون سماع الحق فهم معرضون عن استماعه ولذلك لا يسمعون ولا يعقلون؛ لأنهم لا ينظرون ليعرفوا الحق بل هم معرضون عن النظر مهملون لعقولهم ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ﴾ لإهمالهم أسماعهم وعقولهم، فكانهم لا يسمعون ولا يعقلون كالأنعام ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أضل من الأنعام سبيلاً؛ لأن الأنعام لا إثم عليها ولا يقبح منها عدم السمع للحق ولا عدم العلم به؛ لأنه لا عقول لها، أما هؤلاء الكفار فإن لهم عقولاً ولكنهم أهملوها فقبح منهم الإعراض فكانوا أضل من الأنعام عن سواء السبيل.

﴿١٥﴾ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا
ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿١٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا

﴿١٥﴾ ﴿١٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا
الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿١٥﴾ ﴿١٦﴾ يحصل مع
وقوع شعاع الشمس على الأرض، فكل منتصب يكون له ظل، وهذا الظل
يكون في أول النهار ممدوداً ومتحركاً ينحرف قليلاً وينقص قليلاً قليلاً ﴿١٥﴾ وَلَوْ
شَاءَ ﴿١٥﴾ الله الذي أطلع الشمس ﴿لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ بإسكان حركة الشمس
وحركة الأرض، فهذا دليل على قدرة الله؛ لأنه تصرف في الأرض
والشمس مع ما بينهما من البعد، وعلى علمه تعالى؛ لأن الظل يتحرك بنظام
محدود تحديداً محكماً حتى يكون وسط النهار منقبضاً.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ بعد كون الظل ممدوداً بمهلة
يكون حر الشمس على ما يقع عليه شعاعها، وهذا الحر يبعث الإنسان وغيره
على الاستظلال فتكون فائدة شعاع الشمس للأرض والشجر ومع ذلك يكون
الظلال نعمة للإنسان وغيره، فكان الشمس هي التي تقول للإنسان اذهب إلى
الظل فكانت دليلاً للإنسان على الظلال أي باعثة عليه ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ﴾ أي
الظل ﴿إِلَيْنَا﴾ بقدرتنا حين يقوم كل منتصب في ظله ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ سهلاً
محدوداً لا تطول مدته، بل يبقى مقبوضاً قليلاً ثم يفىء الفيء فيزداد إلى آخر
النهار، فالظل خاضع لتصرف الله فيه بالمد والقبض وتحديدتهما وهو نعمة،
فقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾ تعجيب من صنع الله تعالى في الظل ونعمته
وهو يذكر بتدبيره تعالى في الأرض والشمس وفي تسهيل القبض بتقليل مدته
حكمة ليستريح الإنسان من الكد إلى القيلولة - والله أعلم.

وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا
بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُخْضِيَ بِهِ
بَلَدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأُنَاسٍ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ
بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي

﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ لَيَالٍ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٨﴾
﴿لِبَاسًا﴾ يستر الأبدان من شعاع الشمس ويحفظ لها رطوبتها ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾
قطعا للأعمال فتكون به راحة جسدية وفكرية يستعيد بها الإنسان ما نقص من
قوته بالكد في النهار والأعمال الفكرية ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ ينتشر الناس فيه
لطلب المعاش، فهو الذي جعل هذه الثلاث نعمة للإنسان ورحمة.

﴿٤٩﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ وَأَنْزَلْنَا مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِّنُخْضِيَ بِهِ بَلَدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأُنَاسٍ
كَثِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾
﴿نُشْرًا﴾ النشر ضد الطي، قال تعالى: ﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾
[الطور: ٢-٣] والرياح تثير في الجو سحباً، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ
الرِّيحَ فَّتَئِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [الروم: ٤٨] فإما أن يكون معنى
﴿نُشْرًا﴾ أنها تنشر السحاب في الجو، وهذا أقرب إلى الحقيقة، وإما أن يكون
معنى ﴿نُشْرًا﴾ أنها تسبب للمطر وبذلك تنشر الرحمة، والأول أرجح عندي،
وقوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي بين يدي المطر الذي هو رحمة أي
قبل المطر فهي تبشر به، هذا على قراءة ﴿نُشْرًا﴾ بـ(النون) فأما على قراءة
﴿بُشْرًا﴾ بالموحدة من أسفل فمعناه سبب بشر؛ لأنها تبشر، كما قال تعالى:
﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦] أي بالمطر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ فمعناه: أن الله جل جلاله تولى إنزاله؛ لأنه ينزل بقدر محدود لا يختلط في الجو فيضر ما وقع عليه بل ينزل كأنه من غربال، ولا ينزل قبل بلوغه سماء الأرض التي يريد تعالى سقيها، وقوله تعالى: ﴿طَهُورًا﴾ أي بليغ في نظافته وسلامته من الغبار إلى حد بعيد مع أن أصل السحاب من الغبار، وكل ذلك إرسال الرياح بقدر وإنزال المطر بقدر دليل على قدرة الله تعالى وعلمه وفضله على عباده.

وقوله تعالى: ﴿لِنُخَيِّ بِهٖ بَلَدَةً مَّيِّتًا﴾ والبلدة اسم لما يسكنه الناس ويكون في العادة لهم فيها حرث وأنعام تحتاج إلى المرعى فيحييها ربها بالمطر فينبت الزرع وتخضر الشجر وينبت المرعى، وقد كانت قبل ذلك كالميتة لا تنبت شيئاً من النبات، وهذا يشير إلى قدرته تعالى على البعث للموتى، ففي هذه الآيات إبطال لجحد الكفار للبعث وبيان لقدرة الله تعالى عليه، وتفيد: أن الله هو المنعم على عباده فهو المستحق للعبادة لا أصنام المشركين، فهي لا تفيدهم شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿وَنُسْقِيهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَنَاسِيًا كَثِيرًا﴾ يفيد الدلالة على قدرته ونعمته على الأنعام التي تشرب منه وعلى أهلها وعلى كثير من الناس لا يجدون ما يشربون إلا من ماء المطر، فأنزل المطر عليهم ليسقيهم نعمة منه ورحمة، ولم يكونوا يقدرون على إنزاله من السحاب لا هم ولا أصنامهم التي هي أعجز منهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾ الراجح أن الضمير للماء الطهور وأن يبين لعباده أنه هو أنزله لا الطبيعة ولا النجوم؛ لأن تصريحه بإنزاله مرة على هؤلاء من الناس دون غيرهم ثم على آخرين كذلك ثم على آخرين كذلك،

كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَهْدُهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ * وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فَرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ

وفي بعض الحالات يعم بالأمطار بلداناً كثيرة، فاختلاف أحواله في نزوله دليل على أنه تابع لإرادة الله جلّ جلاله.

ولقد يكون السحاب على بلد محتاج إلى المطر فيتوقعون نزوله عليهم ثم لا يلبث أن ينصرف عنهم دون أن ينزل عليهم، وذلك يدل على أنه لا الطبيعة ولا النجوم ولا السحاب، بل الله ينزله بإرادته سقيهم متى شاء، وتصريفه يذكرهم بالله ليشكروا نعمته، ويقولوا: مطرنا بفضل الله ورحمته، وليسألوه المطر متى رأوه ينزل على غيرهم ولا ينزل عليهم، وليتوبوا ويستغفروا إذا ذكروا أن سبب تأخيرهم عنهم ذنوبهم، فهذا كله من معنى قوله تعالى: ﴿لِيَذْكُرُوا﴾.

أما قوله تعالى: ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ فإذا نزل المطر نسبوا نزوله إلى النجوم أو الطبيعة غير شاكرين لله، وإذا منع المطر عنهم اشتغلوا بطلب الرزق من غير بلدهم وتفرغوا للكد في طلبه دون أن يذكروا الله تعالى ويرجعوا إليه، وبعضهم لأجل قنوطهم من رحمة الله يسخرون من الناس الخارجين في الاستسقاء، ولكثرة الكفر وانتشاره في الناس احتاجوا إلى إرسال الرسل مبشرين ومنذرين فأرسل الله رسله بالآيات الدالة على صدقهم وعلى صدق إنذارهم، فعجب الكفار من إرسال محمد ﷺ وليس ذلك عجيباً في قدرة الله تعالى.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا * فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَهْدُهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ ﴿٥١-٥٢﴾ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ فضلاً

أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿١٩﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۚ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٢٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ

عن إرسال نذير واحد إلى القرى كلها، فليس ذلك عجباً في قدرة الله تعالى ولا بعيداً في قدرته وحكمته وفضله على عباده ورحمته ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ بترك إنذارهم على شركهم وأعمال جاهليتهم وتكذيبهم ﴿وَجَنِّدْهُمْ بِهِ﴾ أي بالقرآن الذي فيه الإنذار والاحتجاج عليهم ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ يفيد الصبر والجد واليقين بأنك على الحق، فلا يصدنك بتكذيبهم وأذاهم وتخويفهم، وفي الآية دلالة على الجهاد بالحجة إذا كان بمثابة ومصابة فهو جهاد كالجهاد بالسلاح وله فضل الجهاد إلا أن فضل الجهاد متفاوت.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ حكى الشريفي في (المصابيح) في تفسير (سورة الرحمن): «عن الهادي عليه السلام أنه قال: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٩] معناه: خلقهما وجعلهما وبعثهما وأجراهما وأساخهما على وجه الأرض..» إلى قوله: «والبحران فهما البحر المالح والبحر العذب، وهو الذي يسمى دجلة والبحر المالح الذي بمصر إلى فارس، وهما يلتقيان بموضع يقال له رأس نهر السد عند مقصاه من البصرة، ومعنى ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ فهو جعلهما يلتقيان ويصطدمان فقدّرهما سبحانه على ذلك من الشان فيلتقي البحرين حتى ينظر إليهما الناظر بالعينين، وتقف السفن على ملتقاهما، فينظر شق السفينة هذا أخضر وشقها هذا أبيض، تشرب من يمينها مالحة ومن يسارها عذبة، ليس بينهما سبب يحجزهما» انتهى المراد.

وكننت أظن أن (مجمع البحرين) عند البلدة المسماة (البحرين) فوصل إلي رجل من أهلها فسألته عن (مجمع البحرين)؟ فأفادني أنه مقابلها بإزائها، وأنهما ملتقيان لا فاصل بينهما، كما حققه الإمام الهادي عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ فيما حكاه الشرفي عن الإمام الهادي عليه السلام في تفسير (سورة الرحمن) أنه قال: «والبرزخ، فهو فعل الله تبارك وتعالى فيهما وتقديره لالتقائهما واصطدامهما وما حجرهما به من قدرته سبحانه عن اختلاطهما» انتهى المراد، فالبحر حائل معنوي، والحجر المحجور، الحجر بفتح أوله وسكون ثانيه: هو المنع، أي أن الله - جلّ جلاله - جعل بينهما مانعاً من اختلاط العذب بالملح الأجاج بقدرته، وقوله تعالى: ﴿مَحْجُورًا﴾ تأكيد ودلالة على بقاء المنع واستمراره، كأنه ممنوع من الذهاب - والله أعلم.

قال الراغب: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ أي منعاً لا سبيل إلى رفعه ودفعه» انتهى.

وقال (صاحب الكشاف): «فإن قلت: ﴿وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ ما معناه؟ قلت: هي الكلمة التي يقولها المتعوذ [وقد فسرناها عند قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾] وهي هاهنا واقعة على سبيل المجاز، كأن كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه ويقول له: حجراً محجوراً، كما قال: ﴿لَا يَتَّبِعَانِ﴾ [الرحمن: ٢٠] أي لا يبغي أحدهما على صاحبه بالممازجة فانتفاء البغي ثمة كالتعوذ هاهنا، جعل كل واحد منهما في صورة الباغي على صاحبه فهو يتعوذ منه، وهي من أحسن الاستعارات وأشهداها على البلاغة» انتهى، وقوله: «جعل كل واحد في صورة الباغي» لعله يعني: إن خالطه فقد بغي عليه.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۚ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ الماء هنا المني، وخلق البشر منه آية عظيمة تدل على قدرة الله تعالى وعلمه ويبطل بذلك جعل المشركين له شركاء لم يخلقوا فلا نصيب لهم في المخلوق ولا ينبغي لعاقل أن يجعلهم أنداداً لله جل جلاله، وبطل به استبعاد الكافرين لبعث الموتى؛ لأن من قدر على الإبداء قدر على الإعادة.

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ بيان لنعمة عظيمة للإنسان، فلو خلقه من الأرض كما يخلق الزرع ما كان له أب ولا أخ ولا غيرهما من القرابة، والأنساب تنفع الناس بالمعونة ولا سيما تربية الأبوين، وكذلك الصهارة علاقة نافعة للإنسان، والأصهار: أهل الزوجة أصهار لزوجها، وقد يسمى الزوج صهراً لأهل زوجته، قال شاعر بني العباس:

فالصهر ليس بـوارث والبنت لا تـرث الإمامة

يعني بـ(الصهر): علياً - صلوات الله عليه.

وفي (لسان العرب): «والأصهار: أهل بيت المرأة، ولا يقال لأهل بيت الرجل إلا أختان، ومن العرب من يجعل الصهر من الأحماء والأختان جميعاً يقال: صاهرت القوم إذا تزوجت فيهم» انتهى المراد، وقد قيل: الصهر في أعم من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ﴾ أي ربك يا رسول الله ﴿قَدِيرًا﴾ وهذا يشير إلى أنه الصادق في إنذاره بالبعث؛ لأن الله تعالى أرسله مبشراً ونذيراً ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ أي قادراً على كل شيء ومنه البعث بعد الموت، وفيه تعريض بمن اتخذهم بعض المشركين أرباباً قرب محمد قدير، ومن اتخذوهم أرباباً عاجزون؛ وهذا لأن السياق من أول السورة في الرد على المشركين في شركهم وإنكارهم البعث وتكذيبهم بدليل الرسالة وبالرسالة.

مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۖ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ

﴿٥٥﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۖ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٦﴾ وَيَعْبُدُونَ ﴿٥٧﴾ عطف على دلائل قدرة الله تعالى وعلمه وإنعامه على عباده، فذلك يقتضي أن يعبدوا الله وحده ولكنهم مع ذلك على خلافه يعبدون ﴿٥٥﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ ﴿٥٦﴾ فيشكروه ويزدادوا بعبادته نفعاً منه لهم ﴿٥٧﴾ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴿٥٨﴾ فيعبدوه اتقاء ضره بل لا يحتاجون إلى عبادتهم مع كونها باطلاً من حيث أن ربهم الله وحده، ومن يعبدونهم عباد أمثالهم لا يملكون منهم شيئاً. ﴿٥٩﴾ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٦٠﴾ معيناً لأعدائه من شياطين الجن والإنس؛ لأن الكافر يحدد الحق ويدّعي الباطل، وهو ما يدعو إليه أعداء الله؛ ولأن الكافر يكفر نعمة الله وهو ما يريد إبليس، حيث قال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

﴿٥٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٦٠﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ ﴿٦١﴾ يَا مُحَمَّد ﴿٦٢﴾ إِلَّا مُبَشِّرًا ﴿٦٣﴾ لِلْأَبْرَارِ بِالْجَنَّةِ ﴿٦٤﴾ وَنَذِيرًا ﴿٦٥﴾ لِلْفَجَّارِ بِالْجَحِيمِ لَيْسَ عَلَيْكَ أَنْ يَهْتَدِيَ الْمُشْرِكُونَ.

﴿٦٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٦٧﴾ قُلْ ﴿٦٨﴾ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ ﴿٦٩﴾ مَا أَسْأَلُكُمْ ﴿٧٠﴾ عَلَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿٧١﴾ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴿٧٢﴾ قَلِيلٌ أَوْ كَثِيرٌ لَكِنْ ﴿٧٣﴾ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٧٤﴾ أَسْأَلُهُ أَنْ يَنْفَعْ نَفْسَهُ بِاتِّخَاذِ السَّبِيلِ إِلَىٰ رَبِّهِ لِيَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِعِبَادَتِهِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ تَفِيدُ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠] فليس لكم ما تعلّلون به في دفعكم لما جئت به.

بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَنُ فَسَعَلَ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ يبين أن سؤاله منهم المودة في القربى ليس إلا لينفعوا أنفسهم؛ لأن ذلك يعينهم على التمسك بكتاب الله وعتره رسول الله ﷺ.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ يا رسول الله ﴿عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ فهو نعم الوكيل، فبلغ الرسالة توكلاً على الحي الذي لا يموت ولا تضعف عنها أو تقصر لأجل كثرة المكذبين وعداوتهم لك وغضبهم من دعوتك كما تفيده هذه السورة؛ لأنك تتوكل على ربك الحي الذي لا يموت لا كالمشركين الذين يرجون النصر من أصنامهم التي هي جماد لا تسمع ولا تبصر. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ ذكراً له وشكراً وتنزيهاً له عما يقول المشركون ﴿وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ عليمًا بظاهرها وباطنها وبمقاديرها في قبورها؛ لأنه بكل شيء عليم لا يخفى عليه شيء فهو يعلم ما يقول المشركون وما يكسبون من الذنوب من الشرك والتكذيب والظلم.

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَنُ فَسَعَلَ بِهِ خَبِيرًا﴾ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾

﴿الَّذِي﴾ مبتدأ خبره الرحمن ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ هو الدليل الذي يعرف به الرحمن؛ لأنه إنما يعرف

بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

بآياته فخلقه للسموات والأرض وتصرفه المحكم فيهما وتديره لشأنهما وشأن ما فيهما وما بينهما من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار هو الدليل على أن خالق السموات والأرض ومدبر الأمور هو ﴿الرَّحْمَنُ﴾ الذي له الخلق والأمر؛ لأنه دليل على قدرته وعلمه وحكمته وغناه ورحمته التي تجلت في إنعامه على عباده بما خلق ﴿فَسَقِّلْ بِهِ خَيْرًا﴾ اسأل عنه واطلب معرفته من خير عالم به وبما هو خفي من مدلولات أسمائه ﴿فَسَقِّلْ بِهِ خَيْرًا﴾ بالرحمن خبيراً بما تحتاج إلى معرفته، فالله هو العليم الخبير يعرف بما بين في كتابه ثم بتعليمه للرسول وأعلام الهدى من آله ليدلك الخبير الذي تسأله على الرحمن بآياته ويبين لك طرق المعرفة ووجوه الاستدلال الذي به تستفاد المعرفة الكافية.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ للمشركين المكذبين للرسول ﷺ إذا قيل لهم: ﴿اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ واعدلوا عن عبادة الأوثان ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟﴾ كما قال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]؟ تجاهلاً منهم وهم جاهلون بالله محتاجون لمعرفته ليؤمنوا برسوله ويتركوا الشرك ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ زادهم الأمر بالسجود للرحمن نفوراً إلى نفورهم من الأمر الذي ينهاهم عن الشرك، ويقول: لا إله إلا الله.

والدليل على أنهم لا يعرفون الله جحدهم للبعث بعد الموت ﴿قَالَ مَنْ يُخِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] فمن لم يعلم أن الله على كل شيء قدير فلم يعرفه، وكذلك من لم يعلم أن الله تعالى لم يخلق السموات والأرض باطلاً ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك.

خَلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٣٧﴾ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٣٨﴾

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿تَبَارَكَ﴾ جل جلاله وعظم عما يتوهم فيه الجاهلون الذين لم يعرفوه بآياته ولم يشكروه على ما ابتدأهم به من النعم برحمته.

﴿الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ منازل محدودة للشمس والقمر، فهي من أدل آياته عليه؛ لأن الشمس تنزل في كل ثلاثة عشر يوماً في منزلة منها حتى تتم المنازل في سنة شمسية، والقمر ينزل في المنازل كلها في شهر ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ * وَالْقَمَرَ قَدَرْتُهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٨-٤٠] ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ هو الشمس ينعم بضوئها الناس ويتشرون لمعاشهم ﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ ينتفع بنوره في الليل، فهذه نعم من الرحمن.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ كل واحد منهما يخلف الآخر يتناوبان على الناس ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ﴾ بأن يفكر في صنع الله ويعرف ربه ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ للرحمن على نعمة الليل بعد النهار ونعمة النهار بعد الليل، فأيات الرحمن ونعمه على عباده تدل من أراد معرفته عليه.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ العابدون للرحمن المؤمنون بالرحمن أولياؤه الفائقون في عبادته صفاتهم ما ذكره سبحانه منها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ قال (صاحب الصحاح): «الهون السكينة والوقار» انتهى، فهم منزهون عن التكبر والخيلاء.

وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا
أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٢٧﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: هذا ذكر من الله تعالى لأوليائه الذين خاطبهم الجاهلون بقبيح القول وسمج اللفظ والإفحاش في الكلام قالوا سلاماً فهو القول الحسن السالم من القبيح والعيب المسلم من غضب الله، فذكر سبحانه أنهم لا يقولون إلا سلاماً وحسناً جميلاً» انتهى.

وقد يرجع حمل ﴿سَلَامًا﴾ على التسليم أي قالوا نسلم عليكم سلاماً ولكنه يرجع قول المرتضى عليه السلام، أن لفظ هذه الآية يخالف قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥] فهنا لم يقل عليكم ونصب ﴿سَلَامًا﴾ فجعلهُ وصفاً للقول أقرب من تقدير جملة وحذف المسلم عليهم مع أن المعنى مستقيم؛ لأنه يفيد أنهم لم يردوا على الجاهلين بمثل خطابهم، والجاهلون القائلون بالجهالة والسفاهة، كقول عمرو بن كلثوم في الجهالة:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلین

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ هذه من صفات عباد الرحمن، قال الشرفي في (المصابيح): «ومعنى ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ﴾ أي يكونون [ن] في لياليهم مصليين، قال: والظاهر: أنه وصف لهم بإحياء الليل أو أكثره - ثم قال - : قال الحسن: يبيتون لله على أقدامهم، ويفرشون له جباههم، وتجري دموعهم على خدودهم خوفاً من ربهم». قال الشرفي: «وهو كقوله: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦] انتهى، قلت: وهذا هو الراجح.

مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ
بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا

وقوله تعالى: ﴿سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ كناية عن الصلاة لأن القيام المشروع في الليل على الإطلاق ليس إلا في الصلاة، وكلام سيد قطب في تفسير الآية مثل هذا، وفي (لسان العرب): «الفراء: بات الرجل إذا سهر الليل كله في طاعة الله أو معصيته» انتهى، ولعله يستشهد له بقول امرئ القيس:
وبات وباتت له ليلة كليلة ذي العائر الأرمد

وقول آخر:

فبت كائي ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقع

والأولى أن هذا أحد معاني (بات)؛ لأنه يقال: باتوا بمزدلفة سواء ناموا أم لم يناموا إلا أنهم يكونون فيها أكثر الليل.

وفي (مجموع الإمام زيد بن علي): عن أبيه عن جده عن علي (عليه السلام)، قال: ((لا يصلي الإمام المغرب والعشاء إلا بجمع، حيث يخطب الناس يصليهما بأذان واحد وإقامة واحدة ثم يبيتون بها...)) الحديث.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ لخوفهم من النار الناتج عن إيمانهم بالجنة والنار يدعون ربهم أن يصرف عنهم عذاب جهنم، كأنه طالب أو بناء على أنها يوم القيامة ستطلب أهلها. ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ خسراناً لازماً لهم ملحاً، قال في (الصحيح): «الغرام: الشر الدائم والعذاب، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ قال أبو عبيدة: أي هلاكاً ولزماً لهم» انتهى.

﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ هذا من دعاء (عباد الرحمن) حكاه الله عنهم، لأنه تعليل للدعاء بصرفها، ولعلها جعلت مستقراً باعتبار بقائهم فيها وإن كانوا لا يستقرون؛ لأنهم صاروا فيها وفاتتهم الجنة التي هي المستقر ﴿وَمُقَامًا﴾ محل إقامة وبقاء.

يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ^{٢٤} وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٢٥﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا

﴿٢٧﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتَرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٢٨﴾ لَمْ يُسْرِفُوا ﴿٢٩﴾ فِي الْإِنْفَاقِ إِمَّا بِإِضَاعَةِ الْمَالِ فِي غَيْرِ فَائِدَةٍ وَمِنَ الْإِنْفَاقِ الْكَثِيرِ الَّذِي يَزِيدُ وَيَتَلَفُ الزَّائِدُ فِي غَيْرِ فَائِدَةٍ، وَإِمَّا بِإِنْفَاقِهِ فِي الْمَعَاصِي لِأَنَّهُ إِضَاعَةٌ لَهُ فِي غَيْرِ فَائِدَةٍ وَإِنْ كَانَتْ عِنْدَ الْعَاصِي فَائِدَةٌ ﴿٣٠﴾ لَمْ يَنْفَقُوا أَقْلَ مِنَ الْمَحْتَاجِ إِلَيْهِ.

قال الراغب الأصبهاني: «القدر: تقليل النفقة» انتهى، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ أي كان إنفاقهم بين الإسراف والتقتير ﴿قَوَامًا﴾ ما تقوم به حاله، وقال في (الصحيح): «القوام: العدل» انتهى.

﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ^{٣٢} وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٣٣﴾

﴿٣٤﴾ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴿٣٥﴾ هذه من صفات عباد الرحمن فهم لا يعبدون إلا الرحمن أو لا يسمون مع الله إلهاً والأول أرجح ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ والحق قتلها بحكم الله كالقصاص ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ والزنا: إتيان النساء غير الأزواج والذكر والأنثى فيه زانيان، ويستثنى مع الأزواج المملوكات للمجامع وحده فليس جماعها زناً؛ لأنها حلال شرعاً.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ دعاء إله مع الله، وقتل النفس المحرمة بغير الحق، والزنا ﴿يَلْقَى أَثَامًا﴾ قال الشرفي: «والأثم: العقوبة» انتهى، وقد فسرهُ قوله تعالى: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ..﴾ الآية، وقال في (الصحيح): «والأثم جزاء الإثم» انتهى، ومثله في (لسان العرب).

مَنْ تَابَ وَعَامَرَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٨﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ

وقوله تعالى: ﴿وَيُخَلِّدُ فِيهِمْ مَهَانًا﴾ أي في العذاب وتضعيفه؛ لأنه اجتمع عذاب الشرك وعذاب القتل وعذاب الزنا فتضاعف عذابه، فأما عذاب السيئة الواحدة فلا يضاعف ما لم تكن في معنى سيئتين أو سيئات كمن ضرب أمه فاحتمل: إثم الظلم، وإثم العقوق، والمهان: الذي يجعل هيناً حقيراً ذليلاً؛ لأنه في عذاب الخزي.

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَعَامَرَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ الراجح في ﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾: أنها عذابهم، كما قال تعالى في آل فرعون ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ * فإذا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطْفِرُوا يَمْوَسَى وَمَنْ مَعَهُ ﴿[الأعراف: ١٣٠-١٣١] وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [النساء: ٧٨] فالعذاب يسمى سيئة يسوء المعتدب وهو سيء طبعاً، فتبديل سيئاتهم بتبديل عذابهم المضاعف حسنات في الجنة أكلها وشربها ولباسها وأزواجها وغير ذلك لأنها حسنات طبعاً وعقلاً.

ولا يصح تفسير تبديل السيئات بتحويلها حسنات؛ لأنه لو فرض إمكانه، غير متعين، لأن التبديل يستعمل في جعل شيء بدل شيء آخر، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا﴾ [الأعراف: ٩٥] وقال تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَا غَمَّكُمْ بِهَرَجٍ ۖ وَجَعَلْنَا زَوْجَ مَكَانَ زَوْجٍ ۖ﴾ وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠] أي ولاية إبليس وذريته بدل ولاية الله تعالى، ويرجع هذا أن التبديل فيه من الله حقيقة.

يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِقَايَةِ رَبِّهِمْ لَمْ تَحْجُرُوا عَلَيْهَا

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: يجعل ذلك في الدنيا بالشرك إيماناً وإخلاصاً، وبالسوء من العمل الصالح منه وبالفجور عفافاً وإحصاناً» انتهى. وقال الشرفي في (المصابيح): «وقال الحسين بن القاسم عليه السلام: هذا من الاختصار؛ لأن السيئة لا ترجع حسنة أبداً، وإنما المعنى: يبدل الله مكان سيئاتهم حسنات فعلوها بعد توبتهم» انتهى.

وقال الشرفي: قال الإمام الناصر عليه السلام في كتاب (البساط) في معنى (التبديل): «أعلمنا الله سبحانه أن العبد إذا تاب رد عليه ما بطل من عمله وجعل بدل سيئاته حسنات، قال الشرفي: ومثل هذا ذكر الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام، فإنه قال: إن سقوط ما يستحقه من الثواب كان [أي] أسوءه فسمي سيئة، فلما تاب رجع له فسمي حسنة، فهذا معنى التبديل - والله أعلم» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ومن مغفرته ورحمته تبديل السيئات حسنات لمن تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً.

﴿٦٦﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٦٧﴾ أي متاباً كريماً، والتوبة تنجي من العذاب فإذا أضيف إليها العمل الصالح أدى إلى أن يرجع إلى الله مرجعاً عظيماً مرجعاً مخصوصاً ليس كمرجع أكثر الأمم، والتكثير هنا مثله في قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ [الأعراف: ٨٤] فهو مطر غير المطر المعهود كذلك المرجع إلى الله مرجعاً مخصوصاً يخالف مرجع الأمم الكثيرة، ولكثرتها كان مرجعها كأنه الأصل في مرجع الإنس والجن، وفسرته بالكريم، لقوله تعالى: ﴿وَنُنْخِلكُمْ مُنْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١] وغيرها من الوعد لأوليائه كما فسر مطر قوم لوط آيات من القرآن.

صُماً وَعُمِيَانَا ﴿٧٦﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٧﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا

فإن قيل: ما فائدة هذه الآية ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ..﴾ بعد قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾؟

فاجواب: أن هذه الآية تشير إلى ثواب عظيم، بخلاف قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ لأن الحسنات تصدق على القليل والكثير، وما كل تنكير يفيد التعظيم، ففي هذه زيادة ترغيب عظيم، كما أن في قول الشاعر:
فلا وأبي الطير المربة بالضحي على خالد لقد وقعت على لحم

مدحاً كبيراً.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ ﴿٧٨﴾ لَا يَشْهَدُونَ ﴿٧٩﴾ لَا يَحْضُرُونَ ﴿الزُّورَ﴾ بحيث يسمعون، والزور مثل قولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ الآية [النساء: ١٤٠] وهذا أوفق لسياق هذه السورة من تفسيرها بأنهم لا يشهدون الشهادة الزور.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ اللغو هنا سب المؤمنين يقوله الكفار لهم ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ لا يسافهون السفهاء، بل أعرضوا عن كلامهم كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ الآية [الفصل: ٥٥] وهذه من صفات عباد الرحمن. ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمِيَانًا﴾ ربهم الذي يؤمنون به ويخشونه ﴿إِذَا ذُكِّرُوا﴾ نبهوا من غفلة أو ذكر لهم ما يتذكرون به من وعظ أو دليل حكم إذا ذكروا به تذكروا؛ لأنهم يفتحون أسماعهم وبصائرهم لمن يذكرهم ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَخْرُوْا﴾ أي لم يسقطوا كما يسقط المنافقون ﴿صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ ولعله ذكر الخرور؛ لأن عباد الرحمن ﴿إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨] فهم لم يخروا عليها ﴿صُمًّا﴾ عن استماعها ﴿وَعُمْيَانًا﴾ عن النظر ببصائرهم، ولا يجب أن يكون المنافقون يخرجون صمًّا وعميانًا، بل يكونون عند سماع الآيات صمًّا وعميانًا.

فأما الإكباب على الوجوه فلم يفسر به (الخرور) (صاحبُ الصحاح)، ولا الراغب، ولا في (لسان العرب) ومثل فيه للآية هذه بقول الشاعر:
بأيدي رجال لم يشيموا سيوفهم ولم تكثر القتلى بها حين سُلْتُ
أي تشبيه النفي في الآية بالنفي في البيت، والأولى: أن الذي في هذه الآية تعريض بالمنافقين ومرضى القلوب.

وأما قول الشرفي رحمه الله: «والخرور: هو السقوط على الوجه للسجود» فلعله خرّجه من كلام (الكشاف) حيث فسر به بالإكباب، وهذا عندي غير صحيح، وإنما يفسّر الخرور للسجود بأنه الهبوط للسجود ليس سقوطاً حقيقياً، فأما المعنى الحقيقي: فهو السقوط من غير قيد، إلا أن الراغب قيده بالسقوط مع صوت الساقط، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الحج: ٣١] وقال تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦] ولعل (صاحب الكشاف) لم يقصد تفسير الخرور من حيث اللغة، إنما أراد أن هذا الخرور لا يكون سقوطاً حقيقياً، وإنما هو هبوط لغرض الإكباب على الوجوه.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ الأقرب: أنهم أرادوا اجعل لنا ﴿مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا﴾ من يكون لنا في الآخرة ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾؛ لأن قولهم: ﴿وَذُرِّيَّاتِنَا﴾

صَبَرُوا وَيُلْقُونَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

يفيد الحاضر إن كان حاضراً، والمستقبل الذي يوجد بعد موت الداعي، فقد علموا أن المؤمنين يدخلون الجنة ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتِهِمْ﴾ [الطور: ٢١] فأرادوا الدعاء بالصلاح، وأن يدخلوا هم ومن صلح من أزواجهم وذرياتهم الجنة تقرأ أعينهم بمن دخل معهم من أزواجهم وذرياتهم، ولا مانع من أن يراد قرة عين في الدنيا بالنسبة للموجودين معهم وفي الآخرة، وهذا لأن المؤمن تقرأ عينه بصلاح زوجه وأولاده، وقرار العين كناية عن السرور.

وقولهم: ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي اجعلنا قدوة لهم بأن نكون من الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويدعون إلى الخير حتى نكون متبوعين في التقوى قادة إلى الخير لننال أجر ذلك، وبأن نكون في التقوى فائقين بالزهد والورع والصبر والشكر ونحوه، حتى يرغب المتقون في الاقتداء بنا، كما قال:

أئمة خير يقتدى بفعالهم وتؤمن منهم زلة العثرات

وأحاصل: ربنا أصلحنا حتى نكون قادة للمتقين أو قدوة لهم، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: أئمة في الخير يقتدى بنا، وقال مثال» انتهى.

﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلْقُونَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾: ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى (عباد الرحمن) أهل الصفات المذكورة

من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِمْلَأْ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَجْزُونَ الْغُرْفَةَ﴾ هي من غرف الجنة، قال تعالى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَةَ﴾ [الزمر: ٢٠].

قال الشريفي رحمه الله: «والغرفات: هي العلالِي المرتفعة في الجنة، والغرف هي الخلوات في لغة أهل اليمن، وهي العلالِي في لغة أهل الحجاز» انتهى المراد، وقال الراغب: «والغرفة: عُلْيَةٌ من البناء» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ يصدق على صبرهم في الجهاد وفي طاعة الله كلها، وعلى صبرهم على البلاء من المرض وغيره كالفقر، وقوله تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ أي في الغرفة ﴿حَيَّةً وَسَلَامًا﴾ وأطلق هنا، فيشمل تحية الملائكة لهم والسلام المذكورين في قول الله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ..﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤] لأنها تفيد التحية بالسلام، ويحتمل: أن التحية تحية المُلْك - بضم الميم - قال في (الصحيح): «والتحية: الملك، قال زهير بن جناب الكلبي:

ولكل مانال الفتى قد نلته إلا التحية

قال في (الصحيح - أيضاً -): «وقال عمرو بن معديكرب:

أسير به إلى النعمان حتى أنيخ على تحيته بجند

أي على ملكه» انتهى، وهو هنا غير بعيد؛ لأن السياق لذكر كرامتهم وشرفهم.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا حُسْنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ خالدِينَ في الجنة، والمستقر باعتبار الأمن والرغبة في البقاء، والمقام باعتبار طول المدة والبقاء.

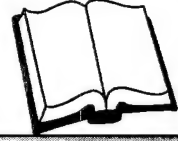
﴿قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ ﴿قُلْ﴾ يَا رَسُولَ اللَّهِ للكفار ﴿مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي﴾ مَا يِيَالِي بكم فِي إرساله إليكم الرسول وإنزاله القرآن بما فيه من الآيات البينات والمواعظ وذكر الجنة ونعيمها وغير ذلك ﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ لولا دعاؤه لكم إلى ما هو خير لكم الذي تقوم به الحجة عليكم إن كفرتم وتسعدون به إن آمنتم ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ الداعي والدعاء ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ تكذيبكم ﴿لِزَامًا﴾ لكم لا ينفك عنكم أبداً، كقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمَتُهُ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣].

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: يريد لا يعبا بهم لولا دعاؤه لهم إلى ما هو خير لهم - ثم قال فيما حكاه عن الحسين بن القاسم عليه السلام - : والعرب تقول: فلان أحق لا يعبا به ولا يلتفت إليه ولا يحفل به، ثم قال تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ هذا الدعاء الذي أتاكم من الله ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي لزاماً لكم وعقوبة ونقمة تحل بكم» انتهى، ونحوه حكاه عن المرتضى عليه السلام، وفسر اللزام بلزوم التنكيل لهم برفضهم لدعوة الله تعالى.

تم تفسير (سورة الفرقان) والحمد لله رب العالمين



التفسير في النفس



سورة الشعراء



سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا
مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنْ نَشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا

ابتداء تفسیر (سورة الشعراء)

وهي (مكية) كما يظهر من مواضعها

﴿١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ طَسَمَ ﴿١﴾ هذا ثلاثة أحرف من حروف المعجم، والحكمة في جعلها أول السورة - والله أعلم - أن يشار إليها وإلى سائر حروف المعجم بقوله تعالى:

﴿٢﴾ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ أي أن الكتاب الذي هو القرآن الحكيم كلام أصله هذه الأحرف التي يتكلم بها العرب، ولعل هذا إشارة إلى أنهم عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله مع أنهم ينطقون بهذه الأحرف في كلامهم، أو إشارة إلى أن الله تعالى أوحاه إلى عبده ورسوله ﷺ كلاماً مؤلفاً من الأحرف ليس الوحي مجرد المعنى دون ما نسميه اللفظ تحقيقاً لكونه أوحاه بلفظه وحروفه، وأنه كلامه لا كلام الرسول ﷺ، إلا أنه ينسب إليه مجازاً لأنه هو الذي يبلغه، ويتلوه على قومه، أو إشارة إلى المعنيين، أو إليهما وإلى غيرهما فحكمة الله لا تحصى و ﴿الْمُبِينِ﴾ البين الواضح لأنه نزل كما يأتي في السورة هذه ﴿يَلِسَانَ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾.

﴿٣﴾ لَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «(معناه: قاتل نفسك ومهلكها)» انتهى. وفي (الصحيح): «(بخع نفسه بخعاً أي قتلها غمّاً، قال ذو الرمة:

خَاضِعِينَ ﴿١﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٢﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣﴾ أَوَلَمْ

أَلَّا أَهَذَا الْبَاخِعُ الْوَجْدَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ نَحْتَهُ عَنْ يَدَيْهِ الْمَقَادِرُ

انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَخْعٌ﴾ لعل للتوقع من المخاطب كقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾ [طه: ٤٤] أو بمعنى أنك في أسفك عليهم بحيث يُظن بك أنك باخع نفسك عليهم أن لا يكونوا مؤمنين لأن الإيمان سبب نجاتهم من عذاب الله في الدنيا والآخرة، فهو لخوفه عليهم آسف عليهم ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ قال الشريفي: «أي لا تمتنع إيمانهم أو خيفة أن لا يؤمنوا» انتهى. وهذه عادة الأنبياء أن يخافوا على قومهم عذاب يوم عظيم في أول التبليغ وقبل هلاكهم.

﴿١﴾ إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ

أي إنا تركناهم وشأنهم ليختاروا لأنفسهم الإيمان أو الكفر لنجزهم بما يستحقون فلا تحزن لكفرهم لأننا تركناهم عليه لحكمة، ولو شئنا لقهرناهم بآية غالبية تلجئهم إلى الخضوع، وترك العناد، وإن نشأ ذلك نفعل فننزل من السماء مثل أن تنزل عليهم الملائكة ويرونها، أو تتهاوى النجوم أو غير ذلك مما يؤدي إلى أن يضلوا له ﴿خَاضِعِينَ﴾ يتجلى خضوعهم في أعناقهم منكسين رؤوسهم قد مدوا أعناقهم، ونسبة الخضوع إلى الأعناق لظهوره فيها، كما نسب الخشوع إلى الأبصار في قوله تعالى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ [القلم: ٤٣] وكما نسب إلى الوجوه وأهلها في (سورة الغاشية).

يَرَوْنَ إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ

﴿٩﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٩﴾ ذكر من الرحمن يدعوهم به الرحمن إلى رحمته فكلما جاءهم ذكر كانوا عنه معرضين مستمرين في الإعراض، فالآيات القرآنية تتلى عليهم يتلوها الرسول ﷺ، وكلما نزلت آية وتليت عليهم أعرضوا عنها غافلين عن قدرة الله عليهم وعمّا أعد لهم من العذاب الذي أنذرهم الرسول والقرآن، وتكرّر نزوله عليهم.

﴿١٠﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَاتِيهِمْ أَنْبَتُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ كذبوا الرسول ﷺ، وكذبوا بالذكر، وبما جاءهم من الآيات فسيأتيهم الوعد الذي وعده في الذكر الذي كانوا به يستهزئون، أي يأتيهم مدلول النبا لأنها قد وقعت منهم الجريمة الكبرى، جرّهم الإعراض عن الذكر إلى التكذيب فوقعوا في التكذيب المؤدي إلى العذاب، كما أداهم إلى الاستهزاء بالذكر الاستهزاء المؤدي إلى العذاب.

﴿١١﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ من كل زوج ﴿١١﴾ من كل نوع لأن الأغذية من الحبوب والفواكه يكون الجنس منها صنفين أو أكثر، كما نشاهده في أصناف الحبوب وأصناف الأعناب وغيرها، فكل صنف زوج، والكرم الزيادة المحمودة في صفة الشيء، قال الراغب: «وكل شيء شرف في بابه فهو يوصف بالكرم» انتهى.

فالكرم فضل شيء على شيء، وهكذا أنواع النبات وأنواع الثمرات متفاضلة، وهذه الأزواج في الأرض نعم من الله على عباده توجب شكره، واتباع رسله، والحذر من الإعراض عن آيات الله، والتكذيب بها.

وكذلك تدل على رحمة الله بعباده، فهي تدل على أنه لا يبعد منه إرسال الرسول رحمة للعالمين فتدعو المنصفين إلى النظر في الذكر الآتي من الرحمن، ثم العلم بصدق الرسول ﷺ، وكذلك تدل على إبطال ما يتعللون به لتكذيب الرسول ﷺ من قولهم: ﴿أَيَعِدْكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُمْ وَكُنْتُمْ تَرَاباً وَعِظْهُمْ أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥] لأن النبات وما فيه من الصفات تدل على قدرة خالقه على كل شيء، وعلمه بكل شيء، وكذلك تدل على تنزيه الله سبحانه عن أن تكون شركاؤهم أنداداً له سبحانه.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ كل زوج كريم على كثرته وكثرة أنواعه أنواع الشجر ومالها من صفات باعتبار السوق والفروع والورق والثمر، كل ذلك مختلف يدل على الفاعل المختار، وكثير جداً في الأرض يدل على سعة قدرته وعلمه ونعمته على عباده ورحمته، ففيه آية تدل على ما ذكرت مفصلاً ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي أكثر المذكورين في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَلَّغْتَ نَفْسَكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وهم في وقت نزول السورة على أنها مكية أهل مكة والطائف ومن حولهم من العرب، وما كان أكثرهم مؤمنين لإعراضهم عن النظر في الآيات، واشتغالهم بما تهوى أنفسهم، وإذا لم يفكروا في الآيات التي يرونها فيؤمنوا بما تدل عليه فهم أهل لثلا يؤمنون بالرسول الصادق الأمين، ولا بذكر الرحمن.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ فما كان الله تعالى ليهمل عباده بلا جزاء يفرق بين المحسن والمسيء كما هو شأن عزته، وما كان ليتركهم بلا نذير وبشير كما هو من رحمته، وما كان إهماله لإهمال منه لهم وإنما هو رحمة لينظروا فيما جاء به الرسول ويؤمنوا فلا يعجل لهم العذاب بحيث لا تبقى مدة للنظر ومراجعتهم للتوبة، وذلك كله لأنه ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

مُوسَىٰ أَنْ أَتَيْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٦﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٧﴾ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٨﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَادْهَبَا

﴿١٤﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَتَيْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١٥﴾ وَإِذْ نَادَىٰ بِصَوْتٍ ظَاهِرٍ لَا بِمَجْرَدٍ وَحْيٍ خَفِيٍّ ﴿١٦﴾ أَنْ أَتَيْتِ الْقَوْمَ لِلنَّدَاءِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَنْ أَتَيْتِ﴾. إِلَىٰ آخِرِ الْآيَتَيْنِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنْ أَتَيْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أَيِ لَتَنَاهَاهُمْ عَنِ الظُّلْمِ.

وقوله تعالى: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ يبين أن رسالته إليهم وإلى زعيمهم فرعون، وقد بين رسالته إلى فرعون في غير هذه الآية، وقوم فرعون هم القبط لأنهم أعوانه على الظلم، فكانت الرسالة إليهم كما هي رسالة إلى فرعون وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ يعيب عليهم ترك التقوى من عذاب شديد هم متعرضون له، وفيه حث لموسى على الإتيان إليهم لعله ينقذهم من العذاب الذي هم على شفا حفرة منه.

وقال (صاحب الكشاف) وغيره: «هو تعجيب من حالهم التي شنعت في الظلم والعسف، ومن أمنهم العواقب، وقلة خوفهم وحذرهم من أيام الله» انتهى. وقال الشرفي في (المصابيح): «أجرى ذلك في تكليم المرسل إليهم بمعنى إجرائه بحضرتهم وإجرائه في مسامعهم لأنه مبلغهم ومنهيه إليهم وله فيه لطف وحث على تأدية التقوى» انتهى المراد، وهذه أقوال في حكمة توجيه قوله: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ إلى موسى ويمكن جمعها إذا كانت كلها صحيحة فحكمة الله لا تحصى لأنه يعلم ما لا نعلم.

﴿١٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ * وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٨﴾ ليس هذا اعتذاراً ولكنه

بِقَايَتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿٥﴾ فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٧﴾ قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا

شكاية إلى من هو القادر على حلّ المشكلات، وهو الغالب على أمره ﴿رَبِّ﴾
يا رب ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ فهم مظنة أن يكذبوني لجرأتهم على الباطل،
وممارستهم للظلم العظيم والكثير - بالثناء - وإذا كذبوني لم يحصل رجوعهم عن
الظلم الذي هم فيه فكأنه لم يحصل المقصود بالإرسال، بل لا يكون حاصلًا لو
كان المقصود إنقاذهم لا غير، فهو عليه نظر إلى قصد إنقاذهم فذكر أنه يخاف
أن لا يتم ذلك، لأنه يستبعد قبولهم منه مع ما هم فيه من الطغيان، والتكبر،
فهذه الأولى من الشكاوي.

والثانية: قوله عليه: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ يضيق صدري
من تكذيبهم، ولا ينطلق لساني من أجل ما فيه من الخلل المانع من قدرة
اللسان على الانطلاق بالكلام، وهذه حالة شديدة إذا ضاق الصدر من
الباطل، وتعمّر التعبير بما يبطئه، ورتب على هذه الشكوى طلب إرسال
أخيه هارون معه ليعينه.

والشكوى الثالثة: قوله عليه: ﴿وَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ﴾ وهو قتل القبطي المذكور
في (سورة القصص) أنه وكزه ففضى عليه، وقوله: ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾
هو حاصل هذه الشكوى الأخيرة.

﴿قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِقَايَتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ قال الله: ﴿كَلَّا﴾
زجر وردع عن خوفه أن يقتلوه ﴿فَادْهَبَا﴾ أنت وأخوك اذهبا ﴿بِقَايَتِنَا﴾
الدالة على أنكما رسولاً ربكما ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ فنسمع كل ما قلتما
لهم، وما قالوا لكما، فلا تخافا لأنا معكما وكفاكما قوة على التبليغ.

وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا

وهو سبحانه لا يحتاج إلى استماع ليسمع ولكن جرى الكلام على التمثيل كقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٢١] وهو سبحانه لا يشغله شأن عن شأن، فكما أن هذا تخويف، فقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ سبب لاطمئنانهما.

﴿فَأْتِيَافِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الراجح في إفراد رسول أنه جرى مجرى التشبيه بالرسول الذي يرسله ملك إلى بعض رعيته لكن المرسل هنا ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ المالك لفرعون وقومه ولموسى وهارون.

﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ تفسير لما أرسله ليلغاه إلى فرعون ﴿أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ليتحرروا من قهره ويتخلصوا من ظلمك لهم.

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ كيف صرت رسولاً وأنت ذلك الرجل الضعيف الذي عاش بدون أسرة تؤويه وتربيته، إنما ربيناك نحن، وتفضلنا عليك في صغرك وليداً ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ تحت دولتنا وقهرنا، وفعلت فعلتك التي هي قتل القبطي، وهنا يتجلى لموسى عليه السلام أن الله تعالى قد جعل له سلطاناً وهيبه تمنع فرعون الجبار العنيد عن قتله، ولذلك قال: ﴿وَفَعَلْتَ﴾ ولم يقل: (قتلت) ولم يصدّر في جوابه ذكر القتل بل بدا بغيره.

وقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي فعلت ذلك في حال أنك من الكافرين لنعمتي لأنك لو شكرتها لم تقتله وهو قبطي نصره للإسرائيلي عليه، وإنما هو من الطائفة الذين يستضعفهم فرعون. وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «(كان خبازاً لفرعون)» انتهى. فإذا كان خبازاً لفرعون فذلك أبلغ عند اللعين في كفر نعمته.

خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٦٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ

﴿٦١﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٦٢﴾ قَالَ موسى ﷺ: ﴿فَعَلْتُهَا﴾ أي فعلتي التي هي القتل وأنا في تلك الحال كنت ﴿مِنَ الضَّالِّينَ﴾ الذين يقع منهم مثل ذلك لجهلهم بالشرائع، وفي هذا تحذير من الجهل، ودعوة إلى الخروج منه إلى نور العلم، كما أن فيه تحقيق معجزة حفظ موسى من ذلك الجبار العنيد حيث يصرح بالإقرار بها بلا مبالاة وإنما يبين أنها كانت قبل الرسالة فلا يعترض بها على الرسالة ثم لا يقتله عقيب هذا الإقرار.

﴿٦١﴾ ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿فَفَرَرْتُ﴾ فما كانت نجاتي منكم إلا بالفرار منكم لما خفتكم، وهذا يحقق المعجزة لأنه فرّ من الخوف، وهو هذا يذكر فراره منهم فما عودته إليهم إلا لأنه واثق بأنه رسول من الله، وأنه يحفظه.

وقوله: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ معرفة العدل وكيفية الحكم بين الناس ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فعليكم أن تؤمنوا بي وترسلوا معي بني إسرائيل، فهو ﷺ ثابت في ذلك المقام الذي حاول فيه فرعون شغله عنه بقضية قتله للقبطي، فقد أجاب فيها ولم يسكت على ذلك بل وصله بقوله: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ جعله الله رسولا من رسله الذين يرسلهم إلى الأمم مبشرين ومنذرين، وهداة إلى دينه لا أنه مجرد رسول يبلغ الأمر بإرسال بني إسرائيل فقط.

﴿٦٢﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٦٣﴾ وتلك التربية لي وليداً مولوداً صغيراً تمنها علي لأن ﴿عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ جعلتهم عبيداً لك، فأرسلهم معنا فقد طالت مدة ظلمك لهم، ولولا ذلك لم تلجأ أُمِّي إلى أن تجعلني في التابوت وتقذني في البحر.

﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ

فالحاصل: أن سببها الظلم الكبير منك لبني إسرائيل، فهي مغمورة بالظلم والعدوان الذي هو سببها، فلا يصلح لك أن تمنها علي بل منها باطل.

وقال الشرفي في (المصاييح): «قال في (البرهان): ولم يكن بالحقيقة لفرعون على موسى نعمة لأن الذي رباه بنو إسرائيل بأمر فرعون لاستعباده لهم، فأبطل موسى نعمته لبطلان استرقاقه، والتعبد الاسترقاق سمي بذلك لما فيه من الإذلال من قولهم: طريق معبد» انتهى المراد. ولعل أصله والتعبيد: الاسترقاق.. الخ.

وكلام (صاحب البرهان) قريب لأن الله تعالى يقول: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ..﴾ الآية [القصر: ١٢] فلم تقع له تربية إلا عند أمه، فالنعمة منها لا من فرعون، وإنما منها لأنها بأمره لاستعباده لبني إسرائيل، فهو يمن عليه ما هو ظلم، والحاصل على كلام (صاحب البرهان): وتلك التربية نعمة ليست منك إنما تمنها لأنك أمرت بها أمي في إطار تعبيدك لبني إسرائيل، وهذا المعنى أرجح وبعد أن قالوا لفرعون: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تجاهل عدو الله فقال ما حكاه الله تعالى:

﴿٢٧﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ سؤال عن جنسه والله تعالى هو الذي خلق الأجناس لا يجانس شيئاً فأجابه بذكر الدليل على ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿٢٩﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٣٠﴾ فالله يُعرف بآياته الدالة عليه، ولا يعرف بذكر جنس أو عين تشاهد هي أو نظيرها سبحانه وتعالى.

﴿٢٤٤﴾ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٤٥﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٦﴾ قَالَ لَنْ آتُخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ معناه: الدليل هذا يفيد: اليقين بالله لمن شأنه أن يوقن سواء أيقنتم أم لم توقنوا لإعراضكم وإهمالكم عقولكم.

﴿٢٤٥﴾ ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَبْعُونَ﴾ تعجب من كلام موسى؛ لأنه كلام غريب على مسامعهم، وعلى قلوبهم فاستغل ذلك ليعرض عنه هو وقومه من حيث دلالة على الله ويتشاغلوا بالتعجب منه.

﴿٢٤٦﴾ ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ زاد موسى دليلاً على الله هو نفس خلق فرعون وقومه وآبائهم الأولين وعبر عنه بالربوبية التي هي لازمه ليذكرهم بوجوب طاعتهم لله لأنه المالك لهم ولآبائهم الأولين، لأنه الذي خلقهم.

﴿٢٤٧﴾ ﴿قَالَ إِنْ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ قال فرعون ذلك عناداً وتمرداً وكذباً متعمداً لعجزه عن رد الحجة، وقوله: ﴿إِنْ رَسُولَكُمْ﴾ استهزاء به، وكذلك قوله: ﴿الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ﴾ يعني أن المجنون لا يكون رسولا.

﴿٢٤٨﴾ ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تابع موسى لفرعون ذكر الدلائل على الله إجابة على قوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ولكن عدو الله أعرض عن ذلك كله ودلالة المشرق والمغرب على الله من أوضح الدلالات؛ لأن للصيف مشرقاً وللشتاء مشرقاً، وهي مواضع شروق الشمس، وهي مرتبة على طريقة محكمة لأن الشمس تكون في المنزلة ثلاثة عشر يوماً إلا منزلة واحدة في السنة تكون أربعة عشر يوماً نظام مستمر لا يتخلف ترتيبه، وذلك دليل على العليم القدير، الذي قدر المشارق على ذلك النظام المرتب.

مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٤٥﴾ قَالَ أُولَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤٦﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ
إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٢٤٧﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٢٤٨﴾

وكذلك مغارب الشمس: للصيف مغرب ينقسم إلى مغارب، وللشتاء مغرب ينقسم إلى مغارب، وتنقل الشمس في مشارقها يشاهد في الصيف والشتاء، ففي الصيف تكون مشارقها في شمال المشرق، وفي الشتاء تكون في جنوب المشرق، وفي الصيف تكون مغاربها في شمال المغرب، وفي الشتاء تكون مغاربها في جنوب المغرب، والمشارك متواصلة فلذلك يصح اعتبارها مشرقاً واحداً بهذا الاعتبار، ومشرقين باعتبار الصيف والشتاء، ومشارك باعتبار تعدد منازل الشمس وتعدد مشارقها تبعاً لذلك، وكذلك المغرب، وقوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي ما بين المشرق والمغرب مالكة هو الله الذي خلقه، وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي إن ذلك دليل على الله رب العالمين لا يخفى على من نظر بعقله، فالمخاطبون إن نظروا عرفوا الله رب العالمين، وإن أعرضوا فاللوم عليهم، والحجة قائمة عليهم.

﴿قَالَ لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ انقطع عدو الله ولجأ إلى الوعيد والتهديد لأنه لم يجد جواباً عن الدلائل، ولكنه في تهديده تجاوز الحد في طغيانه فقد كان يكفيه للرد والمكابرة إنكار الرسالة لا أمره برفض رب العالمين، واستبداله بفرعون اللعين، ولكن موسى عليه السلام لم يتركه بل أوقعه في مضيق لم يجد منه ملجأ.

﴿قَالَ أُولَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ فهو في هذه الحالة إن قال: ولو جئتني بشيء مبين اعترف بالعناد والمكابرة، فلم يجد بداً من طلب هذا الشيء المبين الموضح لصدق موسى في دعوى الرسالة.

وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٧﴾ يُرِيدُ أَنْ تَخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٨﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٩﴾

﴿٣٦﴾ قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٧﴾ فَأَتِ بِهِ هَذَا الَّذِي تقول إنه: ﴿مُيِّنٌ﴾.

﴿٣٦﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٧﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «(الثعبان الذكر من الحيات) انتهى. وفي (الصحيح): «(والثعبان - أيضاً - ضرب من الحيات طوال)» انتهى. وقوله تعالى: ﴿مُيِّنٌ﴾ أي بين واضح أنه ثعبان.

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ أي من جيبه من عند ضلعه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ جملة المنظر، يرغب الناس في النظر إليها لبياضها الخلقي الذي أوجده خالق اليد.

﴿٣٨﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٩﴾ يُرِيدُ أَنْ تَخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٤٠﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ لِكِبْرَاءِ قَوْمِهِ، وَلَعَلَّهُمُ الْوُزَرَاءُ: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ يعني موسى ﴿لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ أي بالسحر ماهر فيه فهلا قتله إن كان ساحراً، وهلا قطع الثعبان قطعاً إن كان سحراً حتى يتبين أنه عصي وليس ثعباناً، فكيف يؤكد دعواه بـ(إن) واللام والجملة الاسمية، ويزيد وصفه بأنه عليم، وهو لو كان يعلم ذلك لقتله فوراً ليستريح منه.

وقوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ تَخْرِجَكُمْ﴾ أي لو سلمنا له بني إسرائيل لتوحدوا معه وأخرجونا من أرضنا فهو يطالب بإرسالهم معه لهذا الغرض، فما بال فرعون إن كان يعلم ما يدعيه فما باله لم يقتله، ويقول: قتلته لئلا يخرجنا من أرضنا بسحره.

يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَارٍ عَلِيمٍ ﴿٢٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٢٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَا أَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ

وقوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي فماذا تأمرون به بناء على أنه ساحر، فهل يأمرن بقتل من يزعمون أنه ساحر، فالقتل عندهم لم يكن بعيداً لولا أن الله تعالى صرفهم.

﴿٢٧﴾ ﴿٢٨﴾ قَالُوا أَرْجَاهُ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَارٍ عَلِيمٍ ﴿٢٩﴾ ﴿أَرْجَاهُ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): ((معناه: أخره)) انتهى. وقال (صاحب الصحاح): ((أرجيت الأمر: أخرته يهمز ولا يهمز)) انتهى.

أي أخره وأخاه لا تقتلها وأبعث ﴿حَاشِرِينَ﴾ يحشرون إليك السحرة، قال الراغب: ((الحشر إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها)) انتهى، وهذا طمع في أن يظهروا سحرهم ثم يدعي فرعون أنهم غلبوا موسى وأن سحرهم أعظم من سحره بزعم فرعون.

﴿٢٧﴾ ﴿٢٨﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٩﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((والميقات: ما وقت به أي حدد من زمان أو مكان ومنه مواقيت الإحرام)) انتهى. فالمعنى: جمع السحرة لوقت الموعد المحدد وهو ضحى يوم الزينة.

﴿٢٩﴾ ﴿٣٠﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٣١﴾ ﴿مُجْتَمِعُونَ﴾ أي في محل الموعد المذكور لعلنا نتبع السحرة أطمعهم في أن تكون السحرة هم الغالبين ليجتمعوا.

الْغَلِيلِينَ ﴿١٢﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَلْقَوْا حِبَاهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿١٥﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١٦﴾ فَأَلْقَى

ولعل طلب اجتماعهم ألباه إليه الكبر لأن موسى عليه السلام طلب أن يحشر الناس ضحى، أو أراد فرعون أن يجمعوا على أن سحر السحرة أعظم خوفاً من فرعون فيقوى جانبه بإجماع أتباعه معه، وتصير غلبة موسى محل نزاع، وفي قوله: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ﴾ بيان لقومه أن لا يحدثوا أنفسهم باتباع موسى إن كان هو الغالب، لأن فرعون إنما جمعهم ليتبعوا السحرة ﴿إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ فقط.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأْجُرُكَ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٣﴾ فلما جاء السحرة محل الاجتماع طلبوا الوعد من فرعون بأن يعطيهم أجراً إن كانوا هم الغالبين، وكان في قلق عظيم، فوعدهم الأجر وزادهم الوعد بأنهم إذا غلبوا من المقربين إليه.

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ لأنهم ﴿قَالُوا يَلْمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥] فأجابهم والحق معه ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ لأنهم لا بد أن يلقوا حباهم وعصيتهم سواء اختار أن يسبقهم أو أن يسبقوه أولم يختار أحد الأمرين فالأمر في الحقيقة إنما هو بأن يتقدم إلقاؤهم قبل إلقائه أي بالترتيب على هذا الشكل ألا ترى أنه قال: ﴿مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ وهو رسول من الله يأمر بإذن الله لأن في تقدمهم إبطالاً لسحرهم بصورة مفاجئة.

﴿فَأَلْقَوْا حِبَاهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾

ظنوا أنهم الغالبون؛ لأنهم سحروا أعين الناس وجاءوا بسحر عظيم، لأنهم يخيل إليهم أنها تسعى سعيّاً لا مجرد حركة.

﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ فإذا للمفاجأة قال في (الصحيح): «لَقِفَت الشيء بالكسر أَلْقَفَهُ لَقْفًا وتَلْقَفْتَهُ أيضًا أي تناولته بسرعة عن يعقوب» انتهى. وقال الراغب: «لَقِفَت الشيء، أَلْقَفَهُ، وتَلْقَفْتَهُ: تناولته بالحدق سواء في ذلك تناوله بالفم أو اليد» انتهى.

وفي (لسان العرب): «اللقف: تناول الشيء يرمى إليك ثم قال ابن سيده: التلقف سرعة الأخذ لما يرمى إليك باليد أو باللسان - إلى قوله - : وتلقفه: تناوله بسرعة - إلى قوله - : وفي (حديث الحج): (تلقفت التلبية من في رسول الله ﷺ) أي تلقيتها وحفظتها بسرعة» انتهى.

وقوله ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ قال في (الصحيح): «الإفك الكذب، إلى قوله: ورجل أفاك: أي كذاب - ثم قال - : والأفك - بالفتح - مصدر قولك: أفاكه يأفكه أفاكاً، أي قلبه وصرفه عن الشيء ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢]» انتهى المراد.

وجعل الراغب (الإفك) أعم من (الكذب) فقال في قوله تعالى: ﴿قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤]: «(أي يصرفون عن الحق في الاعتقاد إلى الباطل، ومن الصدق في القول إلى الكذب ومن الجميل في الفعل إلى القبيح.. ثم قال: وقوله: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢] فاستعملوا الإفك في ذلك لما اعتقدوا أن ذلك صرف من الحق إلى الباطل فاستعمل ذلك في الكذب لما قلنا» انتهى.

فقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ إن كانت (ما) مصدرية وهو الراجع، فيحتمل: تلقف السحر نفسه بحيث تظهر الحبال ساكنة، والعصي حال إلقائها.

السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْمُونَ ۚ لَا قُطْعَنَ أَيَّدِيكُم وَأَرْجُلُكُم مِّنْ خَلْفٍ وَلَا أَصْلَابِنَكُم أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ

ويحتمل: اعتبار الحبال والعصي في تخيلها تسعى هي الإفك لتعلقه بها، وهذا هو الموافق للرواية فأما جعل الحبال والعصي مأفوكه فهو بعيد لأن المأفوك أعين الناس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَنفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أُوْفِكَ﴾ [الذريات ٩-٨] وقال تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦] فالأفوك: هو المسحور لا ما يتخيل مقلوباً عن حقيقته لأنه غير مقلوب في الواقع، فلا يصح تقدير ما موصولة والعائد عليها ضمير مقدر، كأنه قيل: ما يافكونه مع أن الأصل عدم التقدير، فكان جعلها مصدرية هو الصحيح.

﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ ألقاهم الآية العظمى التي لأجلها عرفوا الحق فخضعوا له، وخرعوا لله سجداً في وقت واحد كأنهم ألقوا أي رمي بهم في الأرض، وطرحوا طرْحاً لسرعتهم في خرورجهم ساجدين ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لأنه الذي جاء بالآية على يدي موسى، وجعل عصاه تلقف ما يافكون، وقالوا: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ زيادة بيان في وقت يدعي فيه اللعين الربوبية، وفي قولهم: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ إشارة إلى الإيمان بهما رسولين من رب العالمين.

﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْمُونَ ۚ لَا قُطْعَنَ أَيَّدِيكُم وَأَرْجُلُكُم مِّنْ خَلْفٍ وَلَا أَصْلَابِنَكُم أَجْمَعِينَ﴾ كأن فرعون جعل الرجوع إلى السحرة وسيلة لتطويل النزاع وفتح باب الجدل،

لَنَا رَبُّنَا حَطَبَيْنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ

وقد علم أن ما جاء به موسى آية سماوية، ولكنه أصر على دعواه أنه سحر، وحين علم أن السحرة سيغلبون، أو أنه يمكن أن يغلبوا أعد لنفسه هذا الجدل، ودعوى أن السحرة اتفقوا مع موسى على أن يجعلوا سحرهم ضعيفاً ليغلبه موسى لكنهم لو اتفقوا لبلغ فرعون خبرهم، وطردهم ولم يقبلهم، ويعددهم أجراً وتقريباً لديه، لأنهم كثير من بلدان مختلفة، ومثل ذلك لا يخفى على فرعون، ولأن الحاشرين لهم لا بد أن يكونوا معهم حتى يوصلوهم محل الاجتماع يوم الزينة، فكيف لا يبلغون فرعون لو وقع ما زعم.

ويدل على جراته على الكذب في قوله: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ إن موسى كان غائباً عن بلد فرعون هارباً من بعد قتله للقبطي، وكان غيابه نحو (ثمان سنين) على أقل تقدير، ولم تظهر على يده آية العصى إلا بعد رجوعه من غيابه، فمتى علم السحرة.

وقوله: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْمُونَ﴾ أي ما ينالكم من أجل ما صنعتم، وفسره بقوله: ﴿لَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ..﴾ إلى آخره. قال الشرفي في (المصابيح): «(الصلب: أن يمد الرجل على خشبة حتى تتناثر عظامه)» انتهى.

﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ * إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا حَطَبَيْنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٤﴾ في (مصابيح الشرفي) أظنه عن الحسين بن القاسم عليه السلام، معناه: «(لا ضير في ذلك عندنا ولا مساءة في ظلمك لنا إن أطعنا خالفنا وسيدنا، قال الشاعر:

أبرق وأرعد يا يزيد فما وعيدك لي بضائر)»

انتهى.

هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِرُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٩﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٦٠﴾ كَذَلِكَ

﴿لَا ضَيْرَ﴾ نفي الضير أي نفي الضرر هنا، ليدل على أن وعيد فرعون لا يرددهم عن الإيمان لأنهم منقلبون أي راجعون إلى ربهم وحده ليدخلهم الجنة وينقذهم من النار، فالقتل المؤدي إلى ذلك لا بأس به، والتعذيب المؤدي إلى النجاة من عذاب الله لا بأس به لأنه ينتهي، ويؤدي إلى السعادة الدائمة بسبب الصبر عليه والثبات على الإيمان، ﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾ نحب ﴿أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا﴾ الماضية؛ لأن ﴿كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فلذلك لا ضير علينا فيما أصابنا منك، هذا وأنا أرى أن الله أنجاهم مع بني إسرائيل، أو أنهم كانوا من بني إسرائيل، وما ذكره الله عن أجوبة فرعون ورجوعه إلى الوعيد يدل على عجزه وأنه لا يزال يجادل، ولا حد لجداله إلا نزول العذاب به وبمن معه.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ ﴿إِنْكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ ﴿أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ أي بالمؤمنين معك، كما قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٦٣] وهذا يعم السحرة، فلا يصح ما يروى أن فرعون فعل بهم ما أوعدهم به ﴿إِنْكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ سيتبعكم فرعون وقومه ليقتلوكم أو يأسروكم ويعذبوكم، فانج بمن معك من المؤمنين.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِرُونَ﴾ ﴿حَاشِرِينَ﴾ يحشرون قومه إليه ليهجم بهم على موسى ومن معه ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ قد غاظونا بما طلبوا منا، وبهزيمتهم لنا بالحجة ﴿وَإِنَّا﴾ أي فرعون وقومه ﴿لَجَمِيعٌ﴾ مجتمعون ﴿حَازِرُونَ﴾ من عواقب ترك موسى ومن معه أن يقوى أمرهم ويتبعهم الناس، ويغلبونا بالقوة في الأخير.

وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥١﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٥٢﴾ فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٥٤﴾

قال الراغب: «الشرذمة جماعة منقطعة، قال: شرذمة قليلون، وهو من قولهم: ثوب شراذم أي مقطع» انتهى. وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: طوائف وجماعات والشرذمة كل بقية قليلة» انتهى.

وعلى هذا: فقد أمر الحاشرين أن يقللوا موسى ومن معه بقولهم: (شرذمة) وبقولهم: ﴿قَلِيلُونَ﴾ فهو تقليل للقليل ليشجعوهم على قتالهم كما يشجعونهم بمدح فرعون وقومه بأنهم مجتمعون متحدون فهم أقوياء بذلك، وبأنهم حذرون فالدافع لهم على القتال قوي فهم لا بد بزعمهم أن يغلبوا موسى ومن معه.

﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّنْ جَنَّتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ فأخرجنا فكان همهم بموسى ومن معه ليقتلوهم أو يأسروهم كان ذلك هو وجداهم في آيات الله سبباً لإخراج فرعون وقومه من دنياهم إلى الغرق، كما قال تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُنْحِضُوا إِلَيْهِ الْحَقُّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

وقوله تعالى: ﴿مِّنْ جَنَّتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي عيون ماء فجناتهم خضراء وقوله تعالى: ﴿وَكُنُوزٍ﴾ أي من الذهب أو الفضة أو منهما أو منهما ومن غيرهما أي أموال مجموعة محفوظة معدة لوقت حاجتها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ ومقام محل قيامهم بشؤون عيشتهم كريم بما فيه من القصور المشيدة، ولعلمهم كانوا يملكون الخيل ونحوها مما هو تكريم للإنسان يبتليه الله به.

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ كذلك الأمر كذلك فقد كانوا في نعمة فاكهين، فخرجوا منها إلى الهلاك، أو كذلك نفعل بالجرمين، وأورثناها بني إسرائيل بعد تمكنهم حين أورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها، كما قال تعالى في (سورة الأعراف): ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَلَرْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧] الآية.

ويشير إلى هذا التمكين قوله تعالى: ﴿وَنريدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الفصل ٥-٦] وقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤] ولا يجب في تفسير الآية أن يجعل معناها أن موسى وقومه في عهده أورثوا مصر.

﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ راجع إلى قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ إلى آخر الآيات، وإنما تحلل ذكر إخراجهم؛ لأنه كان الذي دعاهم إليه فرعون هو إخراجهم للهلاك، فأتبعوا موسى ومن معه ﴿مُشْرِقِينَ﴾ صائرين في وقت شروق الشمس؛ لإسراعهم إلى الهجوم على موسى ومن معه.

﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ ﴿تَرَاءَا الْجَمْعَانِ﴾ جمع فرعون وجمع موسى كل رأى عدوه فظن أصحاب موسى أن فرعون وقومه سيدركونهم لقربهم، فقالوا مؤكدين: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ لأنهم لا يرون مفيراً لأن البحر أمامهم وفرعون خلفهم.

﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿كَلَّا﴾ لا تقولوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ لستم مدركين ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ فهو ينصرني على عدوي ﴿سَيَهْدِينِ﴾ لوسيلة النجاة من عدوي.

فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٢٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثُمَّ الْآخَرِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٢٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ

﴿٢٣﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٢٣﴾ فَأَنْفَلَقَ ﴿٢٣﴾ أي فضرِب البحر ﴿فَأَنْفَلَقَ﴾ صار فلقين أي انفرق صار فرقين ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾ من الفرقين ﴿كَالطَّوْدِ﴾ كالجبل، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «(الطود: الجبل)» انتهى.

وفي (مفردات الراغب): «(الطود: هو الجبل العظيم، ووصفه بالعظيم لكونه فيما بين الأطواد عظيماً لا لكونه عظيماً فيما بين سائر الجبال)» انتهى. وفي (الصحاح): «(الطود: الجبل العظيم)» انتهى.

ومثله في (لسان العرب) العظيم: أي أن الفرق من البحر الذي هو بعض منه انفصل عن البعض الآخر، فكان كل واحد من الفرقين كالجبل العظيم أو الجبل الذي هو أعظم من الجبل العظيم، لأن الله حفظه مكانه فكان ما بين الفرقين طريقاً لبني إسرائيل ليفروا فيه من عدوهم، وما روي: أنه صار اثني عشر طريقاً خلاف ظاهر القرآن؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَأَنْفَلَقَ﴾ ولم يقل: ففتلق، وكذلك قال تعالى: ﴿فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً﴾ [طه: ٧٧] ولم يقل: (طرقاً).

﴿٢٤﴾ وَأَزْلَفْنَا ثُمَّ الْآخَرِينَ ﴿٢٤﴾ أَزْلَفْنَا ﴿٢٤﴾ قربنا ﴿ثُمَّ﴾ هناك حول البحر ﴿الْآخَرِينَ﴾ فرعون وقومه.

﴿٢٥﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٢٥﴾ بمروهم في الطريق الجديد بقي البحر مفروقاً حتى خرجوا منه.

﴿٢٦﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٢٦﴾ بإرجاع البحر عليهم.

﴿٢٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٢٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّهَا عَنكِفِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٣٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضَرُّونَ

﴿٢٧-٢٨﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ في فلق البحر لموسى ومن معه، وإغراق فرعون ومن معه (آية) لرحمة الله لأوليائه ورسوله ونصره لهم على أعدائهم، ولقدرة الله على كل شيء، وعلمه بكل شيء، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿الْعَزِيزُ﴾ هو الذي لا يُنال فهو غالب لا يُغلب، ولا ينال بسوء سبحانه وتعالى وقد مر تفسير الأولى.

﴿٢٩﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ وقرأ عليهم نبأ إبراهيم الذي أنزل إليك عليهم، أي على المشركين من قومك الذين لم يؤمنوا، والنبأ الخبر بالامر المهم، أو الخبر مطلقاً.

﴿٣٠﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ سؤال عن حقيقتها فكان الجواب المطابق أن يقولوا: نعبد تماثيل من نحاس مثلاً وفي ذلك كفاية لبطلان عبادتهم لها، لكنهم عدلوا عن الجواب المطابق للسؤال.

﴿٣١﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّهَا عَنكِفِينَ﴾ فنظّل لها عابدين، والظلول في النهار، وقوله: ﴿هَآ عَنكِفِينَ﴾ تفسير العبادة لها أنها بالعكوف لها أي حبس أنفسهم عندها مدة طويلة في النهار خضوعاً لها بمعنى الإقرار منهم بالعبودية لها.

﴿٣٢﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ إذ تدعونها حال العكوف وهو عبادة أخرى وهذا احتجاج عليهم واضح؛ لأنهم إن ادعوا أنها تسمع كان عليهم بيان دليل على صدق دعواهم، ومجرد الدعوى لو ادعوا كذب واضح لأنها مجرد تماثيل مصنوعة لا تسمع ولا تبصر، وإن أقروا أنها لا تسمع لزمهم بطلان الدعاء لها.

﴿٧٦﴾ وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٧٧﴾ وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٧٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا

إبراهيم وقد أعلن عداوة أصنامهم واثقاً أنها عاجزة عن ضره من أن يرجعوا إلى الحق لعلمهم بعجزهم عن إبطال حجة إبراهيم، أو يرجعوا إلى دفعه بالقوة التي تدل على عجزهم عن الدفع بالحجة، ولا يثبت بها ما يزعمون ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾. يحتمل: أن الاستثناء مما يعبدون متصل وأنهم كانوا لا يحدون الخالق ولا يستغنون عن دعائه في بعض الحالات، ويحتمل أن الاستثناء منقطع بمعنى لكن رب العالمين المالك لهم المستحق لئن يعبدوه ليس عدواً لي بل أنا محتاج إليه في كل حال.

﴿٧٦﴾ وَالَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ * ﴿٧٧﴾ وَالَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * لمناعي، ويرشدني إلى الدين الحق، ويريني الباطل باطلاً لأجتنبه، فأنا محتاج إليه لذلك، وهو ﴿الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ فأنا محتاج إليه لأعيش، ولولا إطعامه لي وسقيه لي لما عشت، فنعمة الخلق والهدى والإطعام والسقي يجب علي شكرها، وعبادته لأجلها ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وهذه حاجة شديدة يحتاجها المريض، فإذا شفي وجد لذة العافية، وعرف نعمتها في مرضه وشفائه فهي من أسباب عبادة الله لا عبادة الأصنام التي لا تشفي مريضاً، ولم يقل: والذي يمرضني لأنهم لا يعتبرون المرض نعمة، ولا يعتبرونه إلا مصيبة، فلم يخاطبهم بما لا يفهمون، وإنما تظهر نعمة المرض عند نيل الثواب على الصبر، والعوض على المرض، ومعرفة تكفيره للخطيئات.

وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٢﴾ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٣﴾
وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٤﴾ وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٥﴾

وإذا عرفنا أن الشفاء من الله تعالى فينبغي استعمال أسباب الشفاء التي وردت في الأحاديث النبوية كالاستغفار والصدقة والدعاء وقراءة فاتحة الكتاب واجتناب ما عُرف ضرره، ومن الخطأ الاتكال على العلاجات دون الرجوع إلى الله، والتماس الشفاء منه ﴿وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ تُحْيِينِ﴾ وهذا يدل على حاجتي إلى عبادته ليوم يحيني أقدمها وهو دليل على قدرته على كل شيء، فهو القادر على الثواب على عبادته، والعقاب على الشرك به، بخلاف أصنامكم ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي يوم الجزاء على الأعمال الحسن منها والقبیح، وهذا يدل على شدة الحاجة إلى عبادته وحده.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ وهذا من العبادة لله يصارحهم بها، ويذكرهم بأن ربه هو القادر على أن يهب له حكماً ويلحقه بال صالحين قال (صاحب الكشاف): «الحكم الحكمة، أو الحكم بين الناس بالحق» انتهى.

وقد قال تعالى في موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص: ١٤] وقال في يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢] وليس معناه الحكم بين الناس، وإنما معناه الحكمة بمعنى رجاحة العقل، ووضع الأشياء مواضعها، وحسن الرأي، والعدالة والإحسان والمروءة، فأما العلم فهو معين عليها، ومتمم لها، وقد عطف عليها في الآيتين كما ترى، فلا يصح تفسيرها بالعلم وحده.

وقوله تعالى حاكياً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ يعني في الآخرة، أو في الدنيا والآخرة، فإلحاقه في الآخرة أن يكون معهم في موقف الحساب، وفي الجنة، ونحو ذلك ينال ما نالوا، وإلحاقه بهم في الدنيا الحكم له بأنه من الصالحين، وقد أجيبت دعوته قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٢].

﴿وَأَجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ لسان صدق ذكرأ بالخير صادقاً سمي لساناً كما سميت اللغة لساناً، قال تعالى: ﴿يَلِسَانَ عَرَبِيٍّ﴾ ولعله رغب فيه تبعاً لرغبته في بقاء دينه في الآخرين، ولأنه نصر له على المشركين والله أعلم.

﴿وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ جعلت الجنة ميراثاً لأهلها ولعله مجاز لمشابقتها الميراث لوقوعها بعد الموت، وسببها قبل الموت - والله أعلم.

فأما ما قيل: إن أهل الجنة يأخذون ما كان يأخذه أهل النار لو آمنوا واتقوا، ففيه إشكال أن أهل الجنة أخذوا ما هو معد لهم، وإذا صح أن لأهل النار نصيباً فيها فاتهم وأخذه أهل الجنة، فذلك لا يستدعي أن يجعلوا وارثين للجنة كلها لأن الموروث على هذا المعنى إنما هو بعضها، وأيضاً ذلك مجاز ليس ميراثاً حقيقة، ولا يجري مجرى إرث الدنيا أهلها بعد الماضين، كقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ لأن آل فرعون كانوا فيها فتركوها ثم ورثها بنو إسرائيل أما أهل النار فلم يكونوا في الجنة.

﴿وَأَغْفِرْ لَأَيِّبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ هذا الاستغفار وفاء بوعده ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾

﴿٨٧-٨٨﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ الإخزاء: إهانة وفضيحة، وهو - صلى الله عليه - في هذا يدعو الله وقد استجاب له، وكلامه توحيد وإيمان بالبعث، ودعاء لله وحده فأمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يقرأه على قومه وقد كان أكثرهم مشركين لا يؤمنون بالبعث، وهم يزعمون أنهم على دينه ﷺ.

وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ يبطل زعم الجاهلين القائلين: ﴿لَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] ونحوه.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ﴾ أي عند الحساب ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي من الشرك، ومن كل اعتقاد محظور، ومن كل إصرار على كبيرة، فشمّل هذا سلامة القلب التي ليست إلا للمؤمن التقي.

﴿٩٠﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩١﴾ أي قربت الجنة للمتقين، وتفسير المتقين في (سورة آل عمران) حيث جعلهم أهل درجتين من التقوى، فقال تعالى: ﴿أَعْلَنَ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يَنْفِقُونَ..﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً..﴾ إلى آخر الآيات الثلاث [آل عمران: ١٣٣-١٣٥] وهذا هو الظاهر؛ لأن المتقين لم تخصص اتقاء مخوف من العذاب دون مخوف، ولا درجة منه دون درجة، والاتقاء في اللغة استعمال ما يقي المستعمل كالجن في الحرب، فيقال: اتقى السيف بالجن، وفي معلقة عنترة:

إذ يتقون بي الأسنة لم أخيم عنها ولكني تضايق مقدمي

وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴿١٣﴾ فَكَبِّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿١٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿١٥﴾

وقال آخر:

سقط النصف ولم ترد اسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

وانما خصه بعضهم باتقاء الشرك بناء على عقيدتهم في الفساق من أهل القبلة والفساق غير طيبين، والله تعالى يقول في (سورة النحل): ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [النحل ٣١-٣٢].

﴿وَبَرَزَتْ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ ﴿وَبَرَزَتْ﴾ أظهرت لهم بحيث يرونها ويسمعون صوتها، ولعله قال تعالى: ﴿وَبَرَزَتْ﴾ بصيغة التكرير ليدل على تكرار إبرازها بحيث تقرب منهم بعد بروزها بعيداً، أو يدل على كبرها وتعدد التقريب لأبعضها بحيث يقرب بعض بعد بعض، والعطف للوعيد على الوعد، بقوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتْ﴾ إلى آخرها، والآيتان في وصف يوم يبعثون.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أي للغاوين العادلين عن طريق رشدكم وهم هنا المشركون ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ لا نراهم معكم يدفعون عنكم جهنم هل ينصرونكم بشفاعة أو بأي وسيلة فيدفعوا عنكم أو يتصرون هم من دخول النار. قال الشرفي: ((وهذا سؤال توبيخ)).

قلت: أو في معنى النفي ويترجح أن المراد بمن كانوا يعبدونهم الذين كانوا يطيعونهم في معصية الله، ويزعمون باطلهم حقاً.

﴿فَكُبِّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ الكبكة: متعددة لتعدد المعبودين، والضمير لهم، والغاؤون هنا هم الغاؤون المشركون كما في الآية السابقة، قال الراغب: «والكبكة تدهور الشيء في هوة» انتهى. وقال في (الصحاح): «وكبكه: أي كبه، ومنه: قوله تعالى: ﴿فَكُبِّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾» انتهى.

وفي (لسان العرب) ذكر القولين، وزاد في قول الله تعالى: ﴿فَكُبِّكُوا﴾ قال الليث: «أي دُهِرُوا وجمعوا ثم رمي بهم في هوة النار، وقال الزجاج: كبكوا طرح بعضهم على بعض، وقال أهل اللغة: معناه دُهِرُوا، وحقيقة ذلك تكرير الانكباب كأنه إذا أُلقي ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر فيها، نستجير بالله منها» انتهى المراد.

وقال الشرفي رحمه الله في (المصباح): «ومعنى قوله: ﴿فَكُبِّكُوا فِيهَا﴾ أي طرحوا في النار على وجوههم بعضهم على بعض منكسين على رؤوسهم، قال الشاعر:

يناديهم رسول الله لما طرحناهم كباكب في القلب

أي طرحنا بعضهم على بعض في البير» انتهى.

وفي (الكشاف): «والكبكة: تكرير الكب جعل تكرير اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى، كأنه إذا أُلقي فيها ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها، اللهم أجرتنا منها يا خير مستجار. انتهى. وهذا أوضح الأقوال؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ جَاءَ يَأْسِيئَةً فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [النمل: ٩٠] وقول (صاحب الكشاف): «(جعل تكرير اللفظ)» يعني: أنه وإن لم يكن مشتقاً منه فهو موافق له - والله أعلم.

﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ أي كبكوا كلهم أجمعون، كبت وجوهم في النار، ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ أنصاره من الجن والإنس الدعاة إلى سبيله.

قَالُوا وَهُمْ فِيهَا تَخْتَصِمُونَ ﴿١٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٧﴾ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْأَجْرُمُونَ ﴿١٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿٢٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿٢١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتُخَدَّعُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢﴾

﴿١٦-١٨﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا تَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ قَالُوا ﴿١٧﴾ أَيُّ التَّابِعِينَ لِقَادَةِ أَهْلِ الشَّرْكِ مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴿١٨﴾ إِنْ كُنَّا ﴿١٩﴾ أَيُّ إِنْ كُنَّا فِي ﴿٢٠﴾ ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ حِينَ ﴿٢٢﴾ نُسَوِّكُمْ فِي طَاعَتِنَا لَكُمْ ﴿٢٣﴾ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٤﴾ وَهَذَا عَلَى أَنَّ شُرَكَاءَهُمْ هُمْ مَتَّبِعُوهُمْ الَّذِينَ كَانُوا يَطِيعُونَهُمْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَيَعْبُدُونَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ حَيْثُ جَعَلُوا طَاعَتَهُمْ حَقًّا فِي الشَّرْكِ، وَفِي إِثْبَاتِ الْبَحِيرَةِ، وَالسَّائِبَةِ، وَالْحَامِي.

وقد جعل الناصر عليه السلام في (البساط) طاعة الشيطان شركاً من غير نظر إلى أنها جعل الحكم لغير الله تعالى، لكنه جعل شرك الطاعة دون شرك العدل بالله، والمشركون في طاعتهم لكبرائهم قد جمعوا بين المعنيين شرك الطاعة لشياطين الإنس والجن، وشرك جعل الحكم لغير الله في البحيرة ونحوها إذ حرموها عليهم، وفيما جعلوه لشركائهم ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦] ونحو هذا مما حكاه الله عنهم في (سورة الأنعام).

﴿٢١﴾ ﴿٢٢﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْأَجْرُمُونَ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ حَمَلُونَا عَلَى طَاعَتِكُمْ مِنْ أَخْلَاءِ السُّوءِ وَقُرْنَاءِ الْبَاطِلِ الَّذِينَ زِينُوا لَهُمْ ذَلِكَ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوْتَةً بَيْنَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمُ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمُ بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥] فهذا بين الأَخْلَاءِ وَالْقُرْنَاءِ فَأَمَّا الْمُطَاعُونَ فَهُمْ سَادَتُهُمْ وَكِبَرَاؤُهُمْ: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٧].

﴿٢٢﴾ ﴿٢٣﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتُخَدَّعُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٤﴾ هَذَا مِمَّا حكاه الله عن المشركين قَالُوا وَهُمْ فِي النَّارِ قَدْ أَيْسُوا

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ ﴿١٣﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا

من شفاعة الشافعين: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ (الفاء) للتفريع على إضلال
الجرمين لهم ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ لانقطاع العلاقات ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ
لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزخرف: ٦٧] ﴿لَا بَيْعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] والحميم
في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): ((معناه: شفيق)). انتهى.

وقال الراغب في قوله تعالى: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ
حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠] فهو القريب المشفق.. الخ. وقال (صاحب
الصحاح): ((وحميمك: قريبك الذي تهتم لأمره)). انتهى.

وقولهم: ﴿قُلُوبُنَا لَنَا كَرَّةٌ﴾ أي فليت لنا رجعة إلى الدنيا والتكليف
﴿فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أقرؤا بالحق حين لم ينفعهم الإقرار.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إن في ذلك المذكور من
قول إبراهيم عليه السلام وقصته مع قومه؛ لأنه عليه السلام ذكر الدليل عليهم كما مر
وذكر قصة أهل النار آية سمعية فيها زجر عظيم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ وإن ربك الذي أرسلك وأنزل
عليك القرآن ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ فلا يترك العصاة بدون عقاب ﴿الرَّحِيمُ﴾ فلا
يعذبهم قبل إرسال النذير، فمن رحمته أرسلك وأنزل عليك القرآن.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ لعل تكذيبهم لنبيهم نوح عليه السلام كان
تكذيباً للمرسلين كلهم؛ لأنهم استندوا في تكذيبهم له إلى أنه بشر مثلهم،
فكان معنى كلامهم أن لا رسول بشر، أو أنهم كذبوا المرسلين نوحاً ومن
قبله، لأنهم قالوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤] فنفوا تقدم
رسول قبل نوح، والأول أرجح أنه المراد - والله أعلم.

تَتَّقُونَ ﴿١٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٢٠﴾ * قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿٢١﴾ قَالَ وَمَا عَلَّمِي

﴿١٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧﴾ إِذْ قَالَ ﴿١٨﴾ إِمَّا أَذْكُرْ: إِذْ قَالَ، وَإِمَّا كَذَبْتَ قَوْمِ نُوْحٍ إِذْ قَالَ، وقوله: ﴿١٩﴾ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٠﴾ يدعوهم إلى التقوى برفق، ومعنى ذلك أنهم معرضون لعذاب الله لأنهم مشركون، فهم محتاجون إلى التقوى لأجل ذنوبهم. ثم بين لهم كيف يتقون، فقال: ﴿٢١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٢٢﴾ فبين لهم أن التقوى بأن يطيعوه ليمحوا ذنوبهم الماضية، لأنه رسول أمين بين لهم طريق النجاة ثم أمرهم بالتقوى ثانية تفريعاً على كونه رسولاً يجب عليهم الإيمان به واتباعه وطاعته، فتكذيبه ومعصيته خلاف التقوى من هذه الجهة فتجدد عليهم وجوب التقوى مع وجوبها عليهم من قبل بسبب ما هم عليه.

﴿٢٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٤﴾ وهذا تنبيه لهم لئلا يتوهموا أن الباعث له على دعوى الرسالة حب المال، وطلب الأجر، فإذا لم يكن له مصلحة منهم وتحمل مشقة إنذارهم مع توقع تكذيبهم، فذلك يدعوهم إن أنصفوا إلى النظر بعقولهم فيما جاء به من دليل رسالته، حتى يعلموا أنه دليل صحيح، وقد قامت عليهم الحجة لينظروا بإنذاره لهم مع عدم طلب أجر منهم على الرسالة؛ لأن ذلك زيادة في لفت النظر، ودعوة المنصف إلى النظر في آيته فلذلك عقب بقوله:

﴿٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٢٦﴾ لأنهم إن كانوا قد نظروا سابقاً وعلموا صدقه فما بقي إلا أن يأمرهم بتقوى الله وطاعته، وإن كانوا لما ينظروا فأمرهم بتقوى الله لينظروا فيطيعوه إيماناً بآيته.

بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٣٠﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ

فإن قيل: فما كانت المعجزة التي أظهرها الله على يديه لتدل على صدقه؟

قلنا: قد أخبرنا الله أن الرسل جاءوا قومهم بالبينات فتبين أن قد جاءهم بآية وإن لم نعلم نحن ما هي فكم نجعل من الواقع، فلا يدل جهلنا بها على عدمها، وهو عليه السلام، يفيد: أن قد جاءهم بآية في قوله: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ [هود: ٢٨].

﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ﴾ تعلل لترك الإيمان منهم واعتذار بالكبر عن مجالسة الفقراء الذين اعتبروهم أراذل لفقرهم، أرادوا أنهم فسال، قال الراغب: «الرذل، والرذال: المرغوب عنه لرداءته» انتهى. وقد أجاب عنهم نبي الله وردهم إلى الصواب.

﴿قَالَ وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ * إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿٣١﴾ فبين لهم أن الرذل من أرذله عمله لا من يصغر عندهم لفقره، وما علمي سؤال بمعنى النفي، بمعنى: أني لا أعلم ما يعتادون من الأعمال أي غير الإيمان وتوابعه، والمراد الأعمال القبيحة، فمعناه: أنه لا يعلم لهم عادة قبيحة.

وقوله: ﴿إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي﴾ يفيدهم أنه لا يعاملهم إلا على الظاهر، فأما باطنهم فأمره إلى الله وحده وهو الذي يحاسبهم يوم القيامة، وقال: ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ لأنهم جاهلون بأن الله هو الذي كتب على نفسه أن يحاسبهم ومعنى ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ لو تعلمون.

يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوِّمِي كَذَّبُونَ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي

﴿١١٦-١١٧﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٧﴾ المؤمنون أي الذين اتبعوا نوحاً وليس له أن يطردهم، وكيف يطرد من آمن به ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٨﴾ ما أنا إلا نذير مبين ليس لي أن أتسلط على عباد الله بغير حق، ومعنى ﴿مُبِينٌ﴾ أنه بين واضح أنه نذير؛ لأنه قد جاءهم بآية بينة.

﴿١١٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ لما غلبهم بالحجة وأبطل تعللهم رجعوا إلى التهديد لئن لم تنته عن الدعوة إلى الله ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أي لترجمن بالحجارة لتخلص منك، انقطع الخوض بينه وبينهم في دعوته؛ لأنه قد بلغهم وأقام الحجة عليهم وقطع جدالهم حتى لم يجدوا إلا التهديد.

﴿١١٨-١١٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوِّمِي كَذَّبُونَ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ﴿١١٨﴾ أي فاحكم بيني وبينهم بما كذبوني حكماً أي حكم نرضاه ﴿وَنَجِّنِي﴾ مما تحكم به عليهم في تكذبي ونجّ من مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾.

﴿١١٩-١٢٠﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١١٩﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ ﴿١١٩﴾ تفريع بال(فاء) على تكذيبهم ودعاء نوح عليه السلام، و﴿الْفُلِّ﴾ السفينة، و﴿الْمَشْحُونِ﴾ المملوء أو هو خاص بالسفينة ونحوها.

قال في (القاموس): «(شحن السفينة، ثم قال: والمدينة ملاًها)» انتهى.

ذَٰلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَتْ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١١٢﴾ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا

وفي (الصحيح): «شحنت السفينة ملأتها، قال الله تعالى: ﴿فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ وشحنت البلد بالخیل - ثم قال - : ويقال: مرّ يشحنهم أي يطردهم أفاده في (لسان العرب) شحنا أي يطردهم ويشلّهم ويكسؤهم» انتهى.

فلكل استعمال موضع خاص وسفينة نوح عليه السلام امتلأت لكثرة ما حمل من الحيوان، لقول الله تعالى: ﴿أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ..﴾ [هود: ٤٠] «ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ» أي بعد إنجاء نوح ومن معه أغرقنا ﴿الْبَاقِينَ﴾ أي الذين لم يركبوا مع نوح، فالمراد بـ﴿الْبَاقِينَ﴾ من عدا نوحاً ومن آمن معه، قال في (الصحيح): «(وبقي من الشيء بقية)» انتهى.

فظهر: أن ﴿الْبَاقِينَ﴾ بمعنى البقية الذين لم يدخلوا السفينة، لم ينجمهم الله. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَتْ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿إِنَّ فِي﴾ إهلاك المكذبين برسولهم وإنجاء المؤمنين ﴿لَآيَةً﴾ تدعو إلى الإيمان بالرسول، واجتناب تكذيبهم، ومن عزة الله تعالى أنه عذب المكذبين، ومن رحمته أنه أنذرهم، وأنه أنجى المؤمنين.

﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ هذه الآية نظيرها في قوم نوح، ولكن عاد بعد قوم نوح كذبوا رسولهم هوداً عليه السلام، وكذبوا نوحاً، ومن قبله من المرسلين، فأما من بعدهم، فلعله لزمهم من إنكارهم رسالة البشر على الإطلاق.

تَتَّقُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ ﴿١٢٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٠﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٣١﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٣٢﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ ﴿١٣٤﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا

﴿١٢٧-١٢٨﴾ ﴿إِذْ قَالَ لَهُم أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ * إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ تفسير هذه الآيات مثل تفسير نظيرها في (قوم نوح).

﴿١٢٧﴾ ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ نظير الآية في (قوم نوح) والمراد: أنه لا يسألهم مالاً، كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠] وكما صرح به نوح فيما حكاه الله تعالى في (سورة هود) فهو لا يسألهم مالاً ولا أجراً حقيقياً كعمل يعملونه له أجراً على الرسالة، والأجر الحقيقي لا يكون إلا أحدهما أي مالاً أو عملاً جارياً مجرى المال كالبناء والحراث، وحفر الآبار.

﴿١٢٩-١٣٠﴾ ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ أنكر عليهم الرسول هذه الخلال الثلاث، الأولى: قال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ أي بكل مرتفع أية أي علامة تعبثون أي لا فائدة لها، وإنما هي عبث معيب، قال في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ معناه: بكل مرتفع من الأرض» انتهى المراد. وفي (مفردات الراغب): «(الرّيع: المكان المرتفع الذي يبدو من بعيد)» انتهى.

وفي (الصحيح): «(والرّيع: المكان المرتفع من الأرض، وقال عماره: هو الجبل الصغير - إلى قوله - : ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ والرّيع - أيضاً - الطريق)» انتهى.

وقوله تعالى حاكياً: ﴿ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ لعلهم كانوا ينونها لمجرد إظهار قوتهم وغناهم يفخرون بذلك، فكان عبثاً لأنه لا يستحق أن يكون سبباً للبناء لما في البناء من التكلف والعناء، وغرامة المال، فإذا فعل لمجرد ذلك الغرض الحقير الذميمة كان عبثاً.

والثانية - مما عاب عليهم - أفادها قوله تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ قال في (الصحيح): ((والمصانع: الحصون)) انتهى، وبه فسرهُ الشرفي في (المصاييح).

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): ((معناه: بروج الحمام وكل بناء فهو مصنعة)) انتهى. وقال الراغب: ((وعبر عن الأمكنة الشريفة بالمصانع، قال: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾)) انتهى. وقال الراغب: ((الصنع إجادة الفعل)) انتهى المراد.

والذي يناسب قول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أنها الحصون أما قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي لعل اتخذ المصانع سبب في خلدكم ظناً أنها تقيكم الآفات، ولعلهم أرادوا أن تحميهم من الأعداء إن كان لهم أعداء، وإلا فمن السباع والهوام والحرّ والوباء، وهذا من استعمال الخلد في السلامة من المصائب، كقول امرئ القيس:

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي وهل يعمن من كان في العُصْرُ الخالي
وهل يعمن إلا سعيد نخلد قليل هموم ما يبيت بأوجال

قال الراغب: ((الخلود: هو تبرئ الشيء من اعتراض الفساد وبقاؤه على الحالة التي هو عليها)) انتهى. فهما معنيان للخلود: الأول: التبري من اعتراض الفساد.

والثاني: بقاؤه ومن الأول قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ [الإنسان: ١٩] وقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٤] ومن الثاني قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ والأول خاص بأهل الجنة، والثاني لهم ولأهل النار.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣] وقال الشريفي في تفسير قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾: «كأنكم تخلدون في هذه الحياة لا تموتون» هذا معنى كلامه.

والثالثة - مما عاب نبي الله هود على قومه - أفادها قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ قال (صاحب الصحاح): «البطشة السطوة والأخذ بعنف» انتهى. وقال الشريفي: «والبطش - أي هنا - الضرب والقتل بغير حق» انتهى المراد.

والبطش هنا يفسره قوله الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْبِطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ [القصص: ١٩] فالسياق يفيد: أنه أراد أن يدفع عدوهما بالضرب أو نحوه، فالبطش الضرب الموجه ونحوه وقد يكون قتلاً، وقد يكون أشد من ذلك، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦].

وقوله: ﴿جَبَّارِينَ﴾ قال في (الصحاح) في معنى (الجبار): «والجبار: الذي يقتل على الغضب» انتهى. والمعنى: أنه لا يتقيد إذا غضب بمجد يليق بالعاقل بل يكون بطشه على قدر غضبه، ولا يبالي بالظلم ولا يرحم المظلوم.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ فأنتم معرضون لعذاب الله إن لم تطيعوني فاطيعوني اتقاء لله.

تَعْلَمُونَ ﴿١٧٢﴾ أَمَدَكُمْ بِأَنْعَمِ وَبَيْنَ ﴿١٧٣﴾ وَجَنَّتِ وَعُيُونِ ﴿١٧٤﴾ إِنِّي أَخَافُ
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أُوْعِظَتْ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِّنَ
الْأَوَّعِينَ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٧٨﴾

﴿١٧٢-١٧٣﴾ وَأَتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمِ وَبَيْنَ * وَجَنَّتِ
وَعُيُونِ ﴿١٧٤﴾ قَالَ فِي (الصَّحَاحِ): «المادة: الزيادة المتصلة» انتهى. يذكرهم رسولهم
بنعم الله عليهم النعم المتلاحقة المتواصلة فالأنعام تتج ويتكرر درّها ونفعها
والبنون يتكرر السرور بهم ونفعهم، والجنات تثمر ويتكرر ثمرها، والعيون
يستمر الانتفاع بها للشرب وسقي الأنعام والجنات.

قال في (الكشاف): «فإن قلت: كيف قرن البنين بالأنعام؟ قلت: هم
الذين يعينونهم على حفظها والقيام عليها» انتهى. فرسولهم يذكرهم بنعم
الله عليهم ليشكروه ولا يكفروا نعمه لأنهم إذا كفروها وهم كافرون لها
تعرضوا لعذاب الله فلذلك قال:

﴿١٧٥﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٦﴾ يَوْمٍ عَظِيمٍ يَحْتَمِلُ أَنَّهُ عَنِ
عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُوَ الرَّاجِحُ، وَمَحْتَمِلٌ: أَنَّهُ أَرَادَ يَوْمَ الْهَلَاكِ الْعَاجِلِ الَّذِي
يُعْظَمُ عَلَيْهِمْ هَوْلُهُ، وَيُعْمَهُمْ عَذَابُهُ وَيُنْقَلَهُمْ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي
(أَصْحَابِ الْآيَةِ): ﴿فَكَذَّبُوهُ فَاتَّخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

﴿١٧٦-١٧٧﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أُوْعِظَتْ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِّنَ الْأَوَّعِينَ * إِنَّ هَذَا
إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٧٨﴾ سَوَاءٌ عَلَيْنَا ﴿١٧٩﴾ لَا نَبَالِي بِمَا تَقُولُ، وَلَا
تَنَاطُرُ بِهِ بَلْ هُوَ وَعَدَمُهُ سَوَاءٌ عَلَيْنَا، وَهَذِهِ مَبَالِغَةٌ فِي رَدِّهِ وَأَسْلُوبٌ لِّجَعْلِ
الْيَاسِ فِي نَفْسِهِ لَيْسَكَ عَنْهُمْ.

فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۖ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ كَذَبَتْ ثُمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٨﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ

﴿إِنْ هَذَا﴾ الذي نحن عليه وتنكره علينا ونخاف علينا لأجله عذاب يوم عظيم ليس أمراً منكراً إنما هو شيء مألوف، ورثناه من الأولين، وكان من خلقهم وعاداتهم التي استمروا عليها، والخلق يستعمل في الطبيعة التي هي ميل النفس إلى عادة من العادات، ويستعمل في نفس العادة التي أدت إليها الطبيعة كما قال الشاعر:

يا أيها المتحلّي غير شيمته ومن خلّقه الإقصاد والمألّق
ارجع إلى خيمك المعروف ديدنه إن التخلق يأتي دونه الخلق

وقال الإمام القاسم عليه السلام، في عدّ الركعات بالأصابع والحصى: «خلق حسن» أي عادة حسنة، وقال الشرفي في تفسير هذه الآية: إن هذا إلا خلق الأولين أي طبع الماضين وسيرتهم.. الخ. وقد ورد الترغيب في حسن الخلق ومكارم الأخلاق بمعنى العادات الحسنة كإكرام الضيف، وإغاثة الملهوف، وبذل المعروف، وقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ ردّ على رسولهم في قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۖ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ *﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي كذبت عاد رسولهم هودا ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ وذلك مفصل في سور، منها: (الحاقة) و (الأحقاف) إن في إهلاكهم بسبب تكذيبهم لآية ودليلاً يُعرف به الله الذي أرسل الريح العقيم حتى دمرتهم فلم تنصرهم آلهتهم ولا غيرها، ودل ذلك: على أن الله قادر عالم، وعلى أنه العزيز.

أَخُوهُمْ صَلَاحٌ أَلَّا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَخَلِّ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنَجِّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ فلغزته أرسل إليهم رسولا ولم يهملهم ولغزته عاقبهم، وقوله: ﴿الرَّحِيمُ﴾ ومن رحمته أرسل إليهم رسولا يدعوهم إلى ما ينجيهم من عذابه، وجعل معه الآية الدالة على صدقه حتى كذبوه عنادا.

﴿كَذَبَتْ ثُمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ قد مر وجه كونهم كذبوا المرسلين جملة في قوم نوح.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَلَاحٌ أَلَّا تَتَّقُونَ﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ قد مر تفسيرها في نظائرها الماضية.

وقوله: ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيه تنبيه لهم أنهم عباد مملوكون لله ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فعليهم أن لا يشركوا به غيره، بل يخلصوا له العبادة لأنها تعبير عن العبودية للمعبود.

﴿أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا ءَامِنِينَ﴾ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَخَلِّ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنَجِّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٦﴾ يذكر رسولهم قومه بنعمة الله عليهم ويحذرهم من زوالها بقوله: ﴿أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا﴾ أي فيما أنتم فيه من النعمة التي فصلها بقوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ إلى آخر الآيات.

والسؤال في قوله: ﴿أَتَتَرَكُونَ﴾ في معنى النفي، أي الإنكار الإبطالي فالمعنى إن هذه النعم العظيمة لا تتركون فيها إلا إذا آمتتم والاستثناء مأخوذ من السياق لأنه يدعوهم إلى الإيمان لينجوا، فكأنه قال: ﴿أَتَتَرَكُونَ﴾ وأنتم علي ما أنتم عليه من الشرك، وسائر كفران النعم التي أنتم عليها، وقوله: ﴿وَنَخْلٍ طَلَعُهَا هَضِيمٌ﴾ طلعتها ثمرها الصغار البيض هضيم حباته متزاحمة في أخبيتها متراسة، ولذلك تأتي الحبة الواحدة ضامرة فهو عبارة عن كثرته لصلاح النخل وريته، قال في (الصحيح): «ويقال للطلع: هضيم ما لم يخرج من كُفْرَاهُ لدخول بعضه في بعض» انتهى.

فظهر من هذا: أن الطلع هنا هو الثمر الذي في خباته، لا الخباء بما فيه، وهذا هو الذي فسر به في مصابيح الشرفي في سورة (ق) وقال الراغب: «قال: ﴿وَنَخْلٍ طَلَعُهَا هَضِيمٌ﴾ أي داخل بعضه في بعض كأنما شُدخ» انتهى. وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿طَلَعُهَا هَضِيمٌ﴾ معناه: قد ضُمَّ بعضها إلى بعض» انتهى المراد.

وفي (لسان العرب) قال: «وطلعه - أي النخل - كُفْرَاهُ قبل أن ينشق عن الغريض، والغريض يسمى طلعاً أيضاً وحكى ابن الأعرابي عن المفضل الضبي، أنه قال: ثلاثة تؤكل فلا تسمن، وذلك: الجُمَار، والطلع، والكمأة، أراد بالطلع الغريض الذي ينشق عنه الكافور، وهو أول ما يُرى من عذق النخلة» انتهى.

فحقق بهذا أن الثمر طلع والخباء بما فيه طلع، ولعل هذا مراد (صاحب القاموس) حيث قال في الطلع: «ومن النخل شيء يخرج كأنه نعلان مطبقان، والحمل بينهما منضود والطرف محدد أو ما يبدو من ثمرته في أول ظهورها، وقشره يسمى الكُفْرَى، وما في داخله الإغريض لبياضه» انتهى.

في (أساس البلاغة) ما معناه: تشبيه الأسنان بالإغريض لبياضه، وصِغَر حَبَّاتِهِ، ولفظه: «وتقول: كأن ثغرها إغريض - ثم قال -: الإغريض ما ينشق عنه الطلع من الحبيبات البيض» انتهى.

وقوله: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ الراجع: أن نحتهم هذا هو لاتخاذ بيوت في الجبال، ولعل الباعث عليها خوف الريح التي جاءت على عاد، فنحتوا الجبال حتى صار لهم فيها بيوت، والبيوت جمع بيت وهو الغرفة الواحدة التي يبيت فيها الإنسان، يوضح هذا قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤] ولعلمهم مع هذا بنوا بيوتاً بالأحجار التي تؤخذ من الجبال، وذلك غير المعنى هنا.

وقوله تعالى: ﴿فَرِهَيْنَ﴾ قال الشرفي في (المصاييح): «أي أشرين بطرين غير حامدين ولا شاكرين، هذا روي عن المرتضى عليه السلام - ثم قال الشرفي -: وقال محمد بن القاسم عليه السلام: الفرهون: كلمة عربية تقوم مقام فرحين، والفرّاءة [الفرح المفرط في فرحه...] الخ.

ويؤكد هذا ما في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام) على ما أظنه الصواب في النسخة: «معناه: بنحتها» انتهى. ويؤكد ما روي عن المرتضى عليه السلام قول (صاحب الصحاح): «وفره - بالكسر - أشير وبطر، وقوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهَيْنَ﴾ فمن قرأه كذلك فهو من هذا، ومن قرأه (فارهمين) فهو من فره بالضم» انتهى.

وفي (مفردات الراغب): «الفره: الأشر». انتهى المراد. وقال: «الأشر شدة البطر - ثم قال -: فالأشر أبلغ من البطر والبطر أبلغ من الفرّح، ثم قال: والأشر لا يكون إلا فرّحاً بحسب قضية الهوى» انتهى.

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۚ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۚ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۚ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَيِّنَاتٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۚ قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ هَآ

وهذا يفيد: أن الخلاف لفظي بين (تفسير المرتضى) و(تفسير محمد بن القاسم عليه السلام) وفي (الصحيح): «(البطر: الأشر، وهو شدة الفرح)». انتهى المراد.

فظهر: أن الدم لقوم صالح لأجل شدة فرحهم بدنياهم وهي لا يوثق بها، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُجِبُ الْفَرْحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] وسياق كلام رسولهم يفيد: أنهم لن يتركوا في ذلك ولا في جنات وعيون ونخل طلعتها هضيم لأنهم قد عرّضوا نعمتهم للزوال.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۚ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ذكرهم رسولهم بنعمة الله تعالى ليشكروها وحذرهم زوالها وأكد ذلك بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ وجعله مقدمة لقوله: ﴿وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي كبراءهم الذين يصدونهم عن طاعة رسولهم، كقوله تعالى في (عاد): ﴿وَاتَّبِعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [مرد: ٥٩] وهكذا سائر أهل الباطل يتبعون كبراءهم المترفين، وحذرهم رسولهم من اتباع المسرفين بقوله: ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ ففي اتباعهم تمكين فسادهم في الأرض، وهو ضرر عظيم، لأنه سبب هلاكهم وسوء عاقبتهم في الآخرة، وقوله: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ يبين: أنه لا فائدة في اتباعهم تدعو العاقل إلى اتباعهم بل فسادهم خالص عام.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۚ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَيِّنَاتٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ الذين قد تكرر عليهم السحر

شَرِبْتُ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمْشُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ

بأن سَحَرُوا مراراً حتى غلب السحر على عقولهم، واستمر زوالها هذا الظاهر الذي جرت به عادة بعض الأمم واشتقاقه من المصدر أظهر من اشتقاقه من اسم جامد الذي هو السَّحَرُ بمعنى الرثتين مع أن الاشتقاق منه سماعي يحتاج إلى إثباته عن العرب، مع أن اشتقاقه من السَّحَرِ يقلب المعنى ويصير مثل رآه أصاب رثته، فيكون المعنى ممن أصيبت رثاتهم، والسياق في الآية يبطل هذا والأول أرجح مثل: ﴿وَقَلَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨] ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَلْمُوسَى مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١] ﴿وَقَلَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٣٩] ﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٤] وكذلك جعلوا المعجزات سحراً ولا يمكن فيها التأويل بالسَّحَرِ بمعنى الرثتين، وقالوا: ﴿مَجْنُونٌ﴾ والمجنون والمسحور متقاربان فلا موجب للعدول عن هذا المعنى.

وقال الشرفي: «أجابوه بأن قالوا: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ الذين سَحَرُوا كثيراً حتى غلب عليهم السحر، فالمسحَّرين مبالغة في المسحورين». انتهى. على ما هو الصواب، وفي النسخة غلط واضح.

وقولهم: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ احتجاج منهم على نفي صدق رسولهم كما جرت به عادتهم في تكذيب الرسل، واتصل بقولهم: ﴿مِنَ الْمَسْحُورِينَ﴾ لأنهم جعلوه مبرراً لدعواهم أنه من المسحورين، وبهذا الاعتبار صح ترك العطف، وفي بعض الآيات: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ﴾ لاعتبار غير ما ذكرت وقولهم: ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ﴾ الراجح: أنه من كفرهم يعتبرون الآية التي جاء بها ليست آية، ولذلك أجيوا كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ﴾

يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ

﴿١٥٦-١٥٧﴾ هَذِهِ نَاقَةُ هَا شَرِبَ وَلَكُمْ شَرِبَ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٨﴾ هَذِهِ نَاقَةُ آيَةٍ لَكُمْ؛ لَأَنْهَا نَاقَةٌ مَعِينَةٌ عَظِيمَةٌ ﴿١٥٩﴾ شَرِبَ الْمَاءَ كُلَّهُ فِي يَوْمِهَا، فَجُعِلَ لَهَا الْمَاءُ فِي يَوْمٍ ﴿١٦٠﴾ وَلَكُمْ شَرِبَ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٦١﴾ كَمَا لَهَا شَرِبَ يَوْمٍ مَعْلُومٍ، وَكَانَتْ تَكْفِيهِمْ لَبْنًا فِي الْيَوْمِ الَّذِي تَشْرَبُ فِيهِ الْمَاءُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - فَالْحِجَّةُ فِي عَظَمَتِهَا وَاقْتِرَانِهَا بِأَنْ أَخَذَ مَائِهَا أَوْ مَنَعَهَا مِنْهُ أَمْرٌ مُحَدَّرٌ ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةُ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشعر: ١٣] وبأنهم إذا مسوها بسوء أخذهم عذاب يوم عظيم يعمهم بالهلاك.

﴿١٥٦-١٥٧﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴿١٥٨﴾ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ فَعَقَرُوهَا ﴿١٦٠﴾ عَقَرُوا النَاقَةَ ﴿فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾ إِمَّا أَصْبَحُوا فِي الْيَوْمِ الَّذِي بَعْدَ وَقْتِ عَقْرِهَا كَمَا رَوَى أَنْ صَالِحًا جَعَلَ لَهُمْ عَلَامَةَ الْعَذَابِ تَغْيِيرَ أَلْوَانِهِمْ فِي الثَّلَاثَةِ الْأَيَّامِ الَّتِي بَيْنَ عَقْرِهَا وَنَزُولِ الْعَذَابِ، وَعَلَى هَذَا فَالْندمُ لَتَيْقِنُهُمْ أَنَّهُمْ بَعَقَرُوا النَاقَةَ قَدْ تَوَرَّطُوا فِي الْهَلَكَةِ، أَوْ ﴿فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾ يَوْمَ نَزُولِ الْعَذَابِ حِينَ رَأَوْهُ قَبْلَ هَلَاكِهِمْ بِهِ وَهُوَ الرَّجْفَةُ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أَيِ أَخْذِ الْعَذَابِ لَهُمْ آيَةٌ أَوْ فِي النَاقَةِ وَأَخْذِ الْعَذَابِ لَهُمْ ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وَذَلِكَ تَسْلِيَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِأَنْ الرِّسْلَ قَبْلَهُ قَدْ كَذَّبُوا فَفِيهِمْ أُسُوءَةٌ لَهُ ﷺ.

﴿١٦٠﴾ كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦١﴾ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ لُوطًا وَمَنْ قَبْلَهُ وَمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ لَعَلَّهُ يَدْعُو أَنْ الرِّسَالَةَ لَا تَكُونُ لِلْبَشَرِ.

﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنِ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ

﴿١٦٨﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنِ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٩﴾
قد مضى تفسير هذه الآيات عند ذكر نظائرها من هذه السورة.

﴿١٧٠﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٧١﴾ ﴿١٧٢﴾ أَتَأْتُونَ ﴿١٧٣﴾ إِنْكَارَ عَلَيْهِمْ وَتَوْبِيخَ لَهُمْ بِأَتْيَانِهِمْ لِلذَّكُورِ أَيْ نِكَاحِهِمْ وَقَوْلُهُ: ﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ وَصِفَ لِلذَّكْرَانِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَشِيعُونَ هَذِهِ الْفَاحِشَةَ فَيَمْنُ قَدَرُوا عَلَيْهِ مِنْ ضَيْفٍ أَوْ غَرِيبٍ أَوْ عَابِرِ سَبِيلٍ أَوْ غَيْرِهِمْ مِنْ أَيْ قَوْمٍ كَانُوا، وَلِذَلِكَ نَهَوْا نَبِيَّهُمْ عَنِ الْعَالَمِينَ أَيْ عَنِ إِضَافَةِ أَيْ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ الْعَالَمِينَ أَوْ إِدْخَالِهِمْ بَيْتَهُ فَهُمْ لَا يَحْتَرِمُونَ أَحَدًا وَلَا يَسْتَحْيُونَ مِنْ أَحَدٍ، وَلِذَلِكَ رَاوَدُوا نَبِيَّهُمْ عَنْ ضَيْفِهِ فِي آخِرِ أَيَّامِ حَيَاتِهِمْ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ نَزَلُوا عِنْدَ نَبِيهِمْ لَتَعَذِّبَهُمْ.

وقوله: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ أَيْ تَتْرَكُونَ نِكَاحَ نِسَائِكُمْ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ لَكُمْ، وَأَعَدَّهَا لَكُمْ لِلنِّكَاحِ فَتَتْرَكُونَ الْحَلَالَ النَّزِيهَ إِلَى الْحَرَامِ الْقَذَرِ، وَفِي (تَفْسِيرِ الْإِمَامِ زَيْدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ): «(مَعْنَاهُ: مَا أَصْلَحَ لَكُمْ يَرِيدُ بِهِ الْفَرْجُ)» انْتَهَى.

وقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ مُعْتَدُونَ مُتَجَاوِزُونَ لِلْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ، لَسْتُمْ أَهْلًا لِلنِّزَاهَةِ وَلَا لِلْعَفَافِ.

إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِّنَ الْآلَائِنَ ﴿٣٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَيْرِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿٤٢﴾

وهذه الرذيلة معارضة لسنة الله في طريقة التناسل الإنساني فلو تركوا وشأنهم حتى طبقت الأرض فاحشتهم وعمت الناس طريقتهم لانقطع الجنس الإنساني، وفي بلاد الكفر حيث تباح الفواحش باسم الحرية انتشر مرض يقال له: (الإيدز) بسبب هذه الفاحشة.

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ ﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ﴾ عن الكلام الذي تقوله لنا وتتركنا وشأننا ﴿لَتَكُونَ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ من قريتنا المطرودين عن بلدكم، وظاهر هذا أنه كان منهم نسباً لا مجرد صهارة.

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِّنَ الْآلَائِنَ﴾ قال الراغب: «القلي شدة البغض» انتهى المراد، والسياق يفيد هذا.

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ من شر ما يعملون فعملهم سبب للعذاب فكأنه هو الهلاك، والدليل على أن المراد النجاة من عذاب ما يعملون قوله: ﴿وَأَهْلِي﴾ فعم بناته، فظهر أنه أراد نجني ونج أهلي من شر سببه ما يعملون.

﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَيْرِينَ العجوز امرأته وهي وإن كانت مسلمة فقد كانت خائنة للرسول والراجح أن خيانتها له إبلاغ قومها أو بعضهم بما هو سر كإخبارهم بوجود ضيفه وبذلك تجر عليه المصيبة فاستحقت العذاب معهم؛ لأنها خائنة لني، ولكونها شريرة، ناسب السياق ذكر أنها عجوز وذلك لأن الحجة عليها أعظم من حيث أن الذنب ممن قد كبر وصار مظنة اقتراب أجله هو أحوج إلى تقصير الأمل،

والاستعداد للموت ومن حيث أنها امرأة لا يليق بها إلا معاونة النساء في الحق فعاونت الرجال على الباطل لأن حاجتها الجنسية قد ضعفت فلم تبال بغيرها من النساء، وكل ذلك لأنها شريرة بعيدة من الصواب.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ إن كان معنى الغابرين الماضين فمعناه أنها في الهالكين المعدّين قد حكم بذلك عليها ربها، وإن كان معنى الغابرين الباقين فالمعنى أنها لا تنجو مع أنها بين الناجين فتؤخذ وحدها دونهم وهذا لشرارتها مع أنها كانت بين الصالحين فلم يكن يليق بها إلا الاقتداء بهم، والسير على طريقتهم فحين لم تكن إلا شريرة هلكت مع قومها، ولكن المعنى الثاني أي في الباقين لا يستقيم في قوله تعالى: ﴿قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الحجر: ٦٠] فترجح المعنى الأول، ويناسبه الآيات فيها، ومنها قوله تعالى: ﴿إِلَّا امْرَأَتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ [مرد: ٨١] لأن أكثر الآيات بـ(من) وبعضها بـ(في) قال في (الصحيح): ((والغابر: الباقي، والغابر: الماضي، وهو من الأضداد)) انتهى.

نعم يحتمل أن يكون ﴿الْغَابِرِينَ﴾ بمعنى: الذين لا يخرجون من القرية بل يبقون فيها ليهلكوا، وهذا الاحتمال عندي غير قوي، والله أعلم لأن الباقين في القرية هم الأكثر لا يصح أن يعتبروا بقية كما يقال بقية للشيء الباقي مما تلف مثلاً لأن البقية تكون القليل، ولأن الله تعالى قال في آية: ﴿قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الحجر: ٦٠] وهذا التأكيد باعتبار أنها مهلكة مع القوم وهي امرأة نبي فلو أريد الباقين بمعنى الذين لا يسرون مع (آل لوط) لما كان إلا كناية عن هلاكها فتفسير الغابرين بالماضين أقرب في الكناية عن هلاكها أو هو صريح فيه - والله أعلم.

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ

﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾
 ﴿ثُمَّ﴾ بعد إنجاء لوط وأهله إلا العجوز ﴿دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ﴾ الذين هم قوم لوط وامراته عند تدمير قريتهم بجعل عاليها سافلها كما في (سورة هود) قال تعالى: ﴿جَعَلْنَا عَلِيَّهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾ [آية: ٨٢] وفي (سورة الحجر) قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَلِيَّهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [آية: ٧٤] فيظهر أنها ريح شديدة أو رجفة دمرت قريتهم واقرن بها مطر الحجارة، فكان هلاكهم بدمار قريتهم عليهم وبالحجارة.

فالخاصب: رميهم بالأحجار والريح أو الرجفة دمرت قريتهم ولا يصح أن نقول إن الله أهلكهم بدون رميهم بالحجارة لأن الله تعالى قال في (سورة الأعراف): ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [آية: ٨٣-٨٤] فدل على أنه أهلكهم بهذا المطر لأنه رتب عليه قوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤] أي الهلاك بهذا المطر وكذلك في (سورة هود): ﴿مُسُومَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ يَبْعِدُ﴾ [آية: ٨٣] أي أن تصيبهم الحجارة كما أصابت قوم لوط، وكذا في (سورة الحجر): ﴿فَلَاخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةُ مَشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَلِيَّهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [آية: ٧٣-٧٤] فدل على أنه أهلكهم بالحجارة وبجعل عاليها سافلها.

وفي (سورة الفرقان) ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوِيًّا أَلْقَمُوا يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ [آية: ٤٠] فدل على أنه أهلك القرية بالمطر المذكور.

وكذلك في (سورة النمل): ﴿فَلْيَجِئْتُهُ وَأَهْلُهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا مِمَّنَ الْغَايِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْتَزِعِينَ﴾ [آية: ٥٧-٥٨] فدل على أنه تعالى أهلكهم بالمطر المذكور الذي هو الحجارة، وكذلك في (سورة العنكبوت): ﴿إِنَّا مُنْجِيُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَأَنَّ مِنَ الْغَايِرِينَ * إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [آية: ٣٣-٣٤] وهذا الرجز هو المطر المذكور أو المطر والرياح أو المطر والرجفة، والقرية باق أثرها، وبعضها لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِثْقَالَ عِلَّةٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥] ولذلك قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ [العنكبوت: ٤٠] وهم قوم لوط كما في (سورة اقتربت) وفي (سورة الذاريات): ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّن طِينٍ * مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [آية: ٣٢-٣٤] فدل ذلك على أن الله أهلكهم بالحجارة المذكورة، واحتج بها الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) على رجم الزاني.

وقد دلت هذه الآيات على إهلاكهم بالحجارة فأما الريح فلم تذكر في شيء منها إلا أن يكون الحاصب يدل عليها فقد ذكر في القرآن مرتين ولكنه يقال: حصبه، بمعنى رماه بالحصباء وليس من مفهومه إرسال الريح في الهواء، قال الشرفي في تفسير (سورة اقتربت): «قال الهادي عليه السلام: الحاصب هو الرمي الذي وقع بهم والرجم الذي نزل من السماء عليهم» انتهى. وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام) لـ (سورة اقتربت) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ [آية: ٣٤]: «معناه: حجارة» انتهى.

وقال في (الصحيح): «وحصبت الرجل: أحصبه - بالكسر - أي رميته بالحصباء - ثم قال - : والحاصب: الريح الشديدة التي تثير الحصباء» انتهى. ولم يذكر الريح إلا لإثارتها الحصباء لا لأنها لازمة لاسم (الحاصب).

والحاصل: أن الحاصب: هو المطر الذي به أصابتهم الحصباء أي الحجارة الصغار، وأن الصيحة التي أخذتهم يحتمل أنها الريح مع الحجارة، ويحتمل: أنها رجفة، ويحتمل: أنها صيحة حقيقية أي صوت شديد رجفت منه أرضهم حتى صار أعلا بيوتهم في أرضهم وهذا هو تدميرها المشارك للحجارة في إهلاكهم هذا فأما تفسير هلاكهم بقلب أرضهم وجعل عاليها الذي هو الدور والأشجار سافلها أي تحت الأرض، فهذا لا يساعد عليه القرآن، وإن كان قد روي والذي يدل عليه القرآن بقاء خراب القرية يشاهد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً﴾ [العنكبوت: ٣٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مِنْهَا السَّيِّئَ﴾ [الفرقان: ٤٠] وقوله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ﴾ [الذاريات: ٣٣] وقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ...﴾ [الأعراف: ٨٤] وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ لَتَمُرُّوا عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٣] وغير ذلك.

فلذلك: على بقائها ظهر الأرض، وأن الله تعالى جعلها باقية عبرة لمن يمر عليها ولم يصيرها تحت الأرض، أو في جوف الأرض، واتباع القرآن هو الصواب، وتأويله لأجل الروايات غلط، لأن الروايات تستلزم أن الله تعالى لم يعذب قوم لوط بالحجارة التي أرسلها عليهم ولم يهلكهم بها فكيف يعتمد ما يستلزم مخالفة القرآن ويفسر به القرآن.

وقوله تعالى: ﴿فَسَاءَ﴾ ما أسوأ مطر المنذرين الذين كذبوا النذير ولم يقبلوا إنذاره فهم عبرة لغيرهم وتفسير ساء بصيغة التعجب ذكره الزخشري في تفسيره لقول الله تعالى في (سورة المائدة): ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِلَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [آية: ٦٦].

الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا عَمَلَكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا

وموقعها في القرآن يناسبه، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقْلًا﴾ [الفرقان: ٦٦] وقوله: ﴿سَلَامَةً مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيَاتِنًا﴾ [الأعراف: ١٧٧] وفي الآية إشارة إلى أن المطر في العادة يكون نعمة ورحمة، لكن هذا المطر نقمة وغضب وعذاب. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [١٧٤-١٧٦] إنزال هذا العذاب على قوم لوط ﴿لَآيَةً﴾ تدل على صدق الرسول وعلى قدرة الله تعالى، وعلمه وأنه يعلم ولا يهمل ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا رسول الله ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا ينال، وهذا العذاب من دلائل عزته، وهو ﴿الرَّحِيمُ﴾ فقد أرسل الرسل وقدم الإنذار ودعا إلى التوبة وفتح باب المغفرة لمن تاب وغير ذلك من رحمته.

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا عَمَلَكُمْ عَلَيْهِمْ جَعَلُوا صَنَمَهُمْ فِي ظِلِّهَا، قَالَ الشَّرَفِي فِي (المصاييح): «﴿أَصْحَابُ لَيْكَةِ﴾ قوم شعيب أرسل إليهم وإلى مدين، قال الحسين بن القاسم عليه السلام: والأليكة: اسم لمعبودهم وصنمهم ويمكن أن يكون اسما لبلدهم وقريتهم ودارهم ومحلهم ومسكنهم» انتهى.

قلت: لا يبعد ما ذكره الحسين بن القاسم فقد يغلب اسم الشجرة على المحل الذي كانت فيه أو هي فيه، قال في (الصحيح): «الأليك: الشجر الكثير الملتف الواحدة أليكة، ومن [قرأ] ﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ فهي الغيضة ومن كتب ﴿أَصْحَابُ لَيْكَةِ﴾ فهي اسم القرية» انتهى المراد.

عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ * أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾
وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا

ولا يبعد أن أصله الأيكة فتصرف فيه بنقل حركة (الهمزة) على (اللام) فحذف الهمزة، فاستغنى عن ألف الوصل، وصار ليكة لكثرة استعماله، وتكذيبهم المرسلين مثل تكذيب من سبقهم.

وقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ يفيد: أنه لهم لو أطاعوه لنفعهم ودلهم على طريق نجاتهم من العذاب العاجل والآجل، وهكذا سائر الرسل، وقد مر تفسير نظائر هذه الآيات وشعيب وإن لم يكن من أصحاب لتيكة فلا بد أنها كانت لهم به معرفة كاملة تقوم مقام كون رسولهم منهم، بسبب أنهم كانوا أحواله أو أصهاره أو سكن فيهم مدة طويلة - والله أعلم.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ في ﴿مِنْ﴾ تأكيد للنفي أي ما أسألكم أي أجر لا كثيراً ولا قليلاً ولا مالاً ولا خدمة، وقوله: ﴿إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لأنه الذي أرسل عبده شعيباً إلى بعض عباده.

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ قال لهم مثل قوله لمدين، ولعلمهم كانوا على طريقة مدين مطففين، مخسرين.. الخ، والمخسر يعم منقص الكيل والوزن عن القدر المستحق.

﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ استعملوا الميزان الذي لا يجور بل يزن بالعدل والحق، وقد مر تفسير (القسطاس) فقد مر في (سورة الإسراء) وأما الراغب فقال: «(القسطاس: الميزان، ويعبر به عن العدالة كما يعبر عنها بالميزان)» انتهى. وإذا كان القسطاس هو الميزان فالمعنى زنوا بالميزان المستقيم أي الذي يعدل ولا يجور، وقد كفى قوله تعالى: ﴿الْمُسْتَقِيمِ﴾ عن تعيين نوع الميزان.

فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٧﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ ﴿١٨٨﴾ قَالُوا
إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٩﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ

قال الشرفي في (المصاييح) في تفسير (القسطاس): ((أي العدل الثابت من الأشياء وهو عربي، وأصله من القسط، ومنه قوله: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨] أي بالعدل، ميزان كان بالشام من أعدل الموازين، فأراد الله من المخلوقين أن يقتدوا بعدل ذلك الميزان في جميع ما به يتعاملون، قال: ومثل هذا ذكره المرتضى عليه السلام في (الإيضاح)) انتهى. ولعل الأصل وميزان بالواو العاطفة فينظر إن شاء الله في نسخة من (المصاييح) أو في (الإيضاح).

﴿١٨٧﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٨﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴿١٨٩﴾ أَي لَا تَنْقُصُوا عَلَيْهِمْ قَالَ الشَّرْفِيُّ: ((والبخس: هو النقص، والنهي عام لكل نقص في ملك أو حق)) انتهى.

قلت: ولكل نقص في عين أو وصف وقد مر فيه بسط، وقوله: ﴿وَلَا تَعْتُوا﴾ في الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٨﴾ أي لا تشيعوا الفساد وقد قدمت أن كلمة في الأرض تفيد: إشاعة الأمر بحيث ينتشر في البلدان، وقوله: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة لقوله: ﴿تَعْتُوا﴾ وجاز لاختلاف اللفظ وليس ذلك شرطاً في قبح الفساد، ولكنه قال ذلك لأنه أقبح وأضر ولعلهم كانوا كذلك فنهاهم عما هو عادتهم.

﴿١٨٨﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ ﴿١٨٩﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): ((﴿وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ﴾ معناه: والخلق)) انتهى. ولعلهم كانوا يقلدون في باطلهم آباءهم الأولين، فقال لهم ذلك أي اتقوا الله الذي خلقكم وخلق الأولين، فهو ربكم عليكم أن تعبدوه وحده، فإن أشركتم كنتم أنتم مثل آبائكم في ضلال مبين، وقد أفاد الحسين بن القاسم عليه السلام أنهم كانوا مشركين.

الْكَذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ یَوْمِ الظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ یَوْمٍ عَظِیمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِی ذَٰلِكَ لَآیَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿الْمُسَحَّرِينَ﴾ المسحورين الذين كرّر عليهم السحر، وما أنت إلا بشر أرادوا أن البشر لا يكون رسولا لله، وهذا منهم احتجاج لقولهم : ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ورتبوا على تكذيبهم لرسولهم طلبهم للعذاب إن كان من الصادقين، مبالغه في الجدال كأنهم يقولون لولا اعتقادنا أنك كاذب ما قلنا ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي أسقط علينا قطعا من السماء نعذب بها إن كنت من الصادقين في دعواك أنك رسول.

﴿قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قال رسولهم ربي أعلم بما تعملون من الشرك أو غيره ومن التكذيب والعناد وطلب العقوبة تمرداً فهو إذا شاء عذبكم.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾
﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بعد أن خوفهم من الله ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ أخذتهم
الرجفة فأظلمهم غبارها، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): ((نشأت لهم
سحابة فاستظلوا تحتها، فأخذتهم الرجفة وأخذهم عذاب يوم الظلة)) انتهى.

ولم يذكر أنها أمطرت عليهم ناراً، ورواية أنها أمطرت عليهم ناراً بعيدة لأن القرآن لم يذكر ذلك، وقد سَمَّى الله عذاب الأمم المذكورة في القرآن لتخويف المكذبين وإنذارهم أن يصيبهم مثل ما أصاب من قبلهم.

﴿١٢٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٢٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٢٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٢٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ

وقد جمع لذلك في آية واحدة أنواعاً من العذاب فقال تعالى: ﴿فَعِثُّهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا..﴾ [العنكبوت: من الآية ٤٠] ولم يذكر إِمطار نار في شيء من القرآن والتخويف به أعظم من الأنواع التي قد ذكرها فلو كانت الرواية صحيحة لكانت مظنة أن يذكرها الله تعالى كما ذكر غيرها بل هي أولى بالذكر فظهر أن رواية أنها أمطرت عليهم ناراً غير صحيحة - والله أعلم.

﴿١٢٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَالتَّعْذِيبِ يَوْمَ الظَّلَّةِ ﴿لَآيَةً﴾ تَدُلُّ عَلَى اللَّهِ، وأنه لم يهمل عباده بل أرسل إليهم الرسل، وجعل لهم دلائل صدقهم وعذب من ذكر أنه عذبهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا رسول الله ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا ينال، ولذلك يعذب ولا يهمل، وهو ﴿الرَّحِيمُ﴾ فمن رحمته أرسل الرسل، وبين الهدى لمن يهتدي.

﴿١٢٩﴾ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٣٠﴾ وَإِنَّهُ ﴿أَيُّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿الَّذِي هُوَ مَالِكُهُمْ وَمَلَكُهُمْ وَهُمْ كُلُّهُمْ عِبَادُهُ فَلَمْ يَكُنْ لِيَهْمَلْ عِبَادَهُ وَيَتْرَكْ هِدَايَتَهُمْ إِلَى مَا فِيهِ نَجَاتُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ الدَّائِمَةُ لِأَنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ عَزِيزٌ رَحِيمٌ﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ ﴿وَهُوَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ ﴿الْأَمِينُ﴾ الذي بلغه بكامله لم ينقص ولم يزد ولم يغير شيئاً منه ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ يا محمد أنزل القرآن على قلبك فوصل إلى قلبك ﴿لِتَكُونَ مِنَ﴾ الرسل ﴿الْمُنذِرِينَ﴾ الذين أرسلهم الله

يَعْلَمُهُ عُلِّمَتْوُا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٩٢﴾ وَلَوْ تَزَلَّيْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿٢٩٣﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩٤﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ

لثلاث يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴿بَلِّسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ كما هي سنة الله في إرسال كل رسول بلسان قومه ليبين لهم، وفي هذا حجة على من يزعم أن القرآن رموز خفية لا يعلمها إلا الإمام.

﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ * أَوْلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ءَايَةٌ أَنْ يَعْلَمَتْوُا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٩٢﴾ ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي هذا القرآن ﴿لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي ﴿لَفِي﴾ كتب ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ إما بمعنى أنه أخبر به فيها فهو مذكور فيها جملة، كقوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] وإما بمعنى أنه مصدق لكتب الأولين مطابق لها في أصول الأديان التي هي متفقة فيها كالأمر بتوحيد الله تعالى والتحذير من الشرك والتبشير والإنذار بالجنة والنار وغير ذلك من الأصول، ﴿أَوْلَمْ يَكُنْ لَهُمْ﴾ أي لقومك يا محمد ﴿ءَايَةٌ﴾ دليل على أنه في زبر الأولين، وأنه من الله أن يعلمه من الله ﴿عُلِّمَتْوُا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

قال الشرفي في (المصابيح): «(وتقريره: أن جماعة من علماء بني إسرائيل أسلموا ونصوا على مواضع في التوراة والإنجيل ذكر فيها الرسول ﷺ بصفته ونعته، وقد كان مشركوا قريش يذهبون إلى اليهود ويتعرفون منهم هذا الخبر)» انتهى المراد.

والأولى ما أفاده كلام محمد بن القاسم رحمته الله وهو: أن العرب كانوا يسمعون ذكره من علماء بني إسرائيل قبل مبعث محمد رسول الله ﷺ حكاه الشرفي في (المصابيح) وهو تقرير لاحتمال الأول، فأما الثاني وهو وجود أصول الديانات، فقد دل عليه القرآن في مواضع وأنه مصدق لما بين يديه من الكتاب ولو كان معارضاً لها لما صح أنه مصدق لها.

﴿٢١﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٢﴾
فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٣﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٤﴾

﴿٢٥﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
مُؤْمِنِينَ * كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٦﴾ الْأَعْجَمُ: مَنْ لَا
يفصح، وكانت العرب تسمي المخالفين لها في اللغة أعاجم لأنهم لا يفهمون
كلامهم، وفي (معلقة عنتره):

تاوي له قلص الثعام كما أوت حزق يمانية لا عجم طمطم

قال شارحها: ((وأراد بالأعجم: الحبشي)).

وقوله تعالى: ﴿فَقَرَأَهُ﴾ أي ﴿بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ قرأ هذا القرآن
﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على الكفار من العرب في (مكة) وما حولها ما كانوا به أي
بالقرآن مؤمنين مع أن المرسل به في هذا التقدير بعض الأعجمين لأن الكفار
المذكورين معاندون لا يريدون الحق، فهم معرضون لا ينفع فيهم شيء مع
بقائهم على اختيارهم.

﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي كما هو في قلوب هؤلاء
المجرمين مكروه مرفوض لا تقبله ولا يؤمنون ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ﴾ أي أدخلناه
﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ كلهم من هؤلاء الذين حول الرسول ﷺ ومن
غيرهم لأن إجرامهم يسبب لضيق قلوبهم عنه، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ
فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: ١٢-١٣].

﴿٢٧﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٨﴾ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٩﴾ أَيِ الْمَرْمُونِ

أَفْبَعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا

﴿حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ فعند رؤيتهم للعذاب يؤمنون فلا ينفعهم الإيمان ﴿فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ إما عاجلاً وإما آجلاً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قبل أن ييغتهم ﴿فَيَقُولُوا﴾ عند مجيئه ﴿هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ لتكون من المؤمنين المحسنين وهيهات.

﴿أَفْبَعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ السؤال للإنكار عليهم والتوبيخ لهم على استعجالهم بعذاب الله لأنه عذاب أليم شديد كما عذب الأولون إن كان المراد العذاب العاجل، وإن كان المراد الآجل فيومئذ لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد، فكيف يستعجله عاقل سواء جدَّ في ذلك أم أراد به الجدل لأنه خطر يفوق كل خطر.

﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ سؤال تعجيب من حال الكفار إن متعهم الله سنين ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ وقد كانوا طلبوا الإنظار فما أغنى عنهم الإنظار وبداهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون إنها حال سيئة ويجمع شدة العذاب والخزي والهوان والندم بلا نهاية لشيء من ذلك فما أسوأ حالهم يكذبون وهذا مصيرهم، هذا بالنسبة إلى السؤال فأما الفاء فهي للتفريع على قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ فكأنه أضيف تقدير التمتع سنين أي الإنظار سنين في نعمة ثم مجيء العذاب الذي كانوا يوعدونه إلى تقدير سؤالهم الإنظار عند مجيء العذاب.

فكانه قيل: ولو أنظرناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم الإنظار، وفائدة هذا التقدير وإضافته إلى التقدير الأول الموعظة البليغة والإنذار بسوء عاقبتهم وإن متعهم الله سنين والتمتع هو الإمهال والإنعام مدة قصيرة واعتبرت السنين المحدودة مدة قصيرة لأنها قليل بالنسبة إلى الخلود الذي تقل في جنبه هذه الحياة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي العذاب، فإن عجل لهم العذاب بعد أن جاءهم ثم كشف صدق على العذاب العاجل ما كانوا يوعدون وكذا إن لم يجيء ويكشف بل جاءهم بعد التمتع سنين لأن هذه الآيات الثلاث لا تختص بحال الإنظار بعد مجيء العذاب بل هي صالحة لكل حالة.

فإن قيل: فكيف صح تفريعها على طلبهم الإنظار؟

قلنا: صح لأن الإنظار إن كان سنين فليس بأكثر من تمتيعهم سنين من دون أن يأتيهم العذاب قبلها إنما جاءهم الإنذار المقرون بالدليل على صدقه، فكانه قيل: ليس الإنظار بأكثر من تمتيعهم سنين بعد الإنذار البالغ المقرون بالحجة أفرأيت إن متعنهم إلى آخر الآيات، ومن هنا كانت هذه الآيات موعظة لهم ولكل عاقل سواء كان كافراً أم عاصياً غافلاً قد غره الإمهال.

وحاصل معنى ﴿مَا أَغْنَى﴾ ما دفع سواء كان من الغنى أم من الغناء بفتح الغين، قال تعالى حاكياً: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَبَلَّ أَنْتُمْ مَغْنُورًا عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٧] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا..﴾ [الطور: ٤٦] ونظير استعمال (أغنى) في هذا المعنى استعمال (كفى) فيه قال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥] وقال تعالى: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥] وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا هَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٨﴾ ذَكَرْنِي وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ
الشَّيَاطِينُ ﴿٣٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٣١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ
لَمَعَزُولُونَ ﴿٣٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٣٣﴾

فقوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ المراد به: ﴿مَا﴾ دفع
العذاب ﴿عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ سواء كان بواسطة جعله بمعنى أجزى
أم من دون ذلك، قال في (الصحيح): «وأغنيت عنك مغنى فلان، إذا
أجزأت عنك مجزأه ويقال: ما يغني عنك هذا أي ما يجزي عنك وما
ينفعك» انتهى.

وتفسير المتعدي إلى مفعولين أحدهما بواسطة (عن) بالدفع أوضح من
تفسير بالنفع، وإن صح اعتبار النفع أنه بالدفع وهذا فيما تتبعه كلمة (عن)
فقط مثل: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ﴾ [الحاقة: ٢٨] ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا﴾
[الدخان: ٤١] ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦].

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا هَا مُنْذِرُونَ﴾ أي ﴿مُنْذِرُونَ﴾ قامت بهم
الحجة على أهل القرية.

﴿ذَكَرْنِي وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿ذَكَرْنِي﴾ لأهل القرية تكشف عنهم
الغفلة، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا
غَافِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١] ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بتعذيبهم قبل أن نقيم عليهم الحجة.
﴿وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ
عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ﴾ ﴿وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ﴾ أي بهذا القرآن ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾
كقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩] فهم لا يتهيا لهم.

وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢٩٦﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٩٧﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِئَاسَتِهِمْ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٩٨﴾ وَتَوَكَّلْ

ولعل ذلك من جهة مخالفته للغتهم وعجزهم عن حفظه لو سمعوه، كما لو سمع العربي كلاماً أعجماً لتعسر عليه حفظه كما هو - والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي وما يستطيعون التنزل به ﴿إِنْهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ فهم يرمون بالشهب كلما حاولوا استراق السمع ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصفات: ١٠] فأين الشياطين من الآيات القرآنية وأخذ السور.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ ﴿فَلَا تَدْعُ﴾ التفريع على ما مر في السورة من بيان أنه رسول من الله، وأن القرآن من الله، فقد تبين الحق فاثبت يا محمد على ما أنت عليه من عبادة الله وحده، واجتناب الشرك والوعيد هذا تعبد له ﷺ وتحذير لغيره، كقوله تعالى: ﴿لَيْتَ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ وهم بنو عبد المطلب وقد زاد بعض الرواة غيرهم ولعلها مساعدة لبني أمية كما هي عادة كثير من الناس من الميل مع الأمراء والملوك.

وقد روى الطبري في (تاريخه) الحديث في بني عبد المطلب، ولم يغير لفظه «أيكم يؤازرنى على أن يكون وصي ووارثي» أو نحو هذا اللفظ لأن النسخة ليست عندي، وفي تفسيره تجد الرواية مغيرة بلفظ وكذا وكذا.

عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢٧٦﴾ الَّذِي يَرْنَكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢٧٧﴾ وَتَقْلُبَكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿٢٧٨﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٧٩﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ

وفي (شواهد التنزيل) تأليف أبي القاسم الحسكاني الذي ترجم له الذهبي في (التذكرة) بسنده وخرجه المحقق عليه الحمودي من عدة كتب: ((أنه لما نزلت هذه الآية جمع رسول الله ﷺ بني عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلاً الرجل منهم يأكل المسنة ويشرب العس فأمر علياً برجل شاة فأدماها ثم قال: ادنوا بسم الله فدنا القوم عشرة عشرة فأكلوا حتى صدروا ثم دعا بقعب من لبن فجرع منه جرعة ثم قال لهم: اشربوا بسم الله فشرب القوم حتى رووا، فبدرهم أبو لهب فقال: هذا ما أسحركم به الرجل، فسكت النبي ﷺ يومئذ فلم يتكلم ثم دعاهم من الغد على مثل ذلك من الطعام والشراب، ثم أنذرهم رسول الله ﷺ فقال: يا بني عبد المطلب إني أنا النذير إليكم من الله - عز وجل - والبشير بما لم يجرى به أحد جئتمكم بالدنيا والآخرة فأسلموا وأطيعوني تهتدوا ومن يؤاخيني ويوازرني ويكون وليي ووصيي بعدي وخليفتي في أهلي ويقضي ديني فسكت القوم وأعاد ذلك ثلاثاً كل ذلك يسكت القوم ويقول علي: أنا فقال: أنت، فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب أطع ابنك فقد أمره عليك)) انتهى.

﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٨٠﴾ واخفض جناحك تواضع لهم تواضع رحمة وعطف ولعله مأخوذ من خفض الطائر جناحه لفراخه - والله أعلم.

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِئٍّ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢٨١﴾ صارحهم ولا تدهن واستغن بالله عنهم إن خالفوك.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿٢٨٢﴾ كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ إلى آخر الآية [التوبة: ١٢٩] فإذا توكلت عليه استغنيت عن العاصي

الشَّيْطَانُ ﴿٣٨﴾ تَنْزَلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٣٩﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ ﴿٤٠﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٤١﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ

لأنك تلجئ أمرك إلى الله ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا ينال ﴿الرَّحِيمُ﴾ الذي لا يخذلك وأنت في طاعته بل هو بك أرحم منه بغيرك.

﴿الَّذِي يَرْنَكَ حِينَ تَقُومُ﴾ لعله القيام في الصلاة بقرينة ما بعده أو القيام لإنذار الناس وتبليغهم الرسالة أو هما معاً وهو تعالى يراه في كل حال لكن ذكر سبب الرحمة.

﴿وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ﴾ أي يرى قلبك ﴿فِي السَّجْدِينَ﴾ المصلين تسجد وتقوم وتقعدهم معهم قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): يعني قائماً وجالساً وعلى سائر حالاتك في الصلاة والركوع والسجود» انتهى المراد، وهذا يناسب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ...﴾ [البقرة: ١٥٣] حيث ذكر هنا سبب الرحمة والنصر - والله أعلم.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فهو يسمعك حين تدعوه وكل ما تقول، ويعلم ما أنت عليه في كل أحوالك من الصبر والإخلاص وغير ذلك.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنْزَلُ الشَّيْطَانُ﴾ * تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ ﴿٤٠﴾ ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ تأكيد لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ بيان أن محمداً ﷺ ليس ممن تنزل عليه، وقوله تعالى: ﴿تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ بيان للفرق بين محمد ﷺ وبين من تنزل عليه الشياطين بيان من تنزل عليه الشياطين وهو كل كذاب يقول الزور، والصد عن الحق إلى الباطل أثيم ذو إثم واضح الفجور وليس كذلك محمد ﷺ فهو من تعرفونه بالصدق والأمانة والعفة والطهارة.

وقوله: ﴿يُلْقُونَ﴾ أي الشياطين حين يتنزلون على الأفلاك الأثيم ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ وهو ما سمعوه من الملائكة وهم لا يسمعون شيئاً ﴿إِلَّا مَنْ خُطِفَ الْخُطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شَيْهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصفات: ١٠] وهذه الخطفة نادرة تكون فيها فتنة للكهان الذي يلقونها إليه ولمن يسأله لأنها أساس الكهانة لأنهم يجعلونها سبباً لتصديق الكهان، وسؤالهم لأنه قد جرب فيها صدقهم فيقبلون بها كذبهم في غيرها، وكذب شياطينهم ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَذِبُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((والضمير للشياطين)) انتهى.

قلت: هو صحيح لأنه راجع إلى قوله: ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ فهو الظاهر لثلاً تختلف الضمائر في سياق واحد بدون قرينة، أي وأكثر الشياطين كاذبون فيما يلقونه إلى ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ هذا والسياق يقتضي جعل قوله تعالى: ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ خاص هنا بالكهان الذين يخبرون ببعض ما سيكون فيكون بعضه صدقاً والقرينة السياق والحال، أي الجملة الحالية وهو قوله: ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ فلا ينبغي أن يذكر معهم من لا تلقي إليه الشياطين السمع لأن الحال قيد للعامل، وهو ﴿تَنَزَّلُ﴾ وصف للصاحب وهو ضمير الشياطين.

فإن قيل: فلم جعلت الجملة الحالية؟

قلنا: لأن الضمير معرفة والجمل بعد المعارف أحوال، وفي مثل هذا يكون الحال هو الظاهر إذا قلت: جاءني زيد يضحك، ولو كانت الجملة صفة للشياطين لكان المعنى واحداً، لأن المعنى يكون كما لو قيل تنزل الشياطين الذين يلقون السمع.

فإن قيل: فلم لم تجعل الجملة مستأنفة، كأنه قيل: ما تنزل به عليهم، فقال: ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ وهو كذلك يقتضي تخصيص الكلام بالكهان كما لو كان حالاً أو صفة لأنها تصير الجملة ﴿تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ خاصة بالكهان

لأنهم الذين تنزل إليهم الشياطين بالخطفة التي يسمعونها من السماء، والظاهر: أنها حالية أو صفة على قول لأن الكلام يستقيم معها أحسن لأن السياق في الرد على الكفار بقول الله تعالى: ﴿وَمَا تَنْزَلُ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ أما جعلها مستأنفة فهو بعيد، لأنها لا تكون قيداً بل بياناً بدون تقييد وبذلك يكون البيان أخص من المبيّن - بفتح الياء - لأن ﴿كُلُّ أَفَّاكٍ أَثِيمٌ﴾ يكون عاماً للكهنة وغيرهم وقوله: ﴿يُلْقُونَ﴾ خاصاً بهم، فصح أن ﴿يُلْقُونَ﴾ قيد للجملة قبله، وبالله التوفيق.

﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ فحاشا رسول الله ﷺ أن يكون كما قال الكافرون هو شاعر وهو إنما يدعو أهل مكة ومن حولها وسائر الناس إلى التوحيد لله تعالى، وعبادته وحده، واجتناب الشرك وإلى ترك تحريم ما أحل الله وأنعم به على عباده من الأنعام، وإلى ترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وإلى طاعة الله تعالى، والحذر من الشيطان وغير ذلك، فكيف يدعو الناس كلهم إلى ذلك ويريد أن يطيعوه ويتبعوه في دينه، ثم لا يجد حجة لصدقه إلا الشعر، وهو يعرف أن الشعر لا يتبعه أهل العقول الراجحة إنما يتبعه الغاؤون الذين ينقادون للتغريير ولا يثبتون في أمورهم هذا في شعر الجاهلية الذي هو المعروف في أول دعوة الرسول ﷺ حين كان بمكة، وهو المتبادر في وصفهم له ﷺ بأنه شاعر، وكان الشعر عمدته التخيل وتصوير الكذب في صورة الصدق والباطل في صورة الحق، وتحريك الفتن بواسطة التحريض، وتحريك الغضب بما لا يوجب أو بواسطة المدح الذي أكثره كذب ومغالة والهجاء كذلك وإثارة غير الغضب كالحزن والسرور والخوف والأمن مع أن رسول الله ﷺ يعرف الشعر في ذلك الزمان والشعراء

يَهِيمُونَ ﴿٢٦٥﴾ وَأَنْتُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٦٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٦٧﴾

ومن يتبعهم ومن لا يتبعهم فكيف يقوم يدعو الناس وليس له حجة إلا الشعر مع أنه عليه السلام هو المعروف برجاحة العقل والحكمة وسداد الرأي فهذا يبين أنهم إنما نسبوه إلى الشعر جدلاً بدون توهم ولا غلط، وهذا أيضا يلفت أنظار الكفار إلى أن يراجعوا أفكارهم وينظروا ليعرفوا الفرق بينه عليه السلام وبين الشعراء فليسمعوا إلى قول الله تعالى في الفرق بينهما:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنْتُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿في كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ قال في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «(معناه: في كل فنّ يجورون)» انتهى المراد. قال الشرفي في (المصابيح): «وهذا تمثيل لحالهم بحال من ظل عن الطريق وتاه في أودية مشعبة» انتهى المراد.

فهم يطولون في أمر لا طائل فيه كوصف ناقة لهم أو فرس أو امرأة أو نحو ذلك أو مدحهم أنفسهم أو غيرهم فيسترسلون فيما لا يفيد، أنظر (معلقة امرئ القيس) وغيرها من (السبع المعلقة) وغيرها مما يتقنون فيه الكلام ويمجدون التشبيه، وفنون المجاز، ويعجب سامعه لبلاغة المنطق، وقدرتهم على الكلام مع كونه شعراً يصعب فيه حسن البلاغة مع تكلف الوزن الواحد ومع تكلف القافية الواحدة فهم في ذلك كمن يمشي في الأودية المتعددة لغير قصد صحيح أو غلطاً لضياح الطريق عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ إما بمعنى يقول القائل في مدح نفسه ما لم يفعل فلتكرر ذلك قال: ما لا يفعلون، ليفيد: استمرار العادة وليعلم الماضي والمستقبل.

وإما بمعنى: أنهم يقولون سوف نفعل كذا ثم لا يفعلون فيكون المعنى هنا مثل قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ..﴾ [الصف: ٢-٣].

والأرجح: أنهم يجمعون الوصفين فيقولون ما لم يفعلوه وما لن يفعلوه، وهذا من الفرق بينهم وبين رسول الله ﷺ فهو الصادق المصدوق المنزه عن اللغو وعن الكذب، الذي إذا قال صدق، وإذا وعد أوفى يعرفه قومه بهذا ولم يجربوا منه إلا الصدق والأمانة وكذلك هو ثابت على دعوته حكيم فيها لا يتلون ولا يغالي فالفرق بينه وبين الشعراء واضح لا يجهلونه وإن قالوا بل هو شاعر.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وهم رسول الله ﷺ ومن آمن به وبما جاء به واتبعوه فليس من شأنهم اللغو ولا الكذب ولا خلف الوعد، ولا الغفلة والتلهي عن ذكر الله كثيراً، وهذا مما يفيد: الفرق بين رسول الله ﷺ وبين الشعراء الذين رموه بأنه منهم فاتباعهم الغاؤون، واتباعه أهل الصدق والحكمة والوفاء.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩] إلا أن رسول الله ﷺ والمؤمنين معه قد ظلموا فناسب حالهم أن يقول: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ بدل (إذا ظلموا) وفيه وعيد لأعدائهم بمكة وحولها الذين كانوا يظلمونهم بالتكذيب والسب وبتعذيب بعضهم وبتشريد بعضهم أن المؤمنين سيتصرون منهم ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من هؤلاء وغيرهم ﴿أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ وهؤلاء داخلون في عموم الذين ظلموا دخولاً أولياً.

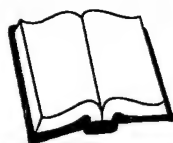
وهي عامة للظلمة من الكفار ومن ينتمي إلى الإسلام من حكام الجور وغيرهم، فالكل سيعلمون مرجعهم ومصيرهم الذي هو عذاب النار نعوذ بالله من عذابه، ونسأله التوفيق، وصلى الله على محمد وآله وسلم، والحمد لله رب العالمين.

تم بعون الله ما كتبت من تفسير (سورة الشعراء)

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم



التَّيْسِيرُ فِي التَّفْسِيرِ



سُورَةُ التَّيْسِيرِ



سُورَةُ النَّمْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طس ۞ تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ۞ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۞ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ

ابتداء تفسير لـ (سورة النمل)

قال الشرفي في (المصاييح): «مكية» انتهى

﴿١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ قد مر تفسيرها في أول تفسير (سورة الفاتحة) من (الجزء الأول) ﴿طس﴾ وكذلك سبق الكلام في الحروف المذكورة في أول بعض السور.

﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿تِلْكَ﴾ إشارة، والراجح: أنها إلى الحروف، ومعنى أنها ﴿ءَايَاتُ الْقُرْآنِ﴾ أنها مادة بنائه سواء كان مقروءاً أم مكتوباً، وقوله تعالى: ﴿مُبِينٍ﴾ أي بين واضح المعاني للعرب لا يحتاجون إلى ترجمة له، وليس مثل الألفاظ تحتاج إلى من يجلها؛ ولذلك قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] وغير ذلك، وقد بسطت في هذا في (تحرير الأفكار) في الرد على من زعم من المخالفين: أن السنة حاکمة على القرآن.

وتفسير ﴿مُبِينٍ﴾ بالبين مأخوذ من لغة العرب. قال في (أساس البلاغة): «وبَّان لي الشيء، وتبين، وبَّين، وأبان، واستبان» انتهى. وقال في (الصحاح): «وبان الشيء بياناً: اتضح فهو بين، وكذلك أبان الشيء فهو مبين» انتهى المراد، ومثله في (لسان العرب) وفي (القاموس): «وضحته وعرفته فبان وبَّان وتبين وأبان واستبان كلها لازمة متعدية» انتهى.

﴿٢٠٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيْنًا لَهُمْ أَعْمَلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٢٠٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ ﴿٢١٠﴾ وَإِنَّكَ

هذا ويصح أن يكون ﴿مُبين﴾ من أبان الشيء بمعنى بيّنه، ولكنه مجاز هنا؛ لأن فاعل البيان هو الله تعالى، قال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ [آل عمران: ١١٨] وفي عدول قوله تعالى: ﴿وَكِتَابٍ﴾ عن التعريف بـ (آل) إلى تركها تعظيم للقرآن، ودلالة على أنه أنفع وأهدى ما يقرأ أو نحو هذا المعنى.

﴿٢١١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٢﴾ هُدًى ﴿٢١٣﴾ بيان لطرق الحق والنجاة، قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ..﴾ [المائدة: ١٥-١٦] فأما تفسير ﴿هُدًى﴾ بأنه يهدي فهو عدول عن الحقيقة إلى المجاز، ولكنه صحيح بمعنى أنه مصدر في معنى (اسم الفاعل) وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ كله بشرى لهم بمعنى أنهم يفرحون به، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون﴾ [التوبة: ١٢٤] أو بشرأ بمعنى مبشراً لهم بالجنة وغيرها، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩] وهذا من المجاز من حيث نسبت البشرية إلى جملته وهي في بعضه.

قال الراغب: «ويقال للخبر السار: البشارة، والبشرى» انتهى.

﴿٢١٤﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٢١٥﴾ هذه صفة المؤمنين تحقق أن من ليس كذلك فلا يستحق اسم الإيمان كما تفيدها نظائرها من صفات المؤمنين؛ وهذه لأن المؤمن الصادق الإيمان

يبعثه يقينه بالآخرة وما فيها من الجنة للمتقين والنار للمجرمين، يبعثه يقينه بذلك على إقامة الصلاة سواء كانت الإقامة بمعنى إحيائها مثل: قامت السوق، أم بمعنى التسوية يجعلها كاملة، فكانها بذلك سليمة من الاعوجاج، فمرجع المعنيين واحد وهو أنها كاملة في أوقاتها.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): في إقامتها وجهان: أحدهما: إقامة شرائطها واستيفاء فرائضها وسننها، والثاني: المحافظة على مواقيتها» انتهى.

قلت: هما لا بد أن يجتمعا في المؤمن يحافظ على صلاته في أوقاتها ويتمها بشروطها وفروضها، ومرجع المحافظة على أوقاتها إلى إحيائها واجتناب إماتتها؛ فلذلك قلت: مرجع المعنيين واحد؛ لأن من ترك الصلاة في وقتها لا يوصف بإقامتها وإن قضاها؛ لأن القضاء غير الأداء فقد فوتها بتركها في وقتها وهو أبلغ ممن جعلها عوجاء في وقتها؛ ولذلك فتسويتها تستلزم فعلها في وقتها، هذا والراجع في إقامتها هو إحيائها من قامت السوق؛ لأن الإقامة بالمعنى الثاني إنما هي حقيقة في الأعيان فيما كان أعوج فسوي بعد العوج أو أقيم بعد السقوط أو القعود، مثل: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقْلَمَهُ﴾ [الكهف: ٧٧].

فأما ما جعل قimaً من أول تحصيله فلا يقال أقامه، إنما يقال: سواه، فكذا في المجاز، والصلاة لا توجد عوجاء وتصير بعد ذلك قابلة للتعديل والتسوية بل تذهب إلى غير رجعة، فظهر أن إقامة الصلاة هي إحيائها يجعلها كاملة بشروطها وفروضها في أوقاتها كما أمر الله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ﴾ [الإيمان بالآخرة

يستدعي الإعداد لها؛ فلذلك لا يزال المؤمن خائفاً وإن خادعته الغفلة والأمل في الحياة، فهو يدافع الغفلة ويدافع الأمل ويفيق تارة ويغفل أخرى لا يستمر على الغفلة؛ لأن الخوف في قلبه يطالبه بالإنابة والاستعداد.

وعلى هذا: ينبغي لمن لا يحذر الآخرة أن يعلم أنه غير مؤمن بها وإن أقر بها ومن البعيد أن يدعي الإيمان بها، فما أسوأ حال كثير من الناس قد رفضوا التمسك بالدين وتفرغوا للدنيا لا غير وإن قاموا ببعض أعمال الدين فهو فرار من أن يقول الناس فيهم وجري على العادة؛ ولذا لا يقبلون من الدين شيئاً غير ما اعتادوه وإن دعاهم إليه القرآن، وعلى هذا فهم داخلون في هذه الآية الكريمة: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي فهم يسرون في تصرفهم سير الأعمى الذي لا يهتدي للطريق ولا يقوده قائد؛ لأن بصائرهم قد عميت نعوذ بالله، وهذا معنى ﴿يَعْمَهُونَ﴾ وتزيين أعمالهم أنها قد صارت كما يحبون ويهوون في حال أن غرضهم هو ما تهواه أنفسهم، فالدنيا تشغلهم بأعمالها ومطالبها لا يتفرغون للدين أصلاً في حال أن ذلك هو الذي تهواه أنفسهم قد تزين لهم؛ لأنه لا مطلب لهم في غيره وكيف يطلبون الثواب وهم غير مؤمنين بالآخرة أو يعملون للنجاة من النار وهم غير مؤمنين بالآخرة بل هم عنها غافلون؛ لأن تصديقهم بها لم يبلغ درجة الإيمان فلا مطلب لهم إلا الدنيا، هذا فأما نسبة التزيين إلى الله فهو من التشابه وهو حق وصدق ولكن ليس بمعنى تزيين الباطل أنه من الله تعالى من حيث هو باطل، بل المزين له بهذا المعنى هو الشيطان ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ ﴿لَا زَيْنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الحجر: ٣٩].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ سوء شدته وخزيه، نعوذ بالله، وهذه الكناية عن العذاب السيء أجمل من قول عنتره:

لَتَلْقَى الْقُرْءَانَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا خَبِيرٌ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ

فتركه جَزَرَ السَّابِعِ يَشْنَهُ يَقْضَمْنَ حَسَنَ بَنَانِهِ وَالْمَعْصَمِ

﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسِرُونَ﴾ قد خسروا أنفسهم وأهليهم وفاتهم كل خير وصاروا في عذاب الله خالدين، فأي خسارة أشد منها، وقد جرت عادة القرآن بإتباع الوعد بالوعيد أو الوعيد بالوعد، وهذا يرجح أن معنى قوله تعالى: ﴿وَبُشِّرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنه يبشرهم بالجنة والفوز في الآخرة.

﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْءَانَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ تُلْقَى يُلْقَى إِلَيْكَ القرآن فتأخذه مثل تلقن ﴿لَدُنْ حَكِيمٍ﴾ هو الله جل جلاله؛ ولحكمته فكلامه محكم؛ ولذلك وصف القرآن بقوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنُ الْحَكِيمُ﴾ [يس: ٢] وهو كله مطابق للحكمة محكمه ومتشابهه، وكل ما فيه حق وصدق لا يأتيه الباطل من جهة سهو ولا غلط؛ لأن قائله علام الغيوب الذي لا يخفى عليه شيء ولا ينسى، فوعده حق وصدق ووعيده حق وصدق، وما فيه من القصص حق وصدق، وكل ما فيه من خبر صدق، وكل ما فيه من إنشاء حق؛ لأنه كلام الحكيم العليم.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا خَبِيرٌ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ ﴿إِذْ قَالَ﴾ اذكر هذه القصة التي وقعت لموسى في مرجعه من مدين أو مسيره من مدين، ومن العجيب سفره ذلك إن كان ابتداءه بقصد الرجوع إلى مصر بعد أن خرج منه خائفاً من القتل وفيه فرعون وقومه، إن ذلك دليل على رغبة غالبة خارقة للعادة أو دافع للخروج من مدين شديد اقترنت به الرغبة في العودة.

وقوله: ﴿إِنِّي ءَأَنْتْتُ﴾: قال (صاحب الصحاح): «وَأَنْتَتْه: أَبْصَرْتَهُ» انتهى، وكذلك قال في إيناس الصوت: «سماعه» انتهى، وفي (معلقة الحارث بن حلزة):

أَنْتَتْ نَبَاةً وَأَفْزَعَهَا الْقَنَا ص عَصْرًا وَقَدْ دَنَا الْإِمْسَاءُ

قال في شرحها: «النبأ الصوت الخفي يسمعه الإنسان أو يتخيله» انتهى. وفي (أساس البلاغة): «وَأَنْتَتْ نَارًا، وَأَنْتَتْ فِزْعًا، وَأَنْتَتْ مِنْهُ رِشْدًا» انتهى. ومثله في (لسان العرب).

وهذا يترجح منه أن مفهوم أَنْتَتْ أَبْصَرْتُ أو أَبْصَرْتُ شَيْئًا خَفِيًّا، ولم أجد في مفهوم أَنْسَ بِمَعْنَى أَبْصَرَ اعْتِبَارًا أَنْ يَكُونَ الْمَبْصَرُ مِمَّا يُؤْنَسُ بِهِ، فلعل الشرفي رحمه الله ذكره على طريقة التفسير للآية؛ لأن موسى عليه السلام أَبْصَرَ مَا يَأْنَسُ بِهِ لظنه تحصيل نار لدفع البرد أو خبر عن الطريق - والله أعلم.

والشهاب قال فيه الراغب: «الشعلة الساطعة من النار الموقدة ..» إلخ.

وفي (الصحاح): «والشهاب شعلة نار ساطعة» انتهى.

وقوله: ﴿قَبَسَ﴾ على قراءة تنوين (قبس) يكون قبس بدل في معنى البيان، أو عطف بيان على القول بصحته في النكرة.

قال الراغب: «القبس: المتناول من الشعلة» انتهى، وموسى عليه السلام أراد أن يأخذ من النار ما يوصله إلى أهله ليوَقَدَ عندهم ليدفئهم.

وقوله: ﴿تَصَطَّلَوْنَ﴾ أي تقربون عند النار للدفع منها، وهذا يفيد: أنهم كانوا في حاجة إلى النار من أجل البرد.

رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْوِسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقَىٰ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوِسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا اتَّخِفُ

﴿٩﴾ ﴿٨﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَن حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * يَمْوِسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ فلما جاء النار التي آنسها ﴿نُودِيَ﴾ قيل له بصوت رفيع.

وقوله تعالى: ﴿أَن بُورِكَ﴾ إلى آخر كلامه لموسى تفسير للندى الذي نودي به، بورك أصله دعاء بالبركة وهي ثبات الخير في الشيء ونموه، قال الشاعر:
بورك الميت الغريب كما بو رك نضج الرمان والزيتون

وفي (الصحيح): «والبركة: النماء والزيادة» انتهى، وقال الراغب: «والبركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿مَن فِي النَّارِ﴾ لعلمهم الملائكة الذين أوقدوا النار ﴿وَمَن حَوْلَهَا﴾ موسى وكان محتاجاً إلى النار لدفع البرد في ذلك الحل ليبقى مدة استماعه للوحي فهي تفيده دفئاً ونوراً، فلا موجب للتأويل بأنها ليست ناراً حقيقة وإنما هي نور؛ لأن الله تعالى قد أخبر أنها نار في قوله تعالى: ﴿إِذْ رَأَىٰ نَارًا﴾ [طه: ١٠] وهنا لا بد أن موسى قد خطب بما ترجمته في العربية نار ﴿فَقُلْ لِأَهْلِيهِ امْكُثُوا﴾ [طه: ١٠] أي ابقوا مكانكم منتظرين لي حتى أذهب إلى النار وأرجع .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ﴾ أي المكلم لك الله، و(أنا) تسمى ضمير المتكلم، وأنا أرجح أن لا ينسب إلى الله تعالى صيغة التفعّل فليس في القرآن كلمة التكلم ولا فيما صح من كلام رسول الله ﷺ بل يقال المكلم بدون (تاء) والقاتل وقال ونحو ذلك لا تقل تكلم، فهذا أحوط.

لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٦٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرِّجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ

وقوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تعليم لموسى بعزة الله وحكمته؛ ولعله يشير إلى أن الوحي إلى موسى تابع لعزة الله وحكمته ليعرف أهمية ما يؤمر به ويستعد لطاعة ربه - والله أعلم - فأما الإبتداء قبل هذا بالتسبيح فلعله ليعلم أن كل ما يوحى إليه حق وصواب؛ لأنه منزّه عن كل نقص وكل عيب أو لتزحه سبحانه عن الشركاء والأنداد؛ لأنه قد شاع الشرك في الأرض والله أعلم.

أما قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فهو مناسب ليكون مقدمة لأمره وإرساله إلى فرعون وقومه؛ ولذلك قال له موسى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٠] كما مر.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدَبِّرًا وَلَمْ يَعْقِبْ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا تَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ أمره أن يطرح عصاه ليجعلها معجزة تدل على أن الوحي من الله وأنه هو أرسله وهو أهون على موسى مما لو حولها حية وهي في يده كما أن تحويلها حية في ضوء النار أوضح للمعجزة وأهون على موسى مما لو كانت الظلمة باقية، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا﴾ أي العصى ﴿تَهْتَزُّ﴾ قد أحيها الله وجعلها حية تسعى.

قال في (الصحيح): «هززت الشيء فاهتزت حركته فتحرك، يقال: هزّ الحادي الإبل هزاً فاهتزت هي إذا تحركت في سيرها لحداثته» انتهى.

وقول الشاعر:

وإني لتعلوني لذكراك هزةً كما انتفض العصفور بلله القطر

يفيد: أن الإضطراب يسمى اهتزازاً، وقد قيد التحريك صاحب [لسان العرب] فقال: الهَزَّ تحريك الشيء كما تُهَزُّ القنّاة فتضطرب انتهى المراد. ولعله إشارة إلى قول الشاعر:

كَهَزَ الرِّدْنِيَّ تَحْتَ الْعِجَاجِ جَرَى فِي الْأَنْيَابِ ثُمَّ اضْطَرَبَ

فالراجح: أن الهَزَّ تحريك الشيء في مكانه في جهتين أو في سيره، والاهتزاز بزيادة التاء منه - والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿كَانَهَا جَانًّا﴾ قال في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «وهي جنس من الحيات» انتهى. وقال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): والجنان الحية الصغيرة سميت بذلك لاجتنانها واستتارها» انتهى. وقال في (الصحيح): «والجنان أيضاً حية بيضاء» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَّى مُدَبِّرًا﴾ أي هرب وفر؛ لأنه استوحش منها، وقوله تعالى: ﴿مُدَبِّرًا﴾ يفيد أنه هرب وخلف العصى وراءه ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ استمر في الفرار ولم يلتفت أو لم يرجع.

قال الشرفي في (المصابيح): «يقال: عقب المقاتل، إذا كرّ بعد الفرار، قال: فما عقبوا إذ قيل هل من معقبٍ ولا نزلوا يوم الكريهة منزلاً» انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام) معناه: «لم يرجع، وقال لم يلتفت» انتهى. وفي (الصحيح): «وتقول ولي فلان مدبراً ولم يعقب: أي لم يعطف ولم ينتظر» انتهى.

ءَايَتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ ءَايَتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ

والحاصل: أنه استمر في الفرار حتى نودي ﴿يَمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا أَتَخَافُ لَدَىٰ الْمُرْسَلُونَ﴾ ليفيده أنه رسول ويذهب خوفه بقوله: ﴿لَا تَخَفْ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا أَتَخَافُ لَدَىٰ﴾ أي عند أن أوحى إليهم لا يخاف من البقاء في ذلك الموضع؛ لأنه ليس موضع خوف بل موضع رحمة وكرامة، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ استثناء بمعنى لكن من ظلم فخاف ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا﴾ بالإستغفار ﴿بَعْدَ سُوءٍ﴾ أي بعد ظلمه أي معصيته، وهذا يشير إلى زلته بقتل القبطي واستغفاره منها، وفيه استدراك إلى أن الخوف من المعصية أمر آخر غير الخوف من الحضور لمكان الوحي.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال بعض علماء أهل البيت (عليه السلام): أما إخوة يوسف فمعصيتهم كبيرة وكانت وهم غير أنبياء وقد اختلف في نبوتهم من بعد التوبة، وأما معصية غيرهم من الأنبياء (عليه السلام) فلا تكون إلا على جهة التأويل لا التعمد فلا يجوز عليهم صلوات الله عليهم عصيان الله سبحانه. قال الشرفي: وهذا قول كثير من أئمتنا (عليه السلام) وقد مر للهادي (عليه السلام) شيء من ذلك..» إلخ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تأمين لموسى لئلا يخاف العقاب على زلته المذكورة، فهي له زيادة على تأمينه من الحية.

﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۗ فِي تِسْعِ ءَايَتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ﴿فِي جَيْبِكَ﴾ الجيب للقميص مدخل رأس لابس وهو في لغتنا الفقرة.

ظُلُمًا وَعُلُوءًا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ

وفي (معلقة طرفة بن العبد):

رحيب قطاب الجيب منها رفيقة
بجس الندامى بضّة المتجرّد

قال شارحها: «قطاب الجيب: مخرج الرأس منه» انتهى.

﴿تَخْرُجُ بَيَضاء﴾ تخرج يدك بيضاء ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ ليس بياضها برصاً ولا غيره مما هو عيب في الجسد بل هو بياض جميل ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ هاتان الآيتان انقلاب العصى حية، وخروج اليد من الجيب بيضاء من غير سوء هما في جملة تسع آيات أرسلك بها إلى فرعون وقومه، ولعل التسع هاتان الآيتان وصرفهم عن قتله الذي عبّر عنه بقوله: ﴿وَإِنِّي عَذْتُ رَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تُرْجَمُونَ﴾ [الدخان: ٢٠] والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وتلقف العصى لسحر السحرة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ فهم محتاجون إلى نذير ينذرهم، ويخلص بني إسرائيل من ظلمهم، والقصة هنا موجزة.

﴿فَأَمَّا جَاءَهُمْ﴾ آيَتُنَا مُبْصِرَةٌ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوءًا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٨﴾ ﴿آيَتُنَا مُبْصِرَةٌ﴾ نيرة لأهل البصائر فهي تبصرهم إن قبلوها ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ أي بالآيات التي جاءتهم، فزعموا أنها سحر ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ تيقنت أنفسهم أنها آيات تدل على صدق موسى، ولكنهم كتموا هذا اليقين وأخفوه في أنفسهم ﴿ظُلُمًا﴾ حيفاً وجوراً ومخالفة للعدل والإنصاف ﴿وَعُلُوءًا﴾ ترفعاً واستكباراً عن الإيمان بها ﴿فَأَنْظُرْ﴾ يا رسول الله ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي فرعون وقومه الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، فقد عرفت كيف كانت عاقبتهم أنا أغرقناهم أجمعين جزاء عاجلاً على إفسادهم فهلكوا وهم على ظلمهم، فهذا الجزاء عجلهم إلى النار.

﴿٥٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ ۖ وَقَالَ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ عُلْمَنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ۚ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿٥٦﴾ وَحُشِرَ

﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَنَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٦﴾ عِلْمًا أَيَّ خَصَصْنَاهُمَا بِعِلْمٍ فَضَّلْنَاهُمَا بِهِ، فَهُوَ عِلْمٌ نَافِعٌ؛ وَلَعَلَّ مِنْهُ عِلْمُ دَاوُدَ بِصِنَاعَةِ الدَّرُوعِ وَتَقْدِيرِ سَرْدِ حِلَقِهَا وَتَعْلِيمِهِ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخُطَابِ، وَسُلَيْمَانَ الْحُكْمَ وَمَنْطِقَ الطَّيْرِ وَغَيْرَ الطَّيْرِ مَعَ عِلْمِهِ بِالْحِكْمَةِ الدِّينِيَةِ كَأَيِّهِمَا مُشْتَرَكَانِ فِي عِلْمِهِ.

﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيَّ فَضَّلْنَاهُمَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ بِالْعِلْمِ وَغَيْرِهِ، فَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ أَيَّ فَشَكَرَا النِّعْمَةَ الَّتِي فَضَّلَا بِهَا؛ وَخَصَّصَا الْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّ نِعْمَةَ الْمُؤْمِنِينَ كُلُّهُمْ أَفْضَلُ مِمَّا مَتَعَ اللَّهُ بِهِ الْكَافِرِينَ وَسَائِرَ الْجَرِمِينَ مِمَّا هُوَ فِتْنَةٌ لَهُمْ، وَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى سُلَيْمَانَ وَدَاوُدَ بِمَا خَصَّصَهُمَا بِهِ وَفَضَّلَهُمَا بِهِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ نِعْمَةٌ كَبْرَى.

﴿٥٦﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ ۖ وَقَالَ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ عُلْمَنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ۚ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿٥٧﴾ حَدَّثَ سُلَيْمَانَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ، وَأَمَّا مِيرَاثُهُ لِأَيِّهِ فَهُوَ كَمِيرَاثِ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا لِأَيِّهِ إِلَّا أَنَّ مِيرَاثَ دَاوُدَ مَمْلُوكَةٌ مَعَ زَهْدِهِ فِي الدُّنْيَا، لَكِنَّا قُوَّةٌ فِي الْحَقِّ وَنَصْرٌ عَلَى الْأَعْدَاءِ مَعَ الْحُكْمِ بِهَا لَهَا، فَفَائِدَةُ مِيرَاثِ سُلَيْمَانَ لَهَا مَعَ زَهْدِهِ فِي الدُّنْيَا كَفَائِدَةُ مَلِكِ دَاوُدَ لَهَا وَكَفَائِدَةُ مَا أُوتِيَ سُلَيْمَانُ مِنَ الزِّيَادَةِ عَلَيْهَا مِمَّا يَعْمَلُهُ الْجَنُّ وَمَا يَغُوصُونَ لَهُ.. وَغَيْرَ ذَلِكَ.

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ الْمَلِكَ الْحَقِيقِيَّ هُوَ نَفْسُ الْوَلَايَةِ عَلَى الْأُمَمِ كَمَا مَرَّ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦٦]؟ فَاجْزَأُ: أَنَّ إِيْتَاءَ الْوَلَايَةِ الْمَذْكُورَةَ يَكُونُ بِالْحُكْمِ مِنَ اللَّهِ بِهَا، كإِيْتَاءِ طَالُوتَ الْمَلِكِ،

لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا

ويكون بالحكم والتمكين في الأرض الذي به ينفذ الأمر والنهي ويقوم الجهاد في سبيل الله بالمال والجيوش المطيعة والسلاح، فكل ذلك من إيتاء الملك فلا تعارض بين ما هنا وما مر.

وأما تعليمه منطق الطير فهو تعليمه معنى ما تعبر به من أصواتها عما تريد من المعاني التي تقدر على التعبير عنها مثل منطق الهدهد الذي تأتي ترجمته في هذه السورة.

وقوله: ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فهو يعني كل شيء من الأشياء المحتاج إليها في الملك والتي بها تمكينه في الأرض وقهره لأعداء الله كما قال الهدهد: ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾: أي البين الواضح وهو الفضل في النعم، وهذا من التحدث بنعمة الله ومن الدعوة إلى طاعته.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ ﴿٧﴾ قال الراغب: «الحشر: إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها» انتهى.

وفي (الصحيح): «وحشرت الناس أحشِرهم واحشُرهم حشراً جمعتهم ومنه يوم الحشر» انتهى. ومثله في (القاموس).

فالأولى أن الحشر يستعمل بالمعنيين، وتفسير الآية يجمعهم لسليمان أظهر لتفريع: فهم يوزعون عليه، أي يُنظَّمون حتى لا يضر بعضهم بعضاً بسبب الإزدحام، والوزع: المنع، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: «معناه: يُدْفَعُونَ ويحثون» انتهى.

تَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ

كذا في (المطبوعة) ولعل الصواب: (ويحثون) والنسخ المخطوطة كثير منها يقل فيه العجم أي النقط فضلاً عن الإعراب وكذلك تحذف الهمزة حيث تثبت؛ فلذا زيدت في المطبوعة لظنهم أنها يحثون.

والصواب: يحثون أي ليجتمعوا يحث المتأخر ليلحق الجند ويدفع المتقدم عن التقدم ليبقى مع الجند.

وفي (مصاييح الشرفي): «قال في (البرهان): ﴿يُوزَعُونَ﴾ يعني: يرد أولهم إلى آخرهم مأخوذ من وَزَعَهُ عن الظلم أي كَفَّهُ عنه، وقيل: لا بد لله من وَزَعَةٍ يعني ممن يمنع الناس، ومنه قول النابغة:

على حين عاتبت المشيب على الصبا فقلت ألما تصح والشيب وازع

انتهى.

كتبته على الصواب، والذي أحفظه «ألما أصح» كما في (مغني اللبيب) والذي في (المصاييح) فيه بعض تصحيف من الناسخ وفي (مغني اللبيب). وقلت: ولعل الصواب ما في (المصاييح)؛ لأنه كالتفسير لعاتبت، والحاصل: أن حشر جنود سليمان له جمعهم له.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا تَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا﴾ حشروا لسليمان حتى إذا أتوا، فحتى غاية لحشرهم، والأقرب هنا: أنه الحشر بمعنى الإخراج، كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾ [الحشر: ٢٠].

وَالِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ
الصَّالِحِينَ ﴿١١﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ

وعلى هذا: فسلیمان وجنوده في الأرض ليسوا في الهواء؛ لأنه الأصل وليس في الآية دليل أنهم ركبوا البساط وحملتهم الريح في هذه المرة، وهو أظهر للناس ليروا كثرتهم حين يرونهم في الأرض، فالمعنى أخرج جنده ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾ أي بلغوا حول واد النمل من جهة أعلى الوادي ولا يجب أنهم فوقهم في الهواء؛ لأن الله تعالى قال في (الأحزاب): ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [آية: ١٠] وهم حول (المدينة المنورة) في الأرض، فسلیمان وجنوده أشرفوا على الوادي وظنت النملة أنهم يمرون منه.

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأْتِيهَا النَّملُ آدْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا تَحْطَمَنَّكُمْ﴾ أي لا يكسرنكم فتهلكوا ﴿سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي لا يعلمون أنهم يحطمونكم لصغركم في الأرض وعدم تأملهم، وهذا يفيد أنها عرفت عدل سليمان وأنهم لا يتعمدون حطم النمل لعدالتهم.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ ضحك ولم يقهقه بل أبدى أسنانه من الضحك، وهذا أدب كريم وهو من إقلال الضحك، وسبب هذا الضحك سروره بكلامها حيث عرفت عدله ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ﴾ ويحتمل: أنه ﷺ تعجب من قولها، من حيث بادرت بنداء النمل مما يدل على عنايتها بمجتمعها.

مِنَ الْغَآئِبِينَ ﴿٦٠﴾ لَاُعَذِّبْنَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَاأَذْنَحْنَهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ

وقال الشرفي في (المصاييح): «قال في (البرهان): يعني: تبسم من حذرهما بالمبادرة واستبقائها للنمل فوقف سليمان بجنوده حتى دخل النمل مساكنه» انتهى. والأول أرجح لعطف قوله: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ﴾؛ لأن

نعمة الهدى للعدل أعظم النعم وهو عليه السلام، مظنة أن يلاحظ ذلك قبل غيره. وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: سددني للشكر» انتهى، وقد مر قوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ بمعنى: يكفون عن التقدم إذا كان الحشر بمعنى الجمع وبمعنى يكفون عن الإضرار بسبب كثرتهم وازدحامهم فلا يضر بعضهم بعضاً ولا يضررون ما مروا عليه إذا كان الحشر الإخراج، وتفسير يوزعون بالتسديد هو المناسب لمعنى الوزع أي الكف والمنع؛ لأن التسديد يستلزم أن يزع نفسه عن الميل عن الحق والصواب، وهنا يزع نفسه عن الميل عن الشكر إلى الكفر وعن العمل الصالح إلى السيئ.

وفي قوله: ﴿الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ دلالة أن النعمة على الوالدين توجب على الولد شكرها إما لأنه برّ للوالدين وإما لأن الإحسان إليهما إحسان إليه من حيث أنه غرض له، والإنسان يعرف هذا في الإحسان إلى الولد فيعتبره الوالد إحساناً إليه نفسه. وقوله: ﴿وَأَدْخَلَنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ أي اجعلني منهم في الآخرة.

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَآئِبِينَ﴾ * لَاُعَذِّبْنَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَاأَذْنَحْنَهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ نظر إليها ليعرف حالها أو إن كان شيء منها فقد أو لثلا يفقد ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ﴾ سؤال لمن حوله جرى فيه على الحكمة

وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿١١﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿١٢﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿١٣﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٥﴾ * قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ بِكِتَابِي

والعدالة حيث لم يكن أول سؤاله ما للهدد قد غاب ثم قال: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ إضراب عن السؤال الأول إلى سؤال أهو كان من الغائبين دخل في جملة الغائبين وصار منهم من وقت سابق قبل انتباهي لغيابه ثم فرع على غيابه المفروض المقدر من دون أن يجزم به.

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ كتف ريشه الذي يقيه الحر والبرد أو غيره من أنواع العذاب، فالكلام مطلق ليس فيه تعيين عذاب ﴿أَوْ لَأَذْنَحَنَّهُ﴾ وهذا لأنه عليه السلام غير بحكم الله تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩].

وفائدة هذا الكلام: تخويف من سمع لثلا يخالف أمره؛ لأن الملك لا يستقيم إلا بالخوف من معصية الملك.

وقوله: ﴿أَوَلَيْاتِي يُسَلِّطُنِي﴾ بحجة تدل على براءته من المخالفة الموجبة له العقوبة وتسلطه على ما صنع.

﴿فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا

عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَرَجُ الْخَبَاءِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١﴾ ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ السياق في الهدد فالضمير له أو لسليمان إلا أنه يترجح جعل الضمير للهدد لثلاث تختلف الضمائر؛ لأن الضمير فاعل قال هو للهدد وعلى كون فاعل مكث هو ضمير الهدد قيل في تفسيره فمكث غائباً غير بعيد أي زمناً غير بعيد أي لم تطل مدة غيابه.

والراجح عندي: ﴿فَمَكَثَ﴾ الهدد عند سليمان ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ منه لوثوقه بعدله، وحرصه على تطهير الأرض من الشرك، ووثوق الهدد بأن له عذراً نافعاً فلم يبعد عن سليمان بعد الخائف من مبادرته قبل سماع عذره ولا وقع وقوع الخائف الذي يعجله الخوف بل مكث عند سليمان يبين له عذره وهو مطمئن، وهذا المعنى أنسب من حيث الترتيب بالفاء على كلام سليمان عليه السلام. أما الغياب فهو من قبل كلامه فلا يناسب مكث مرتباً على كلام سليمان، وأيضاً إذا جعلنا مكث أي عند سليمان ناسبه ترتيب قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ﴾ إلى آخره.

أما ذكر قوله في سياق ذكر غيابه دون إشعار بحضوره فإنه يكون ترتيب قوله: ﴿فَقَالَ﴾ على غيابه وهو غير مناسب ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ أي علمت يقيناً ما لم تعلم، بدأ اعتذاره بما يلفت انتباه سليمان ويبعثه على سماع قصته، وبإفادة أن عنده خبراً بقوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾ ﴿مِنْ سَبَإٍ﴾ من بلد بعيد هي (سبأ) مدينة في (مأرب) باليمن.

وكل هذا الكلام يدعو سليمان إلى استماع النبأ أي الخبر المهم فليقل الهدهد آمناً مطمئناً ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ وهذا خبر عجيب لأن المرأة ضعيفة فحالتها تبعد بها عن الملك ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ حاجات الملك وتوابعه في ثروة وتمكن من تحصيل ما طلبت ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ سرير ملك تواجهه الناس عليه كبير مزخرف، وهذا لا يهم سليمان إنما هو من تمام الخبر العجيب.

ولكن المهم قوله: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فالشرك عندهم دين الدولة والرعية ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ فصارت أنفسهم تهواها وتكره العدول عنها وتكره التفكير في تركها ﴿فَصَدَّهُمْ﴾ الشيطان بذلك ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ الذي من سلك غيره تاه في غير سبيل ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ لأنهم قد تاهوا في غير سبيل لإعراضهم عن النظر والتفكير الذي يفيدهم معرفة الصواب؛ ولا تبايعهم ما تهوى أنفسهم ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ إما صدهم لثلاث يسجدوا، وإما لا يهتدون أن يسجدوا مثل: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢].

﴿لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ﴾ يخرج المخبوء الذي لا يعلمه الناس أو لا يقدر على إخراجهم، والخبأ ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ يفسر بالمطر، ويحتمل: أنه الوحي بما كان من الهدى في السموات، فإخراجه إعلام البشر به ﴿وَالْأَرْضِ﴾ مثل الكنوز وأول نبت الزرع والبتول، فالله هو الذي يهدي عباده لما كان محجوباً عنهم في السموات والأرض، فهو الذي يعلم عبادة من عبده ولا يخفى عليه دعاء من دعاه ﴿أَقْمِنَ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْتَبَى﴾ [يونس: ٣٥].

هَذَا فَأَلْقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَتَأْتِيهَا
الْمَلَأُؤُا إِنِّيُ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ

وكذلك الله يعلم ما يخفون وما يعلنون، فهو الذي ينبغي أن يرجى
ويخشى ويدعى ويعبد دون المخلوقات كلها ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا
الشمس ولا غيرها من المخلوقات؛ لأن الله هو رب كل شيء، والعباد عباده
وحده ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ملك الملوك الذي له الملك العظيم في الدنيا
ويوم الدين، فهو الذي يستحق أن يطاع ولا يطاع غيره في معصيته.

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ * أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا
فَأَلْقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿قَالَ﴾ سليمان ﴿سَنَنْظُرُ﴾
لم يجعل على تصديقه لاحتمال أنه لفق له عذراً كذباً من الخوف من
سليمان، وهذا يدل على أن كلام الهدهد كلام اختياري؛ ولذلك احتمل
الصدق والكذب، ولو كان الله أنطقه كما أنطق عيسى في المهد لكان ذلك
معجزة من الله تدل على صدقه وإن كانت بلغة الطير فلم تكن تخفى على
سليمان، لأنه قد علم منطق الطير فمن شأنه أن يكون عارفاً ما هو في
قدرتها من الكلام وما يتهيا لها من الفهم والعلم وما لا يكون من شأنها
الذي أعدت فطرتها له حتى يفرق بين المعتاد والأمر الخارق المعجز.

﴿فَأَلْقَهُ إِلَيْهِمْ﴾ ارم به إليهم، وكأنه عليه السلام لم يعترف للمرأة بالملك فلم
يقل إليها ﴿ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ لا تنتظر جواباً ولا تتأخر لتنظر ما يقولون بينهم
﴿فَانْظُرْ﴾ بعد ذلك ﴿مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أي ماذا يرجعون إلينا وما يردون به
على كتابنا ﴿يَرْجِعُونَ﴾ أي يرجعون.

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ قَالَتْ يَتَأْتِيَا
الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٣﴾

﴿١﴾ قَالَتْ يَتَأْتِيَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَى كِتَابٍ كَرِيمٍ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ قَالَتْ
مَلِكْتُهُمْ ﴿٣﴾ يَتَأْتِيَا الْمَلَأُ ﴿٤﴾ تعني وزراءها وأكابر قومها ﴿٥﴾ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَى كِتَابٍ
كَرِيمٍ ﴿٦﴾ وصفته بالكرم لما فيه من تواضع سليمان وجعله الأمر لهم باسم الله،
فهو مبلغ عنه لم يذكر ملكه وقدرته عليهم في هذا الكتاب وذكر أنه يدعوهم
﴿٧﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٨﴾ فهو يدعوهم إلى رحمة الله، واكتفى بنهيهم
عن العلو والتكبر عليه بدلاً من أن يأمرهم بالإنقياد له والطاعة لأوامره
﴿٩﴾ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿١٠﴾ لله وجوهكم غير مشركين به، هذا الكتاب حمله الهدهد
لأنه أوجز فيه.

﴿١١﴾ قَالَتْ يَتَأْتِيَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى
تَشْهَدُونِ ﴿١٢﴾ أهمها الكتاب؛ لأنه من سليمان فلم يكن لها بد من النظر فيما
هو الرأي فقد دعاهم إلى الإسلام وهو أمر ثقيل عليهم ومعصية سليمان أمر
ثقيل لما قد اشتهر من قوة ملكه؛ ولذلك اكتفى بقوله: ﴿١٣﴾ مِنْ سُلَيْمَانَ ﴿١٤﴾ دون
أن يذكر لها قوته، فأرادت أن تشاور قومها، وقالت لهم: ﴿١٥﴾ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً
أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿١٦﴾ أي تحضروني وتروا وتسمعوا ما أقطع وأجزم به، وهذا
يفيد أنها طلبت حضورهم؛ لتقول لهم ذلك، وقولها: ﴿١٧﴾ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً
أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿١٨﴾ يفيد أنها مستعدة للقطع في هذا الأمر وأنها لم تطلبهم
أن يفتوها لعجزها عن الرأي والبت في الأمر، بل إن كان عندهم رأي أتوا
به وإلا فالرأي عندها تبينه لهم وتقطعه بحضرتهم.

نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٢﴾
 قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً
 وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ
 الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٤﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ أْتُمِدُونِ بِمَالٍ فَمَا ءَاتَيْنِيَ اللَّهُ

﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانْظُرِي مَاذَا
 تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴿أَوْلُوا قُوَّةً﴾ في الأبدان والعدة ﴿وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدٍ﴾ أهل قتال
 شديد أي نحن أبطال مجربون للحرب، وهذا غاية التشجيع لها لتثق بقومها إن
 أرادت أن يقاتلوا ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ﴾ فالفترى من عندك لا منا ﴿فَانْظُرِي مَاذَا
 تَأْمُرِينَ﴾ وما أدى إليه نظرك فأمرينا به، وهذا - أيضاً - تشجيع من حيث
 دلالة على الطاعة الكاملة بلا تردد؛ لأن القتال يحتاج فيه إلى القوة ثم إلى
 الشجاعة والصبر متى كانوا في المعركة ثم إلى الطاعة الكاملة فلا تخاذل ولا
 تواكل ولا تردد، وجوابهم هذا: الأمر إليك تخلص من القطع في القضية
 وإحالة الأمر إليها تلجئها إلى الثبوت في الأمر؛ لأنها إن غلطت كانت هي
 المسئولة في اعتقادها، وصواب الرأي هو المقدم قبل الدخول في أمر بغير
 بصيرة، كما قال الشاعر:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني

﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً
 وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٤﴾
 قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ تشير إلى ترجيح ترك القتال في أول الأمر؛ لأن الملوك
 إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أي إذا فتحوها فدخلوها ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ بالجيش الذي يقتل
 ويهدم وينهب ويفعل ما أراد لا يمتنع أهلها من ضرهم.

خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٢﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٣﴾ قَالَ يَتَأَتَّى

﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةً أَهْلَهَا أَذِلَّةً﴾ تذكر لهم أمراً خاصاً بالملأ فهي لا تلاحظ سقوطها عن عرشها بل ما يصير إليه الملأ كلهم ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أي سليمان وجنده إذا قاتلونا فعلوا ما هو عادة الملوك إذا دخلوا قريتنا فقد رأت رايأ يرضاه الملأ للتثبت في أمرهم؛ ولعله يكفيهم أي سليمان وقومه أن نكون لهم صديقاً لا نعارضهم ولا ننازعهم ونبقى على ما نحن عليه وهو ﴿إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ﴾ أي فانظر ﴿بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ بالهدية من قبول للهدية ورضى أو من رد لها وسخط ثم نرى رأينا بعد ذلك.

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ أُمِدُّوْنِي بِمَالٍ فَمَآءَاتَنِىَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ * أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ﴾ أي جاءه المال الذي أهده الملكة، ذكر الضمير على المعنى ﴿قَالَ﴾ سليمان لرسول أهل سبا: ﴿أُمِدُّوْنِي بِمَالٍ﴾ ينكر عليهم ويوبخهم؛ لأنه لا يريد المال إنما يريد إسلامهم وهو غني عن ما لهم ﴿فَمَآءَاتَنِىَ اللَّهُ﴾ فالذي آتاني الله من المال وغيره ﴿خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَكُمْ﴾ وهذا تحقير لهديتهم ليعرفوا أنه لا قيمة لها عنده ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ بل ظننتم أن هديتكم تدفع عنكم وتبقيكم على شرككم فأنتم بها تفرحون، يقول هذا لرسول الهدية ليلبغ أهل سبا.

ثم يقول له: ﴿أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ هكذا يأتي باسم الجمع لا يذكر الملكة من أول الكلام إلى آخر هذه الآية تحقيراً لها، كأنها غير معترف لها بالملك ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ﴾ أي إن أصروا ﴿بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾ لا طاقة لهم بدفعها.

الْمَلَأُوا أَيْكُمْ بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٢٤٩﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ

قال الشرفي: «أي لا طاقة لهم بها أي بمحاربتها، وحقيقة القبل المقاومة والمقابلة يعني لا يقدر أن يقابلوهم» انتهى.

وقال الراغب - في (قبل) بكسر القاف وفتح الباء - : «ويستعار ذلك للقوة والقدرة على المقابلة أي المجارة، فيقال: لا قبل لي بكذا أي لا يمكنني أن أقابله، قال: ﴿يَجْنُودٌ لَا قَبْلَ لَهُمْ بِهَا﴾ أي لا طاقة لهم على استقبالها ودفاعها انتهى. وفي (الصحيح): «ومالي به قبل أي طاقة» انتهى.

قلت: لا قبل لهم بها في سياقه مثل: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] في نفس السياق، وقوله: ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا﴾ أي من سبأ التي هي عاصمتهم ﴿أَذَلَّةٌ﴾ كما قالت: ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةً أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ أي قد بطلت دولتهم وقوتهم ﴿وَهُمْ صَغِيرُونَ﴾ من الصغار بفتح الصاد فهم مع الذلة في هوان لا كرامة لهم.

قال الراغب: «والصاغر الراضي بالمتزلة الدنية» انتهى. ومثله في (الصحيح) وهذا الرضى سببه الخوف من القتل أو التعذيب فيرضى الإنسان بالضميم مقابل سلامته.

﴿قَالَ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُوا أَيْكُمْ بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾
 نبى الله سليمان لعله جاءه الوحي بأن ملكة سبأ وقومها يسلمون، وبناء على أنهم يأتونه مسلمين أي ليسلموا قال لملائته: ﴿أَيْكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ الذي وصفه له الهدهد وأراد عليه السلام أن يكون سبقه أي العرش لها آية تدل على أنه رسول من الله من حيث أنه أمر خارق بالنسبة إلى البشر وبالنسبة إلى الجن؛ لأنهم لا يتمكنون من مثل ذلك إلا بأمر خارق أي تخلية خارقة للعادة.

﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ قال الشرفي: «والعفريت: هو المارد القوي» وقال الراغب: «هو العارم الخبيث» انتهى.

وفي (الصحيح): «قال أبو عبيدة: العفريت من كل شيء المبالغ، يقال: فلان عفريت نفريت» انتهى المراد؛ فلعل الراغب بنى على أنه المبالغ في طريقة الشياطين.

وقوله: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ قال الشرفي: «أي من مجلسك وسمي مقاماً لإقامة صاحبه فيه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان: ٥١] وكان سليمان يجلس للقضاء من غدوه إلى نصف النهار» انتهى المراد، والقرينة قوله: ﴿تَقُومَ﴾.

فظهر: أن قوله: ﴿مِن مَّقَامِكَ﴾ أي من المكان الذي أنت فيه مقيم.

﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ قال الذي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴿هَذَا الْقَاتِلَ لَا بَدَّ لَهُ مِنْ جَنْدِ سُلَيْمَانَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ سُلَيْمَانُ: ﴿أَيُّكُمْ﴾ وعمدة هذا القائل هي علمه وليس علمه قدرة على الحجيء بالعرش، فقيل: كان يعلم (الإسم الأعظم).

وهذا بعيد؛ لأنه قال: ﴿أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ﴾ ولو كان إنما يدعو الله أن يأتي بالعرش فيستجيب له لكان الله هو الذي يأتي بالعرش، فكان الجواب الصحيح إنما يأتي به الله، وأيضاً الدعاء يحتاج إلى وقت والإجابة بعد الدعاء وذلك يستوعب المدة المضروبة للإتيان بالعرش قبل أن يرتد إليك طرفك فظهر أنه غير ذلك، وأنه ربما كانت لديهم علوم عظيمة يستطيع الإنسان بواسطتها أن يحقق كثيراً من الأمور التي لا يقدر على تحقيقها بقدرته الطبيعية. وهذا الفارق بينه وبين العفريت أن العفريت إنما قال نظراً إلى قوته واعتقاده أنه يقدر عليه بقوته الطبيعية فليس كمن قال ذلك لعلمه الحاصل له من الكتاب والله أعلم.

أما قوله: ﴿أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ فمعناه إذا نظرت إلى جهته أو جهة (سبأ) أتيت به قبل أن يرجع نظرك إليك بأن تغمض مثلاً بعد أن نظرت، وهذا بناء على الظاهر؛ لأن مجرد الاستبعاد لا يوجب التأويل للقرآن.

﴿فَلَمَّا رَآهُ﴾ أي سليمان عليه السلام، رأى العرش عنده ﴿مُسْتَقَرًّا﴾ غير متحرك لأثر نقله من سبأ إلى القدس ﴿قَالَ﴾ سليمان عليه السلام ﴿هَذَا﴾ أي التمكين للملك إلى هذا الحد ﴿مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ أي إنه من الله اختبار ليتبين به ءأشكر الله عليه أم أكفر نعمة الله فيه، وهكذا كل خير دنيوي فهو ابتلاء أي اختبار، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ نفع الشكر لنفسه؛ لأن الله غني عنه ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ أي عن شكره أو عن كل شيء من شكره وغيره ﴿كَرِيمٌ﴾ يستحق الحمد والشكر ولو لم يشكره أحد.

﴿١١﴾ قَالَ نَكْرُوا هَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿١٤﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ ۖ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي

﴿١١﴾ ﴿قَالَ نَكْرُوا هَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾
﴿نَكْرُوا هَا﴾ غَيَّرُوا بعض التغيير في العرش بحيث يمكنها إنكار أنه عرشها
كما يمكنها الإيمان أنه عرشها باختيارها.

وهذه فائدة التنكير لتؤمن بهذه الآية العظيمة مختارة لا مضطرة ﴿نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي﴾ بأن تؤمن أنه سريرها جاء بأمر خارق من حيث أنه على يد نبي الله ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ فتأبى الإيمان أنه سريرها.

﴿١٢﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكَ﴾ على هذا الشكل والعظم والزينة.

﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ نظرت إلى ما فيه من التغيير فسوَّغ لها نفي أنه سريرها ودعوى أنه مثله، واتبعت في هذا هوى نفسها ﴿وَصَدَّهَا﴾ عن الإيمان بأنه عرشها ﴿مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي حب ما كانت تعبد، فكرهت المسارعة إلى الإيمان ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ بما جاءت به الرسل من التوحيد، فبقي أثر الكفر في قلبها وبعدها عن الإيمان.

وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ تَخْتَصِمُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ لِمَ

﴿١١﴾ ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿قِيلَ لَهَا﴾ بعد أن رأت عرشها وسئلت عنه وأجابت، وهذا يفيد أنها كانت خارج الصرح الذي فيه سليمان، وكان القائل لها: ﴿أَهَكُنَّا عَرْشُكَ﴾ غير سليمان، وكذلك كان القائل لها ﴿ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ غيره.

قال في (الصحيح): «الصرح: القصر، وكل بناء عال» انتهى. وقال في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: القصر» انتهى.

﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾ قبل أن تدخل ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ ماء كثيراً، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: ماء» انتهى. وفي (الصحيح): «ولُجَّةُ الماء - بالضم - معظمه، وكذلك اللج» انتهى.

﴿وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا﴾ لئلا تبطل ثيابها ﴿قَالَ﴾ سليمان ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّنْ قَوَارِيرَ﴾ صرح من قوارير أي من زجاج، قال الراغب: «مرد: أي مجلس من قولهم: شجرة مرداء، إذا لم يكن عليها ورق، وكأن الممرّد إشارة إلى قول الشاعر:

في مجدل شيد بنيانه يزلّ عنه ظُفر الطائر

انتهى.

وهذا القصر لا بد أن الزجاج كان يصب صباً فيجمد ومع ذلك لا يظهر فيه أثر سيلان الزجاج في خارج البناء، وكذلك ساحة هذا القصر فهو شيء غريب.

تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا أَطِیرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَیْرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ

وكذلك كثرة الزجاج إلى هذا الحد، ولم يكن في ذلك الزمان يعرف منه إلا القوارير، فحصوله لسليمان بهذه الكثرة وهذا الشكل خارق؛ فلذلك أسلمت عند أن رأت هذه الآية وعظم شأنها بإسلامها، فذكر إسلامها دون ذكر إسلام قومها لأنهم تبع لها؛ ولعل سبب ذكر إسلامها أنه بعد النظر في الآية ليس مجرد غرض سياسي، أما قومها فهم تبع لها؛ ولعل إسلامهم لمجرد التبعية فلم يذكر في القرآن.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ آمنت من ثمود طائفة وكفرت طائفة أو أسلمت طائفة وكفرت طائفة، وقوله تعالى: ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ تفسير لما أرسل تعالى به صالحاً، أي اعبدوا الله وحده، واختصموا لتعصب الكفار ضد الرسول والمؤمنين أو المسلمين كما هي عادتهم.

﴿قَالَ يَنْقَوْمِر لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿قَالَ﴾ رسولهم للكفار من قومه ﴿يَنْقَوْمِر﴾ رفقاً بهم وتذكيراً بأنهم قومه ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ حيث قمتم ضد من أسلم وضد رسولكم قبل أن تنظروا وتفكروا فيما جاء به من دليل صدقه لتؤمنوا به إن كان صادقاً، ويترجح عندي أنه قد جاء بينة تدل على صدقه قبل الناقة، وإنما الناقة فتنة لهم لتمردهم، والوجه في هذا: قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ [هود: ٢٨] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ﴾ [القر: ٢٧] وذكرنا الناقة؛ لكونها سبب هلاكهم وليعتبر بها من بعدهم،

أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿١٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿١٩﴾ وَمَكْرُؤُهُ

كما يفيدُه قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَأَتَيْنَا مُوَدَّ النَّاقَةِ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩] ولعل الناقة كان ذكرها باقياً قبل نبينا ﷺ فالتذكير بها مناسب جداً.

وقول رسولهم: ﴿لَوْ لَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ غاية الرفق مع بيان حاجتهم إلى الاستعجال بالحسنة؛ لأنهم بالشرك وغيره قد تعرضوا لغضب الله فهم على خطر عظيم وفي أمس الحاجة لطلب المغفرة والرحمة قبل أن ينزل بهم عذاب يعجلهم إلى النار.

﴿١٧﴾ قَالُوا أَطِيرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَيْرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿١٨﴾ أَطِيرْنَا بِكَ ﴿١٩﴾ تشاء منا بك وتنحسنا فأرادوا أن يكف عن إنذارهم؛ ولعل سبب التشاؤم أن نوحاً وهوداً هلك قومهما فجعلوا السبب وجود الرسول إليهم؛ لأنهم قوم يفتنون بالتغدير والدعاية الكاذبة يفتنهم الشيطان وكبرائهم، ولو فكروا لعرفوا أنهم إنما هلكوا لمعصية الله وتمردهم وهمهم برسوليهما؛ فلذلك أجابهم رسولهم ﴿طَيْرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي شؤمكم وعذابكم عند الله فمتى شاء أنزله بكم وجعله عند الله؛ لأنهم قد استحقوه وصار تعذيبهم حقاً وصواباً في حكم الله، فعليهم أن يستغفروا الله رجاء رحمته.

﴿١٧-١٨﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿١٩﴾ رَهْطٌ أي قرابة، قال تعالى حاكياً: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَأْقُومُ ارْهَطِي أَعْزُ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [هود: ٩١-٩٢].

قال في (الصحيح): «رَهْط الرجل: قومه وقبيلته، يقال: هم رَهْط دنية، والرَهْط ما دون العشرة من الرجال لا تكون فيهم امرأة» انتهى، فمفهوم الرَهْط ليس العدد وإنما العدد شرط أي لا يقال: رَهْط للقراصة إلا إذا كانوا دون العشرة ليس فيهم امرأة، فالتسعة المذكورون في الآية الكريمة متقاربون بينهم فهم عصابة. قال الراغب: «الرَهْط العصابة» انتهى. وفي (لسان العرب): «رَهْط الرجل: قومه وقبيلته» انتهى.

وإنما خصصت الرَهْط هنا بأنهم قراصة؛ لأنهم قد خصهم الله تعالى بأنهم رَهْط مع أن الكل قوم صالح، فكلهم رَهْط بالمعنى العام لكل واحد منهم فظهر أن الرَهْط هنا أخص كما في رَهْط شعيب عليه السلام المذكور في (سورة هود) وقد أفاده (صاحب الصحيح) حيث قال: «يقال: هم رَهْط دنية، أي قريية».

﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ عادتهم أن يفسدوا في الأرض من قبل تأمرهم على رسولهم، وهكذا المعاصي تورط أهلها المعتادين لها ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ قال بعضهم لبعض وهم يدبرون لهذا الفساد الأخير ﴿تَقَاسَمُوا﴾ أي ليحلف كل منا ﴿بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي لنبيتنه أي ليهجمن لنقتله في الليل وأهله.

قال الشرقي: «والبيات: القتال في الليل، وقال الراغب: والبيات والتبييت قصد العدو ليلاً» انتهى. فجعل البيات الهجوم على العدو، وفي (الصحيح): «وبيت العدو: أي أوقع بهم ليلاً والاسم البيات» انتهى.

﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ ثم بعد أن نقتله فيطلب وليه أي قريبه كابن عمه بدمه نقول له: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ أي نجحد بذلك قتله وقتل أهله.

مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ
عَقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَبِئْسَ بِيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا
ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَخْبَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

قال الشرفي في (المصاييح): «والضمير لوليه» انتهى، يعني نقول لوليه: ما
شهدنا مهلك أهلك أي أهل وليه، قال الراغب: «الشهود والشهادة:
الحضور مع المشاهدة إما بالبصر أو بالبصيرة» انتهى.

وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ من مقول القول لوليه تأكيد للجحد،
فحاصل المعنى: نقول لولي صالح ما حضرنا قتل أهلك، سواء كان هذا
كناية عن جحد قتل صالح وأهله من حيث نفي الحضور وإن كان كذباً أو
كان كناية عن الجحد من حيث نفي الحضور مع المشاهدة؛ لأنهم كانوا في
ظلمة الليل لا يشاهدونهم بالبصر على معنى أنهم احتالوا للجحد من دون
أن يكذبوا، ولا حاجة إلى هذا في التفسير إلا إذا جعلنا قولهم: ﴿وَإِنَّا
لَصَدِيقُونَ﴾ حالاً من فاعل ﴿لَنَقُولَنَّ﴾ لا من مقول القول، لكن كونه
من مقول القول أظهر، فقد اتكلوا في دفع وليه على جحد القتل وأن وليه لا
يجد بينة على القاتل لكونه بيتهم والناس نيام.

﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ * فَأَنْظِرْ كَيْفَ
كَانَ عَقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَبِئْسَ بِيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ
بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ * ﴿وَمَكْرُوا﴾ بتدبيرهم لقتل
صالح وأهله، ولا بد أنه كان يوم عقروا الناقة بل بعده ﴿وَمَكْرَنَا مَكْرًا﴾
شديداً عليهم؛ لأنه تعجيلهم إلى النار فهو تدبير شقوتهم المؤبدة ﴿وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ﴾ لجهلهم وكفرهم.

وَكَاثُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٧﴾ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٨﴾ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ

﴿فَانْظُرْ﴾ أيها السامع، أو يا رسول الله والمراد لأجل غيره من كفار قريش ومن حولهم؛ لأن في قوم صالح عبرة لهم، وقراءة ﴿إِنَّا دَمَرْنَاهُمْ﴾ بكسر (الهمزة) على استئناف بيان عاقبة مكرهم، أما قراءة ﴿أَنَا﴾ بفتح (الهمزة) فالجملة خبر كان أي فانظر كيف كان عاقبة مكرهم تدميرهم، وقوله تعالى: ﴿وَقَوْمُهُمْ﴾ أي دمرنا التسعة الرهط وقومهم لاشتراكهم في السبب الذي هو المكر المذكور، أما مشاركة قومهم فبالرضى، أو بالأمر والرضى.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ﴾ بيان لأثر تدميرهم ليعتبر بهم، ومعنى ﴿خَاوِيَةٌ﴾ خراب، وقوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ﴾ يفيد أن بقايا الخراب باقية يشاهدها من مر عليها في وقت نزول القرآن ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي هلاك الكفار بسبب كفرهم وعدوانهم ﴿لَآيَةً﴾ تدل على أن الله عليهم قدير وأنه يهمل ولا يهمل، بل يجازي الظالمين، فكذلك يجازيهم في الآخرة، وقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم الذين يتدبرون الآيات ويعلمون ما تدل عليه؛ لأنهم من شأنهم أن يعلموا ما علمهم الله.

﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ من قوم صالح ﴿وَكَاثُوا يَتَّقُونَ﴾ الله بطاعته أنجاهم الله من عذاب قومهم.

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ * ﴿أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ﴿وَلَوْطًا﴾ أرسلناه ﴿إِذْ قَالَ﴾ اذكر قصته ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ منكراً عليهم

لُوطٍ مِّن قَرَبَيْكُم^ط إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ

وموجباً لهم بما لم يستطيعوا إنكار قبحه ولا دعوى حسنه ﴿أَتَأْتُونَ﴾ سؤال توبيخ ﴿الْفَاحِشَةَ﴾ الفعله القبيحة الفاحشة في قبحها ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ والمبصر يميز بين الذكر والأنثى فلا يجمع الذكر غلطاً، فكأنه أراد أنهم يتعمدون الفاحشة، أو أراد وأنتم تبصرون الذكر والأنثى فتميزون بين ما هو صالح للجماع وما هو غير صالح.

ثم كرر التوبيخ؛ ليفسر الفاحشة ما هي؟ ﴿أَيُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ أي لأجل الشهوة تبعثكم على إتيانهم ﴿مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ التي خلقها الله وأعدها للجماع، فتأتون ما لا يصلح بل إتيانه الفاحشة، وتذرون ما يصلح ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ قوم عادتكم الجهالة والسفاهة بهذه الفاحشة وبغيرها.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرَبَيْكُم^ط إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ بذكر مبرر أو دعوى عذر بل إنما قالوا ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ﴾ فهنا حصر وقصر لكنه إضافي بالإضافة إلى أنهم لم يجيبوا بجواب مخلص من سبب التوبيخ والإنكار عليهم، فلا ينافي هذا الحصر أنهم أجابوا مع هذا الجواب بقولهم: ﴿إِنَّا نَعْتَابُ اللَّهَ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] ونظير هذا الحصر قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٦٤] أي لا على غيرها فلا ينافي أنها تكسب بعض الأنفس لها عملاً صالحاً ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ﴾ أي لوطاً وأولاده ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ أي لأنهم أناس يتزهدون من قذارة اللواط فيجتنبون قذرها، أو يتطهرون من القبائح، وهذا استهزاء منهم وسخرية بآل لوط حيث يجرون على أنفسهم بالتطهر المصيبة الكبرى التي هي إخراجهم من قريتهم.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٥١﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ أي لوطاً ﴿وَأَهْلَهُ﴾ أنجيناهم ﴿إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا﴾ كتبناها وحكمنا عليها بأن تهلك مع قومها ﴿الْغَابِرِينَ﴾ وقد مر الكلام في معنى ﴿الْغَابِرِينَ﴾ في تفسير (سورة الشعراء) فراجعه.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ على قوم لوط ﴿مَطَرًا﴾ مطراً مخصوصاً هو رميهم بالحجارة ﴿فَسَاءَ﴾ فما أسوأ ﴿مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ الذين أنذر رسولهم فكذبوه، ففيهم عبرة للمُنْذِرِينَ الذين أنذرهم رسول الله محمد ﷺ وكذلك في ثمود قوم صالح.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي أنعم على عباده بالرسول المبشرين المُنْذِرِينَ ﴿وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ أي اصطفاهم واختارهم للرسالة إلى قومهم فبلغوا الرسالة وأقاموا الحجة على قومهم وصبروا على المشاق في سبيل الله والمشاق اللاحقة بهم تبعاً لإبلاغ الرسالة وإقامة الحجة.

والخطاب بقوله: ﴿قُلِ﴾ لرسول الله محمد ﷺ وبقية هذه الآية من مقول القول وما بعدها إلى آخر الإحتجاج على المشركين بقوله مبلغاً عن الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ﴾ الهمزة للسؤال يسأل المشركين وهم يعلمون أن الله خير بيده الخير ومنه الخير، فقوله: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهم يعلمون أنه لا يقاس بالله شيء من خلقه ولكن تعصبوا للباطل، ولكنهم لا يستطيعون أن يقولوا بل ما نشرك خير، ولو قالوا لكانوا عالمين بأنهم كاذبين، فما أوضح هذه الحجة!

مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ
أَلَيْسَ اللَّهُ بِمَعْلَمٍ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ

﴿٦﴾ ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِمَعْلَمٍ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿أَمَّنْ﴾ سؤال وإضراب إلى الإنكار على المشركين الذين جعلوا الله أنداداً بل آمن ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ جعلتم له أنداداً لا يخلقون شيئاً ولا يملكون نفعاً ولا ضرراً جعلتموهم أنداداً لمن خلق السموات والأرض ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ﴾ وقال ﴿فَأَنْبَتْنَا﴾؛ لأنه أوضح في الدلالة على أن المراد فأنبت الله، ولو قال: فأنبت لاحتمل الكلام أن الضمير الذي هو فاعل أنبت عائد على المطر وهو وإن صح بمعنى لكن ليس المراد هنا بل المراد بيان أن الله أنبت لعباده بالمطر نعمة عليهم ﴿حَدَائِقَ﴾ بساتين فيها الأشجار النافعة كالنخل والعنب.

قال (صاحب القاموس): «والحديقة: الروضة ذات الشجر أي جمعها حدائق أو البستان من النخل والشجر أو كل [أعرب كل بالرفع، ولعل الصواب الجر عطفاً على النخل ليكون وصفاً للبستان تمت مؤلف] ما أحاط به البناء أو القطعة من النخل» انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ معناه: جنات واحد[تها] حديقة وذات بهجة ذات حُسن ويراد بها النخل» انتهى.

وفي (الصحيح): «والحديقة: الروضة ذات الشجر، وقال تعالى: ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ [عبس: ٣٠] ويقال: الحديقة كل بستان عليه حائط» انتهى، وفي (القاموس): «البهجة: الحسن» انتهى.

خَلَلَهَا أَنْهَرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۖ أَلَيْسَ
مَعَ اللَّهِ بَلَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّنْ تَحِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ

﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُبَيِّتُوا شَجَرَهَا﴾ ما صح ولا استقام أن تنبتوا، أي
ليس من شأنكم كما نقول: لا يتصور منكم أن تنبتوا شجرها؛ لأنه ليس في
قدرة المخلوقين وإنما يقدرون على التسبيب بالبذر أو الغرس مع السقي
بالماء إن حصل الماء ولا يحصله إلا الله تعالى، أما شركاء المشركين فلم يخلقوا
سموات ولا أرضاً ولا شيئاً ولم ينزلوا من السماء ماء ولم ينبتوا شجراً.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا﴾ عدل به عن ضمير الغيبة؛ لأن الحاكي للفظ
الغيبة فيما قبله هو الفاعل فناسب ذلك العدول عن ضمير الغائب كقول
امرئ القيس:

جاءت لتصرعني فقلت لها اقصري إني امرؤ صرعي عليك حرام

فقال: صرعي عدولاً عن صرعه.

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾ سؤال للمشركين في معنى النفي بالتوبيخ
لإثبات أنه لا إله مع الله بهذه الحجة ﴿بَلَّ هُمْ﴾ أي المشركون ﴿قَوْمٌ
يَعْدِلُونَ﴾ عادتهم العدول عن الطريق إلى التيه.

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ
وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۖ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾
﴿أَمَّنْ﴾ انتقال إلى احتجاج آخر في صورة الإضراب ثانياً عن قوله تعالى:
﴿أَلَيْسَ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ﴾ تأكيد للإضراب الأول ﴿جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾
جعلها قراراً للإنسان بأن مهدها له وجعل فيها ما يعيش به من الأوكسجين
للتنفس، والماء للشرب والسقي، والطعام للإنسان وأنعامه.. وغير ذلك.

وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۖ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدًا ۚ وَيُخَوِّذُ الْغُلَامَ وَيُنَازِلُ فِي السَّحَابِ الْمُنَادِي ۖ وَرِجَالٌ لَمْ تَحْصُهُمْ رَبُّهُمْ يَزِيدُهُمْ فِي دُجَاهِهِمْ ۖ ذَٰلِكُمْ فَتَنُ اللَّهِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ أَتَدْرِكُونَ ﴿١٧﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ

﴿وَجَعَلَ خُلَفَاءَ﴾ في بطنها ﴿أَنْهَرًا﴾ مجاري للماء تجري فيها حتى يبلغوا منابعه من ظهر الأرض والآبار ونحوها؛ لينتفع به الإنسان ولا يتلف عليه في بطن الأرض ﴿وَجَعَلَ لَهَا﴾ أي للأرض ﴿رَوَاسِيَ﴾ أي جبالاً راسيات في أماكنها راسخات في الأرض لئلا تميد بأهلها ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ يحجز كل واحد منهما عن البغي على الآخر وخلطه بنفسه وهما حول البلد المشهور المسمى البحرين، والحاجز الذي بينهما معنوي خفي، فهما يلتقيان ولا يختلطان، وهذه دلائل عظيمة تدل على الله تعالى وعلى أنه قادر على كل شيء وعليم بكل شيء عز وجل عن أن يكون له نذ أو عديل ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي المشركين ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم مهملون لعقولهم لا ينظرون بها ولا يفكرون في الآيات والدلائل المفيدة للعلم.

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۖ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدًا ۚ وَيُخَوِّذُ الْغُلَامَ وَيُنَازِلُ فِي السَّحَابِ الْمُنَادِي ۖ وَرِجَالٌ لَمْ تَحْصُهُمْ رَبُّهُمْ يَزِيدُهُمْ فِي دُجَاهِهِمْ ۚ ذَٰلِكُمْ فَتَنُ اللَّهِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ أَتَدْرِكُونَ﴾ ﴿أَمَّنْ﴾ إضراب يؤكد الإضرابين الأولين ﴿يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ الله الذي يجيبه، أما شركاء المشركين فلا يدعونها عند الضرورة الملجئة إنما يدعون الله مثلاً إذا خافوا الغرق في البحر اضطرتهم حالتهم إلى أن يلجئوا إلى الله فيدعونه؛ ولعله خص المضطر بالذكر لأنه الذي يدعو الله من المشركين دعاء خالصاً بالله بحضور ذهن وخضوع لله؛ فلاجل تجربة المشركين في هذه الحالة ذكرهم بها ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ عن المضطر إذا دعاه ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ تعمرون وتتصرفون لحاجتكم فيها بالحرث والغرس واستخراج ما أودع لكم فيها من النعم لما لا يتهيا لكم إلا مع العافية والسلامة من حالة الإضطرار لكشف السوء.

الرَّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٢﴾ أَمَّنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ

﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾ سؤال للمشركون بعد إقامة الحجة على أنه لا إله إلا الله الذي يجيب المضطر إذا دعاه؛ لأن شركاءهم لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تبصر، فسؤالهم تبكيت لهم وتوبيخ، وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ لأنه تعالى قد ذكرهم بما جربوه في حالة اضطرابهم من إجابة دعائهم فقليلًا ما يتذكرون؛ لكثرة إعراضهم وإصرارهم على الشرك.

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ بما جعل من النجوم التي تنير بعض الإنارة وتتخذ علامات للجهات يعرف بها جهة شرق وجهة غرب وكذلك الشمال والجنوب فيهتدى بها للجهات التي يريدونها المسافرون في الليل سواء في البر أم في البحر، ونور القمر في أول الشهر لأول الليل، وفي آخر الشهر للمسافرين في آخر الليل، ويعرف بالقمر أيضاً الجهات فالله تعالى هو الذي خلق النجوم وقدر لها أماكنها في فلكها وقدر لها سيرها بنظام محدد، وهو الذي خلق القمر وقدره منازل بنظام محدد، أما شركاء المشركون فلا تهديهم أي هداية في أي حال من الأحوال.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي متقدمة للمطر يرسل الرياح فتثير سحباً تنشره في الهواء ويأتي الله بعد الرياح بالمطر، وقرئ بشراً بالباء أي مبشرات بالمطر، وشركاء المشركون لا يفعلون شيئاً من ذلك ﴿تَعَالَى اللَّهُ﴾ تعالى بما أظهر من دلائل عظمته وجلاله وقدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء وفضله على عباده ورحمته لهم.

وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٦﴾ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ

﴿تَعَالَى﴾ بذلك وبغيره ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ من الأوثان التي لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تبصر فعز وجلّ عن أن يكون له ند أو عدل أو شريك. ﴿أَمْ يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿يَبْدُؤُا الْخَلْقَ﴾ يخلقه أول مرة ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ في النشأة الأخرى، وقدرته على الإعادة يدل عليها أنه قدر على الإبداء وخلاف المشركين في ذلك ليس الشرك مبنياً عليه بمعنى أنهم رتبوا الشرك على نفي البعث بل كل واحد من الشرك ونفي البعث مستقل عن الآخر، فيمكن أن يثبتوا البعث مع إصرارهم على الشرك، أو يقرؤا بوحداية الله وبطلان الشرك مع إصرارهم على نفي البعث، فصح الاحتجاج عليهم ببدء الخلق وقدرة الله تعالى على إعادته وأنه سيعيده في إبطال شركهم بمن لا يقدر على بدء ولا إعادة، سواء أقروا بالإعادة أم جحدوا؛ لأن قدرته على الإبداء بإقرارهم دليل على قدرته على الإعادة؛ وبذلك قد احتج عليهم في القرآن في مواضع متعددة، وليس من شرط الاحتجاج أن يكون بما يثبت الخصم ويقر بصحته، بل إما بذلك وإما بما قد لزمه الإقرار به؛ لثبوت الحجة عليه وعدم المعارض لها عنده.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ حجة واضحة على أنه المنعم على عباده مع أن شركاءهم لا يرزقونهم لا بكثير ولا قليل لا من السماء ولا من الأرض، والله تعالى هو الذي ينزل المطر رزقاً لهم وينبت لهم به الزرع وغيره كما فصله في (سورة النحل) وغيرها من القرآن، وهم يعلمون ذلك، فالله هو ربهم الخالق الرازق، فعليهم أن يعبدوه وحده.

يُبْعَثُونَ ﴿١٥﴾ بَلِ ادْرِكْ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿١٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَّءَابَاؤُنَا أَهِنًا

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ تذكير لهم بأنه لا برهان لهم على ما يدعون من الشرك وقد قام البرهان الواضح على بطلانه، فما بقي إلا أن يرجعوا إلى الحق أو يعاندوا الحق بلا حياء من الكذب ولا خوف من عذاب الله.

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ * بَلِ ادْرِكْ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿١٦﴾ ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ﴾ إعادة الأمر بالقول لرسول الله ﷺ ليحتج ثانياً على المشركين ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ﴾ أي لا يعلم أحد الغيب ونص على من في السموات؛ ليعلم المشركون بالملائكة أنهم ليسوا أنداداً لله، وكذا من في الأرض ممن يشرك به نوع من المشركين لا يعلمون الغيب، ولما كان المراد بقوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ﴾ لا يعلم أحد الغيب جاء الاستثناء منه على المعنى برفع الجلالة؛ لأنه سواء عند العرب الذين يفهمون من عموم ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كل أحد، فسواء قيل من في السموات والأرض أو قيل لا يعلم أحد، وإن شئت قلت: لا يعلم من في السموات والأرض مضمن معنى لا يعلم أحد، فجاء الاستثناء على المعنى المضمن؛ لأن المقصود التعميم وبالله التوفيق.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي من في السموات والأرض ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ وهذه خصلة من الغيب تشير إلى أنهم عباد مربوبون يرجعون إلى الله ليجزئهم بما كانوا يعملون.

لَمُخْرَجُونَ ﴿٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا

﴿بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ وقع الخروج من الاحتجاج على المشركين لنفي الشرك إلى إنذارهم في نفيهم للبعث، وهذا الخروج يسمى في علم البيان تخلصاً، وذلك بواسطة قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

فقوله تعالى: ﴿بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ﴾ إضراب مع الرد عليهم في الشرك إلى بيان جهلهم بالآخرة، وذلك يفيد: أن جرأتهم على الشرك وعلى الإعراض عن آيات الله والتكذيب بها بسبب جهلهم بالآخرة؛ لأنهم لو علموا أنهم يسألون يوم القيامة ويعذبون لخافوا واستمعوا للذير ولم يعرضوا عن آيات الله ولا تجرؤوا على التكذيب بها، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ * كَانَهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ * بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشُورَةً * كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ [الدثر: ٤٩-٥٣].

فقوله تعالى: ﴿بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ نظير هذا تدارك علمهم بتابع في التهافت والسقوط ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ فليسوا عادمين العلم فحسب، بل أشد من ذلك أنهم في شك، ففاقد العلم قد يكون معتقداً اعتقاداً جازماً أو ظاناً ظناً قوياً، لكن هؤلاء المشركون أسوأ حالاً من فاقده العلم.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ تردد هل هي حق أو لم تكن ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ عميت بصائرهم لاستحقاقهم الخذلان فهم لا يهتدون للعلم بها كالأعمى لا يهتدي للطريق، وهذا أبلغ من الشك؛ لأن الشك يرفعه العلم إذا كانت البصيرة سليمة ونظر في الدليل، أما إذا عميت فهو لا يزال في شك.

أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُجْرِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٤٠﴾

﴿٣٨-٣٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ
وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٤٠﴾ عميت
بصائرهم وشكوا في الآخرة فتجروا على الجدال بالباطل في الآخرة وفي
صدق الرسول وفي القرآن.

وقالوا في جدالهم: ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ أي في القبور قد استحالت عظامنا تراباً
﴿وَأَبَاؤُنَا﴾ قد تربت أجسادهم كذلك ﴿أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ من القبور ونحن
تراب فيها، فجعلوا هذا الاستبعاد حجة لهم بنفي البعث ولتكذيب الرسول؛
لأنه أبلغهم أنهم يبعثون في الآخرة؛ ولتكذيبهم بالقرآن؛ لأنه أنذرهم الآخرة،
وقد أبطل الله تعلقهم بهذا الاستبعاد بقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾
[الأنبياء: ١٠٤] وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقَادِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ
مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١] وغيرهما، فلم يرد عليهم هنا إلا بالوعيد.

نعم تعلقوا بذلك، وأكدوه بقولهم: ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ
قَبْلُ﴾ على لسان الرسل الماضين أي فلم يقع ما وعدنا به كأنهم قالوا: قد
جربنا هذا في الوعد الماضي لم يقع ما وعدنا به وأباؤنا، فكذلك هذا الوعد
في القرآن سيكون مثل الوعود السابقة، وهذا الأسلوب في إيراد الشبهة
شديد على من يريد الجواب؛ لأنهم طووا في كلامهم ما هو شبهتهم
واقترضوا على ذكر الوعد الماضي.

والجواب لإبطال شبهتهم يكون أولاً بالتصريح بما طووه، ثم بإبطاله، لكن
القرآن أعرض عن جدالهم؛ لأنهم لا يريدون الحق، وبطلان شبهتهم واضح؛

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى

لأن الوعد بالبعث غير محدد بسنين معدودة أو مدة معينة، فلا يصح قولهم: لم يقع؛ لأنه سيكون ما وعد به الأولون أو الآخرون وعند ذلك يعلمون صدق الوعود كلها فيقولون هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون، وقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يعنون به ما هذا أي القرآن ﴿إِلَّا أَسْطِيرُ﴾ جمع أسطورة وهي ما سطر من أخبار الماضي وأرادوا ما هذا من عند الله ﴿وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿قُلْ سِيرُوا﴾ أي قل يا رسول الله هؤلاء المكذبين الذين لا يخافون الآخرة ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ لتروا آثار المكذبين قبلكم الذين دمرهم الله فانظروا كيف كان عاقبتهم أهلكهم الله؛ لأنهم كانوا مجرمين كذبوا رسلهم وعادوهم فاحذروا العذاب العاجل أن ينزل بكم كما نزل بهم.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ لا تحزن عليهم فهم ظلموا أنفسهم وتعرضوا لعذاب الله ﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ لا تكن في ضيق بأن تخاف على دين الله أن يضيع بما يمكرون بما يدبرون من المكائد ضدك وضد ما جئت به لا تخف بل توكل على الله فهو مظهر دينه ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي أخبرونا ﴿مَتَى﴾ اليوم الموعود به الذي هو يوم القيامة ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم أنه سيكون.

النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ

وهذا منهم إما على توهم أن من يعلم أنه سيكون فيلزم منه أن يكون عالماً متى يكون؛ لأن الأمرين كلاهما مغيب، فمن يعلم الغيب يعلم اليوم إن كان واقعاً ويعلم متى يكون، وجوابه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [المك: ٢٦] لا أدعي علم الغيب إلا ما علمني الله وإما تعنت منهم ليجعلوا هذا الاقتراح وسيلة لتكذيب الوعد بالقيامة، وليس لهم حق في هذا؛ لأنه تحكم على الله تعالى.

﴿قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَّكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ ﴿رَدِفَ لَكُمْ﴾ لحقكم قريباً. قال الشرفي في (المصابيح): «﴿قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ﴾ أي ردفكم بعضه وهو عذاب يوم بدر، واللام مزيدة للتأكيد؛ لأن معناه تبعكم ولحقكم، أو ضمن ردف معنى دنى لكم» انتهى. وفي (الصحاح): «وكل شيء تبع شيئاً فهو ردفه» انتهى.

فأما الترجي بقوله: ﴿عَسَىٰ﴾ فصحيح؛ لأن الكلام الذي هو مقول القول كلام الرسول فإذا أمره الله أن يقول: ﴿عَسَىٰ﴾ وهي للترجي فقد أمره أن يرجو، والآية هذه مثل قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١] إلا أن المترجى هنا يوم البعث، وفي آية ﴿رَدِفَ﴾ بعض ما يستعجلون أعم من العذاب العاجل أو الآجل، وقوله: ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ يفيد: أنهم قالوا: ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ استبطاء له بمعنى طلب تعجيله إن كان حقاً كقول قوم صالح: ﴿اثْبِتْنَا يَمَّا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ﴾ إناعام ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ بالرسول والقرآن وبكل الآيات،

﴿٧٥﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي

فنعمة الهدى أعظم النعم لمن اهتدى وكذلك فضل على الناس بتأخيرهم إذا
عصوا حتى يراجعوا أنفسهم ويتوبوا إن شاءوا، ومع ذلك لا يمنعهم فضله
بل يمتنعهم إلى آجالهم ﴿وَلَيْكِنَّا أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فالمسئولية عليهم في
كفرهم وله الحمد والشكر وإن لم يشكروا وهو الغني الحميد.

﴿٧٥-٧٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ الَّذِي أَرْسَلَكَ لَيَعْلَمُ مَا
تُكِنُّ صُدُورُهُمْ * أي ما تخفي صدورهم وهو ما يضمرون من عقيدة باطلة
أو من نية سيئة أو من غير ذلك ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ما يظهرونه لك أو لغيرك
فهو عالم بذلك كله ومجاز لهم بما يستحقون ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ﴾ وهي ما غاب
عن المخلوقين أو ما أخفي عن بعضهم فغابت عنه في السماء غابت أو في
الأرض، فكل ذلك لا ينساه الله، بل لا يزال عالماً به، فأعمالهم وسرائرهم لا
ينسى منها شيئاً.

قال الشريفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه في علم
الله [أي في كتاب مبين] والكتاب مثل من الأمثال يستدل به على حفظ الله
ذي الجلال» انتهى.

﴿٧٧﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ * وَإِنَّهُ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ * معجزة
أنزله الله ودل على أنه منه بوجوه:

منها: إعجازه للعرب أن يأتوا بسورة من مثله فلم يفعلوا كما أخبر تعالى
أنهم لن يفعلوا.

بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا

ومنها: إخباره بمغيبات مثل أن الروم سيغلبون، ومنها: قصص الحق المطابق لما في كتب أهل الكتاب.

ومنها: القصص بالحق فيما قد اختلف فيه بنو إسرائيل فبين القرآن الحق في المختلف فيه بينهم، مع أن محمداً ﷺ لم يقرأ الكتب ولم يخط كتاباً مع أن هذا لا يمكن مثله بل يحتاج من يستعرض أقوال المختلفين وينقدها ثم يختار أصحها وأوفقها للحق وأسلمها من النقد يحتاج من يفعل هذا إلى اطلاع كامل في الكتب وتمكن من تحصيل الكتب التي يحتاجها للبحث، وبعد البحث الكامل يحتاج إلى أن يكون له علم بسنن الله في الكون وعلم بنفسيات الناس؛ ليستطيع التفوق على المختلفين فيما يختاره ويعينه من قوله في موضوع الخلاف، ونبينا محمد ﷺ ليس له شيء من ذلك إلا العلم بسنن الله في الكون والعلم بنفسيات الناس إن كان يعلم ذلك قبل نزول القرآن، فما جاء في القرآن من بيان الحق في المختلف فيه يتبين بلا شك أنه من الله علام الغيوب.

﴿وَإِنَّهُ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي القرآن ﴿هُدًى﴾ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، وهو هدى للمؤمنين إلى صراط مستقيم، ورحمة؛ لأنه شفاء يؤدي إلى سلامة القلب من كل عيب فيؤدي إلى السلامة من عذاب يوم عظيم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا رسول الله ﴿يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ أي بين بني إسرائيل فيما كانوا فيه يختلفون، يحكم بينهم يوم القيامة فينصر المؤمنين ويعاقب المخالفين للحق بعدما جاءهم العلم؛ لأنهم لم يختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم.

مُدْبِرِينَ ﴿٨﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَدَى الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ^ط إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِغَايَتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٩﴾ * وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً

وقوله تعالى: ﴿يُحْكِمُهُ﴾ أما حكمه على المبطل بأنه مبطل لا عذر له وأنه مستحق للعقاب وحكمه للمحق بأنه اتبع الحق واستحق الثواب، وإما بحكمه الذي هو الجزاء بما يستحقون ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فلعزته يجزي أعداءه بالعذاب العظيم ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ العليم بما قدموا في الدنيا من الجرائم وبكل شيء فيجزئهم الجزاء الأوفى.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ توكل على الله في قيامك بما يجب عليك من تبليغ الرسالة في حال تكذيب المكذبين وعناد المعاندين وعداوة المعادين ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ وأعدائك على الباطل فكل أمرك إلى الله واثبت على ما أنت عليه، فمن حق الحق أن يثبت على أمره وأن لا ييالي بمن خالفه، ومن حق المؤمن وبالأخص الرسول ﷺ أن يكل أمره إلى الله فيما كلف به فيطيعه مفوضاً أمره إلى الله إن شاء نصره وقهر أعداءه وإن شاء ابتلاه بالكفاح بينه وبينهم وإن شاء رزقه الشهادة، فهذا معنى التوكل على الله، وفائدته الثبات على طاعة الله، وأن لا يصرفه عنها تجويز قهر الأعداء واحتمال أن يقتلوه وفي ذلك أجر عظيم، والتوكل واجب على الرسول ﷺ وعلى كل مؤمن.

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ ﴿لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ تشبيه للمكذبين بالموتى، وهذا فيمن خذل واستولى عليه الشيطان فهو كالفاقد للحياة الذي لا يسمع من دعاه؛ لأن قلبه قد فقد الصلاحية لقبول الإنذار أو قبول النصيح أو قبول الحق، فهو لا يتأثر بإنذار ولا بحجة واضحة كأنه ميت.

﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ لا تُسمعهم إذا دعوتهم إلى الهدى؛ لأنهم صم وقد ولوا عنك لا يريدون سماعك، فاجتمع فيهم ثلاثة موانع: الصمم، والإدبار؛ لأن الأصم إذا واجه من يكلمه يفهم كلامه بحركة شفتيه، فربما سمعه لانضمام الرؤية إلى السمع، فأما المدبر فقد فاتته هذه الوسيلة.

والثالث: أنه لا يريد أن يسمعه؛ لأنه في هذه الحالة يعرض عن استماعه، فيكون أبعد عن سماعه، وقد شبه المكذبون بأهل هذه الموانع، وفائدة هذا أن يأس الرسول ﷺ منهم فلا يتعب نفسه في محاولة إيمانهم بعد أن قد بلغهم وقامت عليهم الحجة ولم يبق له سبيل إلى جعلهم مؤمنين باختيارهم.

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَدِيَ الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ۚ إِنَّ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَدِيَ الْعُمَىٰ﴾ أي لا تجعلهم مهتدين للطريق في حال ضلالتهم عنها، وهؤلاء المكذبون مثلهم، لأن بصائرهم قد عميت فضلوا ولن تهديهم ﴿عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ لأن بصائرهم قد عميت عن الهدى.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تُسْمِعُ﴾ أي لا تسمع ﴿إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ حين يسمعها؛ لأن نيته قبول الحق، ليس متكبراً ولا حاسداً ولا متعصباً، فمتى سمع آيات الله آمن بها؛ لأنه ما زال على فطرة سليمة ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وجوههم وأنفسهم لله لا يشركون به شيئاً؛ لأنهم قد آمنوا بآيات الله، فبعثهم الإيمان إلى الإسلام، ولا يدل هذا على أن الإسلام يتوقف على الإيمان؛ لأن إسلام الوجه والخروج من الشرك قد يكون لسبب سابق قبل الإيمان كما يكون بسبب الإيمان ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَخْشِرُ
مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٢٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا

﴿٢٧﴾ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ
كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَعَ الْقَوْلُ ﴿٢٩﴾ صدق ﴿٣٠﴾ عَلَيْهِمْ ﴿٣١﴾ وتعينوا في دلالته
عليهم، والقول: الوعيد مثل: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ الآية [الأعراف: ١٨] وذلك بما
ظلموا وأصروا على الإعراض عن آيات الله وترك الإيمان بها حتى صار بينهم
وبين الإيمان بُعد، وعلم الله أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية.

﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾ وهذا خارق للعادة؛ لأن الدواب إنما
تحصل بالتناسل وإذا ماتت لم تخرج إلا أنها ستخرج يوم البعث فهي آية
عظيمة تدل على قدرة الله تعالى على البعث، فهي من مصداق قوله تعالى:
﴿سَتُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ﴾ الآية [نص: ٥٣] وأعظم من ذلك أنها ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾
فالدواب لا تتكلم، فإذا كلمت الدابة كان تكليمها أمراً عظيماً وهائلاً لمن
كلمته، وكفى بهذا الكلام دلالة على هذا الأمر المغيب الذي سيكون قبل
يوم القيامة وعند وقوعه بهاتين الصفتين: الخروج من الأرض، والتكليم
للناس فعند ذلك يعلم أنها هي ما وعد الله به في القرآن، فتكون دليلاً على
أن القرآن كلام الله كما هي دليل على إمكان البعث.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ تعليل لهذه الآية
العظيمة التي تضطرهم إلى العلم بإمكان البعث وبأن القرآن كلام الله سواء
أقروا أم جحدوا، فهي كناية الله لقوم نبيه صالح عليه السلام.

نعم.. هذه الدابة أعلم بها أي دابة واحدة، أم هي جنس يخرج منه
في كل قطر دابة أو أكثر، كقوله تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ
تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾ [سبأ: ١٤] فإن الظاهر: أن الذي أكل منسأته جنس دابة الأرض
أي عدد كثير اجتمع فأكلها حتى انكسرت وخر سليمان عليه السلام.

جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تَحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾
وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٧٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا

﴿٧٠﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٧١﴾
الراجح في هذا الحشر: أنه حشرهم إلى جهنم، كقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٦٩] والفوج: الجماعة الكبيرة، وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١] فالأكابر من الأمم يقدمون قبل الأتباع وهذا تحذير من التكذيب بآيات الله، وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ كقول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [نصفت: ١٩] والوزع: المنع، ولعله هنا - والله أعلم - وزعهم عن محاولة العدول عن التوجه إلى النار يميناً أو شمالاً في الحشر - والله أعلم - فأما تفسيره: بجبس أولهم حتى يلحق آخرهم أو برد أولهم إلى آخرهم فهو بعيد.

﴿٧١﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تَحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٧٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا
حيث حشرهم إلى جهنم، فالراجح أنهم جاؤوا جهنم قبل الوقوع فيها أو بعده.
وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُمْ﴾ توبيخ لهم واحتجاج عليهم بين أنهم قد وقع القول عليهم، وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ يبين أنهم كذبوا بها مع إعراضهم عنها وترك النظر في صحة دلائلها تكبراً وظلماً، وقوله تعالى: ﴿أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي حين كذبتهم بها من دون أن تنظروا فيها وتسمعوا قول النذير الذي جاء بها أي عمل شغلهم عن النظر والتفهم للآيات وهم قد أُنذروا جهنم، فلم يكن لهم عمل يستحقوا الإشتغال به عن النظر في آيات الله.

﴿أَلَيْلٍ لِّسَكْنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفِرَّعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ

﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ صدق عليهم الوعيد ﴿بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ...﴾ الآية [فصلت: ٢٠] وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ...﴾ الآية [يس: ٦٥].

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا أَلَيْلٍ لِّسَكْنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿احتجاج بقدرة الله تعالى التي لا تقاس على قدرة المخلوقين وبنعمته على عباده التي تستدعي منهم الشكر والإيمان بآياته الدالة على الآخرة وعلى صدق الرسول الذي بلغهم الآيات الماضية التي تنذر المكذبين عذاب الآخرة.﴾

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي في جعل الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً لمعاشهم ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائل تبطل شركهم بمن لا يقدر على شيء ولا ينعم عليهم بشيء، وتبطل تكذيبهم باليوم الآخر لمجرد استبعاد القدرة على بعث الأموات وتبطل احتجاجهم بهذا الاستبعاد لتكذيب النذير، كما أن آياتي الليل والنهار تدل على قدرة الله تعالى وعلمه بكل شيء ورحمته وفضله لعباده بتسخير الشمس لهم وتيسير تحديد مواجهتها للناس بحيث لا تضرهم بجرها ولا تجفف أشجارهم وغيرها ولا يتعبهم طول النهار عليهم، وكذلك تحديد غيابها عنهم حتى لا يطول عليهم الليل فيحاصروهم عن طلب المعاش ويشدد الجوع والبرد..

وغير ذلك من الآيات في تصرف الخالق في الأرض والشمس مع بُعد المسافة بينهما ومع استمرار هذا التصرف لحاجة الإنسان إليه.

شَاءَ اللَّهُ ۖ وَكُلُّ أَتَوَةٍ دَاخِرِينَ ﴿٤٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۖ صُنَعَ اللَّهُ الَّذِي اتَّقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٤٨﴾

وقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم هم المتفعلون بالآيات دون المعاندين المكذبين سواء كان المراد يؤمنون بالآيات إذا جاءتهم أي شأنهم أن يؤمنوا أم يؤمنون بالفعل.

وقد جاءت هذه الآية بعد الوعيد كما هي عادة القرآن في ذكر الدلائل بعد الوعيد مثل سورة الواقعة.

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ۖ وَكُلُّ أَتَوَةٍ دَاخِرِينَ﴾ أعيد ذكر الوعيد بعد ذكر الآية على صدقه كما يؤتى به في القرآن في بعض المواضع بعد ذكر الآيات مثل (سورة عم) وتجديد لذكر الآخرة ليتذكر الإنسان كما وقع في (سورة الروم): ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [آية: ١٢] ثم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُؤْمِذُ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [آية: ١٤].

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ الراجح: أنها عبارة عن الصيحة المذكورة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢] ﴿فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ لثقل الساعة وخوف المخلوقين منها ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أن لا يفزعوا فهم لا يفزعون، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمِذٍ آمِنُونَ﴾.

﴿وَكُلُّ﴾ أي وكلهم أي أهل السموات والأرض ﴿أَتَوَةٍ﴾ ليسألهم ويجزي كل نفس بما تسعى، فلا بد من حضورهم في موقف السؤال.

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَرْعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

وقوله: ﴿دَاخِرِينَ﴾ قال فيه في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «أي صاغرين خاضعين» انتهى. ومثله في (مصاييح الشرفي) قال (صاحب الصحاح): «الدخور: الصغار والذل» انتهى.

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ ﴿وَتَرَى﴾ عطف على ﴿فَفَزِعَ﴾ وما بعدها ترى الجبال يوم القيامة في حال كونك ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ على أصلها ﴿وَهِيَ تَمُرُّ﴾ في الجو ﴿مَرَّ السَّحَابِ﴾ لأنها قد صارت غباراً يحمله الهواء، وفسروا ﴿جَامِدَةً﴾ بأنها ساكنة، ويحتمل: أن المراد به أنها باقية على أصلها غير متفتتة مجاز من جمود السوائل.

ولعل بعضهم أخذ التفسير بسكونها من مقابلته بقوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ ولكن مرورها لازم تحطمها ومصيرها غباراً والله أعلم، ويمكن أخذ الجمود للسكون مجازاً؛ لأن الجامد يسكن والسائل يتحرك، وقوله: ﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾ قال الراغب: «الصنع: إجادة الفعل، فكل صنع فعل وليس كل فعل صنعا» انتهى المراد.

فالعبرة تدل على أن تسيير الجبال فعل محكم لا مجرد تخريب، كما أن تشقق السماء وتساقط النجوم وتغيير الشمس والقمر كل ذلك مطابق للحكمة ﴿الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ لأنه حكيم فكل صنعه في الدنيا والآخرة محكم ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ فلذلك جاء بالقيامة لتجزي كل نفس بما تسعى.

﴿١﴾ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ أَنْ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا

﴿٣﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ * وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤﴾ مَن جَاءَ ﴿٥﴾ موقف السؤال والحساب ﴿٦﴾ بِالْحَسَنَةِ ﴿٧﴾ مصحوباً بالحسنة أو أحضرها معه؛ لأن عمله لازم له ﴿٨﴾ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴿٩﴾ أضعافها، فله عشر حسنات أو أكثر ﴿١٠﴾ وَمَن جَاءَ ﴿١١﴾ ذلك الموقف بالسيئة، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَّزِمَتُهُ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ تفصيل لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أُنثَىٰ ذَاخِرِينَ﴾ ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ جعلت وجوههم أسفل مباشرة لجهنم، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨] والسيئة هذه هي التي خرج بها من التقوى تعم الشرك والجرائم التي أصر عليها صاحبها حتى مات، كما أن الحسنة هي الإيمان والعمل الصالح الذي هو شأن المتقين؛ لأن هذه الآية فسرهما القرآن في مواضع كثيرة، فالإجمال فيها على وجه الإحالة على غيرها من القرآن، وقوله تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يكون مع تعذيبهم إخبارهم أنهم إنما يجزون ما كانوا يعملون، وذلك تعذيب بالإهانة وإدخال الندم عليهم.

﴿١٢﴾ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٣﴾ أي قل يا رسول الله ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾ الله أي وحده لا شريك له؛ لأنه ﴿رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ﴾ وهي مكة حرم الكعبة ﴿الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ فلا يجوز القتال فيها.

يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٦﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ ليس ملكه خاصاً بهذه البلدة بل له كل شيء، فانا عبده وكل الناس له ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤] فهو المستحق للعبادة لا غيره ﴿وَأُمِرْتُ﴾ أي أمرني ربي ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أسلم نفسي له لا أشرك معه غيره.

﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾ فَمَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿وَأَنْ أَتْلُوا﴾ عطف على ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي أمرت أن أتلو القرآن على الناس ﴿فَمَنْ أَهْتَدَى﴾ لسماعه المعجزة الكبرى والهدى والنور ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ لينقذها من عذاب الله ويفوز بثوابه، فالنفع له ولا يزيد في ملك الله شيئاً؛ لأنه غني عن عمله ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ عند سماع القرآن فلم يؤمن ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ بعذاب الله لمن ضل ولست مكلفاً بإجباركم على الإيمان.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَقُلْ﴾ عطف على أمره بالقول الماضي المقدر في تلقينه بقوله: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ﴾ أي قل: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ﴾ ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فقد عظمت نعمته بما نزل من الهدى وأوضح من البينات ﴿سَيُرِيكُمْ﴾ أيها الكافرون ﴿ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ آيات ودلائل تدل على صدق وعده ووعيده وصدق رسوله وكتابه.

قال الشرفي في (المصابيح): «في قول الله تعالى: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ تهديد لهم بما يريد من آيات الآخرة الملقطة لهم إلى المعرفة حين لا تنفعهم في الآخرة، فيعرفونها على ما قال في الدنيا» انتهى المراد. وعند ذلك يقولون: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَلِّ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٥٢].

﴿وَمَا رُبُّكَ بَغْفِلٌ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَمَا رُبُّكَ﴾ يَا رَسُولَ اللَّهِ ﴿بَغْفِلٌ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فليس بغافل عما تقوله للمشركين، وما يجيبون به، وما تبلغهم، وما يقابلونك به من التكذيب وغيره وكل ما تعملون هو عالم به، فهو يجزي كلاً منكم بعمله.

والحمد لله رب العالمين



التَّيْسِيرُ فِي التَّفْسِيرِ



سُورَةُ الْقَصَصِ



سُورَةُ الْقَصَصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طسّم ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ

ابتداء تفسير (سورة القصص)

قال الشرفي في (المصاييح): «مكية، قال في (البرهان): إلا آية منها نزلت بين مكة والمدينة وقيل: بـ (الجحفة) وهي: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأَاكَ إِلَىٰ مَعْلَا﴾» انتهى.

﴿٢-١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ طسّم * تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ﴾ الإشارة إلى الحروف التي تألف منها القرآن، والدليل على ذلك أن هذه الإشارة إنما تأتي في أوائل السور بعد الحروف، مثل: ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة: ١-٢] ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١] ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١] ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ١] ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر: ١] ﴿طسّم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الشعراء: ٢-١] ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ١] ﴿طسّم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [القصص: ١-٢] ﴿الم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان: ١-٢] ﴿حم * عسق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ١-٣] ولا نعلم سورة أولها الإشارة بدون ذكر الحروف، فظهر أن الإشارة إلى الحروف يبين أن القرآن مؤلف منها، وأوحي كلاماً مؤلفاً منها فهو وحي للكلام حقيقي بلفظه وحروفه لا مجرد وحي المعنى.

وقوله: ﴿الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ يصفه بأنه يبين للناس الهدى وبينات من الحق في أنواعه من أمر ونهي ووعد ووعيد وقصص وأمثال وغير ذلك، أو هو كتاب مبين بمعنى بيّن واضح الدلالة على معانيه، والأول أرجح وإن كان مجازاً في الإسناد فهو قريب.

وَجَعَلَ أَهْلَهَا شَيْعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤٨﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ

وقد تكرر إسناد (البيان) إلى القرآن مثل: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] وغير ذلك، وقد مر أبسط من هذا.

﴿٢﴾ ﴿تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَّبِيٍّ مُّوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿تَتْلُوا عَلَيْكَ﴾ خطاب لرسول الله ﷺ الذي أنزل الله عليه هذا القرآن ﴿تَتْلُوا﴾ نقرأ ﴿عَلَيْكَ﴾ والتعبير بالتلاوة لعله باعتبار أن جبريل عليه السلام متبع في قراءته لما علمه الله فكان تالياً له على محمد ﷺ؛ وأسندته إلى الله لأنه بأمره أرسل به جبريل إلى محمد فهو تلاوة من الله تعالى على عبده ورسوله محمد ﷺ.

وقوله: ﴿مِنْ نَّبِيٍّ مُّوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ أي من خبرهما العظيم ﴿بِالْحَقِّ﴾ راجع إلى قوله: ﴿تَتْلُوا﴾ أي تتلو بالحق، ليس فيما تتلو خلاف الحق؛ لأنه الحق الذي هو صدق، والإخبار به مطابق للحكمة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ نتلوه بالحق لقوم يؤمنون وهم رسول الله ﷺ وسائر المؤمنين الذين بلغهم، فالتلاوة لهم؛ ليتفجعوا بها من حيث دلالتها على أنك رسول الله؛ لأنك جئت بهذا القصص الكامل المفصل مع أنك لم تقرأ كتاباً ولم تكتب ولا تعلمت من أهل الكتاب كما هو واضح لقومك؛ لأنك باق في مكة لا تغيب عنها مدة يحتاجها المتعلم، فهذه التلاوة نافعة لقوم يؤمنون بآيات الله ودلائله؛ لأنهم مقبلون عليها بقلوبهم.

﴿٣﴾ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شَيْعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ طغى طغياناً منتشراً في الأرض ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شَيْعًا﴾ جعل

أَسْتَضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٦﴾ وَنُتِمَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا

أهل الأرض ﴿شَيْعًا﴾ أحزاباً كل حزب يشايع بعضه بعضاً، ونسبة هذا إلى الأرض جملة قيل: المراد به مصر فقط، وهو خلاف الظاهر.

ويمكن أن فرعون جعل أهل مصر أحزاباً وجعل من عداه دولاً متفرقة كما يفعل طغاة هذا الزمان؛ فيقوي الدولة الضعيفة لتبقى ضد دولة أخرى، فالأولى حمل الكلام على ظاهره وهو أن فرعون طغى في الأرض عموماً كطغيان أمريكا في هذا الزمان وجعل أهل الأرض شيعاً كل حزب يشايع بعضه بعضاً في حال كونه ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ من أهل الأرض وهم بنو إسرائيل، واستضعافهم ظلمهم في حال ضعفهم وبسبب ضعفهم؛ لأنه تمكن من ظلمهم فظلمهم.

قال في (لسان العرب): «واستضعفه، وتضعفه: وجده ضعيفاً فركبه بسوء الأخيرة عن ثعلب» انتهى.

﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ طغياناً وفساداً ﴿وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ يتركهن لا يقتلن؛ ولعل غرضه في النساء تحميل أهلن كلفة الإنفاق عليهن؛ ليقوا فقراء ضعفاء خدماً وليخضعوا لمن إذا كبرن - والله أعلم - ﴿إِنَّهُ﴾ أي فرعون ﴿كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فاستضعافه لبني إسرائيل جزء من فساد الذي هو عادته.

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿نَمُنَّ﴾ نعم نعمة زائدة على النعم الأولى التي كانت في حال استضعافهم في الأرض، وهذه عامة فمثلاً من على آل إبراهيم بتمكين يوسف، ثم من على بني إسرائيل بتمكينهم، ثم من على العرب بتمكين الإسلام في عهد الرسول ﷺ وبعده.

تَحْذُرُونَ ﴿١﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ
فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِّنَ

ونرجو أن يمنَّ على ذرية الرسول المستضعفين في هذا الزمان، فقد استضعفوا في عهد الأموية وبعض عهد العباسية ثم مكنوا في اليمن والمغرب وبعض إيران، ثم استضعفوا إلى اليوم شهر ربيع الثاني من عام (١٤٢٤هـ).

﴿وَجَعَلَهُمْ أَيْمَةً﴾ متبوعين يقتدى بهم لعزتهم بعد الذل ﴿وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ للأرض بدولتهم، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعَفُونَ مَشَارِقِ الْأَرْضِ﴾ الآية [الأعراف: ١٣٧] وفي تمكين آل رسول الله ﷺ تجديد الدين، وتمكين للإسلام، فقد استضعف المسلمون وقامت أمريكا بإفساد الإسلام والتعدي على المسلمين والتغيير عليهم في الدين والدنيا، فنسأل الله تعجيل الفرج.

﴿١﴾ ﴿وَنُمَكِّنْهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذُرُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام - أي في ﴿وَنُمَكِّنْهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ -: ونمكنهم بالأمر والنهي ونحكم لهم بالخلافة والإمامة ونورثهم الأرض من بعد أهلها، يعني بذلك كل من يستحق الإمامة من بني إسرائيل الذين كانوا يستضعفون» انتهى.

﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ﴾ أي من المستضعفين ﴿كَانُوا يَحْذُرُونَ﴾ من غلبة المستضعفين وهلاك فرعون وقومه على أيديهم، فرعون في جبروته وطغيانه يسعى في تقوية ملكه وضعف بني إسرائيل، والله تعالى يدبر لذهاب ملكه وهلاكه ونصر بني إسرائيل.

الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۖ
 إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَمَنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتْ

﴿٧﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ
 وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۚ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨﴾ وَأَوْحَيْنَا
 ظاهره أنه وحي من الله ولو بواسطة الملائكة فيه أمرها بإرضاع موسى وإلقائه
 في البحر إذا خافت عليه من فرعون وفيه نهيا عن الخوف، بمعنى أنه لا بأس
 على موسى ونهيا عن الحزن عليه؛ لأنه لا موجب له لأن الله يرده إليها، وفيه
 بشارة بذلك ويجعله من المرسلين.

فظهر: أنه وحي حقيقي تفهمه وتوقن به وتوقن بأنه حق؛ ولذلك امتثلت
 فجعلت مولودها في تابوت وقذفته في اليم.

﴿٨﴾ فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۖ إِنَّ فِرْعَوْنَ
 وَهَمَمَنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٩﴾ التَّقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ أَخَذُوا مُوسَىٰ مِنَ
 الساحل حيث كان البحر قد ألقاه وانحسر عنه ﴿٩﴾ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴿١٠﴾
 التقطوه لينجوه من القتل ويعيش حتى يكون لهم عدوًّا وحزنًا، أي أخذوا
 موسى وهم لا يعلمون أنه موسى ولا أنه سيكون لهم عدوًّا وحزنًا، ولكن الله
 دبّر له ذلك وهم لا يريدونه، فكان لهم عدوًّا حين أرسله الله إليهم وكذبوه
 وحزنًا حين خافوا ذهاب ملكهم وحين هلكوا في البحر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَمَنَ﴾ أي وزير فرعون ﴿وَجُنُودَهُمَا﴾
 عسكريهما الذين هم أنصارهما وأعوانهما ﴿كَانُوا﴾ كلهم ﴿خَاطِئِينَ﴾
 مذنبين مستحقين ليكون لهم عدوًّا وحزنًا.

أَمْرًا تُفَرِّقُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَمْرِ مُوسَىٰ فَرِحًا إِنَّ كَادَتْ لِتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

﴿١﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١﴾ ﴿قُرْتُ عَيْنٍ﴾ أي هذا الوليد قرة عين سبب لسرورنا ﴿لِي﴾ أَسْرُهُ به ﴿وَلَكَ﴾ سبب لسرورك وذلك لأنهما أحباها فرؤيتهما له سبب لسرورهما.

﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ فيذهب قرة العين ﴿عَسَىٰ﴾ إذا بقي ﴿أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ بالخدمة ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ نَسْرُهُ به وبحضوره عندنا ويكون قوة لنا ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لا يعلمون بعاقبة أمره، أما امرأة فرعون فكانت مؤمنة وكانت نجاة موسى تسرها على كل حال.

﴿٢﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَمْرِ مُوسَىٰ فَرِحًا إِنَّ كَادَتْ لِتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴿فَرِحًا﴾ لا لب فيه من خوفها على ابنها، كقوله تعالى: ﴿وَأَفْنَدْتُهُمْ هَوَاءَ﴾ [إبراهيم: ٤٣] فقد غلبها الخوف وغير ذهنها ﴿إِنْ كَادَتْ لِتُبْدِيَ بِهِ﴾ لتظهر سر أمره وتخبر به خطأ وانقياداً لداعي النفس إلى إظهار الحزن والخوف ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ فانتبهت وحفظت سرها، والربط على القلب تقويته بحيث تحمّلت فقده وتقوى رجاؤها لسلامته وتذكرت وعد الله لها برده إليها وجعله من المرسلين، فأمنت بوعد الله لها ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لتؤمن بوعد الله في تلك الحالة فتكون من المؤمنين الذين يؤمنون بوعد الله ويعلمون أنه الحق.

وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾
وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ
يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُوتٌ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَىٰ تَقَرَّ

﴿١١﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾
﴿وَقَالَتْ﴾ أم موسى ﴿لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ ابجئي عنه بطلب أثر له تعرفينه به
وتعرفين حاله. وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: اتبعي أثره»
انتهى، ولعلها تريد أن تنظر لعلها ترى خِرقَةً من خرقه قد غسلت وجعلت في
الشمس فتعرفه بها أو نحو ذلك ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ﴾ أخته علمته بطريقة فطنت لها
بذكائها ﴿عَنْ جُنْبٍ﴾ بصرت به بواسطة مكان بجانب لمكانه بعيد عنه وقعت
فيه فرأت موسى وعرفته حياً، قال في (الصحيح): «وبصرت بالشيء: علمته»
انتهى ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنها تبحث عنه وأنها قد علمته.

﴿١٢﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ
يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُوتٌ ﴿١٣﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ ﴿١٤﴾ جعلناه
يأبى الرضاع ولا يطاوع عليه؛ لأننا منعناه المرضعات بصرفه عنهن ﴿مِنْ
قَبْلُ﴾ أن تطلع عليه أخته؛ ولعله من حين التقطوه فلم يرضع عندهم أصلاً
حتى خافوا عليه الموت من العطش والجوع ﴿فَقَالَتْ﴾ أخته، لعلها احتالت
بعدها علمته لتصل عنده، مثلاً أهدت لامرأة فرعون هدية حتى وصلت
عندها فوجدتهم في مشكلة من امتناعه من الرضاع.

﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ كأن أصل الدلالة
على الشيء أن تكون لطالبه كدلالة المسافر على الطريق ودلالة المريض
على الدواء؛ فلكون آل فرعون في مشكلة وخوف على موسى من عدم
الرضاع قالت أخته: هل أدلكم لحل مشكلتكم ﴿عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ
لَكُمْ﴾ يحفظونه ويحضنونه ويرضعونه.

عَيْنَهَا وَلَا تَحْزَنْ وَلِتَعْلَمْ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا

قال في (الصحيح): «والكافل الذي يكفل إنساناً يعوله، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧]» انتهى، ونحوه في (لسان العرب) و(القاموس).
وقولها: ﴿لَكُمْ﴾ في سياق السؤال؛ لأنهم يريدون من يكفله لهم لحل مشكلتهم ﴿وَهُمْ لَهُ نَصِصُونَ﴾ فلا يقصرون في كفالتة ولا يفرطون في حفظه.

قال الشرفي في (المصاييح): «والنصح: إخلاص العمل من شوائب الفساد» انتهى. وقال الراغب: «النصح: تحري فعل أو قول فيه صلاح صاحبه...» إلى قوله: «وهو من قولهم: نصحت له الود أي أخلصته» انتهى.

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنْ وَلِتَعْلَمْ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿فَرَدَدْنَاهُ﴾ بواسطة سعي أخت موسى، وهذا من أفعال الله تعالى التي تكون بواسطة فعل العبد بخلق الرغبة في الفعل ومنع الصارف عنه ليقع، وقد تكررت هذه النسبة ولها حكمها، فالله تعالى يحمد عليها ويشكر، وذلك دليل صحة إسنادها إليه تعالى.

والمراد أن الفعل الواحد في بعض الحالات يكون له نسبة إلى العبد بحيث يمدح على الفعل ويثاب عليه ونسبة إلى الله تعالى بحيث يحمد عليه ويشكر، وقد يكون من آيات الله تعالى وإن كان فعل العبد، نحو قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المرسلات: ٢١] فهو آية باعتبار نسبته إلى الله تعالى، وهو من فعل العبد قد يثاب عليه، قال تعالى: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] فلا تنافي بين النسبتين؛ لأن المراد بهما جهة استحقاق المدح والحمد وتعلق

أحكام الفعل بالفاعل مع أنه استعمال عربي، يقولون: مثلاً بنى الملك المدينة، مع أن أفعال البناء من الرعية، وقال الشاعر في ملك قد خافه:
فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المتأى عنك واسع

ويقولون: «بنى المسجد» لمن أعطى تكاليف البناء، وفي الحديث الشريف: «من بنى مسجداً لله بنى الله له بيتاً في الجنة» وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ..﴾ [الكهف: ١] وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] فلا تنافي بين كونه تعالى أنزله، وكون جبريل عليه السلام نزل به؛ لأن جهة النسبة وسببها قد صح تعدده؛ لأنه غير خاص بالمباشرة ولا بالاختراع، ومما يدل عليه قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ..﴾ [التوبة: ١٤] وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْخُذَ بِكُمْ..﴾ [التوبة: ٥٢].

وفي القسم الثاني من (مجموع رسائل الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام) في الرد على من قال في أفعال العبيد إنها لا تعدوهم ولا توجد في غيرهم قال عليه السلام: «والدليل على بطلان قوله: أن هذا الفعل يحمده عليه العبد ويذم ويثاب ويعاقب ويتعلق به الأمر والنهي، وهذه حقيقة إضافة الفعل إلى الفاعل، وقد ذكر ذلك جدنا الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام في كتاب رده على المجبرة في قوله عليه السلام: ولو لم تكن الشجرة في رأس المشجوج من فعل الضارب الشاج لما أمر الله الحكام أن يدعوا في رأس الضارب الشاج شجرة مثله» انتهى.

وعلى هذا: ينبغي وجوب شكر نعمة الله في إنزال كتابه وغير ذلك من نعمه، كشفاء المرض بواسطة الدواء ورجوع بصر نبي الله يعقوب بواسطة إلقاء ثوب يوسف عليه السلام على وجهه، والحمد لله على كل نعمه.

وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٦﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ

وقوله تعالى: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ أي تُسرَّ، فقرار العين كناية عن السرور، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ على موسى لأنه قد نجا من فرعون وصار عند أمه ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ بصدق وعده لها بقوله تعالى: ﴿إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ وَجَّاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] لأن رده سبب لتذكر صدق وعد الله وذلك سبب للنظر في أن وعد الله لا بد أن يكون صدقاً؛ لأنه غني عن الكذب وعالم أنه غني وعالم أن الكذب قبيح ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن وعد الله حق، أو لا يعلمون أننا رددناه إلى أمه، أو لا يعلمون أننا رددناه إلى أمه للحكمة المذكورة أي يجهلون الرد وحكمته، وهذا أرجح.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدُّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ أي موسى ﴿أَشُدُّهُ﴾ قال في (الصحيح): وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: ١٥٢] أي قوته، وهو ما بين ثماني عشرة إلى ثلاثين، وهو واحد جاء على بناء الجمع انتهى.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): «الأشد: ثلاثة وثلاثون سنة، وقيل: عشرون سنة، وقيل: أربعون سنة ﴿وَاسْتَوَىٰ﴾ يعني اعتدال القوة وانتهاء الشباب واستحكام عقله» انتهى، وتفسير ﴿أَسْتَوَىٰ﴾ يحتمل أنه من الشرفي لا من الحكاية عن (البرهان) وهو صحيح.

وقوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي علمناه حكماً وعلماً فهو يعلم الحكم بالحق يستطيع أن يحكم بين الناس بالحق، والعلم علمه بما يجب الإيمان به وعلمه كيف يطيع الله وكيف يهدي غيره وغير ذلك من علوم الدين.

فَاسْتَعِثَّهُ الَّذِي مِنْ شَيْعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿٣٧٧﴾ قَالَ رَبِّ

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي كما جزينا موسى بأن آتيناه حكماً وعلماً ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ فنؤتيهم حكماً وعلماً، وهذا يفيد: أن موسى عليه السلام من المحسنين؛ ولذلك آتاه الله حكماً وعلماً، والإحسان: الإيمان والطاعة لله ومكارم الأخلاق، وقد دل على ذلك أول (سورة لقمان).

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شَيْعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعِثَّهُ الَّذِي مِنْ شَيْعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ لا يتبهون لمن دخل في ذلك الحين مثل حين قيلولة أو أكل أو راحة عن الأعمال وشرب، وهذا يشير إلى أنه كان خائفاً من انتباه آل فرعون له.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا﴾ أي في المدينة ﴿رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شَيْعَتِهِ﴾ من أصحابه وأعدائه ومحبيه فهو من المستضعفين من بني إسرائيل ﴿وَهَذَا﴾ الآخر ﴿مِنْ عَدُوِّهِ﴾ من القبط ﴿فَاسْتَعِثَّهُ﴾ طلبه أن يغيثه وينقذه ﴿عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ بأن يعينه على الذي من عدوه ﴿فَوَكَرَهُ مُوسَى﴾ قال الشرفي: «والوكز: الدفع بأطراف الأصابع» انتهى.

وقال الراغب: «الوكز: الطعن والدفع والضرب بجميع الكف» انتهى، وفي (الصحيح): «الأصمعي: وكزه مثل نكزه أي ضربه ودفعه، ويقال: وكزه أيضاً ضربه بجمع يده على ذقنه» انتهى، وفي (الصحيح): «وقال الأصمعي: نكزه أي ضربه ودفعه» انتهى، وفي (أساس البلاغة): «وكزه وكزة شديدة ضربه بجمع كفه» انتهى.

إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ^{١١} إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ فَأَصْبَحَ فِي

والذي يترجح: أن موسى دفعه ولكزه بيده، بحيث أنه لم يتعمد قتله ولا ظن أن اللكزة تقتله ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ قتله بتلك الوكزة ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ أي القتل هذا من عمل الشيطان باطل من العمل الذي يدعو إليه الشيطان ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ﴾ أي الشيطان عدو للإنسان ﴿مُضِلٌّ﴾ له ﴿مُبِينٌ﴾ بين العداوة والإضلال، ويحتمل: أن قوله ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ يعني به القتل والوكز.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ^{١١} إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ بادر إلى التوبة؛ لأنه تعمد الوكز ولم يؤذن له في القتل والأصل تحريمه؛ ولعله يؤخذ منه أن تعمد سبب القتل يعتبر تعمداً للقتل أعني أن تعمد سبب القتل تعمد لما أدى إليه، ولا يشترط قصد القتل، وهذا إذا كان السبب غير مأذون فيه؛ لأن الطبيب البصير إذا جرح بما يظن أنه لا يقتل فهو غير قاتل وإن أدى الجرح إلى الموت، وعلى هذا فلا بد أن موسى عليه السلام اعتبر الوكز معصية؛ لأن دفع القبطي كان يكفي فيه أقل من الوكز، لكنه خطأ لأنه لم يتذكر غير الوكز أقل منه لتضييق الحادثة.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ بالهداية لطاعتك وبالقوة ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً﴾ معيناً ﴿لِلْمُجْرِمِينَ﴾ فلن أستعمل نعمتك في معصيتك؛ لأن معاونة المجرمين إجرام، فقد أعطى من نفسه ميثاقاً على أن لا يكون ظهيراً للمجرمين سواء كانوا من القبط أم من غيرهم، وعزم أن لا يستعمل قوته في معصية الله، وذلك العزم والعهد شكر على نعمة الله عليه بهدايته لطاعته واجتناب معصيته في حال أن المجتمع الذي هو فيه مجتمع ضلال.

الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا

وقد امتاز موسى من بينهم بنوع من الهداية؛ ولذلك عرف أنه قد عصى وبادر إلى التوبة، وهذا لا ينافي قوله: ﴿فَعَلَتْهَا إِذَا وَآنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠] لأن ضلاله كان بالنسبة إلى حال النبوة، كقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧] وقد امتاز مع ذلك بأن الله آتاه حكماً وعلماً وعرف نعمة الله عليه بما قد آتاه من الهدى.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا﴾ من آل فرعون؛ لأن القتل لا بد أن يظهر.

﴿يَتَرَقَّبُ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: ينتظر، وقال: يتلفت، وقال: كان خائفاً ليس معه زاد» انتهى.

ولعل هذا كان في حالة تردد هل يخرج من البلد فليس معه زاد للسفر أو يبقى فهو يتوقع الطلب بالقتل، وفي هذه الحالة فاجأه صراخ الإسرائيلي الذي استغاثه بالأمس وطلب أن ينصره على القبطي فهو اليوم في مشكلة أخرى يطلبه الإنقاذ منها ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ لوقوعك اليوم في مشكلة بعد مشكلة أمس، فذلك يدل على غوايتك في معاملتك ومخالفتك لطريق الصواب التي هي أصلح لك وأقرب إلى سلامتك من العدو، فأنت بين الغواية، وهذا زجر للإسرائيلي عن الدخول في المشاكل.

أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١١﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿١٢﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ

﴿١١﴾ ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمُوسَىٰ أَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ﴾ موسى ﴿أَنْ يَبْطِشَ﴾ بخصم صاحبه الذي ﴿هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ لأنه من القبط أعداء بني إسرائيل.

﴿قَالَ﴾ القبطي ﴿يَمُوسَىٰ أَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ وهذا يزيده خوفاً؛ لأنه يدل على أن قتله القبطي بالأمس قد ظهر وعرفه هذا الخصم الذي أراد أن يبطش به ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ ما تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض تقتل من غضبت عليه ولا تبالي، وهذا يزيده خوفاً من ظهور قتله للقبطي وتفسيره بأنه يريد أن يكون جباراً في الأرض، ويظهر أن مشكلة اليوم قد انتهت بتحول القبطي إلى خطاب موسى ﴿وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ فقد كان ينبغي لك أن تسعى في الصلح بيني وبين خصمي دون أن تريد أن تبطش بي ولا بد أن موسى تركه لانقطاع الخصومة وتركه للإسرائيلي.

﴿١٢﴾ ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ﴿يَسْعَى﴾ يسرع، قال الراغب: «السعي: المشي السريع وهو دون العدو» انتهى. لينذر موسى قبل أن يدرکه طلب آل فرعون ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ﴾ منذراً له ﴿إِنَّ الْمَلَأَ﴾ كبار القوم ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ ولعل هذا الائتمار تشاور بسبب أن موسى

قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٣٨١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٣٨٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ

كان محبوباً عند بعضهم فلم يعزموا على قتله بدون تشاور، ولكن الغرض من هذا الائتمار هو قتله؛ فلذا قال ﴿لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ﴾ هارباً منهم ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ لتنجو منهم.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٣٨٣﴾ ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ من المدينة ﴿خَائِفًا﴾ لم يأمن بمجرد الخروج بل هو يتوقع أن يدركه الطلب من الملاء ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ لجأ إلى الدعاء الذي هو سلاح المؤمن فنجاه الله منهم.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ﴿تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ قال في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: نحو مدين» انتهى.

قال الشرفي: «أي قَصْدَهَا وَنَحْوَهَا وهي قرية شعيب سميت بمدين بن إبراهيم ولم تكن في ملك فرعون، وبينها وبين مصر مسيرة ثمان ليال، ولم يكن موسى يعرف الطريق إلا حسن ظن بربه» انتهى. وقال (صاحب الصحاح): «وجلس تلقاءه: أي جذاءه» انتهى.

فالْحَاصِلُ: أن موسى توجه مقابلاً لمدين ومستقبلاً لها ﴿قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي يرشدني لسواء الطريق.

قال الشرفي في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾: «أي أخطأ وسط طريق الحق» انتهى المراد.

عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿١٣﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ

فالمعنى على هذا: عسى ربي أن يهديني وسط الطريق، والمراد أرجو ربي أن يهديني؛ ولعله قال ذلك في نفسه وقد حقق الله تعالى له ما رجا.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ أناه ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ﴾ جماعة كبيرة ﴿مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ دوابهم أو أنعامهم، حذف المسقي؛ لأنه لا موجب لذكره ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ فيما بينه وبين الأمة ﴿امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ تمنعان غنمهما عن التقدم إلى الماء، وهذا يلفت النظر، الناس يسقون وهما تذودان فسألهما لما في قلبه من الخير ورحمة الضعيف ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ ما شأنكما المهم الذي لأجله تذودان؟ ﴿قَالَتَا﴾ عادتنا أن ﴿لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ أنعامهم عن الماء ﴿وَأُبُونَا﴾ ضعيف عن تولي السقي؛ لأنه ﴿شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ فمفهوم هذا تعذر السقي عليهما مع الناس؛ لأنهما يتجنبان مزاحمة الرجال.

﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ إحساناً ﴿ثُمَّ تَوَلَّى﴾ عنهما ﴿إِلَى الظِّلِّ﴾ وقد عرف قربه من مدين أو أنه قد بلغه فانتهد مهمة السفر وبقيت حاجة المأوى والطعام وغير ذلك، فدعا الله دعوة جامعة ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ إني فقير لما أنزلت إلي من خير أي خير، والدعاء سلاح المؤمن.

لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْتِبُ اسْتَعْجَرُهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَعْجَرْتُ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ ﴿١٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنَكِّحَكَ

﴿١٥﴾ ﴿جَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿جَاءَتْهُ﴾ الفاء تفيد التفریع على دعائه ﴿تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ لأنها من أهل الدين، والحياء من الإيمان ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ﴾ بالتأکید لئلا یرتاب في صدقها وبكلام نزيه مجرد حكاية عن أبيها تبلغها ﴿يَدْعُوكَ﴾ وهي الدعوة إلى الطعام.

قال في (الصحيح): «الدعوة إلى الطعام - بالفتح - يقال: كنا في دعوة فلان» انتهى المراد.

﴿لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ تحقيق لصدقها فيما حكت عن أبيها فلو لا هذا التعليل لكان صدقها مستبعداً من حيث أنه غريب، قال الشرفي: «يعني ليكافئك على ما سقيت لنا» ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ﴾ أي جاء موسى أباهما ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ عن سبب إتيانه إلى مدين ﴿قَالَ﴾ أبوها ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فكانت هذه أهم الحاجات قضيت له.

﴿١٦﴾ ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْتِبُ اسْتَعْجَرُهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَعْجَرْتُ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾ أبوها شيخ كبير ومثله يحتاج إلى التنبيه لحاجته، ووجود القوي الأمين فرصة خافت فواتها بأن يذهب موسى من عند أبيها، فلم يكن لها بد من المبادرة بالكلام ليستأجره أبوها فيكفيهما مؤونة السقي الذي كانتا عليه، ونهت أباهما على ما قد عرفته بذكائهما من قوة موسى وأمانته، فأما القوة فقد ظهرت عند سقيه لهما فكان ذلك الإحسان مفتاح الخير؛ لأنه كان سبب الدعوة وما ترتب عليها.

إِحْدَى أَبْنَتَيْ هَتَيْنَ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَجٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا

﴿٢٧﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنِكَحَكَ إِحْدَى أَبْنَتَيْ هَتَيْنَ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَجٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّالِحِينَ ﴿٢٨﴾ قَالَ ﴿٢٩﴾ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿٣٠﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنِكَحَكَ ﴿٣١﴾ وَكَانَ هَذَا تَمْهِيدًا لِمَا سَتَجَارُهُ ثَمَانِي حَجَجٍ أَوْ عَشْرًا لِيَقَى عِنْدَهُ أَجِيرًا خَاصًّا، فَالْنَبِيُّ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ عَرَفَ حَاجَةَ مُوسَى لِلْمَأْوَى وَلِلزَّوْجِ وَلِسَبَبِ نَفَقَتِهِ عَلَى نَفْسِهِ وَأَرَادَ سَدَ خَلْتِهِ مِنَ الْجِهَاتِ كُلِّهَا، يَبْقَى عِنْدَهُ ثَمَانِي حَجَجٍ أَوْ عَشْرًا وَيَقُومُ بِعَمَلِ قَدْ عَرَفَاهُ جَمْلَةً.

قال الشريفي رحمه الله: «وفي (البرهان) أسقط ذكر العمل واقتصر على المدة؛ لأنه مفهوم بينهما، والعمل رعي الغنم، وهذه الثماني حجاج هي شرط للأب والمهر غيرها» انتهى.

قال الشريفي: «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: إن قال قائل أو سأل عن الإجارة سائل: هل يجوز النكاح على الأجرة وهي غرر، وقد حرم الله الغرر بين المسلمين، فالجواب في ذلك وبالله نستعين أن ذلك لا يجوز ولا يكون من أخلاق الصالحين، ولكن المعنى في ذلك ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنِكَحَكَ إِحْدَى أَبْنَتَيْ هَتَيْنَ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي﴾ أي لتأجُرني ﴿ثَمَنِي حَجَجٍ﴾ فقامت (على) مقام (اللام) وذلك جائز في اللفظ والكلام؛ لأنه إنما زوجه رغبة في الإقامة ولا يصبر أحد على طول الإقامة إلا مع أهل والمقام وذلك معروف عند أكثر الأناس، ولم يدخل ذكر الصداق في شيء من هذا الخطاب دليل آخر أن المستأجر هو الشيخ عليه السلام وليس له الصداق وإنما الصدقات للنساء دون الرجال نحلة من الله ذي الجلال» انتهى.

وهذا صحيح؛ لأن كلام أبيهما ليس عقداً إنما هو ابتداء مواعدة، والدليل أنه قال: ﴿إِحْدَى ابْنَتَيَّ﴾ ولا يصح العقد على متردد محتمل، ولو كان عقداً لقال: زوجتك دون ﴿إِنِّي أُرِيدُ﴾ وعلى هذا فلا موجب لجعل الأجر صداقاً، ويصح أنه أراد أن يأجره موسى ليقوم بما كانت بناته تعمله خارج البيت وتبقى البنات في البيت، وأراد أن يزوجه لما في ذلك من المصلحة لموسى وللبنات التي يتزوجها؛ ويمكن بقاء موسى عنده بدون مشقة حيث يصير من الأسرة قد تزوج إحدى البنتين، والأخرى يرجى لها الزواج عن قريب.

فقوله: ﴿عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي﴾ بيان لعمل موسى؛ لأنه يريد أن يجعل له سبباً ويريد أن يكون السبب معه ليغني بناته عن الخروج، فرأى شعيب عليه السلام جامع مفيد لبنتيه ولموسى، وكلامه هذا مع موسى يعرف به أن دعوته قد أجيب حين دعا ربه ﴿إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] لأنه مع قوته وشبابه محتاج إلى الزواج، وقوله: ﴿عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي﴾ أي على أن تكون أجيراً لي ﴿ثَمَنِي حِجَجٍ﴾ ثمانين سنين قمرية لأنها هي الحجج.

وقوله: ﴿فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ فائدة لموسى إن أراد البقاء مع كونها تفيد زيادة العمل من موسى، وقوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ ترغيب له في الأجر معه، وعلى هذا الترغيب يمكن أنه أجير خاص لم يعين له العمل قبل العقد، وإنما عينت له المدة كما هو شأن الأجير الخاص، وإن كان قد فهمه من حيث أن شعيباً عليه السلام محتاج لمن يعمل له الرعي ونحوه من أعمال خارج البيت، وقوله: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ترغيب آخر.

عُدْوَتَ عَلِيٍّ ^ط وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٣٨٦﴾ * فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ^ط آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٣٨٧﴾ فَلَمَّا أَتَتْهَا نُوْدِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ

﴿٣٨٦﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَتَ عَلَيَّ ^ط وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٣٨٧﴾ قَالَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ موسى ﴿ذَٰلِكَ﴾ المواجهة ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ معاملة بيني وبينك لا تدخل فيها البنتان، والتزويج عقده بيني وبينك، وقوله: ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ إما ثماني حجج وإما عشرة ﴿فَلَا عُدْوَتَ عَلَيَّ﴾ لأن الخيار لي بينهما إن شئت أتممت عشرة وإن شئت ثماني حجج ﴿فَلَا عُدْوَتَ عَلَيَّ﴾ بالزامي زيادة على ما اخترت منهما ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ أنا وأنت ﴿وَكِيلٌ﴾ نكل إليه الأمر فيه، فهو يحكم فيه بحكمه وهو شهيد عليه.

﴿٣٨٧﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ^ط آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٣٨٨﴾ سواء كان ثماني حجج أو عشرة المهم أنه قضى ما عليه، وقد أبهم القرآن أي الأجلين قضاء فلا نتكلف معرفته، والقصص هذا مبني على ذكر ما تقتضي الحكمة ذكره دون غيره ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ يظهر أنهم أسرة مؤلفة من زوج وأولاد ﴿آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ﴾ من جانب الجبل المبارك، ولا بد أنه من أسفل الجبل ليكون موسى عند وصوله إليها بالواد المقدس طوى ﴿آنَسَ﴾ أي أبصر ﴿امْكُثُوا﴾ ابقوا في هذا المكان منتظرين لي.

﴿الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسَىٰ إِبْرَاهِيمَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾
وَأَنْ أَلْقِي عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوِسَىٰ

﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا﴾ أي من النار التي أراها ﴿يَخْبِرُ﴾ من أهل النار
الموقدين لها؛ ولعله كان محتاجاً إلى خبر عن الطريق أو عن أحوال مصر أو
غير ذلك، مثل مكان يبيتون فيه وينامون ليلتهم فهم في ظلمة الليل وفي البرد.

﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ قال الشريفي: «والجذوة - بالحركات الثلاث على
الجيم - وقرئ بهن: العود الغليظ كانت في رأسه نار أم لا وأراد هنا ما فيه
نار» انتهى. وقد أوضحها بقوله: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾
يعني نجعل لكم هنا ناراً تقربون منها لتدفئكم.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ
الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسَىٰ إِبْرَاهِيمَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أتى النار
التي أنسها ﴿نُودِيَ﴾ دعي بصوت رفيع: يا موسى ﴿مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ
الْأَيْمَنِ﴾ قال الراغب: «شاطئ الوادي: جانبه» انتهى، ومثله في (تفسير الإمام
زيد بن علي عليه السلام) وفي (الصحاح): «وشاطئ الوادي: شطه وجانبه» انتهى.

فقوله: «شطه» أي حافته أي المرتفع عن الوادي من أحد الجانبين،
وجانبه أي جزء من الوادي يمينه أو شماله، والراجح: أن المراد في الآية جزء
من الوادي؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٦]
فكان موسى في الجانب من الوادي نودي هناك من الشجرة.

﴿الْأَيْمَنِ﴾ من اليمين ضد النحس ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ﴾ قال في
(لسان العرب): «والبُقْعة والبُقْعة والضم أعلى قطعة من الأرض على غير
هيئة التي يجنبها» انتهى المراد. ومثله في (القاموس) والمباركة: باركها الله، قال
الراغب: «والبركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء» انتهى.

أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ ﴿٣٨٨﴾ أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٣٨٩﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٩٠﴾ وَأَخِي

﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ نودي من الشجرة: ﴿أَنْ يَمُوسَى﴾ تفسير للنداء ﴿أَنْ يَمُوسَى﴾ إِنَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿نداء أنشأه الله وسمعه موسى كما نسمع الكلام في (الراديو) يقول لموسى هذا القول ليستعد لسماع ما يأمره به رب العالمين.

﴿وَأَنْ أَلْقِي عَصَاكَ﴾ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ ﴿وَأَنْ﴾ ابتداء تفسير لما بعدها؛ لأن الوحي كان غير عربي، وإنما تفسيره بالعربية ما حكاه الله تعالى ﴿أَلْقِي عَصَاكَ﴾ اطرحها من يدك، فألقاها فصارت حية بقدره الله؛ لتكون آية لموسى يعلم بها أن الكلام الذي يسمعه من الله ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ﴾ متحركة ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ حنش كما مر تفسيره ﴿وَلَّى مُدْبِرًا﴾ لأنه خاف منها ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ بل استمر في الهرب، فناداه الله ﴿يَمُوسَى أَقْبِلْ﴾ أي إلى جهة الكلام ﴿وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ﴾ الذين لا خوف عليهم؛ لأنك من أولياء الله.

﴿أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ ﴿أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ أدخل يدك في جيبك، والجيب من الثوب: مدخل رأس اللابس له ﴿تَخْرُجُ﴾ يدك ﴿بَيْضَاءَ﴾

هَرُوتُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۖ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون ﴿٥٢﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا

أي تخرج من جييك بيضاء ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ بل بياضها جميل ليس بياض برص ولا غيره من المرض، فهذه آية من الله لموسى يُعَرِّفُ بها أنه صادق ﴿وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ يدك ضمها إليك ﴿مِنْ آلِ رَهَبٍ﴾ وهو الخوف، فيزول عنك الخوف إذا ضممتها إلى جانبك، وهذه آية أخرى.

﴿فَذٰلِكَ بُرْهٰنَانِ مِنْ رَبِّكَ﴾ ﴿فَذٰلِكَ﴾ إشارة إلى الآيتين ﴿بُرْهٰنَانِ﴾ أي دليلان وحجتان يُعرف بهما أنك رسول من الله ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَٓئِمِهِۦ﴾ أكابر قومه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ قد استمروا على فسقهم، فأنت نذير لهم من الله.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَرُوتُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۖ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ عرض لمشكلة حلها ﴿وَأَخِي هَرُوتُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي﴾ لأن موسى كان في لسانه خلل فأراد أن يرسل معه أخاه هارون؛ ليين لفرعون وقومه، ولكن فرعون كان يوجه السؤال إلى موسى ليجيب هو حتى يظهر ضعف كلامه، وقدح فيه بقوله: ﴿وَلَا يَكْذِبُ يٰٓمُوسَىٰ﴾ [الزخرف: ٥٢] فأراد موسى أن يعينه هارون.

وقوله: ﴿فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ وفي قراءة: ﴿رِدْءًا﴾ قال في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: مُعين» انتهى، وفي (مفردات الراغب): «الردء: الذي يتبع غيره معيناً له» انتهى، وفي (الصحاح): «تقول أردأته بنفسي، إذا كنت له ردءاً وهو العون» انتهى، ومثله في (لسان العرب) لم يخصاه بالذي يتبع غيره، وزاد في (لسان العرب) فقال: «الردء: العون والناصر» انتهى.

يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيَّتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِأَيَّتِنَا بَيَّنَّتْ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي

قال في (الكشاف): «وقرئ ﴿رداً﴾ على التخفيف كما قرئ ﴿الحب﴾» انتهى، يعني أن أصل (رداً) أن يقرأ بالهمز، ولكنه حذفت منه الهمزة للتخفيف كما حذفت في (الحب) للتخفيف.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعُلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيَّتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ ﴿قَالَ﴾ الله لموسى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ أي سنقويك ﴿بِأَخِيكَ﴾ وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: سنقويك به ونعينك عليه» انتهى.

وقوله: «عليه» مشكل؛ ولعله تصحيف أو زيد غلطاً، أو أراد على فرعون فاستجاب لموسى دعاءه بذلك.

وقوله: ﴿وَنَجْعُلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ أي نجعل لك وهارون سلطاناً على فرعون وملئه، بمعنى غلبة وقهراً، وذلك بالهيبة والرعب منهما ﴿فَلَا يَصِلُونَ﴾ تفريع على السلطان لا يصلون بقتل أو نحوه ﴿إِلَيْكُمَا﴾ وهذا لئلا يخاف فهو جواب على قوله: ﴿إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾

[القصص: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿بِأَيَّتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ أفادهما أنهما ومن معهما سيغلبون فرعون وملاه لكن بالآيات، فكانت عصا موسى وغيرها من الآيات سبباً لغلبة موسى بالحجة، فأما هلاك فرعون وملئه فلم يذكر هنا؛ ولعله ليبقى موسى راجياً لإسلام فرعون وملئه.

ءَابَايُنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِن عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عِقَبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٩﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ

﴿٣٨﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَىٰ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ءَابَايُنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ بَيِّنَاتٍ ﴿٤٠﴾ فِيهَا آيَاتٌ لَا تَحْتَمِلُ أَنهَا سِحْرٌ بَلْ هِيَ بَيِّنَاتٌ أَنهَا آيَاتٌ بِحِثِّ عِلْمُوا أَنهَا آيَاتٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَحِّدُوا بِهَا وَاسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ...﴾ [النمل: ١٤] ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

﴿٣٨﴾ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ ﴿٣٩﴾ أَي لَيْسَ آيَاتٌ وَإِنَّمَا هُوَ سِحْرٌ ﴿مُفْتَرَى﴾ أَي مَكْذُوبٌ بِدَعْوَى أَنَّهُ آيَاتٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَلَّوْا عَلَىٰ قَمِيصِهِ يَدْمُ كَذِيبٍ...﴾ [يوسف: ١٨] وَقَوْلُهُمْ: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ءَابَايُنَا الْأَوَّلِينَ﴾ الْإِشَارَةُ إِمَّا إِلَى الْآيَاتِ الْخَارِقَةِ فَأَرَادُوا أَنَّهُمْ مَا سَمِعُوا بِآيَاتِ لِرَسُولٍ، أَوْ إِلَى الرِّسَالَةِ مِنْ اللَّهِ فَأَرَادُوا مَا سَمِعُوا بِأَنَّهُ أَرْسَلَ رَسُولًا فِي الْأَوَّلِينَ، فَهُوَ تَكْذِيبٌ لِلرَّسْلِ الْمَاضِينَ سِوَاءَ كَانَتْ الْإِشَارَةُ إِلَى الْمَعْجَزَاتِ أَمْ إِلَى الرِّسَالَةِ.

﴿٣٩﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِن عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عِقَبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٠﴾ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِن عِندِهِ ﴿٤١﴾ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِن عِندِهِ، وَهَذَا لَا يَنَافِيهِ تَكْذِيبُهُمْ لَهُ؛ لِأَنَّهُمْ قَدْ عِلِمُوا أَنَّهُ صَادِقٌ وَعِلِمُ مُوسَىٰ أَنَّهُمْ قَدْ عِلِمُوا فَكَلَامُهُ لَمْ يَبْنِي عَلَى مَا قَدْ عِلِمُوا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُ عِقَبَةُ الدَّارِ﴾ أَي وَرَبِّي أَعْلَمُ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ الَّذِي يَرِثُهَا وَتَكُونُ لَهُ الْعَاقِبَةُ فِيهَا، وَهَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْعَاقِبَةَ سَتَكُونُ لِمُوسَىٰ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ.

يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقَدَ لِي يَنْهَمْنُ عَلَى
الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِي مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنْ
الْكَذِبِينَ ﴿٢٨﴾ وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ

ولا يفيد أعداءهم التكبر والتكذيب والجدال بالباطل ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الظَّالِمُونَ﴾ لا تكون عاقبتهم الفلاح والظفر بالخير والفوز بل العاقبة
للمتقين وعاقبة الظالمين الهلاك.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقَدَ
لِي يَنْهَمْنُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِي مُوسَى وَإِنِّي
لَأَظُنُّهُ مِنْ الْكَذِبِينَ﴾ ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ جحود منه
بالله الذي خلقه ودعوى أن قومه يعبدونه بالطاعة، وليس يعني الإلهية
الحقيقية وإنما هذا كقوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] جحود بالله
ودعوى قيامه مقام الرب ومقام الإله فهي مشاكلة لقول موسى وهارون:
﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] ودعوتهما له إلى عبادة الله وحده.

وقوله: ﴿فَأَوْقَدَ لِي يَنْهَمْنُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾ تفريع على
نفي علمه بالإله وأنه يريد صرحاً قصراً عالياً ليصعد حتى يبحث عن إله
موسى أهو موجود أم لا؛ ولعل غرضه الحقيقي أمران:

الأول: التضليل على قومه بإظهار القوة؛ لأن البناء يصف الغنى ليقابلوا
بينه في ملكه وبين موسى وهارون في فقرهما.

الثاني: تطويل المدة بينه وبين موسى؛ لعجزه عن إبطال حجة موسى
ورغبته في البقاء على الكفر، فهو يصور أنه ما زال في مقام البحث والنظر
في صدق موسى، وختم قوله بدعوى أنه يظن أنه من الكاذبين لئلا يتوهم
قومه أنه قريب من الإيمان.

إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٦٥﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى

﴿٦٥﴾ وَأَسْتَكْبَرُوا وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٦٦﴾ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ فِي أَمَاكِنَ شَتَّى نَشْرُوا اسْتِكْبَارَهُمْ بِتَصَرُّفَاتٍ تَعْبُرُ عَنْ اسْتِكْبَارِهِمْ مِثْلَ: بِنَاءِ الصَّرْحِ، وَجَمْعِ السَّحَرَةِ، اسْتَكْبَرُوا ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ لِأَنَّهُمْ عِبَادُ مَرْبُوبُونَ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَّا مَا مَكْنَهُمُ اللَّهُ فِيهِ وَبِقَدْرِ مَا مَكْنَهُمْ وَفِي حُدُودِ تَمَكِينِهِ وَعَنْ قَرِيبٍ تَنْتَهِي وَيُنْكَشِفُ ضَعْفَهُمْ وَعَجْزَهُمْ، فَاسْتِكْبَارَهُمْ إِنَّمَا هُوَ عَنْ تَوْهَمٍ وَتَخِيلٍ ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَظَنَّهُمْ أَنَّهُ لَا حَيَاةَ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَلَا مَرَدَ إِلَى اللَّهِ فِي ظَنِّهِمُ الْكَاذِبِ.

﴿٦٦﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٦٧﴾ عَاقِبَةُ اسْتِكْبَارِهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِمُوسَى وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى الظُّلْمِ أَخَذَهُمُ اللَّهُ فَنَبَذَهُمْ فِي طَرْحِهِمْ ﴿فِي الْيَمِّ﴾ فِي الْبَحْرِ، فَالْكِبْرِيَاءُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، أَخَذَ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ فَأَلْقَاهُمْ فِي الْيَمِّ، أَخَذَهُمْ ﴿أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ﴾ [القمر: ٤٢] كَانَهُمْ قَلِيلٌ مِنَ الدُّودِ أَخَذَهُمْ أَخَذَ بِيَدِهِ وَأَلْقَاهُمْ فِي الْمَاءِ فَهَلَكُوا.

وَفِي تَفْسِيرِ (سُورَةِ الذَّارِيَّاتِ) مِنْ (تَفْسِيرِ الشَّرْفِيِّ): «عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ الْقَاسِمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَالْيَمُّ: فَهُوَ الْبَحْرُ الْمَالِحُ الْأَعْظَمُ» انْتَهَى، وَلَعَلَّهُ عَنِ الْبَحْرِ الَّذِي أَغْرَقَ اللَّهُ فِيهِ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ دُونَ مَفْهُومِ الْيَمِّ فِي اللُّغَةِ، وَقَدْ فَسَّرَهُ الشَّرْفِيُّ فِي (سُورَةِ الْقَصَصِ) بِالْبَحْرِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ تَنْبِيهُ عَلَى أَنَّ فِي ذَلِكَ عِبْرَةً فَيَتَوَقَّعُ مِنْ أَجْلِهَا هَلَاكَ أَعْدَاءِ رَسُولِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَكْذِبِينَ لَهُ وَيَتَوَقَّعُ بِهَا أَنَّ النَّصْرَ سَيَكُونُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَلَاكِ الظَّالِمِينَ.

النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٥١﴾ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعَنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ

﴿٥١﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٥٢﴾

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ الضمير إما لفرعون وجنوده، وإما لفرعون وملئه ﴿أَيْمَةً﴾ أي قادة متبوعين بتمكينهم، وكان ذلك فتنة للمتبوعين والتابعين، أي اختباراً أدى إلى أن كانوا أئمة حين أطاعهم التابعون، ونسبة ذلك إلى الله تعالى من التشابه؛ ولعل من فوائد الدلالة على أنه تعالى غني عنهم غير مبال بهلاكهم؛ لأنها لا تضره معصية العاصين، وقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي إلى أسباب النار؛ لأنهم ومن تبعهم يصيرون إلى النار ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ لا ينصرهم أتباعهم الذين كانوا جنوداً لهم؛ لأنه ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شُكٌّ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧] ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَالِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١].

﴿٥١﴾ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعَنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٥٢﴾ وَأَتَّبَعْنَا الدَّعَاةَ إِلَى النَّارِ ﴿لَعَنَةً﴾ من الله ومن الأجيال بعدهم والملائكة ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ قال في (لسان العرب): «أبو زيد: قبح الله فلاناً قبحاً وقبوحاً، أي أقصاه وباعده من كل خير» انتهى المراد.

أما الراغب فأرجعه إلى القبح ضد الحسن، فقال: «وقوله: ﴿مِنْ الْمَقْبُوحِينَ﴾ أي من الموسومين بحالة منكرة...» الخ وهو خلاف المشهور في تفسير قبح - بتخفيف الباء - والذي في (الصحاح) و(أساس البلاغة) و(القاموس) نحو ما في (لسان العرب) وقد يقال: يمكن الجمع بأن الراغب أراد أن حالته المشوهة هي إقصاؤه من كل خير، ولكنه فسر الحالة المشوهة بغير ذلك وهو لازم الإقصاء من كل خير.

مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِصَآئِرٍ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ

﴿١٢﴾ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ
بَصَآئِرٍ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يظهر: أن هذه الآية تشير إلى
أول السورة ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * تَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبِيِّ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ
يَالْحَقُّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فعند تمام المتلو من نبأ موسى وفرعون جاءت الآية في
إنزال التوراة على موسى، وذلك دلالة لقريش على أنه ليس بدعاً إنزال
القرآن هدى للناس فقد أنزل الله قبله التوراة، ونظير هذا في (سورة الأنعام)
﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمْلَأًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى
وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يُلْقَا رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ * وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ...﴾ وفي (سورة
الأحقاف): ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَتْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَهِدٌ مِنْ بَنِي
إِسْرَآئِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿.. وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمْلَاءً وَرَحْمَةً
وَهَذَا كِتَابٌ مُصَلِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [١٠-١٢].

وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾ وهم المكذبون
لرسل الذين هموا بهم ليأخذوهم فنبه الله عباده على شدة بطشه بأعداء
الرسول ليحذر قريش ومن حولهم من تكذيب القرآن والرسول.

وقوله تعالى: ﴿بَصَآئِرٍ لِلنَّاسِ﴾ أي تنويراً للقلوب يبصر بها المؤمنون بعقولهم
﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فهي في نفسها بصائر وهدى ورحمة، ولكن
ذلك معدّ في التوراة للناس معروضاً عليهم فمن قبله وآمن أبصر به واهتدى به
ونال الرحمة من الله به، ومن أبى فالعمى من عنده، ونظير هذا في القرآن ﴿شَهْرُ
رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ..﴾ [البقرة: ١٨٥].

مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١﴾ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿١٢﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ

ومع ذلك قال تعالى في القرآن: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [نصفت: ٤٤] فلا تنافي بين كونه هدى للناس كافة وكون الذي يهتدي به المؤمن خاصة.

﴿١١﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٢﴾ وَمَا كُنْتَ﴾ يا رسول الله محمد ﴿بِجَانِبِ﴾ الجبل ﴿الْغَرْبِيِّ﴾ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ﴿وَأَتَمَمْنَاهُ بِإِنزَالِ التَّوْرَةِ عَلَيْهِ، قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ﴾ عطف على قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾.

و(جانب الغربي): محل المناجاة بإنزال التوراة في الميقات الذي هو أربعون ليلة، والأمر إما بمعنى التكليف بما في التوراة وبإبلاغها، وإما بمعنى الشأن العظيم الذي هو إنزال التوراة ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ الحاضرين المشاهدين لتلك المناجاة، فقد أخبرت بما أنت غائب عنه وما ذلك إلا بوحى من الله إليك.

﴿١١﴾ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿١٢﴾ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا﴾ من بني إسماعيل وغيرهم ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ فتطاول عليهم بسبب بعدهم من عهد الوحي والنبوة العمر: المدة التي عاشوها في زمن الفترة وانقطاع الوحي؛ ولذلك احتاج الناس إلى رسول فأرسلناك يا محمد فأنت تبلغهم الأخبار عن موسى التي كنت غائبا عنها.

لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٦﴾ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا

﴿وَمَا كُنْتَ﴾ يا محمد ﴿ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ فتخبر بما كان من موسى في مدة الأجل الذي كان فيه أجيراً فأتمه ﴿تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ التي أنزلناها على شعيب، ومعنى ﴿ثَاوِيًا﴾: مقيماً؛ ولعل المراد: أنه ﷺ لو كان ثاوياً في أهل مدين ما بقي إلا معلماً لهم ما تعلمه من نبي الله شعيب؛ لأن هذا شأن الصالحين أن يكون همهم إرشاد الناس وتعليمهم كما شأنهم تعلم العلم والمعرفة بآيات الله إذا حضروا عند من عنده العلم.

فلو كان محمد ﷺ ثاوياً في أهل مدين لكان قد تعرف آيات الله من نبي الله شعيب وصار يتلوها على أهل مدين نيابة عن نبي الله شعيب لضعفه بكبر السن أو معاونة له ومشاركة في الإرشاد - والله أعلم.

﴿وَلَكِنَّا﴾ أرسلناك كما سنتنا إرسال الرسل إلى الناس فأخبرت بخبر موسى عليه السلام حين كان في مدين؛ لأننا أوحيناه إليك.

﴿١٦﴾ ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحِمَةً مِّن رَّبِّكَ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿وَمَا كُنْتَ﴾ يا محمد ﴿بِجَانِبِ الطُّورِ﴾ حيث آنس موسى ناراً فاتاها فناداه ربه وأرسله إلى فرعون وملئه كما مر في هذه السورة، ومرّ الجمع بين كون النار بجانب الطور وكون النداء بالواد المقدس، فأخبر محمد رسول الله ﷺ بذلك مفصلاً مع أنه لم يكن حاضراً؛ فما ذاك إلا لأن الله أوحاه إليه؛ لأن الله أرسله رحمة للعالمين وخصوصاً بني إسماعيل.

رَسُولًا فَتَتَّبِعْ ءَايَاتِكَ وَتَكُونِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ﴿٥﴾ قُلْ

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ وهم قريش ومن حولهم ﴿مَا أَنتَهُم مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فهم في أمس الحاجة إلى نذير ينقذهم من النار؛ لأنهم في جاهلية جهلاء يعبدون الأصنام ويددون البنات ويأكلون الميتة ويحرمون بعض نعم الله ويقتلون على غير موجب، وعلى الجملة في ضلال مبين، فأرسل الله إليهم رحمة لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ما هو مخزون في فطرتهم من توحيد الله والإيمان بما أخبر به واجتناب الظلم.

﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَتَّبِعْ ءَايَاتِكَ وَتَكُونِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ واستحقوا عليه العذاب؛ لأنهم أجمعوا به بدون عذر كالشرك وواد البنات وقتل الأبرياء وغير ذلك ﴿فَيَقُولُوا﴾ عند إصابة المصيبة لهم ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ لترفع عنهم المصيبة ويكون لهم حجة، فولا ذلك لصح تركهم بلا رسول إما مطلقاً وإما مؤقتاً إلى حين؛ لأن جواب لولا حذف للدلالة السياق عليه جملة، ولكن الله أرسل إليهم ﴿لِقَلَّ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ وهو القرآن والرسول محمد ﷺ ﴿مِنْ عِنْدِنَا﴾ من عند ملك الملوك رب العالمين لم يقبلوا الحق الذي هو من

﴿١١﴾ فَاتُّوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
﴿١٢﴾ فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ
مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ
﴿١٣﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٤﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمْ

عند الله، بل ﴿قَالُوا﴾ جدالاً ﴿لَوْلَا أَوْتَىٰ﴾ محمد ﴿مِثْلَ مَا أَوْتَىٰ مُوسَىٰ﴾
من الآيات الدالة على صدقه كقلب العصا ثعباناً مبيناً لنؤمن به، وليس لهم
حق في اشتراط ذلك بل قد كفى وضوح الحق بالقرآن.

﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْتَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ إتيان رسول الله إليهم ﴿قَالُوا﴾
سَاحِرَانِ ﴿مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ تَظَاهَرَا تعاوننا فعظم السحر بتظاهرها
﴿وَقَالُوا﴾ بعد ذلك: ﴿إِنَّا بِكُلِّ﴾ من محمد وموسى ﴿كَافِرُونَ﴾ فهم
متمردون لا يريدون الحق.

﴿١٥﴾ قُلْ فَاتُّوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴿١٦﴾ قُلْ يَا مُحَمَّد ﴿فَاتُّوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ غير التوراة
والقرآن ﴿هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾ أهدى من التوراة والقرآن ﴿أَتَّبِعُهُ﴾ إِنْ أَتَيْتُمْ
به ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في كفركم بمحمد وموسى، فإذا لم يكن عندكم
شيء فأنتم تدفعون الحق بغير حجة وتزعمون أن الله أهمل عباده بلا نذير.

﴿١٧﴾ فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ
مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

﴿١٨﴾ فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ يا رسول الله لم يؤمنوا بك وبالقرآن ولم يأتوا
بكتاب من عند الله فقد بان أنهم ﴿أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ فاعلم ذلك؛
لأنهم يدافعون الحق بمجرد الكذب والتعلل ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾

الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّا بِهِ
إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٧﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ

حال كونه ﴿بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ﴾ ينقذه من ضلاله بل هو متروك في
ضلاله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ بمداغة الحق وترك الإنصاف
وباتباع هوى النفس والإعراض عن آيات الله والتكذيب بها والجدال
بالباطل، فهو تعالى لا يهديهم بعد أن قامت عليهم الحجة بل يتركهم في
ضلالهم يعمهون.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿وَصَّلْنَا لَهُمْ
الْقَوْلَ﴾ قد يكون المراد هذا القول الماضي في هذه السورة أتبعنا بعضه بعضاً
متصلاً بعضه ببعض، فجئنا نبأ موسى وفرعون متصلاً غير مفرق في أوقات
متباينة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أن هذا القصص الكامل المفصل ما هو إلا من
عند الله؛ لأن محمداً لم يقرأ ولم يكتب وإنما قرأ ما أوحاه الله إليه، وكان في
بلد لا يقرؤون بل يرون القراءة في كتب أهل الكتاب أمراً بعيداً؛ لأنهم
عرب وهي أعجمية وهم لا يؤمنون بها ولا يرونها إلا خاصة بأهل الكتاب،
فإتيان رسول الله ﷺ وهو بينهم نشأ أمياً لا يقرأ ولا يكتب إتيانه بهذا
القصص مفصلاً آية لمن يتذكر تدل على أن الله أوحاه إلى محمد ﷺ ليكون
رسولاً إلى أم القرى ومن حولها ثم إلى كافة الأمم.

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ
ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ من قبل هذا القرآن فيرون هذا القرآن مطابقاً لها ﴿هُمْ
بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ لمطابقتها ما عندهم مع أن الذي بلغهم أمي، والذين آتيناهم
هنا بمعنى العلماء من أهل الكتاب الذين علمهم الله معاني كتبهم.

والكتاب يطلق على الجمع؛ لأن أصله مصدر وليس المراد الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها من جهلتهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨] وإيمان علمائهم بهذا القرآن كان في حال كون رسول الله ﷺ في مكة يبلّغهم عنه بعض القرآن فيعلمون أنه الرسول الموعود به في التوراة، فأما حين هاجر رسول الله ﷺ ففعل بعض من كان آمن غلبهم الحسد فكذبوه، وهذا في علمائهم فأما غيرهم فلا إشكال في شيوع الكفر فيهم، وقد فصل الله القول فيهم في (سورة البقرة).

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ القرآن ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ﴾ لأنه ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ﴾ من قبل نزوله ﴿مُسْلِمِينَ﴾ أنفسنا لله ربنا فلا نشرك به ولا نتعصب لأحد، ولا يمنعنا حسد؛ لأننا مسلمون أنفسنا لله لا يهمنا إلا أن نطيعه.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): في سبب نزولها قولان:

أحدها: نزلت في عبد الله بن سلام وغميم الداري والجارود العبدي وسلمان الفارسي أسلما [كذا] فنزلت فيهم هذه الآية والتي بعدها.

والثاني: أنها نزلت في أربعين رجلاً من أهل الإنجيل كانوا مسلمين بالنبي ﷺ قبل مبثته، اثنان [كذا] وثلاثون [كذا] رجلاً من الحبشة أقبلوا مع جعفر بن أبي طالب وقت قدومه وثمانية قدموا من الشام منهم بحيرا وأبرهة والأشرف وعامر وإدريس ونافع، فأنزل الله فيهم هذه الآية» انتهى. وهذه الأسماء في (الميزان) إلا عامراً فبدله أيمن.

مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٠١﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي

﴿أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ * وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿أُولَئِكَ﴾ أَهْلُ الصِّفَاتِ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا:

منها: أن الله تعالى آتاهم الكتاب فهم علماء ليسوا كمن قال تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٢٣].

ومنها: أنه إذا يتلى عليهم القرآن قالوا آمنا به بمجرد تلاوته عليهم، آمنوا به لأنهم عرفوا أنه الحق من ربهم.

ومنها: أنهم كانوا من قبله مسلمين لأنفسهم لله، فأهل هذه الصفات يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا قبل نزول القرآن، وبما صبروا بعد ما يتلى عليهم لم يمنعهم من الإيمان به خوف أذية السفهاء أو عدوان المتعصبين من أهل الكتاب.

﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ يدفعون بالحسنة من كلمة طيبة أو فعل حسن أو عطاء يدفعون بذلك إساءة من كان لولا الحسنة يسيء إليهم ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ من ما لهم الحلال ينفقون في وجوه الخير مثل: إطعام الفقراء المهاجرين في سبيل الله وغير ذلك ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ من السفهاء، واللغو: الكلام الذي ينبغي تركه مثل: سبهم من أجل أنهم آمنوا ﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ فلم يجيبوا بل ولم يصغوا أسماعهم لقائله.

مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ تَتَخَفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ تُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا مُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرْتُ كُلِّ

﴿وَقَالُوا﴾ ردأ لسفاهتهم ﴿لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ فإيماننا لنا، وبقاؤكم على دينكم لكم، فلا يضركم إيماننا ﴿سَلَّمٌ عَلَيْكُمْ﴾ لا نجيب على سبكم ولا نقابل إساءتكم بمثلها.

قال الشرفي: «وهو - أي هذا التسليم - عبارة عن التوديع؛ لأن من عادة المودع أن يسلم على من يودعه» انتهى.

قلت: ففي عرفنا يقال: مع السلامة أو خاطرك، وقولهم: ﴿لَا نَبْتَئِي الْجَاهِلِينَ﴾ أي لا نطلب الجاهلين الذين يجهلون علينا، أي لا حاجة لنا فيكم.

قال الشرفي: «قال بعضهم: نسخ ذلك بالأمر بالقتال، وهو بعيد لأن ترك المسافهة مندوب وإن كان القتال واجباً» انتهى.

والمسافهة - بالسین المهملة - ولا تنافي بين الإعراض عن اللغو والقتال؛ لأن القتال لدفع إفساد المشركين لا جزاء على سفاهتهم بالكلام.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي لا تجعله مهتدياً؛ لأنك تحبه فتشاء أن يهتدي، أي ليس اهتداء أحد تابعاً لمشيتك أن تهديه أو إرادتك بل هو تابع لمشية الله، فإذا شاء أن يهتدي هداه؛ لعلمه أنه أهل لذلك، وكون هداه له حسن في الحكمة؛ لأنه لم يستحق الخذلان بل هو أهل لللطاف، وجعله محباً للإيمان ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ الذين آمنوا وصدق إيمانهم كما أنه أعلم بمن يدعي الاهتداء وقلبه لم يدخله الإيمان.

شَيْءٍ رَزَقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فِتْلَتِكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا

روى مسلم وغيره عن أبي هريرة وغيره: أن هذه الآية نزلت في أبي طالب، أبي أن يقول: لا إله إلا الله عند موته فنزلت، وقد رد هذه الرواية علامة عصرنا عبد الله بن الهادي الحسن بن يحيى القاسمي في كتابه (حاشية كرامة الأولياء) رداً مفيداً.. فليراجع.

﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِبِّيَ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال الشريفي: «قال في (البرهان): نزلت هذه الآية في الحارث بن نوفل بن عبد مناف قال للنبي ﷺ: نحن نعلم أنك على الحق لكننا نخاف إن خالفنا العرب واتبعناك ونحن قليلون أن يتخطفونا [في الأم يتخطفون وهو غلط واضح تمت] من أرضنا لاجتماعهم على خلافنا، وقال الحسين بن القاسم عليه السلام: هذا نفاق حكاه الله من بعضهم فأسكتهم الله تعالى بقوله: ﴿أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ ألزمهم الله الحجة بأنه مكن لهم في الحرم الذي آمنه وأمن سكانه بجرمة البيت» انتهى المراد، وبقيته في (المصابيح).

قال الراغب: «الخطف، والاختطاف: الاختلاس بالسرعة» انتهى. وفي (لسان العرب): «الخطف: الاستلاب، وقيل: الخطف الأخذ في سرعة واستلاب» انتهى، والتخطف يفيد: تكرار الاختطاف باعتبار تعدد أهل الحرم، وقوله تعالى: ﴿يُجِبِّيَ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي تجلب إليه وتجمع فيه. وفي (مصابيح الشريفي): عن الحسين بن القاسم: «﴿يُجِبِّيَ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي تجلب إليه وتحمل عبارة عن الكثرة» انتهى. أي كل شيء عبارة عن الكثرة، فلا خوف على أهل الحرم لا من القتل ولا من الجوع.

وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ؕ أَيْتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا

وقوله تعالى: ﴿رَزَقًا﴾ أي هذه الثمرات جعلناها رزقاً، ولعل ذلك إجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام ﴿وَارْزُقْنَهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وقوله تعالى: ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ أي من عندنا أي نحن أعطيناهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنها منا؛ لأنهم لا ينظرون بل هم غافلون عن الله سبحانه.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ فِتْلِكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ قال الشرفي: «واعلم أنه تعالى لما بين تلك النعم أخبرهم أن الإصرار على عدم قبول الإيمان هو الذي يزيل النعم لا الإقدام على الإيمان» انتهى.

وبالطبر: تعريض النعمة للزوال بكفرها، وأصله كما قال الراغب: «دهش يعترى الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقوقها وصرفها إلى غير وجهها، ثم قال: ويقارب البطر الطرب وهو خفة أكثر ما يعترى من الفرح» انتهى المراد، فقد أفاد: أنه السفه من سوء احتمال النعمة؛ لأن الدهش نقص في العقل. قال في (الصحيح): «دهش الرجل بالكسر يدهش دهشاً تحير ودهشاً أيضاً فهو مدهوش، وأدهشه الله» انتهى.

﴿فِتْلِكَ مَسْكِنُهُمْ﴾ أي بعد هلاكهم ﴿لَمْ تُسْكَنْ مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال الشرفي: «قال ابن عباس: لم يسكنها إلا المسافر ومار الطريق يوماً أو ساعة» انتهى. قلت: هذا خلاف الظاهر؛ لأن السكنى لبث وبقاء وأما اليوم والساعة فلا يسمى سكنى، والأولى أن البلدة بعد المهلكين تغيرت مرافقها فلم تصلح للسكنى ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ أي لتلك البلدة كما أن الله تعالى يرث الأرض كلها.

ظَلِمُوتَ ﴿٥٦﴾ وَمَا أُوتِيتُمْ مِّن شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٥٧﴾ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعَدًا حَسَنًا فَهُوَ

﴿٥٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ﴿مُهْلِكَ الْقُرَى﴾ لِأَجْلِ بَطَرِهَا ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍهَا﴾ وهي القرية التي تؤمها القرى وهي مكة تؤمها القرى التي حولها ﴿رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي على القرى ﴿ءَايَاتِنَا﴾ فتقوم عليهم الحجة بالندير الذي يتلو عليهم آياتنا فيعلمون بالآيات أنه رسول من الله، فإذا تمردوا استحقوا الهلاك.

﴿٥٧﴾ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٨﴾ لَأَنَّهُمْ إِذَا سَمِعُوا آيَاتَ اللَّهِ فَآمَنُوا بِالرَّسُولِ لَمْ يَهْلِكْهُمْ اللَّهُ، وفي هذه الآية دلالة على أن المراد بإهلاك القرى تدميرها بحيث يهلك أهلها لا هلاك أهلها دون تدمير القرى، فأهل القرى يهلكون بالموت سواء آمنوا أم لم يؤمنوا، فظهر أن إسناد الهلاك إلى القرى ليس على حذف مضاف أي أهلها.

﴿٥٨﴾ وَمَا أُوتِيتُمْ مِّن شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥٩﴾ لعل هذا من الجواب على قولهم: ﴿إِنْ نَتَّبِعِ الْهَلْدَى مَعَكَ﴾ فالجواب الأول: ﴿أَوَلَمْ نُمْكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ والثاني: أن هذه الثمرات ونحوها إنما هي متاع ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فلا يتوقف الإسلام عليها؛ لأن الإسلام أهم من كل متاع الدنيا ﴿وَزَيَّنَّتْهَا﴾؛ لأن ما عند الله من الثواب لمن آمن واتقى ﴿خَيْرٌ﴾ من متاع الدنيا ﴿وَأَبْقَى﴾ لأن متاع الدنيا قليل بالنسبة إلى الثواب في الآخرة؛ ولأن متاع الدنيا يفنى أو يقطعه الموت وما عند الله يبقى أبداً، فاتباع الهدى أهم من كل متاع الدنيا وزينتها، وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ خطاب لمن يؤثر الدنيا على الآخرة كأنه لا يعقل الفرق بين المتاع القليل الفاني وبين النعيم العظيم الدائم.

لَقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ

﴿٦١﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦٢﴾ أَفَمَنْ ﴿٦٣﴾ آمن فشملة وعد الله لمن آمن بالجنة فهو لاق ما وعده الله كمن عاقبه أن يحضر للحساب والعقاب وهو في الدنيا قد متعه الله بنعم تنتهي بالموت، فهل يساوي هذا الممتع ذلك الذي يصير في الجنة.

إن العقل يحكم بالفرق بينهما وإن السعيد من يصير في الآخرة إلى ثواب الله وإن كان في الدنيا فقيراً في شدة، وإن الشقي من يصير في نار جهنم وإن كان في الدنيا ملكاً مترفاً.

﴿٦٢﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴿٦٤﴾ لَعَلَّه عَظِفَ عَلَى ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ وإن كان يوم يناديهم هو يوم القيامة؛ لأن هذا مثل عطف الصفات لموصوف واحد، فالذي أبى الإسلام وبقي على الشرك يوم القيامة ﴿مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ وهو من المحضرين يوم يناديهم ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ في الدنيا ما بالهم لا ينصرونكم اليوم، وهذا توبيخ للمشركين وتذكير بجرمهم العظيم لهم ولمن يسمع يوم يناديهم.

﴿٦٣﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٤﴾ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴿٦٥﴾ شملهم الوعيد وصدق عليهم، وصاروا من أهل النار، وكانوا في الدنيا متبوعين.

فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿١٤﴾
 وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥﴾ فَعِمَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ
 يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا

﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ﴾ الاتباع ﴿الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ في الدنيا ﴿أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾
 لأنهم كانوا تابعين لنا فكانت غوايتهم تبعاً لغوايتنا، ولو كنا مهتدين لهديناهم
 ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ منهم لا ننفعهم ولا نحمل عنهم بعضاً من عذابهم ﴿مَا كَانُوا
 إِنَانَا يَعْبُدُونَ﴾ ما انفردنا بإغوائهم وطاعتهم بل أطاعوا الشيطان.

﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ۚ لَوْ
 أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ ﴿وَقِيلَ﴾ للفريقين ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الذين كنتم
 تزعمون ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ فلم يجدوا من
 ينصرهم منه، وتمنوا ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَهْتَدُونَ﴾ حين يدعوهم
 الهداة إلى الله وحده.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ينادي المشركين كما
 يفيد السياق وعلى هذا فالنداء هذا وإن كان موجهاً إلى المشركين فهو يهيم
 السامعين الذين أرسل إليهم كلهم، هل أطعتموهم أو عصيتموهم؟.

﴿فَعِمَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿الْأَنْبَاءُ﴾
 الأخبار لم يجدوا جواباً لهذا النداء يحل المشكلة؛ لأنهم كلما تذكروا جواباً
 عمي عليهم، فكل جواب لا يبصر لهم حلاً لمشكلتهم، بل كل جواب أعمى
 عن الإفادة إن قالوا في الجواب: آمنا بهم واتبعناهم، فهذا غير صحيح ولا
 يفيدهم الكذب يومئذ، وإن قالوا: (كنا مكرهين) فهو غير صحيح، وإن
 قالوا: (شغلتنا أموالنا وأهلونا..) فهذا غير صحيح، ولا يفيد الكذب.

فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ تَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۚ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ

وكذلك إن قالوا: ما بلغتنا دعوة المرسلين، وإن قالوا: كذبناهم فهذا لا يفيدهم، فكل جواب لا يهتدي إلى طريقة إفادة لهم ولا يجد لهم جدوى ليجيوا به، فاعتبر أعمى، كأن الأجوبة لو كان فيها جواب فيه إنقاذهم لقال لهم: أنا الجواب المفيد؛ ولعل فائدة إسناد العمى إلى الأنباء أنه لا جواب مفيد، فلو قيل: فعموا عن الأنباء لاحتمل الكلام أن بعضها مفيد لكنهم عموا عنه.

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يفيد: تعليق العمى على يوم القيامة، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولا يفيدهم الجحد، ولا يفيدهم الكذب، ولا يفيدهم الإقرار، بخلاف هذه الدنيا فإن الحاكم قد يغتر لأنه لا يعلم الغيب، أما الآخرة فالحاكم فيها علام الغيوب.

وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ لأنهم مع حاجتهم إلى السؤال عما يجيبون به هذا النداء ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧] أو لأن كل واحد منهم يعلم أن الآخرين مثله قد عميت عليهم الأنباء؛ أو لهول الموقف وشدة الخوف؛ أو لأنهم لا يكلم أحد أحداً إلا بإذن من الله ولم يؤذن لهم في التساؤل؛ أو لأجل هذه الموانع كلها - والله أعلم.

﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ﴾ في الدنيا من الشرك أو أي معصية مما كان فيه من المهلكات ﴿وَأَمَنَ﴾ بالمرسلين وبكل ما يجب الإيمان به حتى جاء يوم القيامة وهو مؤمن ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ كذلك في الدنيا حين ينفع العمل ﴿فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ في يوم يناديهم فهو قريب من أن يكون

من المفلحين بدخول الجنة والنجاة من النار الظافرين بالسعادة الدائمة، وهذا النداء في موقف السؤال والعرض على الله؛ فلذلك يكون المؤمن قريباً من الفلاح باعتبار أن الفلاح نيل الثواب وتحقيق النجاة من العذاب والنداء قبل ذلك.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا رسول الله الذي أرسلك لتنذر المشركين، ربك ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ لأنه على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم، والمشركون يشركون ما لا يخلق ولا يقدر، وربك ﴿يَخْتَارُ﴾ من يشاء ليرسله إلى عباده أو لما شاء؛ لأن له الملك؛ لأنه المالك لمن في السموات والأرض، فاختياره لك رسولاً هو الحق ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ ما كان للمشركين أو لشركائهم الخيرة؛ لأنهم عباد مربوبون، فليس لهم الاختيار، فبطل اعتراضهم بقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] أو قولهم: ﴿أَوْ نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨].

﴿سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ﴾ تنزيهاً بليغاً لله جل جلاله ﴿وَتَعَالَى﴾ ترفع عما يشركون، فلا يرضاه كما يزعمون، بل يتنزه عنه ويتعالى كما هو شأن عزته وحكمته؛ لأنه لا يليق بجلاله وملكوته أن يكون له شريك ولا يليق بحكمته وعزته.

وقوله: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إن كانت (ما) موصولة أي عما يشركونه فالمعنى تنزيه الله وتعالیه أن يكون له شريك ما يشركونه من الأصنام والمخلوقين كلهم؛ لأنهم عباد ضعفاء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً فلا يليق بعظمته وجلاله أن يكونوا له أنداداً، وإن كانت (ما) مصدرية أي عن شركهم الذي يقع منهم ومنه دعوى أن لهم الخيرة إن ادعوا ذلك المعنى، أنه يتعالى عن شركهم ويتنزه؛ لأنه لا يليق به ولا يصح بل هو أبطل الباطل، فسبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.

يَعْلَمُ مَا تَكُنْ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٦﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٦٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ

﴿٦٦﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تَكُنْ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يا رسول الله ﴿يَعْلَمُ مَا تَكُنْ﴾ صدور المشركين هؤلاء المكذبين، أي ما تخفيه أي ما يضمرونه كله من عقيدة باطلة أو نية منكرة أو غير ذلك ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ما يظهرونه من قول أو فعل، فكل أمرهم إليه، فهو المجازي لهم وتوكل عليه فهو ناصرهم عليهم ولا يضرك ما أضمرُوا ولا ما قالوا فيك، ومن ذلك قولهم: ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨] ونحو هذا.

﴿٦٧﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٦٨﴾ وربك هو ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لأنه رب العالمين ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى﴾ وهو مستحق الحمد في النشأة الأولى بما أنعم على عباده من كل النعم وأعظمها الهدى إلى الصراط المستقيم الموصل إلى السعادة الدائمة، وهو بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وغير ذلك من أسباب الهدى ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ أي وفي الآخرة فهو المستحق للحمد في الآخرة كما دل عليه آخر سورة الزمر، فهو المحمود على حكمه في عباده بما هو الحق والعدل والرحمة لأوليائه والفضل، وسوف يتجلى في الآخرة أن له الحمد على حسن قضائه وحكمه بين عباده وجزائه لكل مكلف بما استحق من ثواب أو عقاب.

﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ وحده؛ لأنه المالك للعالمين فالحكم له ليس لغيره شيء من الحكم؛ لأن العبد لا يستحق الحكم في ملك سيده؛ ولذلك فليس للمشركين أن يحكموا لأصنامهم بأنها آله بل الحق حكم الله أنها ليست آله بل هي مملوكة لله ولمن ملكه الله.

جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْآلِيلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ

﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة أنت يا رسول الله وهؤلاء المشركين وكل العالمين ترجعون إليه؛ ليحكم بينكم ويحاسبكم ويحكم لكل مكلف أو عليه بما يستحق، فلا معقب لحكمه ولا معارض لقضائه ولا دافع لأمره ولا ناصر لمن قضى عليه؛ لأن الأمر يومئذ لله وحده ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْآلِيلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ قال في (الصحيح): «(السرمد: الدائم) انتهى، قال الشريفي في (المصابيح): «فقال تعالى لرسوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي أخبروني ﴿إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْآلِيلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ أي دائماً متصلاً إلى آخر الدهر، والسرمد: الذي لا ينقطع» انتهى.

قلت: يعني لا يتخلله انقطاع بل يستمر دائماً وإن كان لدوامه حد كما في الآية، وقوله تعالى: ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ﴾ أي خبروني: ﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ﴾؟ وهذا احتجاج على المشركين يبين لهم عجز من زعموا أنهم آلهة عن إصلاح حال عابديهم ونفعهم عند اضطرارهم، فهم يعلمون أنهم عاجزون عن ذلك فلم يدعوا لهم ما ليس إلا لله فيزعمون أنهم آلهة شركاء في ملكهم بدون حجة وهم يعلمون عجزهم عن الخلق، وهذا احتجاج يكفيهم إن كانوا يسمعون؛ ولذلك قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾؟ فإنه يكفيهم أن يسمعوا هذه الحجة إن أنصفوا.

فِيهِ أَفْلا تُبْصِرُونَ ﴿٧٦﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٧﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ

﴿٧٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفْلا تُبْصِرُونَ ﴿٧٧﴾ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ؟ سؤال يبين أنه لا إله غير الله يقدر على الإتيان ﴿بَلِيلٍ﴾ فالآية هذه والتي قبلها بيان لقدرة الله تعالى على الإتيان بالنهار والليل، والمشركون في وقت نزول القرآن من العرب لا يحدون ذلك، والآيتان كما تذكran بقدرة الله تعالى تذكran بعجز شركاء المشركين وأنهم مبطلون في جعلهم أنداداً لله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيكُمْ بَلِيلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ تنبيه على حاجة الناس إلى الليل؛ لأنهم لولا أن الليل يجمعهم لطلب الراحة من الأعمال والسكون بعد الحركة، وكانوا في نهار دائم لما انتظم لهم السكون بل كانوا يتعارضون فمنهم من يريد الحركة ومنهم من يريد السكون الذي يكون في النوم ويستعاد به القوة بعد التعب، ونحن نرى هذا التعارض في نهار شهر رمضان حيث يطلب البعض النوم والصبيان يطلبون اللعب والصياح، وكذلك من سهر الليل فحاول أن ينام النهار فيأتي من له به حاجة فيدعوه؛ وبذلك تبين حاجة الناس إلى الليل ليجمعهم على النوم والسكون، وفي البلاد الحارة عكس ذلك؛ ولعله سر قوله: ﴿يُضِيئُ﴾ ولم يقل: بنهار، فالنهار قد يجمع الضياء وحر الشمس مما يؤدي إلى الراحة بالنهار.

وقوله تعالى: ﴿أَفْلا تُبْصِرُونَ﴾ إن أريد به إبصار العيون فالمعنى أن من له بصر يميز بين الليل والنهار ويعرف الحاجة إلى كل منهما وأن كل واحد منهما نعمة ورحمة إذا نظر.

شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَرْعُمُونَ ﴿٧٦﴾ وَتَرَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٧﴾ * إِنَّ قُرُونَكُمْ كَاتِبٌ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ

فقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ سؤال لهم إذا لم يعرفوا الفرق بين الضياء والليل في الفائدة؛ لأنها تترتب على إِبْصَارِ الأعين، فكأن من لا يعرف نعمة الضياء والليل لا يبصر، فكان أهلاً لأن يقال له: ألا تبصر؟

وإن أريد بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَبْصِرُونَ﴾؟ إِبْصَارِ البصيرة بالقلب إذا نظر العاقل وتذكر فعرف نعمة الله ورحمته فهو يبصر ببصيرته، ومن لم ينظر فلم يعرف كان أهلاً لأن يقال له: ألا تبصر بل أنت أعمى القلب، فالمعنيان صحيحان والأول أرجح - والله أعلم.

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي ومن رحمة الله الرحيم بعباده ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ خلفه، فجمع بين النعمتين لعباده: نعمة النهار ونعمة الليل ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ بالنهار بضياؤه وبدفئه وبحر الشمس لتجفيف ما يطلب تجفيفه من الثمرات وغيرها وغير ذلك ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته فتعبده وحده ولا تشركوا به، وقد يدخل في قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ شكره تعالى على نعمة الهداية إليه والدلالة عليه بآياته في الليل والنهار والتخالف بينهما على نظام محكم ومناسب لحاجة الإنسان فيهما وفي تناوبهما.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَرْعُمُونَ﴾ * وَتَرَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٧﴾ قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ إلى آخر الآية

مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوتُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ

جاءت هذه الآية مرتين، فرتب عليها في المرة الأولى ذكر براءة المتبوعين من التابعين مما يدل على شدة الحال عند ذلك النداء.

وفي المرة الثانية رتب عليها قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي شهيداً على الأمة، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] فالشهيد يشهد بما عاينه أو سمعه من الأمة التي هو شهيد عليها، وفي هذا إشارة إلى حالة المشركين الذين يقولون: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وأفادت أنه لا يفيد الجحود من جحد ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على ما كنتم تزعمون في الدنيا من دعوى الشرك وغيرها ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ فيهم وفي كل مخلوق، فهم عباده وحده لا شريك له فيهم ولا حق لغيره فيهم مستقلاً ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ضاع عنهم في ذلك الموقف ما كانوا يفترونه من أن شركاءهم شفعاء لهم عند الله يوم القيامة أو أنهم سينصرونهم في الشدائد أو نحو ذلك، فقد تبين في ذلك الموقف أنهم كذبوا فلم ينفعهم شركاؤهم ولا غيرهم.

﴿٦﴾ ﴿إِنْ قَرُّونَ كَذَبْتُمْ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوتُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ ﴿كَذَبْتُمْ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ من بني إسرائيل أو أقرب إلى موسى كأن يكون من السبط الذي منه موسى ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ على قوم موسى؛ ولعل هذا في أيام احتجاج موسى على فرعون فكان قارون مع فرعون كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣-٢٤] فبغى قارون على قومه

معاوناً لفرعون على قومه، كما قال تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ [يونس: ٨٣] فكان قارون من ملثهم ومعاونة قارون لعلها كانت بإبلاغ فرعون أسرار بني إسرائيل كإسلام من أسلم ووجود مولود ونحو ذلك كما تراه اليوم من بعض عملاء الظالم، وهذا يبعد ما يروى أنه خرج من البحر مع موسى بل الأقرب أنه كان مع فرعون حتى خسف الله به وبداره الأرض وإن كانت الروايات تخالف هذا؛ لأنها لا تبعد أنها جاءت من اليهود، وليس في القرآن ما يفيد صحتها.

﴿وَأَتَيْنَهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ أعطيناه من المال الذي كان يكنزه لكثرته، قال الشرفي: «هي الأموال المدخرة» انتهى. يعني الكنوز.

﴿مَا إِنْ مَفَاتِحُهُ لَتَنُوزَ بِالْعُصْبَةِ﴾ قال في (الصحيح): «والمفتاح: مفتاح الباب وكل مستغلق، والجمع: مفاتيح، ومفتاح أيضاً» انتهى. فأفاد أن مفاتيح: جمع مفتاح، وقال الشرفي في (المصباح): «جمع مفتاح ما يفتح به» انتهى، والمعنى واحد فقد اتفقوا على تفسير المفاتيح: بالمفاتيح.

﴿لَتَنُوزَ بِالْعُصْبَةِ﴾ قال في (أساس البلاغة): «نُوزَ بالحمل: نهضت به، وناء بي الحمل: مال بي إلى السقوط» انتهى، وفي (الصحيح): «ويقال: ناء بالحمل: إذا نهض به مثقلاً، وناء به الحمل: إذا أثقله» انتهى، وقال الشرفي: «أي لتثقل العصبة وتميل بهم - ثم قال - : أي لتثقلهم من ناء [ء] به الحمل إذا أثقله» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿بِالْعُصْبَةِ﴾ قال (صاحب الصحيح): «والعصبة من الرجال: ما بين العشرة إلى الأربعين» انتهى، وقد دلت الآية على كثرة الخزان التي كنز فيها الأموال؛ لأن كثرة المفاتيح تابعة لكثرة ما يفتح بها ودل على كثرة المفاتيح كونها تثقل العصبة أهل القوة إذا اجتمعوا لحملها.

وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ اذكر قصته إذ نصحوه حين أطغاه الغنى، قال في (الصحاح): «فرح به سرّ والفرح أيضاً البطر» انتهى. ومثله في (القاموس) فالفرح هنا: إما السرور المفرط الذي هو لازم الثقة بدوام الغنى والاطمئنان إلى الدنيا، وإما البطر، قال الراغب: «البطر: دَهَش يعترى الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقوقها وصرفها إلى غير وجهها» انتهى.

﴿وَأَبْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الْدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿وَأَبْتَغِ﴾ واطلب الدار الآخرة وهي الجنة اطلبها ﴿فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ﴾ من المال، فالدنيا مزرعة الآخرة إذا عمل فيها بطاعة الله كانت سبباً للجنة، فإذا أنفقت لله فيما يرضيه الإنفاق فيه نلت الجنة بالمال الذي آتاك الله، فجمع الله لك خير الدنيا والآخرة ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ فليس لك من الحياة الدنيا إلا نصيب محدود ينتهي فتموت وتفارق المال والقوة وينكشف أنه قد غرك طول الأمل ونسيان نصيبك من الحياة الذي لا تبقى بعده، فاذكر هذا ولا تنسه ليقل حرصك على المال وفرحك به إذا تذكرت أن الفاضل للوارث لا ينفعك أي نفع.

﴿وَأَحْسِنَ﴾ فتصدق على المساكين وأطعم الجائع وفرج عن المكروب وغير ذلك من الإحسان شكراً لله على إحسانه إليك بما آتاك ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ ولا تحاول الفساد المنتشر في الأرض؛ ولعلمهم أرادوا نهيه عن معاونة فرعون ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ فاحذر ذلك.

عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِن الْقُرُونِ
مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ

ويترجح: أن هذا كان في أيام فرعون؛ لأن موسى عليه السلام لم يذكر في القصة
من أولها إلى آخرها في القرآن الكريم؛ ولأن مدة موسى عليه السلام في النبوة مع
قومه بعد خروجهم من البحر ما كانت مظنة التعمير بل صاروا إلى العيش
في غير مصر بل في التيه حتى توفي موسى عليه السلام.

فلا بد أن قصة قارون كانت قبل خروجهم من مصر، أو أنها كانت بعد
وفاة موسى عليه السلام وبعد دخولهم القرية وتمكنهم، ولكن معنى هذا أنه أسلم
مع موسى وخرج معه من البحر وعاش حتى دخلوا القرية واكتسب
الأموال وبنى داره، فكيف لم يكن نصحه من يوشع ولم يذكر في قصته
وإسلامه بعيد في عهد فرعون وضعف موسى وقومه ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا
ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: ٨٣] ولأن القرآن
قرنه بفرعون وهامان ﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٤] فكون القصة وقعت في
عهد فرعون أقرب، وعهده أقرب لتمكن قارون من ظلم قومه بخلاف عهد
موسى عليه السلام ويوشع عليه السلام.

فالراجح: أن النصيح من قومه كان في عهد فرعون في أيام أنهم مستضعفون
ونصحوه لكونهم يُدَلُّون بقربه؛ ولأن ظلمه لهم بعثهم على نصحه، وقد يشكل
على جعل القصة متقدمة قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَالْعِلْمُ وَلَكُمْ ثَوَابٌ لِّلَّهِ
خَيْرٌ﴾ الآية؛ لأن عهد فرعون ليس مظنة أن يكون فيه أولوا علم لا من بني
إسرائيل ولا من غيرهم، فالجواب أن هذا مجرد استبعاد، وقد حكى الله تعالى
في (سورة غافر) ما يفيد: أن مؤمن آل فرعون أوتي علماً.

﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونُ إِنَّهُمْ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ

﴿٨٠﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ۖ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨١﴾ قَالَ ﴿٨٢﴾ قَارُونَ جَوَابًا عَلَى نَصْحِ قَوْمِهِ الَّذِينَ نَصَحُوهُ بِشُكْرِ نِعْمَةِ اللَّهِ ﴿٨٣﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ ۖ أَيُّ الْمَالِ وَلِئِيْهِ ﴿٨٤﴾ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ۖ فَعِنْدِي مِنَ الْعِلْمِ بِطَرَقِ كَسْبِ الْمَالِ وَجَمْعِهِ مَا لِأَجَلِهِ أُوتِيَتْ هَذَا الْمَالُ وَالْقُوَّةُ؛ وَلَعَلَّهُ أَرَادَ أَنَّهُ كَانَ لَهُ الْإِقْبَالُ وَالْحِظُّ بِسَبَبِ عِلْمِهِ، وَنَظِيرُ هَذَا مَا حَكَاهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر: ٤٩] ولذلك رد الله على الإنسان بقوله تعالى: ﴿..بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۖ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الزمر: ٤٩-٥٠].

فالحاصل: أنهم يظنون أنه حظهم وإقبالهم بسبب ما عندهم من العلم والخبرة والبصيرة فكفروا بأنه نعمة من الله يجعل نعمته إنما حصلت لهم بالإقبال والحظ والعلم لا أنها نعمة من الله.

﴿٨٥﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمَ عَظْفٌ عَلَى مَقْدَرٍ، أَيُّ أَعْلَمَ مَا زَعَمَ وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا، بَلْ قَدْ عِلْمَ ذَلِكَ فَكَيْفَ لَمْ يَتَذَكَّرْ ذَلِكَ وَيَعْلَمْ أَنَّهُ لَوْ كَانَ بِالْحِظِّ وَالْإِقْبَالِ بِسَبَبِ ذَلِكَ الْعِلْمِ لَا سَتَمَرُ الْحِظُّ وَالْإِقْبَالُ وَلَمَّا تَعَقَّبَهُ الْهَلَاكُ وَسَلَبَ النِّعْمَةَ، لَكُنْهَا مِنْ مَنْعَمٍ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، إِنْ شَاءَ بَسْطُ، وَإِنْ شَاءَ أَمْسَكَ.

أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨﴾ فَحَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي سؤال تعرف عند إنزال العقوبة؛ لأن الله تعالى رقيب عليهم ولا ينسى ذنوبهم بل ينبتهم بما عملوا ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

﴿٧﴾ ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿فَخَرَجَ﴾ بعد النصح له وجوابه المشثوم خرج من داره ﴿عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ التي هي تعبر عن ثروته، فعند ذلك ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ لجهلهم وغفلتهم عن الآخرة: ﴿يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ معجبين به مستعظمين له؛ ولذلك قالوا: ﴿إِنَّهُ﴾ أي قارون ﴿لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ لذو إقبال وجدّ وفي لغتنا: بخت عظيم، نسبوا ما أوتي قارون إلى البخت كما فعل قارون.

﴿٨﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ يفيد: أن الذين يريدون الحياة الدنيا لا يعدّون من الذين أوتوا العلم؛ لأن جهلهم قد غلبهم فصار علمهم كلا علم ﴿وَيَلَكُمْ﴾ زجر للذين تمنوا واستعظموا ما أوتي قارون؛ لأنهم معرضون بسبب ذلك للويل والهلاك كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ [الإسراء: ١٨] الآية ﴿ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ فيمكنكم أن تسعوا لما هو خير مما أوتي قارون بالإيمان والعمل الصالح، فلا تفوتوه بحب الدنيا.

مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَافِّرُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ

﴿وَلَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ فاصبروا لتكونوا من أهل الإيمان والعمل الصالح فتفوزوا بثواب الله، وقولهم: ﴿وَلَا يُلْقِنَهَا﴾ لا يوفق لها ويهدى إليها ﴿إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ لأن من لا يصبر يتبع هوى نفسه فلا يكون أهلاً للتوفيق سواء كان الضمير للجنة المفهومة من قولهم: ﴿ثَوَابُ اللَّهِ﴾ أو للخصلة التي هي سبب الجنة، فمن كان يريد الجنة فعليه أن يصبر على الفقر وعلى ما ابتلي به وعلى تقوى الله.

﴿حَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ ﴿حَسَفْنَا﴾ محقنا الأرض التي تقله وتقل داره فهوتُ بهما وهلكا.

قال الشرفي: «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه: هدمنا به وبداره، وأهبطنا موضعه في بعض الأرض بعد قراره» انتهى المراد.

وفي (الصحيح): «وخسف الله به الأرض خسفاً: أي غاب به فيها» انتهى. وعبارة الحسين بن القاسم عليه السلام أجود.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ﴾ يشير إلى أنه كان له أتباع وأعوان لكثرة ماله، ولكن لما جاء أمر الله لم يكن له أنصار يحولون بينه وبين عذاب الله.

قال الراغب: «والفئة الجماعة المتظاهرة التي يرجع بعضهم إلى بعض في التعاضد» انتهى. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ من الخسف بأي قوة وبأي وسيلة.

لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مِّنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَيَكَّانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٢٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَّانَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مِّنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَيَكَّانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿وَأَصْبَحَ﴾ عطف على ذكر الخسف بقارون وداره.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ﴾ أي مثل ثروته، فالمكان كناية عن الحالة؛ ولعل الخسف كان في الليل فلما أصبحوا رأوا مكان داره قد هوى وعلموا أن الله قد خسف بقارون فكان عبرة لهم وتذكرة وحمدوا عاقبة الفقر أصبحوا يتعجبون مما بدا لهم من أمر الله وكانوا يظنون أن غنى قارون من الحظ والبخت، فعلموا أو ظنوا أن الغنى من الله وتقدير الرزق من الله.

قال في (الصحيح): «وَيَ: كلمة تعجب، ويقال: وَيَكَ وَيَ لِعَبْدِ اللَّهِ، وقد تدخل وَيَ على كَأَنَّ المخففة والمشددة، تقول: وَيَ كَأَنَّ وَيَ كَأَنَّ. قال الخليل: هي مفصولة تقول: وَيَ ثم تبدئ فتقول كَأَنَّ قال الشاعر:

وَيَ كَأَنَّ مَن يَكُنْ لَهُ نَشَبٌ يَحِبُّ وَمَنْ يَفْتَقِرُ يَعِشُ عَيْشُ ضُرٍّ

انتهى. وقال الراغب: «وي: كلمة تذكر للتحسر والتندم والتعجب، ثم قال: وقيل: ويك كان ويلك فحذف منه اللام» انتهى.

قلت: فهي كلمة (ويل) اختصرت بخلاف (وي) التي للتعجب، وفي (القاموس): «وي كلمة تعجب، تقول: ويك ووي لزيد، وتدخل على كَأَنَّ المخففة والمشددة، وقوله تعالى: ﴿وَيَكَّانَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ زعم سيبويه أنها وي مفصولة من كَأَنَّ، وقيل: معناه ألم تر، وقيل: ويلك، وقيل: اعلم» انتهى.

الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا ۖ وَالْعِقَبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٢﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّمَّا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا تَجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا

وقول من قال: معناه: ألم تر هو قول من قال: (وي) للتعجب؛ ولعله أشكل على بعضهم وصلها في المصحف، وفي المصحف مخالفات لقاعدة الكتابة. وفي (الكشاف): «(وي): مفصولة عن (كان) وهي كلمة تنبه على الخطأ وتندم، ومعناه أن القوم قد تنبهوا على خطئهم في تمنيه، وقولهم: ﴿يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ وتندموا، ثم قالوا: ﴿وَيَكَاَنَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أي ما أشبه الحال بأن الكافرين لا ينالون الفلاح، وهو مذهب الخليل وسيبويه» انتهى المراد.

وجعل في (مغني اللبيب) من معاني كأن: الشك، والظن، وهو معنى مستقيم؛ لأن الذي بعث عليه حادثة واحدة بكافر واحد، فصح منهم تظنن القاعدة الكلية، ولا يجب أنهم أرادوا القطع وهم عقيب الحادث قبل النظر المؤدي إلى العلم.

وحكى في (الكشاف) عن الكوفيين: أن معنى ﴿وَيَكَاَنَ﴾ ألم تعلم وأن أصله: ويلك فحذفت (اللام) وهذا ذكره الشرفي في تفسيره للآية.

وقولهم: ﴿لَوْ لَا أَن مِّنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَاءُ﴾ قطعوا بذلك؛ لأنهم تمنوا مثل ما أوتي قارون وشاهدوا أن ما أوتي قارون أدى به إلى الخسف، وليس كذلك قولهم: ﴿وَيَكَاَنَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ لأنها عامة للكافرين على اختلاف أنواع الكفر، مع أنه يجوز عليهم أن يتظننوا ثم يقطعوا، ولو صح استعمال كأن للقطع لكان التفسير به محتملاً.

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا ۖ وَالْعِقَبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ هي الجنة، كما قال تعالى:

يَعْمَلُونَ ﴿٤٢٤﴾ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٢٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو

﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا...﴾ [يوسف: ١٠٩] والإشارة إليها لعلها لسبق ذكرها في حكاية قول الذين أوتوا العلم: ﴿وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ...﴾ الآية، وأما جعلها الإشارة إلى البعيد فلتعظيمها كما هو محقق في علم المعاني أو لبعدها من حيث هي في الآخرة والإشارة في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿تَجْعَلُهَا﴾ أي ندخلهم ونملأهم إياها، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ أي لا يختارونه ويؤثرونه، كقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ...﴾ [الإسراء: ١٨] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ...﴾ [الإسراء: ١٩] والعلو في الأرض: التفوق على الناس بغير الحق أو إرادة العلو؛ لأنه رئاسة وارتفاع، أي لهوى النفس فيه لا لغرض صحيح بل من حيث هو علو في الأرض، وهذا أرجح.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا فُسَادًا﴾ أي ولا فساداً في الأرض أي لا يريدونه، فالجنة لمن سلم من الأمرين واتقى ربه بدليل قوله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فكانه قيل للمتقين الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، فقوله: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ [النازعات: ٤٠] مع قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَلَفَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ [النازعات: ٤٠] وفائدة ذكر إرادة العلو أو الفساد: التحذير منهما، والدلالة على أنهما يمنعان من دخول الجنة، فأما التعبير هنا عن الجنة بالدار الآخرة فلعله في مقابلة الخسف بدار قارون.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿مَنْ جَاءَ﴾ موقف الحساب مصحوباً

بالحسنة، كأنَّ الناس يوم القيامة يأتون موقف الحساب بأعمالهم حاملين لها، كما قال تعالى في الكفار: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١] فمن جاء الموقف أو الآخرة ﴿بِالْحَسَنَةِ﴾ لأنه مؤمن تقي عمل صالحاً مقبولاً ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ لأنها تضاعف له أضعافاً كثيرة ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا تُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لا يزداد عليه، فعذاب كل واحد في شدته على قدر سيئاته لا يزداد عليه ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ﴾ إن الله الذي فرض عليك ﴿الْقُرْآنَ﴾ أوجهه عليك حتماً لتقرأه على الناس فتقيم به الحجة عليهم من حيث أنه الآية الكبرى التي يعرفون بها صدقك ولتؤمنوا به وتتبعوه، فلأنه فرض عليك هذا القول الثقيل الذي يشق عليك تبليغه إلى المكذبين بك وبه ويشق العمل بتكاليفه والاستقامة عليه ﴿لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ عظيم تنال فيه ثواب ما قمت به من تحمل ما حُمِلت ويحكم الله فيه بينك وبين المكذبين.

وقد أبهم هنا هذا المعاد، لكن كلمة الرد تشعر بالعودة إلى أمر كان فيه وكذلك كلمة المعاد تدل على العودة، فهي العودة إلى الحياة بعد الموت والرد إلى ما فيها من الجزاء العظيم المسبب عن فرض القرآن على رسول الله المخاطب بهذا الخطاب والموعود بهذا الوعد ليصبر على تحمل هذا الواجب ويسهل عليه لما يرجوه من المعاد ﷻ قل لقومك المكذبين لك: ﴿رَّبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى﴾ فهو يشبهه في الآخرة ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ فربه يجزيه؛ لأن مردنا إلى ربي فهو يحكم بيني وبينكم.

أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا
لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨١﴾ وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ ءَايَتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى
رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٢﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ لَا
إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

﴿٨١﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ
فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨١﴾ في هذه الآية الدلالة على أن القرآن وإن كان
ثقيلاً فهو رحمة ونعمة ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا﴾ هذه النعمة العظمى والدرجة
الرفيعة ﴿أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ﴾ هذا ﴿الْكِتَابُ﴾ الذي يكتب وتتوارثه الأجيال
بعدك ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ لكن رحمة من ربك ألقاه إليك فرحمته في
الآخرة أعظم؛ لأنها دار الثواب على العمل ورحمة الدنيا تفضل ﴿فَلَا
تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾ بالقرآن والرسول لا تكوننَّ معيناً لهم، بل عليك أن
تشكر هذه النعمة العظمى وتقوم بواجبك من التبليغ والمجاهدة لهم بهذا
القرآن والثبات على الدعوة إلى الله وإلى ترك الشرك بالله.

والراجح: أن معنى هذا النهي: هو النهي عن التخلي عن أمر الله وعما حمل
من الرسالة؛ لأنه لو تخلى عنها لكان قد أعان المكذبين له الكافرين بالقرآن؛
لأن غرضهم من الكفر به أن يتخلى عن دعوته ويتركهم على دينهم.

﴿٨٢﴾ وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ ءَايَتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَّبِّكَ
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٢﴾ وَلَا يَصُدُّنَكَ ﴿٨٢﴾ أحذرهم أن يصدوك عن هذا
القرآن الدال على أن الله أرسلك و ﴿عَنْ﴾ سائر ﴿ءَايَتِ اللَّهِ﴾ الدالة على
ذلك فهم جادون في التحيل لصدك بالترغيب والترهيب وكل ما يستطيعون
كالجدال بالباطل فاحذرهم لتثبت على آيات الله.

وقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ دلالة على أنها نعمة عظمى قد نالها، فلا يليق به إلا المحافظة عليها والثبات على التمسك بها ﴿وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ غير مبال بالكافرين ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فهم على الباطل وأنت على الحق فلا تترك الحق وتكن من أهل الباطل، ومن فوائد النهي هذا أن يسمعه المشركون وغيرهم فيكون زاجراً لهم عن الشرك، وهو أيضاً تعبّد لرسول الله ﷺ كسائر التكاليف التي يطيع فيها ربه وله فيها ثواب.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ لعله أعيد النهي ليرتب عليه بيان بطلان الشرك بقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فدعاء إله مع الله باطل ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ فالأصنام وغيرها مما يعبدوه المشركون كلها هالكة، وذلك من أوضح الدلالة على أنها عباد مملوكة يبقوها خالقها متى شاء ويفنيها متى شاء، فعبادتها لا تفيد عابدها شيئاً، بل هي ضر من حيث أنها باطل ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ رضوانه ورحمته، فإذا عبده وحده فزت برضوانه الدائم.

فالوجه كناية عن الرضوان، كقول أولاد يعقوب عليه السلام: ﴿لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا﴾ إلى قولهم: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: ٨-٩] أرادوا أن لا ينظر إلا إليهم؛ لأجل أنه يحبهم وحدهم لا يجد من يحبه غيرهم، فالوجه كناية عن الحب؛ لأن الحب يكثر النظر إلى من يحب، فكما قال تعالى في أعدائه: ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ٧٧] أفاد في أوليائه أنه ينظر إليهم أي يحبهم ويرضى عنهم؛ ولذلك يذكر الوجه عند القرب مثل: ﴿إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩] ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢] ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ دليل على إبطال الشرك كما قال يوسف عليه السلام: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ..﴾ الآية [يوسف: ٤٠] فالمشركون يجعلون آلهة هم سموها آلهة مع أن حكمهم ليس له معنى ولا حجة فيه بل هو باطل؛ لأنهم ليس لهم أن يحكموا؛ لأنهم عباد مملوكون، والحكم في عباد الله إنما هو لله؛ لأنه مالكهم ولكن المشركين لجهلهم يجعلونها آلهة لحكمهم بذلك حين سموها وجعلوها، فهذا وجه لإبطال الشرك بقوله تعالى: ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ والوجه الثاني: أن الله تعالى قد أبطل الشرك وحكم بأن لا إله إلا هو وهو الذي له الحكم؛ لأنه رب العالمين، فحكمه الحق وحكم العباد الباطل.

وقوله تعالى: ﴿وَالِيَهُ تَرْجَعُونَ﴾ أي يوم القيامة ترجعون إلى الله وحده فيحكم فيكم بما شاء لا ترجعون إلى غيره، فدعواهم أن شركاءهم سيشفعون لهم دعوى باطلة؛ لأن الأمر يومئذ لله وحده، فالمشركون هم الخاسرون والعابدون لله وحده هم الفائزون.

والحمد لله رب العالمين،،،



التفسير في التفسير



سورة الغالبون



سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا

ابتداء تفسير (سورة العنكبوت)

ويظهر من مواضعها أنها نزلت بعضها في (مكة) وبعضها في (المدينة) فأما الغالب فالله أعلم

﴿١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْم * أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴿الْم﴾ من حروف المعجم، وقد مضى في تفسيرها كلام مكرر فنكتفي بما مرّ ﴿أَحْسِبَ﴾ (الهمزة) للسؤال، بمعنى إنكار الحسبان، وعييه على أهله، وسماها (صاحب مغني اللبيب): (همزة الإنكار التوبيخي) ومعنى (حسب): ظن، وظاهر قوله تعالى: ﴿النَّاسُ﴾ أنها نزلت وقد كثر المسلمون، وذلك بعد هجرة رسول الله ﷺ ومعنى ﴿أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ أن يتركوا على قولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ دون أن يفتنوا.

واحصل: أحسبوا أنهم لا يفتنون بالنسبة لقولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ ومعنى ﴿يُفْتَنُونَ﴾: يختبرون بما يميز الصادق في قوله: آمنت، والكاذب الذي يدعي الإيمان وقلبه غير مؤمن، فإنكار حسان عدم الفتنة يؤكد الخبر بأنه لا بد منها.

﴿٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٤﴾ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ تأكيد أنه لا بد من الفتنة، فيدل على أن سنة الله في الماضين لا تبدل كما قال تعالى: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

ومن فوائد التأكيد: أن يهتم المؤمن ويقوى عزمه على الثبات متى وقعت الفتنة، ويحذر أسباب الافتتان، ويدعو الله أن ينجيه من مضلات الفتن. ومن أسباب الافتتان: المعاصي، والميل إلى الدنيا، ومن أسباب الثبات: التقوى، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والصدقة، وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ﴾ بمعنى فليفتنهم حتى يثبت الصادقون، ويفتن الكاذبون من قبل الفتنة أو من حين جاءت، فيعلم الله من ثبت، ومن افتتن، فيعلم هذا ثابتاً، وهذا مفتوناً، وهو سبحانه علام الغيوب، لكن الإخبار بعلمه هذا بالثابت والمفتون دلالة على أنه يجزي كلاً منهما بما يستحق.

قال الشريفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: سألت أبي الهادي إلى الحق - صلوات الله عليه - عن الفتنة؟

فقال: هي أربعة وجوه، فوجه منها: العذاب، وهو كما قال تعالى في حديث ابن قيس: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩] يريد في العذاب وقعوا، ومن ذلك قوله تعالى في أهل الأخدود: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [البروج: ١٠] يريد عذبوهم بالنار في الأخدود. والوجه الثاني هو: الإعجاب بالشيء والحجة له، تقول العرب: فلان مفتتن بصاحبه مفتتن بزوجه [في نسخة (المصابيح): بزوجه، ولعل الصواب: بزوجه] مفتتن بماله، محب له معجب به.

والوجه الثالث فهو: الحرب، تقول العرب: بين بني فلان فتنة شديدة تريد حرباً شديداً، والوجه الرابع فهو: على معنى الحنة، وذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ.. ﴿ يقول: امتحنا الذين من قبلهم » انتهى المراد.

تَحْكُمُونَ ﴿١﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢﴾ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ

﴿١﴾ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا تَحْكُمُونَ﴾ ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ إضراب عن السؤال الأول إلى سؤال الذين يعملون السيئات، أي بل أحسب ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ والسيئات: المعاصي القبيحة، ومعنى ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ أن يفوتونا فلا نتمكن من أخذهم إن حسبوا ذلك فذلك الحسبان أقبح من حسبان من آمن أن لن يفوتوا، وهذا الحسبان مقرون بحكمهم لأنفسهم بالنجاة؛ لأن الواحد منهم يقول: ﴿وَلَكِن رَّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْطَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] ﴿سَاءَ مَا تَحْكُمُونَ﴾ فهو حكم سيء ما أسوأه! لأنه باطل وغرور خادع لهم يوقعهم في جهنم؛ ولأجله يسألون، أحسبوا أنهم يفوتون الله حتى حكموا لأنفسهم بالنجاة لأنه لا حجة لهذا الحكم فلماذا يحكمون به الآنهم يحسبون أنهم يسبقوننا؟!.

﴿٢﴾ ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿مَن كَانَ﴾ مؤمناً ﴿يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾ يوم القيامة لإيمانه بالآخرة إيماناً صادقاً فإن رجاءه غير خائب بل هو واقع، وإن أجله الله فإن أجله ﴿لَآتٍ﴾ لا يتخلف، وبذلك يبلغ المؤمن ما أمله من لقاء الله ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لقول من آمن ولكل قول ﴿الْعَلِيمُ﴾ بإيمانه ورجائه وبكل شيء فهو يجزي المؤمن ولا يضيع عليه مثقال ذرة؛ لأنه لا يخفى عليه إيمان المؤمن ولا شيء من أقواله وأعماله.

﴿٣﴾ ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَمَن جَاهَدَ﴾ أي قاتل أو أعم من ذلك مهما كان مشروعاً فإنما يجاهدهم لنفسه؛ لأنه وإن جاهد الله وفي سبيله فنفع الجهاد للمجاهد؛ لأن ثوابه له.

أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنْتَبِهُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

أما الله - جلّ جلاله - فهو غني عن جهاد المجاهد وعن أعماله كلها، فإن الله غني ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ لا تزيد ملكه طاعتهم ولا تنقصه معصيتهم، وهذا حث على الجهاد مفسر في آخر آية من هذه السورة.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ نغطيها يوم القيامة ولا نظهرها حتى لا تسوءهم في الآخرة؛ وذلك لأن من لوازم الإيمان التوبة من المعاصي، وترك الإصرار عليها، والعزم على اجتنابها، والحب للطاعة، والكراهة للمعصية ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أحسن الذي كانوا يعملون يخرج به السيئ ويخرج المباح؛ لأنه حسن غير قبيح فالإيمان والعمل الصالح أحسن الذي كانوا يعملونه، وجعل ثوابه إياه لأنه سببه، وهذا وعد عام بعد الوعد الخاص للمجاهد والمجاهد داخل في هذا على جهاده، وعلى سائر عمله وعلى إيمانه.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنْتَبِهُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ﴾ عطف على الوعد للمؤمن العامل صالحات؛ ولعله باعتبار أنه حث على الإيمان والعمل الصالح ومعنى التوصية من الله تعالى الأمر كذا قالوا؛ ولعل جعله وصية باعتبار انقطاع الوحي بموت الرسول ﷺ لأن الإنسان مأمور بذلك إلى آخر الحياة الدنيا حين انقطاع التكليف، وقوله تعالى: ﴿حُسْنًا﴾ أي إحسانا أو حسن المحاورة والمعاملة والمرافقة وغيرها.

لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ﴾ بمعنى: شددَا في المطالبة لك بالشرك وتحملاً للجهد والعناء في ذلك، وتحملت الجهد في دفعهما والامتناع من طاعتهما في ذلك، فلا تطعهما بعد ذلك وبالأولى أن لا يطيعهما لمجرد الأمر بدون عناء وكفاح، والحاصل: أنه لا يجوز له أن يطيعهما وإن غضبا من امتناعه وهجره أو ضرباه، أو حبساه، فأما دفع ضرهما بالتقية بإيهام الموافقة مع اطمئنان القلب بالإيمان فيجوز من ذلك ما يجوز بسبب الإكراه، لأن الله تعالى يقول: ﴿إِلَّا مَن أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾ أي إليّ لا إلى أحد غيري فاحذروا عذابي لأن مرجعكم للحساب والجزاء إليّ، ولا تطيعوا والديكم في معصيتي، وقوله تعالى: ﴿فَأَنْتُمْ كُنتُمْ﴾ أي حين ترجعون إليّ يوم القيامة أنبئكم وأخبركم أو أعلمكم ﴿بِمَا كُنتُمْ فِي الدُّنْيَا تَعْمَلُونَ﴾ لأنني علمته كله ولم أنس منه شيئاً، وأنا أجزيكم به.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وإن هجرهم والدوهم وجاهدوهم على أن يشركوا ولم يطيعوا مخلوقاً في معصية الخالق، وهذا من الإيمان والعمل الصالح؛ لأن العمل الصالح لا يصلح إلا مع التقوى ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ لندخلهم في جملة الصالحين الذين يدخلون الجنة، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

كُنَّا مَعَكُمْ ۖ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ

وهذا ترغيب في الثبات على الإيمان وإن قطعه الوالدان فضلاً عن غيرهم، فهو يصير في جملة الصالحين رفيقاً لهم وهم خير له من الوالدين المشركين، فلا يبالي بمن هجره في الدنيا من المشركين.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۖ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ قولاً بلسانه بدون إيمان في قلبه؛ لأنه لو آمن قلبه لثبت على الإيمان وصبر على الأذى في الله، ولكنه قال: آمنا قولاً بلسانه ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ من أجل أنه أظهر الإيمان بالله وإخلاص الدين لله ضعف ولم يصبر على الأذى وخوف التعذيب بل ﴿جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ له ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ في الآخرة، ففر من فتنهم له إلى الكفر وترك الإيمان، وارتد كما يفر المؤمن من عذاب الله فيفر مما يؤدي إليه ويحذره.

﴿وَلَئِن جَاءَ﴾ المؤمنين الثابتين على الإيمان ﴿نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ يا رسول الله ينصر به دينك الذي بلغته ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ أي المرتدون ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي لم نرتد عن الإسلام، بل كنا معكم وإن أظهرنا للكفار الردة ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ فلا يفيدهم دعوى أنهم كانوا معكم يضمرون الإيمان في صدورهم ويظهرون الردة نقيّة؛ لأن الله تعالى أعلم بما في صدورهم وأنهم قد شرحوها بالكفر.

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ الرجاء: أن هذا عطف على قوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ الآية بمعنى أنه

ءَامَنُوا أَتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلَ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ
مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٦﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ

لا بد من الفتنة المميزة بين المؤمن والمنافق، والفرق بين الآيتين أن الكاذب في قوله: آمنا قد لا يكون منافقاً؛ لأن المنافق يتولى الكفار سرّاً، وقيل: المنافق يضمّر الكفر وليس كذلك من يقول آمنا ولم يتول الكفار، ولا أضمر الكفر كما حكاه تعالى في قوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أراد الذين كفروا أن يرتد الذين آمنوا واستعملوا هذا التغير ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ﴾ وهكذا يفعل المبطلون ليخدعوا أتباعهم، وقد أبطل الله هذا الخداع بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ وأبطله - أيضاً - بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى جَمِلِهَا لَا يُّحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [فاطر: ١٨] فأفاد تعالى بقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أن الولد لا يحمل ذنب والدته ولا ذنب أبيه ولا ذنب ابنه فضلاً عن ذنب أخيه.

وأفاد بقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى جَمِلِهَا لَا يُّحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ العموم فلا يحمل رئيسٌ ذنب عسكريه ولا ذنب جلاده أو قتاله أو صاحب حبسه أو قيده، كلهم خطاياهم عليهم، ولا يحمل عنهم منها رئيسهم شيئاً وإن زعموا لهم أنهم الحاملون فهم كاذبون لكنه شريكهم من حيث أنه أمرهم بالظلم.

وَلَيْسَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٣﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ

﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَاهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيْسَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَي هؤلاء الذين قالوا: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ..﴾ فهذا قول الله - جل جلاله - أنهم يحملون ذنوبهم ﴿وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ وهي صدهم عن سبيل الله وإفسادهم، فهم يحملون خطاياهم التي هي كفرهم وشركهم وغير ذلك وخطاياهم التي هي إفسادهم كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ يَمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨] وليس معنى ذلك أنهم يحملون ذنب غيرهم، وإنما المراد أنهم يحملون ذنبهم بفسادهم، ومع ذلك ذنبهم المضاف إلى ذنبهم بإفسادهم من غير أن ينقص من ذنوب غيرهم شيء.

﴿وَلَيْسَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ فيحاسبون على كذبهم بقولهم: ولنحمل خطاياكم؛ لأن من معناه إمكان ذلك وجوازه، وأنهم إن اتبعوهم حملوا خطاياهم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿..إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيسألون يوم القيامة عن هذا الافتراء وغيره من افتراءهم كل ما كانوا يفترونه في الدنيا.

﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فِي هَذَا إِذْ نَادَىٰ لِلْكَافِرِينَ أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ مُحَمَّدًا ﷺ كما أن فيه تسلياً له ﷺ بأن نوحاً عليه السلام كذبه قومه مع طول لبثه فيهم وصبره عليهم، وقوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ﴾ أي بقي بينهم مبلغاً ومحتجاً وواعظاً ومنذراً ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ والعام: هو السنة

﴿وَإِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ

﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ وهو الماء الذي أغرقهم لكثرتهم عليهم كما بينه الله في (سورة هود). قال في (الصحيح): «والطوفان: المطر الغالب، والماء الغالب، يغشى كل شيء» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي أخذهم في حال أنهم ظالمون لم يتوبوا من ظلمهم، فحققت عليهم الخسارة العظمى والشقوة الدائمة؛ لأنهم بذلك يصيرون في جهنم خالدين فيها أبداً.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ أي نوحاً أنجيناها مما عذبنا به قومه ﴿وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ﴾ وأصحابه في السفينة أنجيناهم، فقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ﴾ كقوله: ﴿يَا صَاحِبِ السُّجْنِ...﴾ [يوسف: ٣٩] وعلق نجاتهم على صحبته في السفينة؛ فلعل ذلك لأنها كانت علماً للإيمان من ركبها فهو مؤمن ومن تجنبها غرق؛ لأنه ليس مؤمناً.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ كانت سفينة نوح آية للعالمين؛ لأنها دليل على صدق نوح في رسالته كما أنها دليل على الله الذي دبر نجاة نوح ومن معه بها من بين قومه، وكذلك هي دليل على أن الله تعالى ينجي المؤمنين، وقوله: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ لأن الأمم توارثت ذكرها.

﴿وَإِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ أرسلناه ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ مبلغاً للرسالة: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ فلا تشركوا به، ولا تفعلوا ما يوجب عليكم عذابه

إِفْكَاً^٤ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧﴾

﴿ذَلِكَم﴾ العبادة والتقوى ﴿خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ علمتم أنه خير لكم؛ لأنه يؤديكم إلى السعادة الدائمة والنجاة من الشقوة الأبدية، وقبل ذلك الحياة الطيبة، وقد قامت الدلائل على أنه خير لكم فانظروا لتعلموا إن كنتم ممن يعلم بواسطة النظر في الآيات فمن شأنه أن يعلم.

﴿٧﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكَاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧﴾ في (مفردات الراغب): «الوثن: واحد الأوثان، وهو حجارة كانت تُعبد» انتهى. وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: أصنام من حجارة، واحدا وثن» انتهى.

أما (صاحب الصحاح) ففسر الوثن: بالصنم، والصنم بالوثن، فكانه لا يخص الوثن بالحجارة، أما (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام) فيحتمل أنه فسر الأوثان بالحجارة؛ لأنه يعني أوثان قوم إبراهيم لا مجرد تسميتها أوثاناً، ويظهر من قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصفافات: ٩٥] يظهر منه: أن أوثانهم من الأحجار صنعت تماثيل؛ لقوله: ﴿مَا هِيَ التَّمَائِيلُ﴾؟ [الأنبياء: ٥٢] فإبراهيم عليه السلام ينكر عليهم الشرك ويحتج على أنهم مبطلون ببيان ما يعبدونه أنه لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر، بل هو جماد.

وقوله: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكَاً﴾ أي تخلقون وتفترون ﴿إِفْكَاً﴾ قولاً باطلاً كذباً؛ ولعله عليه السلام يعني دعواهم أن أصنامهم آلهة وما ادعوا لها من نفع أو ضرر وبين لهم أنها لا تملك لهم رزقاً وهو أعظم ما يهمهم.

وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ
 الْمُبِينِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ
 عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ

ثُمَّ قَالَ: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ أي لأنه الذي يرزق عباده، ثم
 قَالَ: ﴿وَأَعْبُدُوهُ﴾ أي لأنه الخالق الرازق فهو ربكم المالك لكم فهو المستحق
 للعبادة ﴿وَأَشْكُرُوا لَهُ﴾ نعمه عليكم بالعبادة والإقرار بأنه المنعم ﴿إِلَيْهِ﴾
 وحده ﴿تَرْجِعُونَ﴾ اضطراراً ليجزيكم بما قدمتم ولا ترجعون إلى
 أصنامكم ولا تفيدكم يوم القيامة نفعاً ولا دفعاً.

﴿وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا
 أَلْبَلُغُ الْمُبِينِ﴾ يقول إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿وَإِنْ تَكْذِبُوا﴾ رسولكم
 ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ رسلهم فانظروا كيف كانت عاقبتهم.

﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ الْمُبِينِ﴾ أن يبلغ الرسالة بلاغاً مبيناً إما
 بيناً في نفسه، وإما مبيناً والمعنى واحد؛ لأن المراد بلاغ يبين ما أرسل به،
 وهذا دليل على أن قد مضى قبل قوم إبراهيم أمم، وقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ
 يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِّن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِّن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا
 اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩] فلا يجب أن نعلمهم كما كان قوم إبراهيم عليه السلام يعلمونهم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ
 يَسِيرٌ﴾ أو لم ير الذين كفروا وقالوا: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ فجددوا رسالة
 الرسول ﷺ؛ لأنهم اعتمدوا في تكذيبهم بالرسالة على استبعاد النشأة
 الآخرة التي أخبر بها الرسول ﷺ مع أنهم يرون بعقولهم كيف ينشئ الله
 النشأة الأولى، وهي بدء الخلق كخلقهم أنفسهم في بطون أمهاتهم.

اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي

فإذا عرفوا ذلك فكيف يخفى أن الله يعيده تارة أخرى؛ لأن ﴿ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ كما دل عليه بدء الخلق، فقله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ عطف على جملة الكلام من أول الآية كما يأتي قريباً في قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ ويحتمل كيف يبدئ الله خلق بعض المخلوقات وهو المرعى ثم يعيده بالمطر بعد أن ييس وتكسر فبدء المرعى خلقه أول ما خلق، وإعادته في عرف العرب واعتبارهم إعادة المرعى بعد أن ذهب.

وقد احتج الله عليهم بهذا في (سورة الحج) فقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِئَةً فَلَمَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥] وفي (سورة الروم): ﴿وَيُنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَيُخْضِئُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٢٤] وفيها: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخْضِئُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُخْصٍ الْمَوْتَى﴾ [الروم: ٥٠].

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله للمكذبين بالآخرة ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ لتروا صنعا من صنع الله غير الذي ترونه في بلدكم ﴿فَانظُرُوا﴾ فيه ﴿كَيْفَ بَدَأَ﴾ الله ﴿الْخَلْقَ﴾ بقدرته التي لا تقاس على قدرة المخلوقين ﴿ثُمَّ﴾ بعد أن بدأ الخلق ﴿اللَّهُ﴾ الذي هو على كل شيء قدير الذي دلت عليه مخلوقاته ﴿يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ كما بدأ الخلق، ودل بدء الخلق على أنه على كل شيء قدير ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ولذلك بدأ الخلق وهو يعيده.

﴿١٢﴾ الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ

﴿١٥﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿١٦﴾ لعل هذه كالنتيجة لتقرير النشأة الآخرة، ففي الآخرة ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ أو هو من الاحتجاج على النشأة، أي أن الله سيعيد الخلق؛ لأنه يعذب من يشاء ويرحم من يشاء كما في الدنيا ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ في الآخرة أي ترجعون إليه دون غيره؛ فاتقوه لأنه غالب على أمره.

وفي تفسير (الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ معناه: ترجعون» انتهى. وقال الراغب: «والانقلاب: الانصراف» انتهى.

﴿١٧﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٨﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٩﴾ لا تفوتون الله إن فرتم منه لا تفوتونه حال كونكم ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا﴾ حال كونكم ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ لو فرتم في السماء؛ ولعل هذا يشير إلى الطائرات التي هي اليوم أسرع وسائل الفرار من بلد إلى بلد والذي يكون فيها في الهواء يكون بعيد المنال.

﴿٢٠﴾ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ يَتَوَلَّى أُمُورَكُمْ، ويحسن رعايتكم فتكتفون به عن ولاية الله، أو فيدفع عنكم عذابه بالشفاعة، وقوله: ﴿مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي يكون بزعمكم أقرب إليكم من الله أو مت دخلاً بينكم وبين الله، فهذا لا يكون ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصرركم كذلك.

﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ راجع إلى الذين قالوا: ﴿أَتَدْعُوا سَيِّلَنَا﴾ من حيث أنهم كفار،

حَرَقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنْ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَنًا مَوْدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ

تقدّم أولاً الرد عليهم باعتبار كذبهم من حيث قالوا: ﴿وَلَنَحْمِلُ خَطَايَاكُمْ﴾ ثم هذا الوعيد على كفرهم بآيات الله حيث جحدوا كونها آيات من الله، وعلى كفرهم بلقاء الله الذي هو الحضور في موقف العرض والسؤال والحساب؛ لأنهم كفروا بالبعث بعد الموت.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَبِيسُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾ يبسوا من رحمة الله في الآخرة التي هي الجنة فهم في الدنيا يبسوا منها؛ لأنهم يبسوا من الآخرة وهم يوم القيامة يبأسون من رحمة الله ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ ففادت عليهم الجنة وعاقبتهم العذاب الأليم في الجحيم، وهذه الآيات دخلت بين قصة إبراهيم عليه السلام من قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا...﴾ لأنها ناسبت قول إبراهيم من حيث هي تنذر المشركين وتحتج لصدق الإنذار، ولأن ذلك المراد من حكاية قصة إبراهيم لقوم رسول الله ﷺ.

﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنْ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ هذا راجع إلى احتجاج إبراهيم على قومه ونصحه لهم فما أجابوه بجواب حسن، إنما أجابوه بقولهم: اقتلوه أو حرقوه ثم تموا على إحراقه ﴿فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنْ النَّارِ﴾ حيث كانت برداً وسلاماً على إبراهيم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إن في إنجاء إبراهيم من النار ﴿لَآيَةً﴾ لأنه دليل على الله الذي جعل النار برداً وسلاماً، ودليل على علمه وقدرته ونصره لرسله وإخسار أعدائه.

الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَنُكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ تَنْصِيرٍ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي

وقوله تعالى: ﴿لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يؤمنون إذا جاءتهم الآيات التي تدل على الحق لأنهم ينظرون فيها نظر من هو طالب للحق، ولا يعرضون عنها ولا يستكبرون من الإيمان بها، فكان من شأنهم أن يؤمنوا.

﴿٦٠﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَنُكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ تَنْصِيرٍ ﴿٦١﴾ وقال إبراهيم، ولعل هذا بعد خروجه من نارهم لأنه آخر بعد ذكر إنجائه ولم يذكر مع احتجاجه وقوله: ﴿مَّوَدَّةَ﴾ أي اتخذتم أوثاناً من أجل المودة بينكم تحاببتهم على اتخاذ الأوثان فتم بينكم اتخاذها لأنكم تعاونتم على الإثم وتآخيتهم على الباطل، ويحتمل: جعلتم أوثاناً سبباً للمودة بينكم تعصباً لها، فمن كان معكم أحبيتموه لحبها ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ تعرفون أنكم أهلك بعضكم بعضاً، بتسبيبه للشرك، فتقلب المودة عداوة، فيكفر بعضكم ببعض، كقوله: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [المتحنة: ٤] ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ عداوة وبغضاً وغيظاً، وقد حكى في (لسان العرب) تفسير الكفر بالبراءة في بعض المواضع فلا يبعد هنا، وفي قوله: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أنه بمعنى برئنا منكم، وقد قال الشرفي بعد أن فسرهما بغير هذا قال: «والمعنى أنكرناكم وقطعناكم» انتهى.

وقوله: ﴿وَمَاؤَنُكُمْ النَّارُ﴾ أي بشرككم وما اكتسبتم من أسبابها، وقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ مِّنْ تَنْصِيرٍ﴾ تحذير من توهم أن أصنامهم سينصرونهم إن بعثوا.

إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ
النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ

﴿٦٦﴾ فَتَأَمَّنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٧﴾
فَأَمَّنْ لَهُ لُوطٌ تَفْرِيعَ عَلَى إِنْذَارِهِ لِقَوْمِهِ، أَمَّنْ لَهُ: أَجَابَهُ إِلَى الْإِيمَانِ وَأَطَاعَهُ
وَصَدَقَهُ وَلَعَلَّهُ أَمَّنْ لَهُ حِينَ كَلَّمَ قَوْمَهُ بِمَا حَكَاهُ اللَّهُ عَنْهُ فَأَظْهَرَ لُوطٌ إِيمَانَهُ لِأَنَّ
مِنَ الْبَعِيدِ أَنَّهُ كَانَ مُشَارِكاً لِقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ فِي مُحَاوَلَةِ إِحْرَاقِهِ، فَلَا بُدَّ أَنَّهُ كَانَ
يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ثُمَّ أَظْهَرَهُ فِي آخِرِ الْأَمْرِ حِينَ أَنْجَا اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ مِنَ النَّارِ، وَبَطَلَ أَمْرَ
قَوْمِهِ، وَصَارُوا الْأَسْفَلِينَ.

وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ لِأَنَّهُ قَدْ أَذِنَ لَهُ بِفِرَاقِ قَوْمِهِ
فَهَاجَرَهُمْ وَلَمْ يَبْقَ بَيْنَهُمْ مَعَ إِصْرَارِهِمْ عَلَى الشُّرْكِ، وَكَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى رَبِّهِ
لِأَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ حَيْثُ لَا يَرَى الْمُنْكَرَ، وَلَا يَسْمَعُهُ فَكَانَتْ هِجْرَتُهُ فِي
طَاعَةِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فَهُوَ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَعِزَّ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِ،
وَيَحْفَظُهُ أَوْ فَهُوَ الَّذِي لَا يَرْضَى لِأَوْلِيَائِهِ بِالْبَقَاءِ حَيْثُ يَعْصِي اللَّهُ دُونَ أَنْ
يُخْرِجُوا إِلَيْهِ لِأَنَّ بَقَاءَهُمْ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ مُسْتَضَعْفُونَ يَنَافِي عِزَّتَهُمُ بِالْإِيمَانِ
وَذَلِكَ لَا يَنَاسِبُ عِزَّةَ رَبِّهِمْ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَيْكَ سَيْرَ حَمُّهُمُ اللَّهُ إِنْ
اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١] كَمَا أَنَّ بَقَاءَهُمْ بَيْنَهُمْ فِي غَيْرِ الْمَعْصُومِينَ مِظَنَّةٌ
ضَعْفٌ إِيمَانَهُمْ؛ لِأَنَّ مُشَاهَدَةَ الْمَعَاصِي وَسَمَاعَهَا عَلَى الْإِسْتِمْرَارِ يَقْلِلُ نَفَارَ
النَّفْسِ مِنْهَا وَيَقْرُبُ مِنَ الرِّضَى بِهَا، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ
يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذَكَرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٦٩] فَمِنَ الْحِكْمَةِ
الْأَمْرُ بِالْهَجْرَةِ مِنْ بَيْنِهِمْ وَأَنْ لَا يَكُونَ الْبَقَاءُ بَيْنَهُمْ مَرْضِيّاً عِنْدَ اللَّهِ.

﴿٢٧﴾ وَلَوْ طَآ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَتَيْتُكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ

وهذا في غير المعصوم، فأما المعصوم فإنما بقاؤه بينهم ينافي مبايعتهم ومعاداتهم؛ لأن فيه إيناساً لهم حيث يشركون وهو يرى ويسمع، ويكذبون بآيات الله وهو ساكت فإن بقي مقاوماً لهم ومعارضاً فذلك مشقة عليه بغير موجب حيث قد جازت له الهجرة، وانتهت مهمته معهم، فليس من الحكمة بقاؤه بينهم حيث لا يستطيع الإنكار أو لا ينكر إلا بقوله، وهم لا يبالون بقوله، وقد أنكره بما يكفي لإبلاغ الحجة، وإنما يعارضونه بالتكذيب والسخرية، فبقاؤه فيهم ليس من الحكمة، فمن الحكمة إيجاب الهجرة عليه صيانة له وإكراماً، انظر إلى قول الله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿وَرَأَيْتُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥].

﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أُجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٠﴾ وَوَهَبْنَا لَهُدَّ أَي لِبَرَاهِيمَ عليه السلام، ﴿إِسْحَاقَ﴾ ابناً له ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ ابن ابنه إسحاق، وهذا في حال أن قد هاجر، فحمد الله على ذلك وعلى أن وهب له إسماعيل كما في (سورة إبراهيم) ولعل ذكر إسحاق ويعقوب هنا لمناسبة دعوة رسول الله ﷺ لبني إسرائيل في المدينة المنورة.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ﴾ في البطنين بعد إسماعيل وإسحاق، فكانت نعمة لأبيهم إبراهيم وفضيلة لذريته على غيرهم فبطل بذلك إنكار العنصرية الإنكار المطلق، فأما العنصرية التي لم يدل عليها القرآن ولا السنة أو الغلو في العنصرية التي أصلها ثابت فذلك غير صحيح.

وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ^ط فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا
أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ لعل ذلك ما جعل له في الدنيا من الفضل مثل اتخاذه خليلاً، ولسان صدق في الآخرين جعله له، ومثل زيادة الهدى والنور والحياة الطيبة وجعله إماماً للناس، والله أعلم ﴿وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصّٰلِحِينَ﴾ ينال من الثواب والكرامة والنعيم ما نال الصالحون وهو مفضل فيه على قدر فضله، قال الشريفي: في أرفع الدرجات في الجنة.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَلُوطًا﴾ وأرسلنا لوطاً ﴿إِذْ قَالَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ هذا خبر مؤكد وبعده سؤال توبيخ ﴿أُتِيْنَكُمْ﴾ تعدد إنكاره عليهم تارة بالخبر، وتارة بالسؤال الموبخ لهم، و﴿الْفَاحِشَةَ﴾: الزائدة في قبحها البالغة في القبح مبلغاً شنيعاً، يعني إتيانهم للرجال شهوة وقوله: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ﴾ دعوة إلى تركها كما لم يفعلها من قبلهم؛ فتركها مع عدم القدوة فيها أهون، وليس لهم سلف يتأسون به، فهي منهم أقبح، ولأنهم سنوا سنة سيئة، وذلك زيادة في قبحها.

﴿أُتِيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ ﴿لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ تنكحونهم ﴿وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ﴾ وقطع السبيل: ظلم لمن مرّ واعتدوا عليه، ولمن ترك المرور خوفاً منهم ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ﴾ محل اجتماعكم ﴿الْمُنْكَرَ﴾.

قال في (الصحيح): «والنديّ على فعيل مجلس القوم ومتحدثهم، وكذلك الندوة والنادي والمنتدى، فإن تفرق القوم فليس بنديّ، ومنه سميت دار الندوة بمكة التي بناها قُصَيّ لأنهم كانوا يندون فيها أي يجتمعون للمشاورة» انتهى. وقال الشرفي: «والنادي: مجتمع القوم ما داموا فيه فقط، وإلا فهو مجمع ومجلس» انتهى المراد.

وذكر ذلك (صاحب لسان العرب) والمنكر هنا ما تنكره العقول، وكونه في ناديهم دلالة على تراضيهم به، وتوافقهم عليه، فلا ينكرون المنكر، ولا يعيبون المعيب، وفعله في حال حضورهم ومشاهدتهم دليل عدم المبالاة بالعار، وعدم الحياء، وخبت نفوسهم.

وقال الشرفي: «يعني ما كفاكم قبح فعلكم حتى تضموا إليه قبح الإظهار» انتهى، والذي في نسخة (المصابيح): قبيح فعلكم، ولعله غلط بزيادة الياء، وإنما هو: قبح فعلكم - بضم القاف وسكون الباء.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ تكذيباً لرسولهم ومبالغة في تكذيبه وإصراراً على باطلهم، ومبالغة في عنادهم، والحصص إضافي فلم يجيبوا بالموافقة والطاعة ولا بطلب حجة بل قالوا اتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين، ونظيره في كون الحصر إضافياً قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٦٤] أي لا على غيرها، وليس المراد العموم لأن الصالحين يكسبون لأنفسهم، ومعنى قولهم: ﴿أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ نفى صدقه والمبالغة في نفى بطلب عذاب الله إن كان صادقاً، بمعنى أنهم لا يطلبون عذاب الله إن كان صادقاً إلا لأنهم واثقون أنه غير صادق.

وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا
 أَمْرَاتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٢٢﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ
 الْقَرْيَةِ رَجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا
 مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَإِلَىٰ مَدِينَةِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ

﴿٢٢﴾ «وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا
 لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتَكَ كَانَتْ مِنَ
 الْغَابِرِينَ» ﴿٢٣﴾ «وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا» الملائكة الذين يهلكون أهل
 القرية وكانوا ممثلين بشراً «سَيِّئًا بِهِمْ» ساءه مجيئهم ومعنى «سَيِّئًا»
 ضد سرٌّ لأنه ظنهم أضيافاً من الناس وخاف أذية قومه على أضيافه، كما
 وقع منهم، انظر قصته معهم في (سورة هود) و (سورة الحجر) «وَقَالُوا لَا
 تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ» فهم لن يصلوا إلى ما حاولوه من المنكر بأضيافك، وإنما
 نحن رسل ربك بإهلاكهم «إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ» من عذابهم «إِلَّا أَمْرَاتَكَ»
 كانت من الماضين بالعذاب، المهلكين الذين لا ننجيهم.

﴿٢٣﴾ «إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رَجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا
 يَفْسُقُونَ» هذا مما قال الملائكة للنبي لوط عليه السلام، حكاه الله عنهم والرجز
 الحجارة التي تنزل عليهم مع الحاصب فهي عذابهم الذي تكرر ذكره في
 القرآن، انظر (سورة الذاريات) وغيرها.

﴿٢٤﴾ «وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» ﴿٢٥﴾ «مِنْهَا» أي من
 القرية التي أمطرت مطر السوء كما مر في (سورة الفرقان) قال الشرفي في
 (المصابيح): «ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا﴾ أي من القرية ﴿آيَةً
 بَيِّنَةً﴾ أي عبرة ظاهرة لمن يعتبر هو آثار منازلهم الخربة». انتهى.

يَقَوْمٍ أَعْبَدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾
فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٣٧﴾

ومعنى ﴿ءَايَةً﴾ دليلاً وعلامة تذكر بأهل القرية المهلكين، فتكون عبرة لمن بعدهم فهي بقية من جدرانها، لو لم يكن إلا القاعدة التي هي الأساس الظاهر لمن مر بها، وقوله تعالى: ﴿لَقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي يستعملون عقولهم فيعملون الآية التي فيها عبرة لهم فيعتبرون بها.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَقَوْمٍ أَعْبَدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ وأرسلنا ﴿إِلَى مَدْيَنَ﴾ قال الشرفي: «وهي قرية شعيب سميت بمدين ابن إبراهيم» انتهى، والمراد: أهل قرية شعيب، ولذلك قال: سميت بمدين بن إبراهيم، لأن القبائل تسمى بأسماء جدودها.

﴿فَقَالَ﴾ - عطف على ﴿أَرْسَلْنَا﴾ - ﴿يَقَوْمٍ أَعْبَدُوا اللَّهَ﴾ أي وحده ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ بالإيمان والتقوى، لأن المؤمن المتقي يرجو رحمة ربه في اليوم الآخر وهذه خاصة للمؤمن ليست لغيره، وبها تسهل عليه مصائب الدنيا وفراق الحياة الأولى، ويمكن أنه أراد حصلوا الرجاء بالإيمان والتقوى ليحصل لكم المرجو ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بإفساد المعاملة بالخيانة في المكيال والميزان وغير ذلك، وقد مرت قصته مبسطة في (الأعراف) و(هود).

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ﴾ كذبوا شعيباً فأخذتهم رجفة أرضهم بهم، ولعلها رجفت بهم لصيحة ملك لأن الصوت الشديد ترجف منه الأرض، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾ لعلها عبارة عن بلدهم، حيث قال: ﴿دَارِهِمْ﴾ ولم يقل: دورهم، ويقال لبلاد الإسلام: دار الإسلام، وبلاد الكفر: دار الكفر.

وَعَادًا وَثُمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسْكِنِهِمْ^ط وَزَيْنَ لَهُمُ
الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُرُوتَ

قال الشرفي: «وقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ﴾ أي
باركين على الركب مكبين ميتين، وعلى وجوههم وأيديهم ساقطين» انتهى.

وقال في (الصحيح): «جثم الطائر: أي تلبّد بالأرض، يجثم ويجثم جثوماً
وكذلك الإنسان، قال الراجز: إذا الكماة جثموا على الركب» انتهى المراد.

﴿وَعَادًا وَثُمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسْكِنِهِمْ^ط وَزَيْنَ لَهُمُ
الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ ﴿وَعَادًا وَثُمُودًا﴾
أهلكناهم أو أرسلنا إليهم فكذبوا فأهلكناهم؛ لأنه عطف على قصة مدين
﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسْكِنِهِمْ﴾ الخالية وآثارها الباقية: إما تبين لكم
إهلاكهم تبين لكم من مساكنهم أي دلتكم مساكنهم على هلاكهم، وإما تبين
لكم بعض مساكنهم أي الخالية منهم التي هي عبرة لكم أيها المكذبون
محمد ﷺ

﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ فأصروا عليها ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾
أي سبيل الله الذي هو الإيمان برسلهم واتباعهم ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي
أغواهم الشيطان عن الطريق وكانوا قادرين على إبصارها وسلوكها، أو على
جعلها مبصرة بالنظر فيها أو طالبين للبصيرة فلما جاءتهم صدوا عنها.

قال الراغب: وقوله - عز وجل - : ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي طالبين
للبصيرة، ويصح أن يُستعار الاستبصارُ للأبصار، نحو: استعارة الاستجابة
للإجابة» انتهى.

وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَسْتَكْبَرُوا فِي
الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ
الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا ۖ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا

قلت: يفسر هذه الآية قوله تعالى في (عاد): ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا
وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا
يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦] فالمعنى في هذه الآية صدهم عن السبيل
وكانوا أهل بصائر لكنهم لم يستعملوا بصائرهم فلم تنفعهم. وقال الشرفي:
«وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ» أي عقلاء متمكنين من النظر أو مستبدين برأي
أنفسهم مستغنين بجهلهم والعرب تقول: فلان مستبصر برأي نفسه».

﴿وَقُرُونٌ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ
فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ ﴿وَقُرُونٌ وَفِرْعَوْنَ
وَهَمَانَ﴾ أهلكتناهم أو أرسلنا إليهم فكذبوا فأهلكناهم والثاني أرجح؛
لأنه أوفق للسياق ﴿جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدالة على صدقه وأنه رسول
من الله ﴿فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ استكباراً متشرباً شائعاً ذائعاً أظهره في
قومهم ولم يخصصوا به أنفسهم.

ومن أمثلة ذلك ما حكاه الله تعالى في قوله: ﴿وَنَلَّيْ فِرْعَوْنَ فِي قَوْمِهِ قُلَ يَا
قَوْمِ أَنِّي لَا مُلْكُ لِي مِصْرَ وَهِيَ الْآنَهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ
مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَذُّ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥١-٥٢] وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا
سَابِقِينَ﴾ ما كانوا فاتتين لنا بل أدركناهم فأخذناهم.

أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٥﴾ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ

﴿٤٥﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ فَكَلَّا مِنْ الْمَذْكُورِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ إِلَى هَامَانَ أَخَذْنَاهُ بِذَنْبِهِ أَخَذًا حَقًّا مُسْتَحَقًّا؛ لِأَنَّهُ جَزَاءٌ عَلَى ذَنْبِهِ وَيَسَبُّ ذَنْبِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَهُمْ قَوْمُ لُوطَ، وَالْحَاصِبُ الَّذِي يَرْمَى بِالْحَصْبَاءِ، وَهِيَ الْحِجَارَةُ الصَّغَارُ، وَقَدْ أَهْلَكْتَهُمْ وَشَبَّهَتْ بِالْمَطَرِ لِنَزْوِلِهَا عَلَيْهِمْ، وَإِرْسَالُ الْحَاصِبِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَفَعَلَ الْمَلَائِكَةُ، أَوْ الْمَلَائِكَةُ رَمَوْهُمْ بِهَا فِي خِلَالِ الْحَاصِبِ، أَوْ هُمُ الْحَاصِبُ نَفْسَهُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ [الذَّارِيَات: ٣٢-٣٣] فَكَانُوا فِي صُورَةٍ رِيحٍ شَدِيدَةٍ تَرْمِي بِالْحَصْبَاءِ قَوْمَ لُوطَ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ الَّتِي أَدَّتْ إِلَى الرَّجْفَةِ وَهَذَا عَذَابُ مَدْيَنَ وَثَمُودَ، وَلَعَلَّهُ أَيْضًا عَذَابُ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ، لِأَنَّهُمْ قَدْ ذَكَرُوا فِي هَذِهِ السُّورَةِ بَعْدَ قَوْمِ نُوحٍ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النَّحْل: ٢٦] قَالُوا: هُمُ قَوْمُ إِبْرَاهِيمَ، فَتَرَجَّحَ أَنَّ عَذَابَهُمْ كَانَ بِالرَّجْفَةِ الَّتِي سَبَّيْهَا صَيْحَةُ رَجَفَتْ تَحْتَ بُنْيَانِهِمْ فَسَقَطَ فَوْقَهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ، وَهُوَ قَارُونُ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا، وَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَفِرْعَوْنُ وَهَامَانَ، وَلَعَلَّهُ خَصَّهْمَا بِالذِّكْرِ هُنَا مَعَ أَنَّ اللَّهَ أَغْرَقَهُمَا وَقَوْمَهُمَا لِيَكُونَا عِبْرَةً لِلْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَرِيشَ، وَهَذَا السِّيَاقُ فِي الَّذِينَ كَذَبُوا الرُّسُلَ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُمْ وَقَدْ أَهْلَكَ اللَّهُ غَيْرَهُمْ لِسَبَبٍ آخَرَ، مِثْلُ أَصْحَابِ الْفِيلِ، فَلَمْ يَذْكُرُوا فِي هَذَا السِّيَاقِ.

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾ تأكيد لنفي ظلمهم ودلالة على أنه ليس من شأنه تعالى، كأنه لا يتصور منه، ونفي أنه ظلمهم تأكيد لكون هلاكهم بذنوبهم تحذيرا للمكذبين بمحمد ﷺ، وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لأنهم أوقعوا أنفسهم في استحقاق العذاب بذنوبهم، فوقع عليهم العذاب بتسبيهم فكانوا هم ظلموا أنفسهم بالذنوب الموجبة ولعله جاء التعبير بقوله: ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لتكرر أسباب العذاب منهم ليدل الكلام على ذلك، وهذه الآية وأمثالها في القرآن دليل واضح على بطلان القول بالجبر بأي صورة كان القول به.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَرَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ مثل المشركين الذين اتخذوا من دون الله أولياء يتولون أمورهم ويحفظونهم وينصرونهم أي شركاء يعبدونهم ليتولواهم فمثلهم في اتخاذ شركائهم أولياء ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ﴾ وهي دويبة تصنع أرق من القرطاس وأضعف بيتاً لها فهو بيت ضعيف مثل به شركاءهم لضعفها عن نفع الذين اتخذوها وجعل أي العنكبوت مثلاً للمشركين لأنهم أشبهوا العنكبوت، وهذا تحقير لهم وتسفيه لعقولهم أما العنكبوت فإنها تستفيد بنسجها صيداً لها لأنها تصيد به الذباب، بخلاف المشركين فلا تفيدهم أصنامهم شيئاً، والتمثيل إنما هو في اتخاذ الضعيف ﴿وَإِنَّ أَوْهَرَ الْبُيُوتِ﴾ الوهن: ضعف ضد الصلابة، وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي المشركون لو كانوا يعلمون لو كان من شأنهم أن يعلموا لعلموا أن مثلهم مثل العنكبوت.

يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿١٢﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ أَتُلُّ مَا أَوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ

﴿١٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٣﴾ إِنَّ اللَّهَ الَّذِي جَعَلَ الْأَصْنَامَ مِثْلَ بَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ ﴿يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ من أي جنس كان من حجارة أم من نحاس أم من ذهب أم من غيره فهو عالم به وبضعفه عن نفع المشركين، ولم يمثله بالعنكبوت غلطاً بل هو الحق الذي ضربه مثلاً بعلمه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فلا يرضى الشرك ولا يأذن به للمشركين كما زعموا.

﴿١٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿١٣﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ ﴿الإشارة إلى المثل المذكور قريباً في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ وإلى غيره من الأمثال المذكورة في القرآن، والأمثال تصور الأمر بما يوضح حكمه أو فائدته أو قبحه أو نحو ذلك، زيادة توضيح سواء كان فيها أداة تشبيه أو كلمة مثل أم لا، مثل قوله تعالى: ﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ إلى آخر الآية [البقرة: ٢٦٦] فقد بينت قبح إحباط العمل ومضرته على الإنسان، فقوله تعالى: ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ بيان لفائدة ذكرها وهي أنها تضرب للناس ليفهموا ويعقلوا فينتفعوا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ وما يحفظها ويعقلها عقل رعاية ويعقل بذلك فائدتها إلا من يعلم؛ لأنه فكر واستفاد بالنظر في آيات الله المعرفة لمعانيها، لا من هو معرض عن كتاب الله لا يتفهم ولا يتدبر فبقي على جهله فهو لا يعقل الأمثال، كما لا يعقل غيرها من آيات الله ومعنى يعقلها يفهمها.

قال الراغب: «العقل يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيدة الإنسان بتلك القوة عقل، ثم قال: وأصل العقل الإمساك والاستمساك كعقل البعير» انتهى المراد. وفي (لسان العرب): «وعقل الشيء يعقله: فهمه» انتهى.

قال الشريفي في (المصاييح): «قال الهادي عليه السلام: الأمثال فهي ما ضربه الله لعباده من الأمثال في كتابه مثل قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ إلى قوله: ﴿..وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥] ومثل قوله: ﴿أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ..﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

ومثل قوله: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ..﴾ إلى قوله: ﴿..لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨] وغير ذلك مما يطول شرحه، ويكثر في الكتاب ذكره، فلا يعلمه ولا يعقله إلا العالمون بغامضها الراسخون في تفسيرها، ومن عقلها العلم بما كان فيه أمر أو نهي منها والرجوع إلى حكمها والتصديق بكل ما فيها» انتهى. وفي نسخة (المصاييح): «وَمِنْ عَقْلِهَا بِالْعِلْمِ» وعندي أنه غلط، وأن الصواب: العلم بدون باء، وهو مبتدأ خبره من عقلها، ولعله يعني أن من عقل أمثال الله فهم ما تدل عليه من أمر أو نهي مع الإيمان به، والتصديق به والعمل به، فلا يختص بعلم غامضها - والله أعلم.

﴿۞﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿۞﴾ بالحق بالحكمة والصواب ليس باطلاً ولا عبثاً، وهذا يشير إلى أنه خلقها ليسكنها عباده ثم ليتلى عباده بالأمر والنهي فيعبده، ويترتب على ذلك أنه لا بد من الجنة والنار، انظر ما حكى الله عن أولي الألباب: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] ولذلك لا بد من الرسل والكتب، فالمشركون المكذبون للرسل في جهل وغواية عما خلقوا لأجله وعما خلق الله السموات والأرض لأجله.

الصَّلَاةُ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٥٩﴾ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ومعنى آية علامة
ودليل، فالؤمنون يعرفون بها خالقهم وأنه على كل شيء قدير، وبكل شيء
عليم، إلى غير ذلك.

﴿آتِلْ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى
عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ ﴿آتِلْ﴾
يا رسول الله على الناس ﴿مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ الذي هو القرآن
﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أتمها بأركانها وفروضها وشروطها هذا هو معنى إقامة
الصلاة المفهوم من قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ١٠٣]
وذلك لأنه عطف على ذكر صلاة الخوف، فالمعنى: فإذا اطمأنتم فلا تصلوا
مثل صلاة الخوف، بل أتموا الصلاة وهذا هو المعنى الجامع لتفسير إقامة
الصلاة بجعلها قيمة لا عوج فيها يكون بمخالفتها للمشروع، وجعلها غير
ميتة بل يحييها المصلون من قولهم: «قامت السوق» والحمد لله.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ هو مثل
قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ
السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤] وتفسير الإذهاب بالنهي عنها حتى لا تقع هو الظاهر،
بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ..﴾ [الأحزاب: ٣٣]
فالصلاة تنهى عن الفحشاء من حيث هي حسنة تذهب السيئات، وذلك
لأنها طاعة لله مشتملة على حسنات من الخشوع والذكر والركوع والسجود
وغير ذلك.

يؤكد أن الحسنات تمنع السيئات ما جاء في الإنفاق: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٥] وفي الجهاد: ﴿وَالَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ [عمده: ٤] وفي الصيام: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

أما قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فيحتمل ولذكر الله في الصلاة أكبر من نهيها عن الفحشاء والمنكر، ويحتمل ولذكر الله أكبر في الصلاة وغيرها أكبر من جملة الصلاة نهياً عن الفحشاء والمنكر، ويحتمل ولذكر الله بذكره للناس وتعليمهم توحيداً وعدله وصدق وعده ووعيده أكبر.

قال الشريفي في (المصابيح): «وما أحسن قول الهادي عليه السلام، فإنه قال: الذكر ها هنا الدعاء إلى الله وفي ذلك ما حدثني أبي عن أبيه أنه كان يقول في قوله الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ هو الدعاء إلى الله، قال عليه السلام، [لعله الهادي عليه السلام]: ويدخل مع ذلك من ذكر الله شغل القلب في التفكير في جلال الله وقدرته وعظمته وسلطانه والذكر له بما ذكر به نفسه من توحيدته وعدله وصدق وعده ووعيده. ذكره في الأحكام» انتهى من (المصابيح).

وهذا القول لم يذكر فيه المفضل عليه بقوله تعالى: ﴿أَكْبَرُ﴾ ولعلمهم أرادوا أكبر من الصلاة لأن الخطاب للرسول ﷺ بقوله تعالى: ﴿آتِلْ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ..﴾ إلى قوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فالمعنى: اتل ما أوحى إليك وأقم الصلاة واذكر الله لأمتك فذكر الله أكبر من الصلاة وأعظم لأنه أساس الدين لأن أول الدين معرفة الله تعالى، والقول الأول هو أرجح عندي من حيث هو تفسير للآية، لأن الله تعالى قال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] فهو ترغيب في الصلاة بأن ذكر الله فيها أكبر من كونها تنهى، والله أعلم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ من صالح أو غيره فارغبوا في ثوابه.

أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ^ط وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَلِكَ أُنزِلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ^ج فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ^{هـ} وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ^ح وَمَا تَجْحَدُ بِغَايَتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ

﴿٤٦﴾ وَلَا تَجْدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ التي هي أحسن، الكلمة المفيدة بالحجة الواضحة والتعبير اللين.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ وهم المعاندون الطاعنون في الإسلام فهم أهل للغلظة قال تعالى: ﴿وَاعْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣] ﴿وَقُولُوا ءَامَنَّا﴾ قولوا لهم في جدالكم لهم: ﴿ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿مُسْلِمُونَ﴾ أي مخلصون أنفسنا ووجوهنا أي عبادتنا لله وحده، فقوله: ﴿أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ وهو القرآن ﴿وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ التوراة والإنجيل آمنا بالكل، وأنتم لم تؤمنوا به ﴿وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ فلم نتخذ غيره، وأنتم اتخذتم عيسى وعزير والأحبار والرهبان في جعل الحكم لهم كما هو الله يحلون ويحرمون، ونحن أسلمنا لله وحده.

﴿٤٧﴾ وَكَذَلِكَ أُنزِلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ^ج فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ^{هـ} وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ^ح وَمَا تَجْحَدُ بِغَايَتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧] ومثل ذلك الذي قرأناه عليك يا رسول الله هنا مثله في أنه آيات بينات توجب على أهل الكتاب وغيرهم الإيمان به ﴿أُنزِلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ على هذه الصفة ﴿فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ رزقناهم علمه كلامه ومعناه.

تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٦٢﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ

فهم علماء قد عرفوا ما فيه من التبشير بك وعلاماتك حتى عرفوا هذا القرآن كما يعرفون أبناءهم فهم يؤمنون به ﴿وَمِنْ هَؤُلَاءِ﴾ الذين حولك ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أي بالقرآن، والراجع: أن الإشارة إلى أهل مكة أو إليهم وإلى من حولهم، وعلى هذا تكون هذه الآية مما نزل بمكة.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ بأنعم الله؛ لأن الله أنعم عليهم بالرسول والقرآن، وتبين لهم بالآيات صدق الرسول وأن القرآن كلام الله فكفروا تلك النعمة، وسائر نعم الله تعالى عليهم ولو شكروا لنالوا نعمة الهدى التي هي أعظم النعم.

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ من قبل هذا القرآن ما كنت تتلو من قبله أي ﴿كِتَابٍ﴾ صغير أو كبير ﴿وَلَا تَخْطُهُ﴾ أي لا تكتب أي كتاب صغير أو كبير ﴿إِذَا﴾ لو كنت تقرأ مكتوباً أو تخطه ﴿لَارْتَابَ﴾ في صدقك ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ الذي لم يؤمنوا بالقرآن ولا بالرسول، فكان يحصل لهم ريب بسبب القراءة المتقدمة أو الكتابة لو كانت لأنهم يجوزون حينئذ أنك تعلمته من كتب متقدمة، وهذا في المبطلين الذين لم يؤمنوا بهذا الكتاب من أجل عجزهم عن الإتيان بسورة من مثله، فأما أهل الحق الذين نظروا في القرآن أنه لو لم يكن من الله لاستطاعوا أن يأتوا بمثله فأمنوا بأنه من الله فهم لا يرتابون لو كنت تتلو الكتاب أو تخطه لأن القرآن قد كفاهم آية بينة فسواء كنت كاتباً أم لم تكن.

بِأَيِّتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿١٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٧﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا

﴿١٦﴾ ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي هذا الكتاب ﴿آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ لا ريب فيه؛ لأنه اشتمل على سور، وكل سورة آية تدل على أنه من الله لعجز العرب عن أن يأتوا بمثله، وكذلك هو آيات بما فيه من القصص الحق المفصل المطابق لما في الصحف الأولى، وكذلك هو آيات بما فيه من الإخبار بالغيب، وصدق الإخبار مثل: ﴿وَمَنْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ٣] ومثل: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا...﴾ [البقرة: ٢٤] فغلب الروم كما أخبر ولم يأتوا بسورة من مثل القرآن. وعلى الجملة كل ما في القرآن من الدلائل على أنه من الله آيات بينات لمن نظر وطلب الحق.

وقوله تعالى: ﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ إما بمعنى أن الذين أوتوا العلم يحفظونه غيباً وهم رسول الله ﷺ وعلي عليه السلام، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه، في وقت نزول هذه الآية، ويمكن أن أبا ذر منهم وغيره ولا يجب أن يكون في كل عصر كذلك، بل يكفي أنه كذلك في وقت نزول الآية مع أن كثيراً من العلماء يحفظونه في صدورهم وإما بمعنى بينات في صدور الذين أوتوا العلم أي بينات لهم.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ أهل الحيف والجور فهم يجحدونها مع علمهم أنها آيات الله ظلماً منهم وعلواً.

﴿١٧﴾ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وقال الجاحدون الظالمون: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ﴾

عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي

على محمد ﴿ءَايَتٌ﴾ تدل على صدقه ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ وهذا نفي لكون القرآن آيات نزلت عليه من ربه فأرادوا أنه لم ينزل شيء كفرة منهم.

﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فهو الذي يأتي بها، فأما أنا فلا أستطيع أن ينزل الله عليّ ما لم يشأ أن ينزله هو سبحانه لا شريك له في ملكه ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أُنذر المكذبين عذاباً شديداً وذلك لا يوجب لهم حقاً في اقتراح آيات من الله غير ما قد أنزل بل يوجب عليهم الحذر من العذاب وطلب الحق سعيّاً في نجاتهم والنظر فيما قد أنزل الله من الآيات والإيمان بها لينجوا من عذاب الله.

وقوله: ﴿مُبِينٌ﴾ إما بمعنى يبين ما أُنذر لأنه قد فصل ما أُنذرهم أنه نار تلظى وأنه جهنم لا يموت فيها ولا يحيى، وأنهم خالدون فيها أبداً، وإما بمعنى يبين أنه نذير صادق لما قد جاء به من الآيات الدالة على صدقه، وكلا المعنيين صحيح.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا﴾ صدقناك يا محمد بأن ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ فيسمعونه ويعلمون أنه خارق ليس من كلام البشر، فذلك يكفي من طلب الحق ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ في إنزاله عليك يتلى عليهم ﴿لَرَحْمَةً﴾ من رحيم أنزله رحمة للعالمين ﴿وَذِكْرَى﴾ موعظة تذكر بالحق وبالجزاء للمكذبين والجزاء للمؤمنين مما يتنفع به من شأنه أن يؤمن إذا سمع الآيات البينات، فأما المعاندون فلا حق لهم بعد آيات الله المنزلة.

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ
أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٦﴾ وَدَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى
لِّجَاءِهِمْ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾
﴿قُلْ﴾ يا رسول الله للمكذبين لك ﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾
يشهد أنني قد بلغتكم ما أرسلت به، وأقامت عليكم الحجة ويشهد أنكم
كذبتُم بآيات الله فذلك يكفي، ولا يهمني بعد ذلك تكذيبكم لأن الله تعالى
يحكم بيني وبينكم يوم القيامة فيشيب المحق ويعاقب المبطل، لأنه ﴿يَعْلَمُ مَا
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو يعلم ما كان بيني وبينكم.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ بدون حجة ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ مع قيام
حجته عليهم ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لا من آمن بالله وبما أنزل وبالرسول
فلن يكون خاسراً لأنه ينجو من عذاب الله أما المؤمنون بالباطل الكافرون
بالله، فإنهم يخسرون يوم القيامة أنفسهم فلا يبعثون حياة أنفسهم ولنعمة
الحياة إنما يبعثون ليعذبوا في جهنم خالدين، فهم الخاسرون وذلك هو
الخسران المبين.

﴿وَدَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لِّجَاءِهِمُ الْعَذَابُ
وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ ويطلبون منك
تعجيل عذابهم لزعمهم أنك كاذب وإذا كنت صادقاً فعجل عذابهم وأنت
صديق، فقد استعجلوك بالعذاب وتكرر منهم استعجالك بالعذاب ﴿وَلَوْلَا
أَجَلٌ مُّسَمًّى لِّجَاءِهِمُ الْعَذَابُ﴾ أجل الله العذاب بحكمته فلو جاءهم لزعموا
أنهم كانوا يؤمنون لو لم يجنهم لأنهم في هذه الحياة التي دعوا فيها إلى الإيمان

بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٢﴾ يَعْجَبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ ﴿٥٣﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ

فأما في الآخرة فإنما يطلبون العودة إلى دار العمل ولا يتبها لهم دعوى أنهم فيها، وكذلك أجل الله تعالى عذابهم العاجل الذي ليس دائماً إنما هو مهلك لهم أجله بحكمته ليفسح لهم المجال لينظروا ويتوبوا إن كانوا تائبين، ولتزداد الحجة عليهم وتؤكد بالإمهال والذي طلبوا تعجيله هو العذاب الذي أنذرهم الرسول وهو عذاب الآخرة، لأن السياق فيه، ولذلك قال تعالى:

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ * يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ فالعذاب آتيهم لا مجال لهم منه وإن أجل وإن جهنم لمحيطة بالكافرين كلهم هؤلاء وسائر الكافرين فهي واسعة تحيط بهم كلهم ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ﴾ لعل يوم متعلق بمحيطه أي تحيط بهم في ذلك الموعد يوم يغشاهم ﴿الْعَذَابُ﴾ يشمل عليهم كل واحد يشتمل عليه لب جهنم من فوقه وجرها من تحته: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] ﴿وَيَقُولُ﴾ العذاب لهم ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي جزاء ما كنتم تعملون.

﴿يَعْجَبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ هذا إرشاد لعباد الله أرشدهم إليه برحمته ليتخلصوا من عذاب المشركين ويحفظوا دينهم فقال تعالى: ﴿يَعْجَبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ فاخرجوا من بين المشركين في أرض الله الواسعة فإنكم تجدون فيها منجاة من المشركين وحفظاً لدينكم.

الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرٌ لِّلْعَمَلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَا

﴿فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ لا تشركوا غيري في عبادتكم فهاجروا لتعبدوني، ولثلا تشركوا وفي ذلك سعادتكم في الآخرة أرشدكم الله إليه برحمته.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾ فلا يمنعكم من الهجرة خوف الموت في الغربة وذلك أن الشيطان يخوفهم لثلا يهاجروا فذكرهم الله أن كل نفس ذائقة الموت فهم لا بد أن يموتوا وإن لم يهاجروا.

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تكون جباناً

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ فثيبكم ثواباً عظيماً دائماً إذا كنتم قد هاجرتم وصبرتم في المحافظة على عبادته وحده وتقواه.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرٌ لِّلْعَمَلِينَ﴾ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٥٩﴾ التي منها الهجرة ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ لنجعلن لهم مباءة مرجعاً ومصيراً من الجنة ﴿غُرَفًا﴾ خيراً من بيوتهم التي هاجروا منها ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وذلك خير من أوطانهم التي فارقوها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ باقين فيها أبداً لا يموتون بخلاف أوطانهم لو بقوا فيها لمااتوا وتركوها قسراً ﴿نِعَمَ أَجْرٌ لِّلْعَمَلِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ في الدنيا على مفارقة الدور والأوطان والأهلين والعشائر، وصبروا على طاعة ربهم ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فيهاجرون وإن خوفهم الشيطان الموت أو الجوع توكلأ على ربهم.

تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ

﴿٦١﴾ ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿وَكَايْنٍ﴾ وكم ﴿مِّنْ دَابَّةٍ﴾ في الأرض من السباع وغيرها ﴿لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ معها حيثما صارت فلا يترك المؤمن المهجرة لخوف الفقر، لأن الله قد تكفل بالرزق ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾ أي الدواب ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ يرزقكم فكيف يمنعكم الرزق إذا هاجرتم إليه.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فهاجروا إليه واسألوه أن يرزقكم وتوكلوا عليه فهو يعلم ما أنتم فيه من هجرتكم وما تكون عليه حالكم، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦].

﴿٦٢﴾ ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ رجع الكلام في المشركين وهذا احتجاج عليهم يقول الله لرسوله ﷺ ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ أي ولئن سألت المشركين ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ تجريان بحسبان ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ في الجواب على سؤالك: ﴿اللَّهُ﴾ أي هو الذي خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر.

يقول الله تعالى: ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ مع إقرارهم بهذا فمن أين يؤفكون يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره، ويجعلون له أنداداً عاجزة من الجمادات فيجعلونها أنداداً لمن خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر، ويحتمل يؤفكون أنه تشبيه لهم بالمافوك في عقله بسحر أو غيره.

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٣﴾ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ

﴿٢٢﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فهو الذي يستحق العباداة لأنه الخالق الرازق وليس الرزق دليلاً على أن الله لا يعذب من يرزقه كما يزعم الكافرون أنهم لن يعذبوا إن رجعوا إلى ربهم، لأن الرازق هو الله لمن يشاء على ما يشاء من بسط للرزق، أو تقدير خلاف البسط، وليس الرزق بالخط والبخت حتى لا يفارقهم في الآخرة كما هو في الدنيا، وقد يرزق الله العبد فيبسط له الرزق، ثم يقدر عليه الرزق فلو كان الرزق بالبخت وكان لا يفارق البخت صاحبه في الدنيا والآخرة لما اختلفت حالة بعض المرزوقين تارة غني وتارة فقير، لكن ذلك بفعل فاعل بكل شيء عليم يفعل ما يشاء ولعلمه بكل شيء يرزق عباده كما تقتضيه الحكمة من بسط أو تقدير.

﴿٢٢﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٣﴾ سَأَلَتْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٢٢﴾ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴿٢٣﴾ هُوَ الْمَطَرُ ﴿٢٤﴾ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ ﴿٢٥﴾ فَأَنْبَتَ النَّبَاتَ ﴿٢٦﴾ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا ﴿٢٧﴾ بِالْجَدْبِ وَعَدَمِ الْمَطَرِ ﴿٢٨﴾ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴿٢٩﴾ الَّذِي أَنْزَلَ الْمَاءَ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا، أَقْرَأُوا بِالْحَقِّ وَلَمْ يَدْعُوا لِأَصْنَامِهِمْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ.

﴿٢٢﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴿٢٣﴾ فقد تبين أن الله هو الرزاق لعباده كما أنه الخالق لهم فهو المالك لهم المستحق للعبادة دون شركائهم ﴿٢٤﴾ بَلْ أَكْثَرُهُمْ ﴿٢٥﴾ أي أكثر هؤلاء المشركين ﴿٢٦﴾ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٧﴾ لا يعلمون ما تدل عليه الآيات الربانية التي يشاهدونها لأنهم لا يستعملون عقولهم ولذلك يشركون.

لَهَا الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكَ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ اللهو: ما يتلهى أي يشتغل به الإنسان من أغراض نفسه ولذاته قال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١] قال الراغب: «اللهو: ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه» انتهى.

وقال الشاعر - وهو امرؤ القيس - :

فألهيته عن ذي تائم محول

واللعب: معروف مثل اللعب بالكرة، قال تعالى حاكياً: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: ١٢] فقله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ﴾ [النكبات: ٦٤] بمعنى أنها تشغل الإنسان عما هو أهم منها وهو الإعداد للآخرة؛ لأن اللهو واللعب فائدتهما لذة وقتية تنتهي في الغالب فتنتهي اللذة ولا تبقى فائدة بعدهما فكان الحياة الدنيا من حيث أنها تشغل عن الآخرة وتذهب فائدتها بالموت إذا اشتغل الإنسان بها كأنها كلها لهو ولعب، والدنيا تشغل عن الآخرة فتفوت على من اختارها الدار الآخرة التي هي الجنة بما فيها من النعيم الدائم والملك الكبير.

﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: الحياة والبقاء» انتهى. وقال (صاحب الصحاح): «والحيوان خلاف المَوْتَان» انتهى. وفي (لسان العرب): «وفي التنزيل ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ أي دار الحياة الدائمة» انتهى، وقال الشرفي: «أي ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة خالدة لا موت فيها فكانها في ذاتها حياة» انتهى.

قلت: إذا كانت قد جعلت حياة فالأظهر أنه أعم من إفادة الخلود فهي حياة السعادة، وحياة النعيم، وحياة القوة، وحياة السرور، وحياة اللذة، كلها وحياة الملك لأن الأشياء المطلوبة توصف بالحياة إذا ظهرت وقويت مثل العلم فيقال: أحيى العلم وأحيى الدين وأحيى النار وغير ذلك.

وهذا لعله مراد الإمام زيد بن علي عليه السلام حيث قال: «الحياة والبقاء» ولم يقل: هي بقاء الحياة، فلعله أراد البقاء في الجنة باعتبار بقائه في نعيمها.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ الراجح أن معناه: لو كانوا يعلمون لعلموا ذلك بخبر الله أي لو كان شأنهم أن يعلموا وكانوا ممن يعلم في الجملة لعلموا أن الدار الآخرة هي الحيوان ولكنهم ليسوا ممن يعلم لأنهم لا ينظرون في دليل ولا يفكرون في طريقة علم بل هم معرضون مستمرّون في جهلهم.

وقال الشرفي في (المصابيح): «لو كانوا يعلمون صحة ما قلنا لآثروا الآخرة ولم يؤثروا الدنيا ولرغبوا عن الفاني إلى الباقي» انتهى.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ ﴿فَإِذَا رَكِبُوا﴾ مع شركهم وإصرارهم على الشرك مع احتجاج القرآن عليهم بقوله: ﴿وَلَيْتُنَّ سَأَلْتَهُمْ..﴾ فأبوا فإذا ركبوا في السفائن أو في السفينة، لأن الفلك يكون للفرد من السفائن وللمتعدد المجموع ﴿دَعَوْا اللَّهَ﴾ خوفاً من الغرق ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الذي هو الدعاء لا يدعون إلا الله ولا يدعون أصنامهم وهذا دليل على أنهم يعلمون أنها لا تنجيهم من الغرق لا تسمع دعاءهم ولا تقدر على إنقاذهم فدعوا الله وحده.

ءَاتَيْنَهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَتُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبِطْلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا

﴿فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ فخرجوا من البحر بنعمة الله وصاروا في البر فأمنوا من الغرق ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي أنه لم يكن عندنا متوقعاً رجوعهم إلى الشرك بعد أن أخلصوا لله في البحر، وعلموا أنه لا ينجيهم من الغرق إلا الله ففاجؤوا بالشرك بعد ذلك حين خرجوا من البحر وصاروا في البر مسرعين إلى الشرك وإلى كفر نعمة الله.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ليكفروا إن كانت لام الأمر فهو تهديد للمشركين مثل: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ..﴾ [فصلت: ٤٠] وهو الظاهر على قراءة ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ بسكون (اللام) فأما على قراءة كسرها فهي تحتمل التعليل لشركهم المفاجئ ليكفروا بما آتيناهم من النعم، ولكن قوله: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ لا يظهر فيه التعليل للشرك، فالأرجح: أن اللامين كلاهما للأمر وأنه تهديد لهم لعنادهم، وأكدته بقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي يوم الجزاء وعند معاينة جهنم، ومفعول (يعلمون) محذوف، فهم سيعلمون ظلمهم لأنفسهم بالشرك وأن الشرك باطل وأن الحق لله وحده ولكن حين لا ينفعهم علم ذلك.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَتُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبِطْلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي قد رأوا ﴿أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا﴾ للكعبة ﴿ءَامِنًا﴾ يتمتعون فيه بالأمان؛ لأنه حرم الكعبة يعترف العرب بجرمته، وأن القتال فيه حرام فهو آمن أي ذو أمن أو آمن أهله مثل: ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] ﴿وَتُتَخَطَّفُ النَّاسُ﴾ أي يقتلون بأخذهم أخذاً سريعاً ﴿مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ خارج الحرم.

جَاءَهُدٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩﴾

قال الشرفي: «كان العرب حول مكة - أي خارج الحرم - يغزو بعضهم بعضاً ويتغاورون وأهل مكة قارون آمنون مع قتلهم وكثرة من حولهم» انتهى. فهذه نعمة عظيمة على من في الحرم ﴿أَفِالْبَاطِلِ﴾ وهو الشرك وغيره ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بدون حجة ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ وهذا السؤال توبيخ لهم شديد.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُدٌ﴾ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾؟ سؤال في معنى النفي أي لا أظلم ﴿وَمِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وهم قد افتروا على الله كذباً في دعواهم: أن الله رضي منهم بالشرك، وأنه حرم ما حرموا من الأنعام ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُدٌ﴾ وهم كذبوا بالقرآن والرسول وما أنذرهم من الآخرة ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ بأي كفر من الافتراء على الله أو التكذيب بما أنزل الله أو غير ذلك من الكفر فحسبهم جهنم مَثْوًى لهم.

والراجح: أن تنكيره لتعظيمه فهو مَثْوًى أي مَثْوًى لهم، والمَثْوًى محل الثواء أي البقاء قال الشاعر:

أَذْنَتْنَا بَيْنَهَا أَسْمَاءُ رَبِّ ثَاوِيْمَلٍّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

قال شارحه: «رب مقيم قمل إقامته» انتهى من (شرح المعلقات السبع). وقوله: ﴿فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ وهي مَثْوَاهُمْ هو من التجريد، مثل الصيد في الفراء وهو نوع من البديع وفيه مبالغة وتأکید، وقد قال تعالى: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [عمد: ١٢] فإذا كانت مَثْوَاهُمْ فهي حسبهم جزاء على كفرهم وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ﴾ تأكيد لذلك كقول الشاعر:

أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكَبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونِ رَاحٍ

فإنه أبلغ مما لو قال: أنتم خير من ركب المطايا.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾
 ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ أي في الله وهذا الضمير يفيد العظمة والجلال مما
 يحرك الغضب في المؤمن على أعداء الله الذين جعلوا له أنداداً أو ثنائاً وافتروا
 عليه الكذب وكذبوا بآياته فالجهاد في الله شأن المؤمن دفعاً للشرك به والكذب
 عليه والتكذيب بآياته وهو نوع من الجهاد في سبيل الله رفيع القدر عظيم
 الشأن، وعد الله أهله الهدى لسبيله، وهي ما يقرب إلى الله ويوصل إلى رحمته
 والسبل جمع سبيل، وهي الطريق، وأفادهم أنه معهم لأنهم من المحسنين فإذا
 كان معهم فليثقوا بالنصر على أعداء الله ما كان جهادهم في الله.

والجهاد الحقيقي: هو المغالبة بين جهد وجهد، كما يفيدُه مادة الجهاد
 وإفادته المغالبة بصيغته، فهو القتال وغيره يسمى جهاداً مجاز، ولم يذكر في
 الصحاح إلا الجهاد في سبيل الله يعني الكفاح المسلح، فظهر: أنه الحقيقة مع
 أن الله تعالى قد أمر بالقتال ومعناه واضح.

تم تفسير (سورة العنكبوت) والحمد لله



التيسير في التفسير



سُورَةُ الزُّمَرِ



سُورَةُ الرُّومِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم * غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿١﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ
سَيُغْلِبُونُ ﴿٢﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ۚ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ
يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

ابتداء تفسير (سورة الروم) وهي (مكية)

قال الشرفي: قال في (البرهان): اتفاقاً

﴿١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ
وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيُغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ سِنِينَ ۚ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ
وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ ﴿الْم﴾ من حروف التهجي ومعناها
مسمياتها المستعملة في الكلام وإنما وقع الخلاف في معناها باعتبار الحكمة في
جعلها في أول السورة، فقيل: أقسم الله بها، وقيل: عجز بالقرآن، فأوردها
لتحقيق ذلك، وقيل: الله أعلم بمعناها، وقيل: غير ذلك.

فإذا عرفنا أن معناها الأولي معروف وإنما الخلاف في المقصود من ذكرها
صح أن نقول: إنها من التشابه، ولا يصح أن نقول: إنها خطاب بما لا يعلم
كما لو خطب العربي بالفارسي، وأريد منه أن يفهمه قبل الترجمة فإن هذا
لا يصح من الحكيم؛ لأن الحروف المذكورة قد فهم معناها في نفسها، وإنما
التبس المقصود من إيرادها مع أنها مفهومة في نفسها، وكثيراً ما نجهل حكمة
الله في بعض مخلوقاته ولا يقدح ذلك في حكمة الله، فكذاك جهلنا بالحكمة
في إيرادها إن جهلناها وقد تقدم بعض ترجيح لمعنى أن الله أوحى القرآن
بلفظه وحروفه في بعضها لا مجرد وحي المعنى وحده دون اللفظ.

وأتبع هنا هذه الحروف بذكر غلبة الروم ليبيّن على ذلك الخبر بالمغيب أن الروم من بعد أن غلبوا وضعفوا سيغلبون، وتكون الدولة لهم في المستقبل، وذلك في بضع سنين، والروم كانوا نصارى فغلبوا في أقرب بلادهم إلى العرب، وكانت بلادهم الشام وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ بيان لموعد الغلبة التي ستكون. قال في (الصحيح): «ويضع في العدد بكسر الباء وبعض العرب يفتحها وهو ما بين الثلاث إلى التسع». انتهى المراد.

فإن قيل: كيف حدد الله تعالى تاريخ الغلبة المستقبلية بهذا التحديد مع أنه علام الغيوب قادر على أن يحدد بأعظم من هذا مثل سبع سنين؟

قلنا: هذا يكفي في المقصود لأنه مدة قريبة وإن لم تحدد بأعظم من هذه فهو دليل على أنه وحي الله حين يقع الغلب ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ وهو أيضاً يعارض فرح المشركين إن كانوا فرحوا كما قيل لأن الفرس مشركون يعبدون النار، والروم أهل كتاب، وإذا كانت المعجزة أعني دليل الوحي من الله على عبده ورسوله محمد ﷺ قد تحققت بذكر البضع فهو كاف، ولعله لو حدده الله بالحد الأقصى الدقيق لوجد الكفار سبيلاً إلى تكذيب خبر الله بأن يقولوا إن الغلبة وقعت قبل الموعد بيوم مثلاً، أو بعده بيوم، وأنه لم يطابق الواقع فأما البضع فلا يجدون سبيلاً إلى تكذيبه، وعلى الجملة الله أحكم سواء علمنا أم جهلنا وجه الحكمة، ولم يذكر الفرس في الآية وهم فيما يقال: كانوا هم الغالين للروم، وهم الذين صاروا مغلوبين في بضع سنين على ما يقال في التفسير.

وأما رابعاً: فإن من شأن المؤمنين أن يُسروا بقهر المشركين إذا غلبهم الروم من حين نزلت البشارة بذلك لأنهم مؤمنون بخبر الله فلا يؤجل فرحهم لحين وقوع المخبر به.

وأما خامساً: فليس للإخبار بفرحهم بغلبة الروم أهمية تقتضي ذكره في القرآن لأن الحال التي كانوا فيها كما زعم بعضهم أن المشركين فرحوا حين غلبت الروم لأن الفرس مشركون فهذه الحال تدل على أن المؤمنين سيسرون حين تغلب الروم فارس، ولا موجب لذكره فتبين أن الذي أخبر الله به هو فرح المؤمنين بنصرهم وأكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ فالمناسب لعزة الله تعالى هو نصر المؤمنين فأما تغليب أعدائه فهو لحكمة ولا تقتضيه العزة بالنسبة إلى الغالبين لأنهم أعداؤه، فأما المغلوبون فلم يذكروا حتى نقول قهرتهم عزة الله، وتفسيره بما يناسب المذكور أولى كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١] وكذلك المناسب لرحمة الله نصر المؤمنين فأما تغليب الكفار بعضهم لبعض فإنما هو فتنة ولا يسمى رحمة من الله أعني ليس من الحكمة جعله رحمة كما ليس من الحكمة جعله نصراً بخلاف نصر أوليائه فهو رحمة فهذه إشارات تحقق أن المراد وعد المؤمنين بنصر الله، ولذلك قال تعالى:

﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا تَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

أي أن الله تعالى وعد بنصره وعداً، فلما كان الكلام الماضي بمعنى أنه وعد بنصره نصب وعداً وحين لم يصرح بالعامل أضاف وعداً المنسوب إلى الله فأفاد أن الخبر بالنصر وعد الله، وهو للمؤمنين لأن الكلام ليس موجهاً إلى الروم حتى نجعله وعداً لهم لأنهم كفار بعيد عن موضع الرسول ﷺ لا يخاطبهم بهذا الكلام بخلاف كونه وعداً للمؤمنين فهم عنده يستمعون القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه وعد الله لا يخلف الله وعده، أو لا يعلمون أن الله تعالى لا يخلف وعده وهذا أقرب لغفلة أكثر الناس، وجهلهم بالله تعالى، والأول مبني على أنهم لا يعلمون وعد الله فهم لا يعلمون أن الله تعالى لا يخلفه وقوله تعالى: ﴿لَا تُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ يعم وعده بالنصر ووعد باليوم الآخر والحساب والجزاء فيه، وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأرجح أنه ابتداء تحويل الكلام من ذكر النصر إلى ذكر الآخرة والمراد أنهم لا يعلمون أن الله تعالى لا يخلف وعده بالآخرة وهذا يسمى عند أهل المعاني والبيان حسن التخلص وهو من البديع كما أنه اشتمل على الادماج وهو من البديع أيضاً وليس من مهمة المفسر ذكر ذلك لكنني أعجبت هنا، وفي (سورة المطففين) بحسن الانتقال في الكلام.

﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾
 ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ من أغراض الحياة الدنيا فعندهم خبرة وبصر بالظاهر هذا لعنايتهم به وإقبالهم عليه، فوجهوا له أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم فصاروا فيه أهل خبرة وبصر كالتجارة وصنعة الثياب وغيرها من الصناعات في ذلك العصر.

ولعل قوله تعالى: ﴿ظَهْرًا﴾ إشارة إلى باطن من الحياة، وهو ما أدركه الناس في هذا العصر من اكتشاف الكهرباء، ووسيلة إبلاغ الصوت في الراديو.. وغير ذلك كثير، لكنه من الحياة الدنيا يذهب نفعه بزوال الحياة أي بالموت، والأمر الأهم هو العلم بالآخرة وما وعد الله به فيها وأوعد لأن الاستعداد لها هو المهم لدوام نعيمها ودوام عذابها، فالغفلة عنها مذمومة شأن من لا ينظر في العواقب فهو يعد من السفه فأما غفلة الكفار فأقبح وأضر، ولعلها هي المراد هنا بدليل ذكر الدلائل على أنها حق بعد هذه الآية.

يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ۖ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا

﴿٨﴾ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ ﴿٨﴾ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ راجع إلى قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ أغفلوا ولم يتفكروا وهم يرون ويعلمون أن الله تعالى خلق السموات والأرض وما بينهما من القمر والنجوم والنياز والشمس إن كانت بينهما أغفلوا مع ذلك ولم يتفكروا فكراً ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] أي في ضمائرهم بعقولهم.

وقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي يتفكروا تفكراً معناه أو فائدته قولهم في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض إلا بالحق وأجل مسمى، فأما السؤال فهو بالنسبة إلى الكثير من الناس أو الأكثر سؤال الإنكار التوبيخي على ترك النظر مثل قول إبراهيم عليه السلام: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥] وقول الله تعالى: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٢٠] فهو توبيخ على استمرار الغفلة وترك النظر، وهو إهمال للعقول وبقاء على الجهل، ما خلق الله الحكيم السموات والأرض عبثاً ما خلقها إلا خلقاً بالحق اقتضاه الحق أو صحبه الحق، وبأجل مسمى مصحوبة بأجل ومقترنة حين خلقها به فكأنه شرط في خلقها لولا هو ما صح في الحكمة ولا استقام فإذا كان العالم لا بد أن يفنى فليس فناؤه كافياً في الحكمة، إنما الحكمة في فناؤه مقدمة للآخرة لأن هذا العالم يترك الناس فيه يفعلون ما شاءوا ففناؤهم من دون جزاء للمحسن على إحسانه ولا إنصاف للمظلوم من الظالم يكون خلاف الحكمة فلا بد من الإعادة بعد الفناء ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ [إبراهيم: ٥١] ويميّز بين المحسن والمسيء.

فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً
وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا
كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ ﴿رَبِّهِمْ﴾ الذي خلقهم
ورزقهم فلم يشكروه بل كذبوا رسله الذين أنذروهم لقاء ربهم وعقابه لهم
على ظلمهم وجاءهم بالآيات البينات فكفروا بها وبلقاء ربهم وسؤاله لهم
وحسابه وجزائه كفروا بالبعث فأداهم الكفر به إلى الكفر بما في القيامة.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ
كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ
رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾
﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾ أكفروا بلقاء ربهم ولم يسيروا أي بل قد ساروا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾
فراوا آثار ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الذين كفروا بلقاء ربهم ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كيف هلكوا ودمر الله عليهم
فيعتبروا بهم، ويحذروا أن ينزل بهم مثل ما نزل على من قبلهم ﴿كَانُوا أَشَدَّ
مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ من هؤلاء الكافرين بمحمد ويأذناره لهم فلم تدفع عنهم قوتهم بأس
الله ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾ في عمارتهم لها بالحرث والبناء ﴿وَعَمَرُوهَا﴾ أحيوها
بالحرث والبذر والغرس والسقي والبناء وغير ذلك ﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي
كما عمرها هؤلاء المكذبون لمحمد ﷺ الذين هم بواد غير ذي زرع إنما معظم
عيشهم في التجارة والإجارة على الخدمة ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ كما
جاءكم محمد بالبينات فكذبوا رسلهم ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بإنزال
العذاب عليهم وإهلاكهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لأنهم أكثروا
الفساد وكذبوا الرسل وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه، وجادلوا بالباطل
ليدحضوا به الحق كما صنع الكافرون بمحمد وبالقُرآن.

الَّذِينَ أَسْتَوُوا السُّوْأَىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٠﴾
 اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ

﴿٦٠﴾ ثُمَّ كَانَ عَقِبَةَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا السُّوْأَىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦١﴾ ﴿ثُمَّ﴾ بعد أن أثاروا الأرض وعمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات ﴿كَانَ عَقِبَةَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا﴾ بأن ﴿كَذَّبُوا﴾ رسلهم وباليوم الآخر وغير ذلك كانت عاقبتهم العاقبة السيئة بل ﴿السُّوْأَىٰ﴾ وهو أبلغ من السيئة لأن ﴿السُّوْأَىٰ﴾ تأنيث الأسوأ وذلك كان لأن ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فالتكذيب بآيات الله أساس الفساد كما أن الإيمان بها أساس الصلاح، فلذلك كانت جرماتهم عظيمة، التكذيب بها والاستهزاء بها الذي هو مبالغة في التكذيب وإهانة لما عظم الله، فلذلك كانت عاقبتهم السوء بسبب التكذيب والاستهزاء وما ترتب على التكذيب من الجرائم ولما كان كفرهم بالرسول واليوم الآخر وغيره من جرائمهم من الشرك وتحريم ما أحل الله والتظالم وغير ذلك لما كان ذلك كله أصروا عليه تبعاً لتكذيبهم بآيات الله صح جعل التكذيب سبب العاقبة ﴿السُّوْأَىٰ﴾ لأنه سبب مستقل من جهة وسبب السبب من جهة أخرى، فصَحَّ جعله السبب من الجهتين فهذا تحذير من التكذيب بآيات الله، والاستهزاء بها وتذكير بالمهلكين لأجلهما ليعتبر بهم الآخرون.

﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٦٢﴾ اللَّهُ الَّذِي هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ كما خلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ كما بدأه ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فهو الذي بدأ الخلق ثم إليه في موقف العرض والسؤال والحساب والحكم بين العباد ترجعون يرجعكم إليه ولا ترجعون إلى غيره.

يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِّدُ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾

فالملك له وحده يومئذ وكل المخلوقين يرجعون إليه، فيسألهم كما قال عز وجل: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٣] وقال تعالى: ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مریم: ٩٣] فإذا كانوا إليه يرجعون فماذا يكون؟ قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ * وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ ﴿يُبْلِسُ﴾ قال في (الصحاح): «أبلس من رحمة الله: أي يثس - ثم قال - : والإبلاس - أيضاً - الإنكسار والحزن، يقال: أبلس فلان: إذا سكت غمًّا» انتهى، وفي (لسان العرب): «أبلس الرجل: قطع به عن ثعلب، وأبلس سكت، - ثم قال - : والمبلس: اليأس، ولذلك قيل للذي يسكت عند انقطاع حاجته ولا يكون عنده جواب: قد أبلس - ثم قال - : والمبلس: الساكت من الحزن أو الخوف والإبلاس: الحيرة» انتهى المراد.

فقد ذكروا له ثلاثة معان: اليأس، والسكوت من الغم أو الخوف أو الحزن، والحيرة، وكل الثلاثة تحصل في المجرمين يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ..﴾ الآية [الحج: ٢] وقال تعالى: ﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨] وقال تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦] وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَتَسَوَّأْنَ مِنْ رَّحْمَتِي﴾ [العنكبوت: ٢٣] وإبلاسهم: بمعنى السكوت؛ لانقطاع الحجة لعله في موطن الحساب، ثم في جهنم بعد قول الله تعالى: ﴿اٰخَسَتْوْا فِيْهَا وَلَا تَكْلُمُوْنَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾
وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ
مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَنَ اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ

وعند سكوتهم تجتمع الثلاثة المعاني، فيسكتون دهشة، وحيرة، وبأساً من
الفرج، وعلى القول بحمل المشترك على معانيه لا إشكال في تفسير الآية
بالمعاني كلها إذا عدم المرجح.

وقال الشرفي: «الإبلاس: السكوت بتحير، ففسرها به ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ﴾
أي للمجرمين ﴿مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ﴾ وهذا رد على المشركين الذين قالوا:
﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ﴿وَكَانُوا﴾ أي المجرمون ﴿بِشُرَكَائِهِمْ
كَافِرِينَ﴾ حين لا ينفعهم الكفر بهم وإنما أسوا منهم أشد من يأسهم
في البحر وعلموا أن عذابهم هو من أجل الشرك بهؤلاء الشركاء، وغيره من
جرائمهم فكيف يطمعون في شفاعتهم وكيف لا يكفرون بهم وهذا مثل
﴿كفرنا بكم﴾ في معنى الكفر.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِقُونَ﴾ * فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٧﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ
عطف على ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ لتعدد المعنى الواقع فيه أو عطف على ما
عطف عليه الأول ﴿وَيَوْمَ﴾ ظرف لتفرق الناس وأعيد لعله لأنه كالسبب
لتفرقهم لأنهم لم يتفرقوا في الدنيا مثل ذلك التفرق، لكنهم ﴿يَوْمَ
يُنْفِقُونَ﴾ لأنه يوم الجزاء ويوم التفريق بين المؤمنين والكافرين وفسر
التفرق أو فرع عليه بما يفسر التفرق بأنه افتراقهم بين شقي وسعيد.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ﴾ إما أن الروضة وهي محل النبات الذي يجري فيه الماء إما أنها عبارة عن الجنة سميت كلها روضة كما سميت جنة أو أنهم في رياضها كل مؤمن في روضة والأول أظهر، قال الشرفي: «والروضة عند العرب: كل أرض ذات نبات وماء» انتهى. ومثله في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام)، وعبارة الراغب: «الروض: مستنقع الماء والخضرة» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿يُخَبَّرُونَ﴾ يسرون سروراً قوياً يظهر أثره في وجوههم، قال تعالى: ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾ قال الراغب: «وقوله: ﴿فِي رَوْضَةٍ يُخَبَّرُونَ﴾ أي يفرحون حتى يظهر عليهم حبار نعيمهم» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿يُخَبَّرُونَ﴾ أي هذه عادتهم المستمرة فهذا الفعل يفيد التكرار، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الراجع: أن هذا كفر النعمة عطف عليه تكذيبهم بآيات الله ولقاء الآخرة، لأن الأمرين سبب لعذابهم ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ أهل هذه الصفة ﴿فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ محضرون بقدرة الله تعالى عليهم وقهره لهم لم يدفعوا عن أنفسهم حضورهم للعذاب، ولم يجدوا ناصراً فأحضروا فيه كما يحضر الجاني عند الحاكم ليعاقبه.

قال الشرفي: في تفسير (سورة الصافات): «عن الهادي عليه السلام تفسير قوله تعالى: ﴿فَاطْلَعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [٥٧-٥٥] فاطلعه الله على أمره وأراه محله من النار وسوء القرار، وذلك قوله عز وجل: ﴿فَاطْلَعَ﴾ بمعنى: أشرف فَرَأَاهُ في سواء الجحيم أي في وسط النار فعند ذلك قال المؤمن لقرينه توبيخاً له: تالله إن كدت لتردين، يقال: كدت أن تهلكني بما كنت تغويني في الدنيا وتأمرني أن أكفر بربي ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ أي فلولا رحمة الله ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ في العذاب معك» انتهى المراد.

الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ تَخْرُجُ الْحَيَّ
مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ

﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ﴾ الراجح: أنه
تلقين لنا نقوله في الأوقات المذكورة وذكر مصيرنا فيها قرينة أن المراد التلقين
لنا مثل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: هـ] ولو كان المراد إنشاء تسبيح من الله جل جلاله
لنفسه لما كان وقته إلا حين أنشأه.

فإن قيل: المراد الخبر.

قلنا: فالخبر معناه إثبات مسبح غير مذكور وإذا كان مقدرًا فهو العبد
يسبح الله في الأوقات المذكورة ويكون الخبر بمعنى الأمر، كأنه قيل: تقولون:
سبحان الله، وهذا لأن كلمة (سبحان الله) تستعمل إنشاء للتسبيح ولا
يعرف استعمالها خبرًا، وهذا الخبر في معنى الأمر لأنه لا معنى لإخبارنا
بذلك مع أن بعض الناس لا يقولها في الأوقات المذكورة كلها.

فالمعنى قولوا: سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وعشيًّا وحين
تظهرون، وفي تعيين هذه الأوقات ما يرجح: أن المراد به: التسبيح في الصلاة
وقد فسر بالصلاة نفسها وهو محمول على أن الأمر بالتسبيح في الصلاة أمر
بالصلاة.

قال الشريفي: «قال في (البرهان): ﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ﴾ فيه قولان أحدهما:
معناه فسبحوا الله ﴿حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ والثاني: معناه
فصلوا.. إلى قوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ عنى به صلاة المغرب والعشاء
﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ عنى به صلاة الصبح» انتهى المراد.

تُخْرِجُونَ ﴿١٦﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿١٧﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «التسبيح في هذه الآية الصلوات الخمس ف﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ صلاة المغرب وصلاة العشاء الآخرة ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الفجر ﴿وَعَشِيًّا﴾ صلاة العصر ﴿وَحِينَ تَظْهَرُونَ﴾ صلاة الظهر، انتهى.

ولا يخفى أن قوله تعالى: ﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ﴾ لا يصح تفسيره بالصلاة لأنه معين لقول سبحان الله، ولو كان فسبحوا الله لصح تفسيره بالصلاة على معنى أنه كناية عن الصلاة بذكر لازمها، فظهر أن تفسيره بالصلاة ليس بمعنى إخراجهم عن ظاهره وإنما هو بمعنى إفادة الصلاة ووجوبها من حيث وجوب قولنا: سبحان الله في الصلاة بقرينة ذكر أوقات الصلاة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تَظْهَرُونَ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ وجملة قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ جملة معترضة لعل اعتراضها إشارة إلى أن التسبيح يجعل مع حمده وله الحمد هو مستحقه بإنعامه على أهل السموات والأرض، فاستحق الحمد فيهما وقوله تعالى: ﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ﴾ الفاء تفریع على ما قبلها من الوعد والوعيد الموقت بيوم تقوم الساعة، فهو أمر بالعمل الصالح استعداداً لذلك اليوم.

﴿تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرِجُونَ﴾ هذه دلالة على قدرة الله تعالى على إقامة الساعة فقوله تعالى: ﴿تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ﴾ فسرّه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ﴾ [الأنعام: ٩٥].

إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٩٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافَ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَنَاءَ

وأما إخراج الميت من الحي فهو المولود الميت يخرج من بطن أمه لأنها عاجزة عن إخراجها وهو ميت لا قدرة له على الخروج فما أخرجه إلا الله، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا آتَتْهُمُ الْمَوْتُ﴾ بالمطر بعد موتها بالجدب ﴿وَكَذَلِكَ تَخْرُجُونَ﴾ يوم القيامة لأن الله على كل شيء قدير فكما أخرج المرعى بعد أن ييس كذلك يخرج الناس من قبورهم ومن بطن الأرض أحياء بعد موتهم.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ ﴿أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ وهو خلق آيينا آدم عليه السلام، وأصله التراب، ثم سواه وجعل فيه الحياة فصار بشراً وذريته بشراً وأصلهم التراب، فهذا دليل على إحياء الموتى بعد أن يصيروا عظاماً وتراباً، وقوله تعالى: ﴿تَنْتَشِرُونَ﴾ أي بالتناسل تكثروا في الأرض في آفاق متباينة أو تنتشرون بالسير في الأرض أحياء، وإنما أصلكم التراب، والمفاجأة في قوله تعالى: ﴿إِذَا أَنْتُمْ﴾ بالنسبة إلى أن أصلنا التراب ويحتل قوله تعالى: ﴿أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ أن أصل كل إنسان المني، وأصل المني الغذاء، وأصل الغذاء من النبات، وأصل النبات من التراب تمتصه عروقه مع الماء - والله أعلم - وكل ذلك آية على الإحياء بعد الموت.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ دلائل قدرته ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ فالنباتات يخلقهن الله من الرجال، ثم تصير البنت زوجة لإنسان وهذه باعتبار خلق الإناث من الذكور والذكور من الإناث دلائل على قدرة الله تعالى وعلمه، لأن بذلك يتم تناسل الإنسان ويستمر حتى تنتهي الحياة الدنيا على البشر كلهم.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿١٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
وَأَبْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿١٣﴾ وَمِنْ

فكان خلق الزوجين الذكر والأنثى مقدمة لجعل الأزواج التي بها يسكن كل من الزوجين إلى الآخر وإذا فقدته شعر بالعزلة والانفراد وشق عليه فقدته ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةَ وَرَحْمَةٍ﴾ فتدوم الموانسة بواسطة الحب بينهما ويساعد كل منهما الآخر رحمة له إذا ألمه شيء، أو شق عليه، وذلك نعمة من الله على الزوجين وآية وبذلك تم التناسل بين البشر وكثروا في الأرض حتى يقدرّون على الأعمال العظيمة بواسطة التعاون فهذه دلائل على قدرة الله تعالى وعلمه يعرفها من تفكر فيها.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَنَائِكُمْ﴾
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿١٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴿وَمِنْ دَلَائِلِ قُدْرَتِهِ عَلَى إِحْيَائِكُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ﴾ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ عَظَمُهُمَا وَاتِّسَاعُهُمَا لِأَهْلِهِمَا﴾ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ لغاتكم التي تتفاهمون بها فآلمهم الله أهل كل لغة لغتهم ليتفاهموا في تعاملهم بينهم ويقول بعضهم لبعض ما يريد أن يفهمه يفهمه بواسطة إلهامهم اللغة ولولا ذلك ما تمت نعمة المفاهمة بالكلام، واختلافها دليل على أنه بفعل فاعل مختار علّم كل جيل من الناس لغتهم كما يشاء، وكذلك اختلاف ألوان الناس آية ودليل على أن خالقها فاعل يفعل ما يريد كاختلاف صور الناس.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ بفتح (لام) (العالمين) وكسرها، فأما الفتح فمعناه أنها آية لكل عاقل، فمن تفكر عقلها، ومن لم يتفكر فجعله بسبب إعراضه عن التفكير لا لعدم الآية وأما كسرها فمعناه أنها آية يعلمها من تفكر فعلم فهو الذي يهتدي بالآية، فكأنها ليست إلا له بل هي له وحده من حيث أنه الذي يهتدي بها فانفراده بها بهذا المعنى.

ءَايَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ مَنَامُكُمْ ﴿٢٥﴾ فالنوم يشبه الموت ثم الانتباه بعده يشبه الحياة بعد الموت، فالإنسان في حال نومه كالمت خارج من اختياره وإرادته وعلمه وسمعه وبصره فإذا انتبه رجع ذلك له ليبتغي من فضل الله، ففي النوم آية، وفي الانتباه آية، ويسر للنوم الليل كما قدمت في تفسير (سورة القصص) وللانتباه النهار، وأشار إلى ذلك بذكر الليل والنهار مع أن النوم آية وإن كان في النهار.

والابتغاء من فضله آية وإن كان في الليل فقد يسر النجوم والقمر وعلم الإنسان كيف يبتغي من فضله بالليل كما في البلاد الحارة، فلا يجب هنا أنه من اللف والنشر، وأن أصل الكلام منامكم وابتغائكم من فضله بالليل والنهار على أن الليل راجع إلى منامكم والنهار راجع إلى ابتغائكم من فضله، لأن الآية في النوم لا تختص بكونه في الليل وكذلك الابتغاء من فضله والسياق في القرآن يختلف لحكمة مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الأنعام: ٩٥] فعدل هذا السياق عن المعهود لحكمة فكذاك هنا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ بمعنى يستمعون القول الذي تذكر فيه الآيات فيسمعون هذا إذا أريد أنهم هم الذين يتفكرون بذكر الآيات، ويحتمل: يسمعون لهم قوة السمع ففي ذلك آيات لهم فإن استمعوا انتفعوا وإن لم يستمعوا فسبب جهلهم ترك الاستماع لا عدم الآيات.

﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٥﴾

﴿يُرِيكُمْ﴾ بأن أنشأ لمعان ﴿الْبَرْقِ﴾ فترونه مبشراً بالمطر لمن يطمع فيه ومنذراً به لمن يخافه كالمسافر ومن له شيء معرض للغرق كالغنم في مجرى السيل والبضاعة في موقع المطر أو في مجرى السيل ففي البرق حكمة ونعمة ورحمة فهو من الآيات؛ لأن المسافر يسرع إلى مكان يطلبه في جبل أو بناء أو شجرة، والبدوي يرفع غنمه من الوادي، وصاحب البضاعة يكفها كل ذلك بسبب رؤيتهم للبرق، فذلك دليل وآية، فأما خوف الصاعقة فإن كان الخائف لها يتخذ وسيلة لصرفها صح تفسير الآية بالصاعقة، وبما ذكرت وإلا فلم يظهر صحة التفسير بها وإن كانت مما يخاف بسبب البرق.

﴿وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ هو المطر وفيه آية ونعمة لأن الله تعالى يسوق السحاب الذي فيه الماء حتى يكون على البلد الذي يريد إنزال المطر لأهله فيقف السحاب عليه في حال نزول المطر منه حتى يتم سقيه.

﴿فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ففي ذلك آية للبعث بعد الموت من جهتين جهة دلالة على قدرة الله تعالى وعلمه من حيث أنه تصرف عظيم لا يكون إلا من قادر عالم ألا ترى أنه عند إنزاله ينزل مفرقاً ولو اختلط في الهواء لضر ثم أنه ينزل وهو عذب صالح للإنسان يشرب منه وللحيوان كذلك وللنبات فيحيي به الأرض ولو كان ملحاً أجاباً ما أحيى الأرض والجهة الثانية: أن الأرض تكون إذا طال عليها الجذب قد يبست وصارت كأنها لا تصلح للحياة فإذا أرواها المطر نبتت في منابتها الأولى ورجعت لها الحياة بعد موتها فهذا يعارض استبعاد الجاهل للحياة بعد الموت.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ تدل على الخالق وعلى أنه قادر عالم، وعلى أنه المنعم الرازق لعباده، وعلى أنه قادر على الإحياء بعد الموت آيات من ابتداء

ءَايَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿١٥﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَنِينُونَ ﴿١٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ

مقدمات المطر إلى وقوعه نافعاً مروياً محيياً للأرض بعد موتها آيات ﴿لَقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الآيات إذا فكروا فيها بعقولهم والراجع هنا: أن المراد بهم الذين ينظرون ويفكرون فيعقلون الآيات؛ لأنهم الذين يعرفون هذه الآيات.

﴿وَمِنَ ءَايَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ ﴿أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ القيام الوقوف وهو وقوف الأرض على حالها فهي غير متحركة إلى السماء ووقوف السماء فهي غير ساقطة إلى الأرض، ولولا وقوفهما بأمر الله لهما لربما تصادمتا أو صادمتا النجوم في الجو، فكان ذلك سبب الخراب.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ ثم بعد خلقكم وخلق ما تحتاجون له في معاشكم بعد ذلك إذا دعاكم للبعث بعد الموت ﴿دَعْوَةً﴾ للخروج من الأرض ﴿إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ بقدرته التي دل عليها في الآيات التي مر ذكرها من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ وهو تمثيل لا يقافهما، كأنه أمرهما بالوقوف، والدعوة يمكن أنها الصيحة قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢] وهذا البعث هو الذي ذكرت له دلائل قدرته تعالى لنعلم إمكانه في قدرته تعالى، ونؤمن بخبره تعالى بوقوعه.

﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَنِينُونَ﴾ ﴿وَلَهُ﴾ أي والله عطف على قوله تعالى: ﴿إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ فاهل السموات وأهل الأرض

الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٩٥﴾ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي

كلهم عباد له مملوكون فيحضرون القيامة مملوكين كقوله تعالى: ﴿إِنَّ كُلَّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مریم: ٩٣] وقوله تعالى: ﴿كُلُّ لَه قَانِتُونَ﴾ [الرؤم: ٢٦] منقادون مستسلمون لقدرته يتصرف فيهم كيف يشاء فلا يمتنعون مثل الإحياء والإماتة والبعث ويحتمل أن الواو في أول الآية للحال أي إذا أنتم تخرجون وكل من في السموات والأرض عباد له قانتون فلا ملك يوم القيامة إلا لله، وهو مثل معنى العطف إلا أن واو الحال أظهر فيه وهي تفيد الرد على المشركين بالملائكة أو بغيرهم فيوم القيامة تنكشف الحقيقة فيحضرون موقف السؤال والحساب في حال أنهم عباد له كلهم العابد والمعبود منهم.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وهذا رد على المشركين ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ لا يبدأه غيره ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ لا يعيده غيره فلا ند له؛ لأن كل شركاء المشركين عاجزون عن ذلك، وقوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أي الخلق المعاد أهون عليه لأنه عبد ضعيف لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا فلا يستطيع خلق أن ينازعه في حكمه على عباده يوم القيامة بل لا يستطيع أن يدفع عن نفسه قضاء الله تعالى، وهذا من الرد على المشركين الزاعمين أن شركاءهم شفعاؤهم عند الله فبين أن الأمر يومئذ لله.

وقد فسروا هذه الجملة: بأن الإعادة أهون من الإبداء، ولو قال تعالى: وهي أهون عليه لتعين ذلك، لكنه تعالى قال: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ﴾ فرجع الضمير إلى الخلق المعاد.

مَا رَزَقْنَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ

فصح تفسيره: بأنه أهون من أن يشاركه في ملكه أو ينازعه في حكمه، بل هو مملوك لله يحكم فيه بما شاء فكانت كقوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿...فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣-٩٥] ويصح أن يكون تفضيله على نفسه في الدنيا فهو في الآخرة أهون ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَالِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال الشرفي: «أي الوصف الأعلى» انتهى. أي أنه المستحق له في السموات والأرض، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠] فله الوصف الأكمل مثل: هو على كل شيء قدير، بالنسبة إلى عبد هو قادر على الصلاة من قيام أو على السير، أو نحو ذلك من إثبات قدرة محدودة للعبد وهو العزيز الحكيم، فعزته تنافي أن يرضى لنفسه شريكاً وحكمته تنافي أن يأذن بالشرك، فلا يرضى بالشرك ولا يأذن به لأنه ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وبذلك بطل دعوى المشركين أنه قد شاء منهم الشرك.

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ ۖ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ۚ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من عبيدكم وجواريكم كان ملكهم خاص باليمين، لأنه حصل في الغالب إما بالغلبة واسترقاقهم في الحرب، وإما بصفقة البيع ودفع الثمن هل لكم ﴿مِّنْ شُرَكَاءَ﴾ من عبيدكم وجواريكم في مالكم الذي رزقكم الله.

بَغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٦١﴾ فَأَقَمَ
وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ

يَبَيِّن: أن العبد لا يكون شريكاً لسيده؛ لأن عبوديته وكونه مالاً لسيده
تتأني كونه شريكاً لسيده في ماله كما يشاركه الحر فيخاف منازعة عبده له في
ماله كما يخاف شريكه الحر فإذا كان هذا لا يمكن ولا يرضاه سيد لنفسه
فكيف يرضاه الله تعالى وهو المالك الملك الحقيقي الكامل لكل من في
السموات والأرض وهو الرازق لهم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَتْتَمَّرُ فِيهِ سَوَاءً﴾ تفريع على المشاركة المقدرة أي فالسيد
وعبده سواء في ملك ماله واستحقاق التصرف فيه بحيث ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ على
نصيبيكم من مالكم كخوفكم من شركائكم الأحرار أن يتعدوا ويتجاوزوا
نصيبيهم إلى بعض نصيبيكم.

﴿كَذَلِكَ﴾ المثل المضروب وكذلك التفصيل والبيان ﴿تُفَصِّلُ
الْآيَاتِ﴾ نبيها ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يفهمون ما يقال لهم من الحق الواضح
المبين فينتفعون به، فقد تمت الحجة البالغة على المشركين في هذه السورة
الكريمة، فإن الآيات الدالة على قدرته تعالى على البعث دالة أيضاً على أنه
لا شريك له مما يدعيه المشركون شريكاً لله سبحانه وتعالى، وهم لا يملكون
لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ
وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ ﴿بَلِ﴾ إضراب للمشركون ليسوا بصدد حجة على
الشرك أو على بطلانه؛ لأنهم اتبعوا أهواءهم بجهل ومن كان همه مع جهله
إتباع هواه فلا يقبل إلا ما وافق هواه وإن خالف الحق؛ لأنه متبع لهواه

اللَّهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾
 مُبَيِّنَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦١﴾
 مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٦٢﴾
 وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُبَيِّنِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مِّنْهُ رَحِمَهُ

يقوده إلى ما قاده إليه لا يتبع غيره وإن كان الحق، وهذا هو الضلال المبين الذي استحقوا به أن يخذلهم الله ويتركهم للشياطين فلا يهديهم بعد ذلك أحد ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ﴾ يدفعون عنهم عقوبة الضلال، عقوبة هذا الظلم العظيم.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾
 مُبَيِّنِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٠﴾
 الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٦١﴾
 ﴿فَأَقِمْ﴾ فلا تتبع أهواءهم بل أقم ﴿وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ الحق وهذا تفريع بـ (الفاء) على بطلان الشرك وكون المشركين لا حجة لهم إنما يتبعون أهواءهم ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ اجعله قيماً غير معوج اجعله مهياً ومعداً.

وقوله: ﴿لِلدِّينِ﴾ أي لطاعة ربك، فحاصل المعنى: أقم وجهك لطاعة ربك فالوجه الذي لا يستعد لإخلاص العبادة له وطاعته كما أمر يعتبر وجهاً غير قيم، والمراد التوجه بالوجه لعبادة الله وحده، وقال الشرفي: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي قوم وجهك له وعد له غير ملتفت عنه يمينا ولا شمالاً انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾ قد سبق عن الإمام القاسم عليه السلام تفسير (الحنيف): بالمحب الخاشع، وسبق ترجيحه على تفسير (الحنيف) بالمائل عن كل دين، قال الشرفي: «وفي (البرهان) وغيره: ﴿حَنِيفًا﴾ أي مستقيماً مخلصاً معتدلاً خاشعاً» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿فَظَرَّتْ أَلَلَهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيَّهَا﴾ على معرفة أنه ربهم وحده، قال تعالى: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: من الآية ١٧٢] ففطرة الناس تعرف أنه الذي خلقهم ورزقهم وأنه لذلك ربهم المالك لهم فمقتضى ذلك أن يعبدوه وحده اعترافاً بأنهم عباده لا شريك له فيهم فتسميته فطرة الله باعتبار أنه الذي تقتضيه فطرة الله التي فطر الناس عليها حيث جعلهم يعلمون أنها الحق.

فقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ بمعنى أن عقولهم تعرف هذا ولا تبدل عقولهم بل هي في البشر كلهم موحدتهم ومشركتهم تعلم ذلك أو مُعَدَّةٌ لعلمه، ولا تزال كذلك إلا في المجانين ونحوهم.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ﴾ أي دين الله الذي أمر بإقامة الوجه له هو الدين القيم الذي لا عوج له لأنه أمر به الحكيم العليم وطابق العقول ولكن أكثر الناس لا يعلمون لأنهم لا ينظرون بعقولهم فيبقون على جهلهم ويتبعون أهواءهم، وقوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي راجعين إليه أي أقيموا وجوهكم للدين منيبين إليه وهذا لأن أمر الله لرسوله أمر لأمته؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَلِيلٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: من الآية ٦٨] الآية، ثم قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ [النساء: من الآية ١٤٠] وهذا لأن أمته مأمورة باتباعه.

فقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أمر للرسول ثم لأمته ولكون أمته مأمورة بذلك الأمر جاء قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ بصيغة الجمع للرسول وأمته، واتقوه أي واتقوا الله باجتناب معاصيه.

إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أمر ونهي للأهمية في تقوى الله إقامة الصلاة واجتناب الشرك، أو تخصيص الصلاة من بين أعمال الإنابة لله، وتخصيص اجتناب الشرك من بين التقوى وهو اجتناب الكون من المشركين.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ يعني: المشركين، فهو بدل البيان بين أن المشركين فرقوا دينهم فكل فرقة مثلاً اتخذت إلهاً غير إله الفرقة الأخرى لأن دينهم تابع لأهوائهم ولو اتبعوا عقولهم لتوحدوا ﴿وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من دينهم أو إلههم ﴿فَرِحُونَ﴾ وهذا يفيد: أن الحزب يشايح بعضه بعضاً أي يتعاون على نصرة دينه، وهم بما لديهم فرحون لأنهم يهوونه ويحبونه فهم به مسرورون مطمئنون إليه وهذه غاية الضلال إنهم مع كونهم في أشد الباطل فرحون به، فعلينا أن نحذر من أن نكون منهم لأنهم في غاية البعد عن الحق.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ لا يخص عبادة الأصنام؛ لأن تفريق الدين قد يكون من أجل الأصنام وقد يكون بسبب اختلاف العقائد وقد يكون باختلاف السياسة فالآية عامة للذين فرقوا دينهم من العرب وللذين فرقوا دينهم من أهل الكتاب المشركين بعبسى وعزيز والأخبار والرهبان.

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٤] ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ أحسوا بآله لأنه باشرهم

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا﴾ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ

المرض ومسهم الوجع ﴿دَعَوْا رَبَّهُمْ﴾ يطلبون منه العافية ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعين إليه ليكشف عنهم الضر، وهذا الرجوع ترك الشرك وإخلاص الدعاء لله ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً﴾ بأن كشف الضر ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ فاجأوا بالشرك بدل الشكر على كشف الضر؛ لأنهم إنما ﴿دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ اضطراراً اضطهرهم الوجع، فلما ذهب اضطرارهم رجعوا إلى شركهم اتباعاً لما تهوى أنفسهم فبادروا إلى الشرك ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ من النعم قال الشرفي - ونعم ما قال -: «اللام للتعليل المجازي، كأنهم أشركوا للكفر بما آتاهم من نعمة الخلاص»، انتهى المراد.

والأولى أن التعليل ليكفروا بما آتيناهم من النعم كلها لا بمجرد نعمة الخلاص من الضر، ولذلك رتب عليه قوله تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ أي تمتعوا بما آتيناكم من النعم كلها فسوف تعلمون سوء عاقبتكم على الشرك وذهاب ما آتيناكم في الدنيا فقوله تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ يشير إلى أنها متاع ينتهي عما قليل ثم يصيرون إلى العذاب الشديد وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد عظيم والأمر بقوله تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ إشارة إلى أنه لا يفيدهم هذا التمتع نجاة من العذاب وأنه شيء قليل، فإن كان المراد فتمتعوا بالشرك فهو أمر تهديد.

﴿أَمْ أُنْزِلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ ﴿أَمْ﴾ إضراب، وسؤال بل ﴿أُنْزِلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ برهاناً يسلطهم على الشرك؛ لأنه برهان غالب وحجة واضحة لا يصح دفعها، وهذا السؤال توبيخ بمعنى النفي، ويفيد: أن الشرك لا حجة له ولا برهان، وأنه لا ينبغي بدون إذن من الله المالك لهم المنعم عليهم الذي هو ربهم فحيث أشركوا بلا إذن منه تعالى فهم مبطلون.

وقوله: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ تفسير للسلطان المنفي إنزاله ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ يتكلم بما استمر وتكرر شركهم به من أصنامهم يتكلم به أي بأنه إله وسبحان الله وتعالى عن إنزال ذلك، ولكنه تعالى يوبخهم على الشرك بما لا برهان لهم به.

﴿وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ ﴿وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا﴾ وهذا من السفه أنهم بادروا إلى الفرح بها عند أول حصولها، كأنهم ذاقوها بأفواههم قبل أن تنزل في بطونهم والفرح سرور مع اطمئنان إلى النعمة وبقائها الذي يتخيلونه، وقد جربوا أن الأحوال تنقلب وإنما كان ينبغي لهم المسارعة إلى الشكر، قال الشرفي: «والفرح هنا: هو البطر الذي لا شكر فيه» انتهى.

والراجح: أن هذا في الآية كلام على الإنسان الذي هو يتخيل حالته التي هو فيها أنها تدوم فإذا كان في خصب تخيل أنه يبقى وإذا كان في جذب تخيل أنه يبقى فلذلك يفرح بالنعمة ويقنط في الشدة إلا المؤمنين الذين يستعملون عقولهم ويتذكرون أن الله تعالى يقبض ويسط ومن عدا المؤمنين كأن طبيعتهم البشرية تتوهم استمرار ما هم فيه من خير أو شر أو سعة أو فقر، فالغني لا يتصور أنه يفتقر والفقير لا يتصور أنه يصير غنياً، وقد سبق للشرفي تفسير الفرح بالسرور مع الاطمئنان، ولكن هذا المعنى ذكره في (الصحيح) فقال: «فرح به: سرّ والفرح أيضاً البطر، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ السيئة ما يسوءهم مثل الجذب ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وما أصابهم هو بسبب ذنوبهم.

وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ فَكَاتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّيرَبُّوهُ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوهُ

وقوله تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ يفاجئ سريعا منهم القنوط بعد أن كانوا في نعمة وهذا؛ لأنهم يتخيلون ما هم فيه من السيئة يبقى، ولا ينظرون بعقولهم إلى رحمة الله أنها تجب بعد الشدة، لأنهم نسوا الله، والقنوط: اليأس من رحمة الله، قال في (الصحيح): «القنوط: اليأس» انتهى. وفي (تفسير الراغب): «القنوط: اليأس من الخير» انتهى.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ هذا رد على القانطين فقد علموا ﴿أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ لمن يشاء، فإذا كانت الشدة فيمكن أن يكشفها بفضله كما بسط الرزق لمن شاء ويمكن أن يكشفها بالتوبة؛ لأن سبب سوء الحال الذنوب، فإذا كان سبب الفرج التوبة فما بقي وجه للقنوط، بل عليهم أن يتوبوا فإذا لم يتوبوا فقد سببوا لتأخر الفرج إن تأخر مع أنه يمكن الفرج وإن لم يتوبوا لكنهم ينسون الله وفضله على عباده.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ في بسط الرزق وتقديره على ما شاء الله آيات ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرِّزَّاقُ﴾ [الذاريات: ٥٨] هو الذي إن شاء كشف الشدة لأنه يفعل ما يشاء ويبتلي بالخير وبالشر، والقنوط إما نسيان لله وإما سوء ظن بالله وهو جريمة كبرى.

﴿فَكَاتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿فَكَاتِذَا الْقُرْبَىٰ﴾ أي أعطه

﴿حَقَّهُ﴾ عليك، فهو يستحق أن تعطيه إذا احتاج؛ لأن الله تعالى قد أمر بإيتائه فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْرُّ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ فِي الْقُرْبَى﴾ [النحل: ٩٠] وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَتَى الْمَلَأَ عَلَى حُبِّ ذَوِي الْقُرْبَى﴾ [البقرة: ١٧٧].

ويمكن أن منه الخمس، إذ يمكن أن تكون السورة (مكية) وفيها آيات (مدنية) وقد روى الحاكم الحسكاني في (شواهد التنزيل) قال: «ومن (سورة الروم) فيها قوله تعالى: ﴿فَأَتَى ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ﴾ [وَأَبْنُ السَّبِيلِ] أخبرنا عقيل بن الحسين - وساق السند - عن عطاء عن ابن عباس قال: لما أنزل الله: ﴿وَأَتَى ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ [الإسراء: ٢٦] دعا رسول الله ﷺ فاطمة وأعطاهما فذكاً وذلك لصلة القرابة... الخ.

ولعل هذه الآية هي آية (الإسراء) لأنها هي التي أولها (واو العطف) أما آية (الروم) فهي بـ (الفاء) وفي بعض المصاحف أن (سورة الإسراء) مكية، إلا آية (٢٦) وغيرها، وآية (٢٦) هي قوله تعالى: ﴿وَأَتَى ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ فترجح: أن الآية هي (آية الإسراء).

وقوله تعالى: ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ أي آتاه حقه، وله حق في الخمس وفي الزكاة وإذا كانت الآية مكية فحق المسكين غير محدد في القرآن وكذا ﴿وَأَبْنُ السَّبِيلِ﴾ له حق من الخمس ومن الزكاة وحقه في أول الإسلام غير محدد، ولكنه مفهوم بسد خلتها أو المستطاع منه، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي ذلك الإيتاء خير للذين يريدون به أو به وبغيره وجه الله التقرب إلى رحمته ورضوانه، فلهم ثوابه بخلاف من أنفق للرياء والسمعة فلا ثواب له بل هو آثم وكذا من أنفق لا يريد به التقرب إلى الله بل لمجرد العاطفة فلا ثواب ولا عقاب، إذا لم يكن سبب العاطفة الخوف من الله.

عِنْدَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْمُضْعِفُونَ ﴿٦٦﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ الإنفاق لوجه الله خير من الإمساك أي هو خير للذي
أعطى فلا يتوهم أن الإمساك خير له ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فذلك
الإنفاق سبب للفلاح والفلاح الظفر بالخير في الآخرة فهو دخول الجنة
والنجاة من النار.

﴿وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِّن رِّبَا لِّرَبُّوٓا۟ فِيٓ أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا
ءَاتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ هذه مقابلة بين
إعطاء الربا والصدقة، فالربا لا يضاعف بل هو إثم والصدقة إذا كانت لوجه
الله تضاعف.

ولعل هذه الآية (مكية) ولذلك ليس فيها زجر عن الربا لأن الحكمة كانت في
تأخير الزجر عنه حتى يقوى الإسلام، وهي تفيد: أن مؤتي الربا يعطي ماله في
غير فائدة له لأنه لا ثواب له فيه فلا ينال عوض ما أعطى لا مضاعفاً ولا غير
مضاعف، أما الصدقة التي يُراد بها وجه الله فهي التي يكون صاحبها هو المضعف
الذي ينال أضعافها فقلوه ﴿فَلَا يَرْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ بمعنى: لا تثابون عليه فيضاعف
لكم بل هو ضائع فما لكم ترضون به ولا ترضون بالصدقة، أو المعنى: لا
يضاعف لكم ما أعطيتم لتربوا في أموال الناس، وعدم الإثابة بالمثل مسكوت عنه،
لأن معطيه لا يطمع في ثوابه ولا بالمثل وإنما نفيت الأضعاف للمقابلة بينه وبين
الصدقة لوجه الله لتجلى فائدة الصدقة وبضدها تتميز الأشياء.

هذا الذي يترجح مع تحرير الفكر، فأما (صاحب الكشاف) فقال: «هذه الآية
في معنى قوله تعالى: ﴿يَمَحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيَرْبِّي الصَّلَٰةَ﴾ [البقرة: من الآية ٢٧٦] انتهى.

هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِّنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٠٦﴾ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ

ولا يخفى أن قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرُّبَا﴾ هي في أخذ الربا وهذه الآية هي في إيتاء الربا ليربوا في أموال الناس، وقوله تعالى: ﴿لَيْرَبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ تشويه لإيتاء الربا في مقابلة الزكاة لأنها لسد خلة المسكين وإيتاء الربا ليزيد في أموال الناس، وهو غرض ضعيف أن تتلف مالك ليزيد مال غيرك ويكثر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ﴾ أي صدقة ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ فأولئك أهل هذه الصفة هم المضعفون الذين ينالون أضعاف ما أعطوا فالإشارة هنا للتعظيم، فأما الالتفات من الخطاب إلى الغيبة فلعل السر فيه أن المخاطبين ليسوا أهل ذلك بل غيرهم، ونظيره تحويل الكلام من الخطاب إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِكُمْ﴾ [يونس: ٢٢] لأنه صار الكلام في فريق من المخاطبين هم المشركون ولكن الآية التي نحن فيها خلافها من حيث أن أول الكلام خطاب للمشركين وغيرهم، وتحويل في فريق من المؤمنين يريدون وجه الله.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِّنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ احتجاج على المشركين عظيم يدل على أن الله هو المالك للخلق لا شريك له فيهم، وهو المتصرف فيهم كيف يشاء دون شركاء المشركين فهي لا تخلق ولا ترزق ولا تميت ولا تحيي، سبحانه الله وتعالى تنزيهه لله عن أن تكون شركاؤهم أنداداً له يقرن بها وتقرن به، وهي عاجزة لا تملك شيئاً ولا تقدر على شيء وتعالى عنها علواً كبيراً فإن إثباتها مجرد خرافة من خرافات الجاهلية يتعالى عنها الله الخالق الرازق المحيي المميت الذي يعيد الخلق ويجزي كل نفس بما تسعى.

لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿١٢﴾ فَأَقْصِرْ

﴿١١﴾ ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿ظَهَرَ﴾ غلب ﴿الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ سواء فساد بعض الزروع أو الثمار أو الأراضي بقلة الأمطار وغير ذلك، وفساد الصيد في البحر بتعسره، وفساد الريح التي تدفع السفن وغير ذلك، أو فساد حال الناس بظهور الجور من السلطان بتمكين الله والرشوة والتظالم والحروب وتعطيل شريعة الله، كل ذلك وقع ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ بمعاصيهم من الشرك وغيره ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ فلو صلحوا لتنزلت لهم البركات قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: من الآية ٩٦] وقال تعالى: ﴿وَأَلَوْ اسْتَقْلَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦] وقال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠] الآيات.

وكذلك في تمكين الظلمة قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم وَلَٰنْ عُدَّتُمْ عِدَّنَا﴾ [الإسراء: ٤-٨] وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩] ولكن بجرائمهم سلط عليهم لِيُذِيقَهُمْ بعض الذي عملوا.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي يذيقهم بعض العقوبة أو عقوبة البعض وهو أرجح؛ لقوله تعالى في (سبا): ﴿كُلُّوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدًا طَيِّبَةً وَرَبُّ غَفُورٌ﴾ أي لا يغير نعمته بسبب بعض المعاصي التي تقع من بعضهم ولا توجب تعجيل النعمة وتغيير النعمة على كلهم بل يعاملهم تعالى بحلمه.

وَجَهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ ﴿١٧﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ

فإذا أعرضوا واستحقوا التأديب وكانت الحكمة في تعجيل الأدب لعلهم يرجعون عند ضعف حالهم وذهاب أسباب البطر، وتذكرهم أنهم كانوا في نعمة وأنها زالت بسبب ذنوبهم فيرجعون إلى ربهم ويتوبون إليه عجل لهم الأدب لعلهم يرجعون، فصَحَّ أن بعض المعاصي لا يعجل عقابها، وهو ظاهر قوله تعالى:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَنقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يَا رَسُولَ اللَّهِ لقومك العصاة لك ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ لتروا آثار عقاب المجرمين ﴿فَانظُرُوا﴾ عند ذلك ﴿كَيْفَ كَانَ عَنقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ كيف تغيرت نعمتهم أو هلكوا بإجرامهم ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ مثل المشركين منكم، فاحذروا أن ينزل بكم مثل الذي وقع عليهم وتوبوا إلى الله.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ﴾ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ اجعله قيما غير معوج وذلك يجعله متقادماً صالحاً ﴿لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ الذي هو عبادة الله وحده فهي الدين أي الطاعة القيم الذي لا عوج فيه لأنه الحق، قال الشريفي: «يعني: استقم للدين المستقيم بصاحبه إلى الجنة» انتهى.

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي من قبل أن يأتي يوم عظيم شديد على العصاة لا مرد له لا مرجع له عن نفوذ أمره على أعداء الله لأنه من الله الغالب على أمره القاهر فوق عباده فلا مرد لذلك اليوم حال كونه من الله ﴿يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ﴾ ينقسمون أي الناس يصيرون قسمين بحكم الله فيهم وقضائه عليهم أو لهم.

يَمَّهْدُونَ ﴿١٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ لَا تُحِيبُ الْكَافِرِينَ ﴿١٥﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٦﴾

قال الراغب: «الصدع: الشق في الأجسام الصلبة كالزجاج والحديد ونحوهما، ثم قال: وعنه استعير صدع الأمر: أي فصله، قال: ﴿فَلْصَدَّعْ يَمَّا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤] ثم قال: «وتصدع القوم: أي تفرقوا» انتهى. ونحوه في (الصحاح) وقال فيها: «والتصديع: التفريق» انتهى.

﴿١٤﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمَّهْدُونَ ﴿١٥﴾ مَنْ كَفَرَ فِي الدُّنْيَا ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمَّهْدُونَ﴾ فِي الْآخِرَةِ، فهذا تصدعهم في الآخرة، قال الراغب: «المهد: ما تهيم للصبي - يعني فراشه أو ما فيه فراشه - والمهد والمهاد المكان المهدد الموطأ» انتهى، فقله تعالى: ﴿يَمَّهْدُونَ﴾ أي يصلحون مكانهم في الآخرة إصلاحاً بليغاً كما يمهد للصبي مكانه.

﴿١٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ لَا تُحِيبُ الْكَافِرِينَ ﴿١٥﴾ لِيَجْزِيَ﴾ أي يمهدون ليجزيهم الله تعالى من فضله أي من عطائه جزاء على الإيمان والعمل الصالح قال الراغب: «وكل عطية لا تلزم من يعطي يقال لها: فضل» انتهى. ﴿إِنَّهُ لَا تُحِيبُ الْكَافِرِينَ﴾ فلا يجعلهم مثل المؤمنين الذين يحبهم بل يفصل بينهم ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ١٧].

﴿١٦﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٧﴾ وَمِنْ آيَاتِ اللَّهِ الدَّالَّةُ عَلَى أَنَّهُ هُوَ رَبُّ النَّاسِ الْمُنْعَمَ عَلَيْهِمُ الْمُسْتَحَقُّ لِأَنَّهُ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُواهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَتَتْهُمْ مِّنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ

﴿أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ بالمطر ﴿وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ بإثارتها للسحاب وإنزال المطر منه ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ﴾ السفائن في البحر ﴿بِأَمْرِهِ﴾ للرياح أن تسيرها على الماء وذلك يجعلها ريحا غير عاصفة فلو سكنت تعطل السفر، ووقفت السفن على الماء، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ [الشورى: ٣٣] ولو عصفت لاطلعت الماء على السفائن فدخل فيها فنزلت في البحر مغرقة لأهلها ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ سخر الرياح لتبتغوا بالسفر في البحر من فضله من فضل الله رزقاً أو علماً وذلك بتسخير الرياح ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعم الله عليكم فتعبدوه وحده وتجتنبوا الشرك.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُواهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَتَتْهُمْ مِّنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ فكذبهم بعض قومهم وآمن بعض ﴿فَأَتَتْهُمْ مِّنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ ذلك الإجماع المذكور في (سورة غافر) ونصرنا المؤمنين برسول الله وأنبيائهم.

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فنقوا بنصر الله لكم أنت يا رسول الله ومن معك، وهو نصر القضية التي قمت بها والدين الذي دعوتهم إليه، ونصر حزب الله وجنده فلا يمتنع أن يقتل بعضهم شهداء ويتصر جند الله جملة بحيث صارت كلمة الله هي العليا وصار المؤمنون أقوياء غالبين آمنين هذا نصرهم في الدنيا فأما في الآخرة فينصرهم الله بالحكم لهم على أعدائهم وبمعاينة أعدائهم وإثابة المؤمنين.

قال الشرفي: «قال في (البرهان): يعني نصر الأنبياء والأئمة (عليهم السلام) بإجابة دعائهم على المكذبين لهم من قومهم» انتهى.

قلت: يعني أن قوله تعالى: ﴿نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عام للمؤمنين من الرسل وقومهم والأئمة وأنصارهم، وهذا إذا أخذوا بأسباب النصر المبينة في القرآن، وهي:
أولاً: أن يكونوا جنداً وحزباً مؤمنين إذا بلغوا في الكثرة إلى حد يصيرون جنداً وحزباً، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

ثانياً: أن يتوحدوا ولا يتنازعوا لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].
ثالثاً: أن يلزموا تقوى الله ولا يعدلوا عنها بمعصية متعمدة ما داموا في المعركة.

رابعاً: أن يصبروا على القتال.

خامساً: أن يدعو الله بأن يقولوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠] والدعاء من قبل القتال.
سادساً: أن تكون نيتهم في القتال نصر دين الله أو الدفاع عن دين الله.

فهذه ستة أسباب مأخوذة من القرآن، ودفع الكافرين إذا هجموا على المسلمين واجب على كل مسلم، سواء كان في سبيل الله أو لمجرد الدفع لقول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا﴾ [آل عمران: ١٦٧] ومن الواجب في القتال أن يعلموا أن الله مع المتقين، بمعنى: أن الله معهم ضد أعدائهم أعداء الله لأن الله تعالى قد أمر بهذا العلم فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: من الآية ١٢٣] وهذا عارض لمناسبة الإعداد لقتال الكافرين.

الرَّيْحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَجَعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى
الْوَدْقَ تَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ
يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لُمُبْتَلسِينَ

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ
وَجَعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ تَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾ وما بعده يفعله إلى
إنزال المطر الله الفاعل لذلك وحده لا شريك له فعليكم أن تعبدوه وتعرفوا
قدرته على كل شيء وتشكروا نعمته.

وقوله تعالى: ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ﴾ أي فيسط السحاب في الجو ﴿كَيْفَ
يَشَاءُ﴾ فقد يكون كثيراً وقد يكون قليلاً.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُهُ كِسْفًا﴾ قال الشرفي: «أي وتارة يجعله قطعاً».
انتهى. وقال غيره: «﴿وَجَعَلُهُ كِسْفًا﴾ بتجميعه وتكثيفه» انتهى، يعني ليس
مبسوطاً رقيقاً بل هو عبارة عن قطع كثيفة مجموعة ومثل هذا قول آخر:
«يجعله قطعاً متراكبة متراكمة» انتهى. وهذا لأن أصل السحاب رقيق فإذا
كثر وتزاحم صار كأنه قطع إسفنج مركومة وقد رأيت في (الطائرة) وهو
تحتها كأنه ركام من القطن. والله أعلم.

وقد أفاد هذا القرآن في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا
يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤] أفاد أن السحاب المركوم كسف مركومة
ولذلك يشبهون بها الكسف من السماء، بل يدعون أنه هي إن يروه ساقطاً،
وقوله تعالى: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ تَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي المطر يخرج من بين
السحاب، فهذه آية تدل على قدرة الله وعلمه وفضله على عباده.

﴿١٩﴾ فَأَنْظِرْ إِلَىٰ ءِثْرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ تُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ

وقد فصلّ تعالى في هذه الآية المطر، ومقدمته من إرسال الرياح المثيرة للسحاب، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ﴾ أي بالمطر ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ أي من يشاء الله إنزال المطر عليه ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لأنهم يعلمون أنه يحيي بلدهم بالنبات والزرع وغيره فهو نعمة من الله عليهم ورحمة فأسرعوا باستبشارهم وفاجأوا به بعد أن كانوا في غم من الجذب.

﴿٢١﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِّنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٢٢﴾ قَانِطِينَ مِنَ الْفَرْجِ بَعْدَ شِدَّةِ الْحَالِ عَلَيْهِمْ وَلَكِنَّهُ تَعَالَىٰ لَكُمْ بِهِ لَا يَمْنَعُهُ قَنُوطُهُمْ مِنْ إِنْعَامِهِ عَلَيْهِمْ بِالْمَطَرِ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ﴾ بمعنى وإنهم كانوا من قبل أن ينزل عليهم وهم في حال الجذب فصاروا به بعد إبلاسهم مستبشرين مسرورين وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم فيروه قد نزل عليهم كانوا من قبل هذا الودق الذي قد أصابهم آيسين، فقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ﴾ يفيد أنهم كانوا آيسين؛ لأنهم ما زالوا في حال الجذب والشدة لم يروا ما يكشفها عنهم.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ يفيد: أن سبب زوال إبلاسهم هو الماء الذي يحيي بلادهم الموجود عندهم حين أصابهم، فقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ﴾ يبين سبب بقاء إبلاسهم، وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ يبين سبب زوال إبلاسهم السبب الحقيقي الذي هو الماء الذي يحيي أرضهم، والفارق بين قوله: ﴿مِنْ قَبْلُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ﴾ وقوله ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ هو اختلاف الاعتبار، فالأول باعتبار بقاء سبب الإبلاس، والثاني باعتبار سبب زواله لأن معنى من قبله من قبل الودق أي من قبله موجوداً عندهم.

ونظير استعمال (قبل) بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِهِ﴾ استعمال (بعد) في ضده قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْلِهِ﴾ [الأعراف: ١٤٨] وقال الشاعر:

وشريت برداً ليّتي من بعد برد كنت هامه

وهذا استعمال لا يحتاجون فيه إلى تقدير مصدر بل كفى فيه إفادة قوله تعالى من بعد موسى أنه قد غاب عنهم وإفادة قول الشاعر من بعد برد أنه قد غاب عنه لأنه باعه، ومثله قبل قال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ﴾ أي ومن قبل هذا القرآن، وكذلك قبل في هذا الموضع في قوله من قبله أفاد أنه قد حصل فلا حاجة إلى تقدير قبل نزوله أو قبل إنزاله، وعلى هذا فلا تكرار في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِمُ﴾ وقوله: ﴿مِّن قَبْلِهِ﴾.

وأما قول الزمخشري رحمه الله أنه تكرار للتأكيد فبعيد؛ لأن المحل ليس محل تأكيد لوضوح الفرق بين الحالتين قبل المطر وبعده في تسبيب القنوط، وإنما يؤكد وجود القنوط عندهم من حيث أنه لم يكن ينبغي القنوط من العقلاء بعد أن قد جربوا فضل الله عليهم في الماضي فهو منهم كالمستبعد الذي يحتاج إلى تأكيد الإخبار به ومن السهو تمثيله للتكرار بقوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الحشر: ١٧] فقوله تعالى: ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿خَالِدِينَ﴾ فلا تكرار؛ لأن قوله تعالى: ﴿أَنَّهُمَا فِي النَّارِ﴾ لم يصرح بالخلود، نعم التكرار للتأكيد في القرآن كثير في تركيب آخر مثل ما في (سورة الرحمن) و (سورة المرسلات).

﴿فَإَنْظِرْ إِلَىٰ ءَاثِرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ تُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿ءَاثِرِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ حياة الأرض بعد موتها بالجدب.

مُصَفِّرًا لَّظُلُومًا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ
الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَّاتِهِمْ إِنْ
تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ نَحْيِ الْأَرْضَ﴾ تفسير راجع إلى قوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ﴾ كأنه قيل: فانظر كيف يحيى الله الأرض بعد موتها فكما أن أهلها قد أيسوا من المطر كذلك يحييهم بعد أن أيسوا من الحياة بعد الموت، لأن يأسهم من الحياة بعد الموت استبعاد لما ليس بعيداً في قدرة الله تعالى مثل استبعاد نزول المطر بعد الجذب، وهو غير بعيد في قدرة الله تعالى وفضله فتبين أن الاستبعاد لا حكم له في نفي الواقع ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذي أحى الأرض بعد موتها ﴿لَمْ يَحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يصح استبعاد الحياة بعد الموت لأن الله على كل شيء قدير، وقد وعد به وهو أصدق القائلين.

﴿وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصَفِّرًا لَّظُلُومًا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ ﴿وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ تذهب خضرة الزرع والمرعى وتميل به إلى اليبس ﴿لَّظُلُومًا﴾ أي هؤلاء الذين قنطوا ثم استبشروا ﴿لَّظُلُومًا﴾ من بعد أثر رحمة الله ﴿يَكْفُرُونَ﴾ يقنطون وقد جربوا فضل الله وإنزاله المطر وإنعامه عليهم لكنهم يسرعون إلى القنوط بغير نظر ولذلك حين اصفر الزرع والمرعى بادروا إلى القنوط واليأس من فضل الله الذي هو عادة الكفار ﴿إِنَّهُ لَا يَنَالُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ ﴿فَإِنَّكَ﴾ يا رسول الله في محاولتك لهداية هؤلاء الكفار ﴿لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى﴾

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ

فهم كالموتى في بعدهم عن سماع ما تقول؛ لأنهم كارهون له معرضون عنه، وقد خذلوا فلم يبق في قلوبهم حياة ليستعدوا لقبول الحق ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ وهم كالصم إذا ولوا مدبرين والأصم المدبر أبعد عن سماع الدعاء من الأصم المقبل، وهذا تشبيه عجيب لأن الكفار مولون عن سماع ما يقول لهم الرسول مدبرون عنه بقلوبهم فشبهم بالصم المدبرين.

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمِّيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ كما شبهم بالصم شبهم بـ ﴿الْعُمِّيِّ﴾ الذين قد ضلوا الطريق وهؤلاء الكفار ضلوا عن الحق بكفرهم وصاروا كالعمي لخدلانهم وضيق قلوبهم عن قبول الحق حتى ذهب استعدادهم لإبصار الحق وللنظر في الآيات نظر من يريد الحق.

﴿إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ أي لا تسمع إلا من يؤمن بآياتنا يؤمن بأنها من الله وبمعناها الذي تدل عليه من أن القرآن كلام الله ومحمداً رسول الله والبعث حق والجنة والنار حق ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ تاركون للشرك خلصون عبادتهم لله مسلمون وجوههم وأنفسهم لله ربهم فهؤلاء الذين تسمعهم لا الكفار المجادلون في آيات الله المكذبون والحصص بالإضافة إليهم.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ ليس في الآية الكريمة أنه تعالى خلق الضعف بل خلقنا من الضعف؛ لأننا في حال الطفولة ضعفاء، وقبلها حين كنا في بطون أمهاتنا عظاماً، وقبلها حين كنا مضغة،

﴿السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾
 وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ

وقبلها حين كنا علقه، وقبلها حين كنا نطفة، فنحن من الضعف بهذا المعنى، وهو مجاز مثل: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] وفيه دلالة على أصالتنا في الضعف ﴿ثُمَّ جَعَلْ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ وهي قوة الشباب ﴿ثُمَّ جَعَلْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ لأنه تعالى حدد قوة الشباب كما شاء فجعلنا أقوياء بعد الضعف دليل على الله وعلى أنه قدير عليم ثم تحولنا عن حالة الشباب وقل استمرارنا في النمو بعد كثرته دليل على الخالق المدبر لأحوالنا فإن مقتضى الصحة فيما نتخيل أن يستمر النمو والقوة من الغذاء ما دامت أعضاء التغذية وتصريف الغذاء في البدن بل في خيالنا مقتضى ذلك أن يتطور النمو والقوة فلما شاهدنا تحديدها بوقت الشباب ثم تميل إلى النقص بتقدير وتدرج دل ذلك على خالقنا المدبر لأحوالنا وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ لم يقل خلق بل جعل لأن ذلك نقص وسلب قوة وقوله تعالى: ﴿وَشَيْبَةً﴾ أي بياض الشعر.

وقوله تعالى: ﴿تَخَلَّقْ مَا يَشَاءُ﴾ تحقيق لأنه الفاعل لما يريد ليس ذلك طبيعة مجردة لأن اختلاف أحوال المخلوق وفق تدبيره تعالى دليل على أنه مخلوق بقدرة القدير العليم أما الطبيعة فإن كانت واحدة لم يصح أن تنتج أشياء مختلفة وإن كانت متعددة كان تعددها المخصوص على وفق نظام محدود دليل على أنها هي مخلوقة لخالق قدير عليم، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ بيان لما دل عليه الدليل في الآية، وبذلك بطل استبعاد الكفار للبعث بل هو القريب في قدرته الواجب في حكمته.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ يستقل الكفار ما بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة فيقسمون

فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥١﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ

أي يحلفون ما لبثوا ما بقوا بينهما غير ساعة من الزمان، وهي مدة قليلة كما قال في (سورة الإسراء) ﴿وَتَنْظُنُونَ إِن لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢] ولكنهم أقسموا على الظن ﴿كَذَلِكَ﴾ في اعتماد الظن والاعتذار به ﴿كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون عن الحق لأنهم لا يشبثون.

﴿٥١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ العلم اليقين بالله وقدرته وعلمه وحكمته وعزته وسائر معرفته تعالى واليقين بالرسول والكتب واليقين باليوم الآخر وما وعد الله به من الحساب والجزاء وكل ما يجب العلم به والإيمان به أوتوه بالهدى من الله قالوا للمجرمين: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فيما كتب الله من الأجل الذي قضاه بين الدنيا والآخرة ﴿إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ ﴿٥٢﴾ بعد الموت الذي وعد الله به ﴿وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فكنتم به تكذبون فقد صدق وعد الله، واستعمل اسم الكتاب فيما كتب الله مثل استعماله فيما كتب من العمر والرزق، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [الأعراف: ٣٧] وقد ذكر الله أجل الفرد وأجل مجيء الآخرة أو ذهاب الدنيا في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام: ٢].

﴿٥٢﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٣﴾ فَيَوْمَئِذٍ ﴿٥٣﴾ قد قامت الساعة ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ﴾ لو أذن لهم في الاعتذار فلا ينفعهم ما كانوا يعتذرون به لأنه ليس عذرا صحيحاً.

فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَيْنَ جِثَّتْهُمْ بَيَاةٌ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا

ويحتمل: معذرتهم التي ليست معذرة وإنما اتخذوها كالاعتذار مثل
قولهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦].

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا يطلب منهم إزالة غضب الله عليهم
وإرضاءه بالتوبة والإيمان كما كان يطلب منهم في الدنيا لأنه في الآخرة لا
يقبل منهم لأنها دار جزاء وليست دار عمل، ولأنهم لو فعلوا ذلك فعلوه
اضطراراً لمشاهدتهم القيامة فلا ينفعهم لأن الله تعالى لو شاء أن يؤمنوا
اضطراراً لا اضطرهم في الدنيا بحيث لا يكفروا كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا
لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣].

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَيْنَ جِثَّتْهُمْ بَيَاةٌ
لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾ كلهم ﴿فِي
هَذَا الْقُرْآنِ﴾ الذي هو أعظم حجة ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ حجة بالغة وحكمة
جامعة وقد سمى الله ما احتج به الكافر مثلاً فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا
وَنَسِيَ خَلْقَهُ قُلْ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] فالمثل ما استعمل لينطبق
على أفراد متماثلة يستعمل في كل منها ومنه أمثال العرب لكلماتهم المتداولة
بينهم مثل قولهم المرء بأصغريه لسانه وجنانه وقولهم القتل أنقى للقتل، وليس
خاصاً بالتشبيه وكذلك ما هو حجة وما هو موعظة قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَلَعْنَا
شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا وَرَأَى
الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنْهُمْ مَوَاقِعُهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا
الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤-٥٢].

يَعْلَمُونَ ﴿٥١﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٥٢﴾

وقال تعالى في تسمية الحجة مثلاً: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَإْسِ ظَهِيرًا وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٨] وقال تعالى في الموعظة: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ بمعنى من كل حجة، وكل موعظة، ولذلك عقبه بقوله تعالى: ﴿وَلِّينَ جِئْتُهُمْ بِبَيِّنَاتٍ﴾ فالهدى في القرآن بما فيه من الحجج والمواعظ يكفي عن الآيات التي يقترحها الكافرون وعن المزيد من الآيات على ما قد جاء فيه، ﴿وَلِّينَ جِئْتُهُمْ﴾ أي هؤلاء المكذبين لئن جئتهم ﴿بِبَيِّنَاتٍ﴾ زائدة عما قد جاء في القرآن أو كما يقترحون ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وكذبوا بهذا القرآن ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي لا تنفع عندهم الآيات ولو جئتهم بأي آية لاستمروا على كفرهم فقالوا بالحصص والقصر إن أنتم إلا مبطلون، لستم بمحققين في شيء مما أنتم عليه، وذلك لأنهم يقولون ما شاءوا لا يحجزهم إيمان ولا دين.

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كما أنهم لا يؤمنون بل يبالغون في التكذيب إن جئتهم بآية لأنهم قد طبع على قلوبهم بسبب عنادهم واعتمادهم على هوى أنفسهم وظنهم وإعراضهم عن قبول الحق الواضح كذلك يطبع الله على قلوبهم وقلوب أمثالهم حتى أنهم لا يؤمنون، ولو جئتهم بكل آية وذلك لأنهم لا يريدون إلا ما تهواه أنفسهم فاستحقوا الخذلان وإرسال الشياطين عليهم فما بقي في إيمانهم مطمع لك يا رسول الله.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾
 ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا رسول الله على تكذيبهم وعنادهم حتى يأذن الله لك بهجرتهم
 وتركهم وحتى يأذن بقتالهم ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ﴾ لا يخرجوك عن الصبر
 والثبات والحكمة واتباع العقل بأن يملوك على تركهم قبل أن يؤذن لك في
 الهجرة، وقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ فقد وعد بإظهار دينه على الدين كله،
 وكذلك وعد بالآخرة وثوابك على الطاعة والصبر وعقاب المكذبين لك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ فكل من لا يوقن
 بالثواب والعقاب لا يخشى عقوبة الجرائم ولا يبالى بالظلم والأذى للرسول
 ﷺ وإنما يصلح الإنسان يقينه بالجزاء يوم القيامة، ولكن عليك أن تصبر
 لحكم ربك ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩].

تم بحمد الله تفسير (سورة الروم)



فهرس تقريبي لأهم المسائل والمواضيع التي تضمنها هذا المجلد

م	الموضوع	اسم السورة	رقم الآية
١	تفسير اقليمدد بسبب إلى السماء	الحج	١٥
٢	شروط النصر	الحج	٤٠
٣	الفرق بين النبي والرسول	الحج	٥٢
٤	معنى إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته	الحج	٥٢
٥	رد الإمام القاسم بن محمد على رواية الغرانيق	الحج	٥٢
٦	ثمان آيات متوالية ختمت كل منها باسمين من أسماء الله الحسنی	الحج	٦٥
٧	بيان مهم حول المتعة	المؤمنون	٧-٥
٨	حكم من يسهر الليل فتفوته صلاة الفجر	المؤمنون	٩
٩	فائدة زيت الزيتون	المؤمنون	٢٠
١٠	تفسير وإن هذه أمتكم أمة واحدة	المؤمنون	٥٢
١١	رسائل المحافظة على العفاف	النور	٣٣
١٢	تفسير الله نور السماوات والأرض	النور	٢٥
١٣	لفتة لطيفة في معنى إقامة الصلاة	النور	٣٦-٣٧
١٤	الطير تسبح الله بالمقال	النور	٤١
١٥	وصف جهنم بالفيظ يدل على حياتها ونطقها	الفرقان	١١ - ١٤
١٦	الدليل على أن الجهاد بالحجة جهاد في سبيل الله	الفرقان	٥١-٥٢
١٧	قول الناصر والمنصور بالله إن التوبة ترد ما بطل من العمل	الفرقان	٧٠
١٨	الراجح في معنى إقامة الصلاة	الزمل	٣
١٩	من لا يحذر الآخرة غير مؤمن	الزمل	٤-٥
٢٠	لا يقال عن الله تكلم بصيغة تفعل بل بدون تاء	الزمل	٨-٩

م	الموضوع	اسم السورة	رقم الآية
٢١	معنى تعليم منطق الطير	النمل	١٦
٢٢	«وجعلنا في ذريته النبوة» رد على الإنكار المطلق للعنصر	العنكبوت	٢٧
٢٣	كون الجهاد حقيقة في القتال مجازاً في غيره	العنكبوت	٦٩
٢٤	معنى «ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله» استدلال قوي	الروم	٥
٢٥	أسباب النصر مأخوذة من القرآن	الروم	٤٧
٢٦	معنى «الذين أوتوا العلم»	الروم	٥٦

محتويات الجزء الخامس

رقم السورة	السورة المفسرة	الصفحات
		من إلى
٢٢	سورة الحج	٥ ٧٤
٢٣	سورة المؤمنون	٧٥ ١٢٤
٢٤	سورة النور	١٢٥ ١٨٦
٢٥	سورة الفرقان	١٨٧ ٢٣٢
٢٦	سورة الشعراء	٢٣٣ ٣٠٤
٢٧	سورة النمل	٣٠٥ ٣٦٤
٢٨	سورة القصص	٣٦٥ ٤٢٨
٢٩	سورة العنكبوت	٤٢٩ ٤٧٤
٣٠	سورة الروم	٤٧٥ ٥٢١
فهرس بأهم المواضيع والمسائل		٥٢٢ ٥٢٣
فهرس بمحتويات المجلد		٥٢٣

